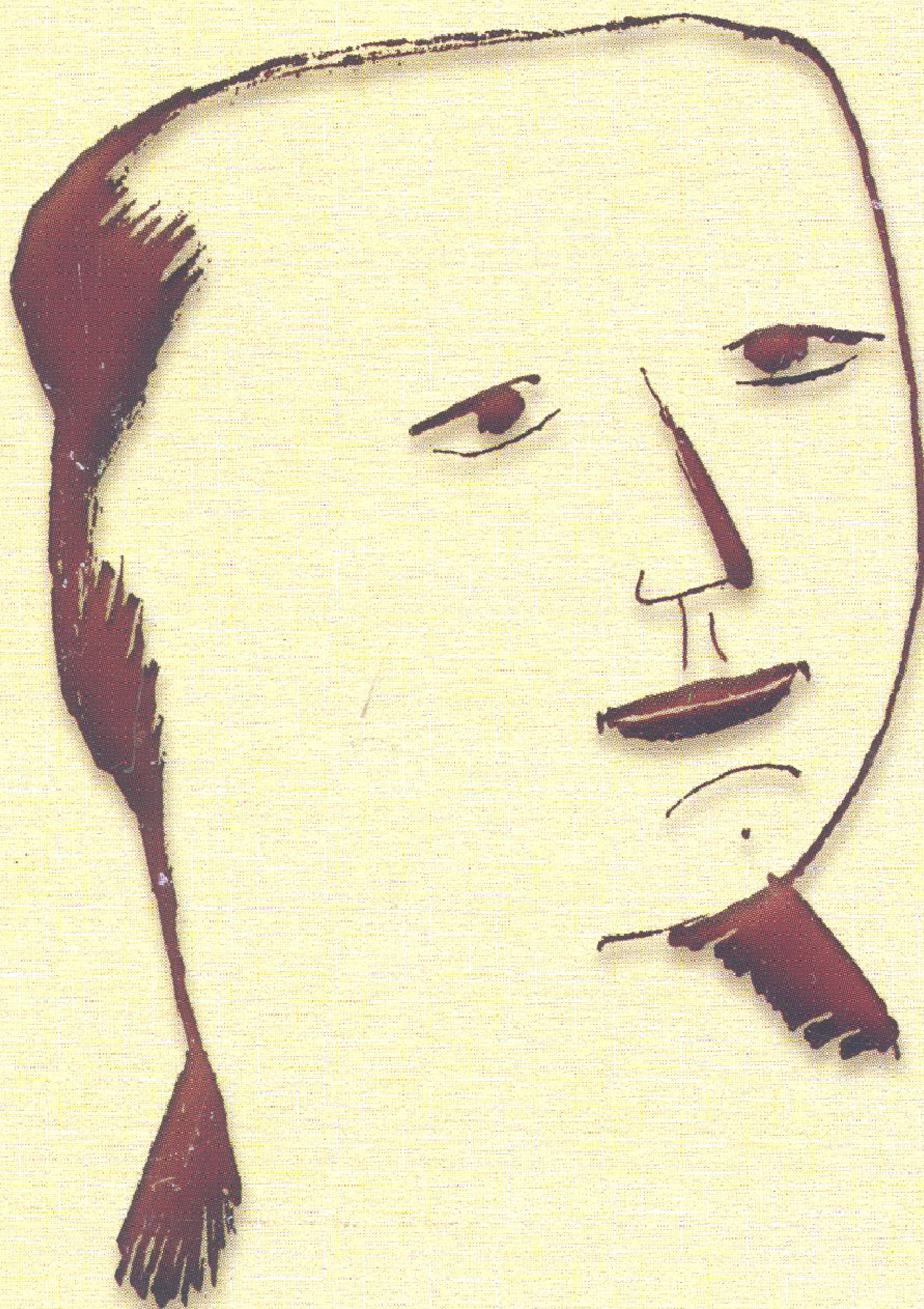
جائزة الدولة التقديرية

٢٠٠٢

علاء الديب



٦ روايات قصيرة



٦ روايات قصيرة

علاء الديب

المجلس الأعلى للثقافة

اسم الكتاب : ٦ روايات قصيرة

اسم المؤلف : علاء الديب

الطبعـــة : الأولى - القاهرة ٢٠٠٣م .

حقوق الطبع والنشر محفوظة للمجلس الأعلى للثقافة

شارع الجبلاية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة ت ٧٣٥٢٣٩٦ فاكس ٧٣٥٨٠٨٤

El-Gabalaya St., Opera House, El-Gezira, Cairo

Tel. : 7352396 Fax : 7358084 .

جائزة الدولة التقديرية
٢٠٠٢

علاء الديب

٦ روايات قصيرة

القاهرة — أطفال بلا دموع

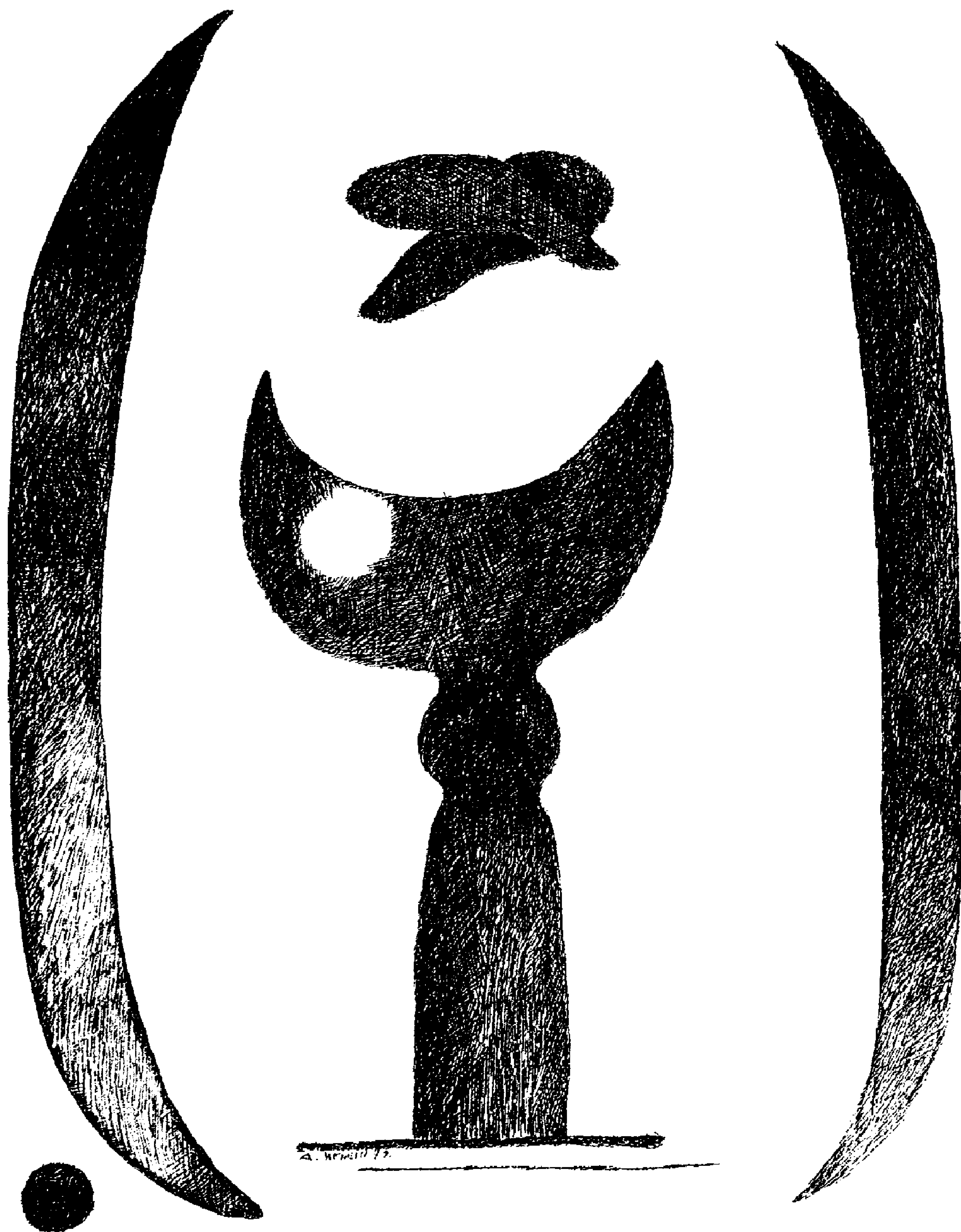
زهر الليمون — قمر على المستنقع

أيام وردية — عيون البنفسج

اللوحات : للفنان آدم حنين



٢٠٠٣



تصدير

أستند على كلمة قالها الدكتور شكرى عياد معقبًا على بعض ما كتبت ، قال إن الكاتب مهتم باللحظة . فعلاً أنا مهتم دائمًا باللحظة محير أمامها ، فى الحياة وفى الشكل الروائى ، اللحظة واتصال اللحظة باللحظة . فيها السر كله . كما أن هناك لحظة روائية كاملة موجودة فى مكان ما .

أتردد كثيرًا أمام أى حديث أو تفسير للعملية الفنية الأدبية ، فهى عملية غامضة جميلة مقدسة كما هى . أخشى عليها من الحديث عنها .

اخترت الرواية القصيرة لأننى أتمنى أن أقنع القارئ بأن يسمع كلامى كله مرة واحدة ، فى جلسة واحدة . لم أتردد أمام ما اقتضاه هذا من تكثيف للغة ، فما زلت أحلم أن يلاقينى الشعر فى آخر العمر .

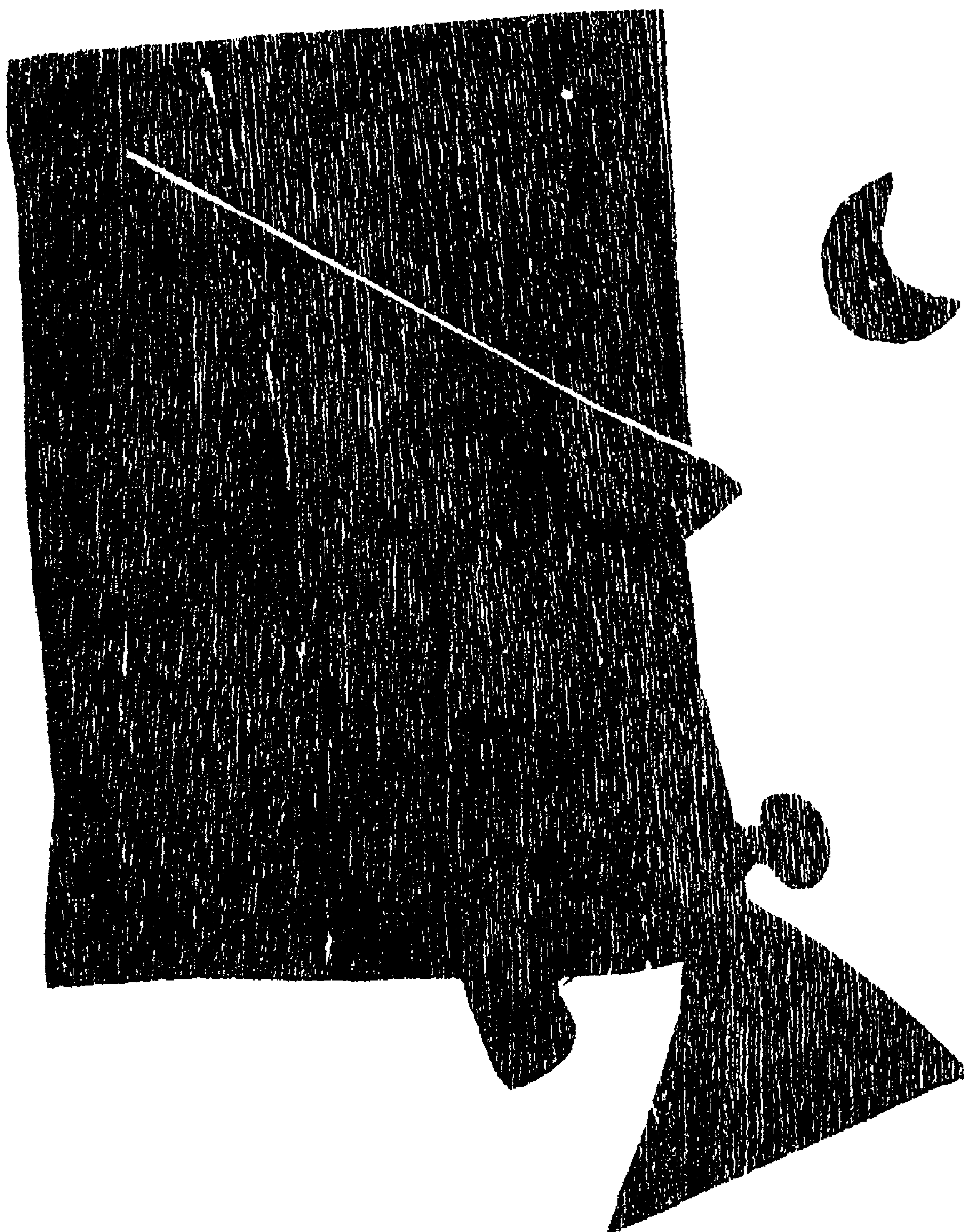
دفعنى إلى نشر هذه الروايات القصيرة هنا مرتبة فى هذا السياق أنها نشرت من قبل متفرقة فى مجلات أو فى طبعات متباعدة .

يبقى السؤال المحض عن الجدوى.جدوى هذه المحاولة التى استغرقت العمر كله ، فى الظرف الإنسانى والاجتماعى والاقتصادى الذى أعيشه ويعيشه العرب جميعًا ، اختلط عندى الخاص بالعام اختلاطًا لا مهرب منه . فى الثلاث روايات الأول تسيطر على الأفق كله فاجعتين لم تفلح مباهج الدنيا كلها فى أن تجعلنى أفارقها أو تفارقنى للحظة واحدة : الهزيمة العربية الكبرى فى ١٩٦٧ ، واندحار الاشتراكية فى الداخل والخارج وما مثله هذا من دمار فى قيم العمل والعدل والكرامة الإنسانية .

الثلاث روايات التالية تسيطر عليها تجربة الذهب الأسود ، النفط الذى دخلت أمواله إلى حياتنا المصرية فى وقت حرج ففعلت بها الأفاعيل .

أنت أمام ست محاولات ، لكتابة ست لحظات روائية تحاول إلقاء بعض الضوء على تجربة إنسانية . لو كان الضوء قليلاً أو شاحبًا ، فذلك يرجع إلى أن تجربة الكاتب نفسها محاصرة ... محاصرة ككل الوطن .

القاهرة



-١-

شوارع المنطقة المحيطة بباب اللوق خالية ، مبانى الحكومة على الجانبين مغلقة ونوافذها ذات القضبان الحديدية كبيرة وعالية ، على جانبى الشوارع أشجار متباعدة ومنسقة فى عناية ، صوت القطار السريع الداوى يقطع صمت المكان للحظات ولكنه لا يوقظ فيه شيئًا ، فيمضى تاركًا الجو الغريب الساكن يسقط على المكان مرة أخرى .

شوارع خالية مهجورة ، بعد خروج الموظفين . يمر فيها راكب دراجة مسرع ، ورجل عجوز يلتصق بالحائط ويغطى رأسه بجرنال . وفتى وفتاة لا يباليان بالشمس فتلمع ملابسهما الزاهية تحتها .

دخل فتحى شوارع هذه المنطقة وبدأ يشعر أنه قد ارتاح من وهج المدينة . هذه الشوارع تبدو وكأنها معسكر مبنى للأجانب كل الضغط والتوتر الذى أحسه فى جسده طوال الطريق من الدقى إلى هنا بدأ يزول . تأكل هذا التوتر خطواته الوحيدة التى يختلط فيها العزم والتردد ، وينضح اضطرابه فى حبات عرق رفيعة تملأ جبهته وظهره . ثم تلفح وجهه نسمات حارة فيشعر أنه بعيد عن الواقع أو أنه قد خرج منه ليدخل إلى عالمه هو .

منذ أكثر من ساعة غادر مكتبه فى المتحف الزراعى بالدقى اختلط بالأفواج التى تقف على الباب وعلى محطة الأتوبيس وتكلم مع بعض زملائه بصوت عال وهم يقفون على المحطة ، وأمامهم الشارع يملؤه صراخ العربات . عيونه تحدق فى باعة الليمون والباغة الذين يتقافزون تحت الشمس أمام الأتوبيسات وخلفها ، اعتراه فجأة شىء ثقيل ملأ أذنيه وأحس به ينتشر فى رأسه كأنه الخدر . شىء يقوده بعيدًا عن القطيع ، ليصبح وحيدًا ، ويستحيل كل هذا الزحام والهرج إلى ضغط هين يحسه على جسده وعلى أعضائه .

تحسس القميص البنى الكبير الذى يتدلى فوق بطنه المتكورة الصغيرة . وسوى شعيرات رأسه الصلعاء وتأكد إحساسه بأنه قصير . يداه تتدليان إلى جانب جسده ، قصيرتين خاليتين من الشعر ، تتحركان فى عصبية وكفه فى النهاية كبير وبليد .

ينحشر فى الأتوبيس . وسط الأجساد والعيون ، يشم رائحة عرقه الخاص . وعرق الناس . يتجنب جسد فتاة . يحس به . يستسلم للزحام يسنده ويقيمه . يعبر الأتوبيس على الكوبرى . يدخل الميدان . يتساقط كثير من الركاب . صراخهم يجرح . الهواء الساخن . القاهرة . إعلانات نيون مطفأة بلا لون . الشمس فى وسط الميدان ، لا شىء يربطه بكل هذا القطيع .. خطوات الناس سريعة وملتهبة فوق الأسفلت الأسود .

هو ليس فى القطيع . إنه يبتعد ويغرق فى نفسه .

ينزوى فى الشوارع الجانبية هاربًا .. ممتلئًا بالعزم والتردد واثقًا من نفسه ، يكاد يقتله الجزع مبتعدا عن الحياة ، قاصدا إلى مركزها .

فى آخر هذه الشوارع ، فى الشارع الذى يطل على السكة الحديد ، فى الدور السادس ، فى الدور الأخير من عمارة قديمة . "تنتظره" عقيلة .. إنه ذاهب إليها ، جسدها فى رأسه ، ورائحتها ، والحبة الكبيرة التى نبتت فى بطنها كل هذا يثيره ويغضبه .

وصل إلى باب من الحديد الأسود والزجاج ، علقت فوقه يافطة زرقاء جديدة كتب عليها بالأبيض ٩ .المدخل رطب ومظلم . دكة البواب مقلوبة . الأسانسير الصغير يحدث أصواتًا غريبة وعالية ، والدور السادس بعيد ، وجهه فى المرآة كبير ومعتم ، وعليه صفرة ، وعيونه جاحظة حولها دائرة من سواد .

علت ضربات قلبه ، وارتاب فى نفسه وهو يدير المفتاح فى القفل خلف الباب ضعفه ونعيمه ، حدود ما يسقط عنده . البغى التى يحبسها . عقيلة .

ودخل .

الصالة مضيئة ، المكان له رائحة . الشمس تملؤه وبعض الذباب ، الكراسى قديمة ، استعملت . كانت معروضة يوم ما على رصيف الشارع . عقيلة ليست فى الصالة . أنا قصير . المفتاح . هى فى الحمام . ثيابها ملقاة على الأرض فى غرفة النوم . ملابس داخلية . سيكون رطبًا . هناك سوف أرتاح . عندها .

– عقيلة .

زام صوتها فى الحمام ، وتحرك هو فى الصالة . أسد محبوس سوف يجعل القديم جديدًا ، اليوم سوف يشعل هذا الجسد . جسدها . سوف يضربها . منتهى القسوة . ستقع من السرير ، الحائط اليوم سوف ينكسر . كل شىء ينكسب أمامه هنا فى الظهر ، أنا وعقيلة سوف نحترق هنا فوق السرير . كل شىء سوف يحترق . الزحام والأتوبيسات والشوارع .. وكل شىء .جسدها القديم . قربة الماء . اطار الكوتش . أريده . مع صوت عال اندفع فى الحمام ، ظهرت عقيلة فى الصالة . وقفت أمامه مترددة ، كان جوعانا ، مد يده ، ذراعيه وفمه ، لم يكن يدرى أى شىء يريد . يقبلها . أم يمسك بصدرها . تقف أمامه ساكنة مستسلمة حتى يهدأ . السخونة تتسلق جسده . هى تريد أن تتكلم . عيونه وهى فى يديه كانت تدور على الكراسى . والنوافذ المفتوحة ، بقايا الطعام على المائدة ، جسده المستسلم ثقيل ، عبء هو الآخر . جحر مغلق بلا أبواب ولا مسارب . وجهها المنتفخ الثقيل بين يديه ، أخرس . معدن بلا رنين .

أين يذهب الفرح ، كيف يذوب ، ليس من أجل هذا يؤجر الناس الشقق ، ويصادقون البغايا لابد وأن هناك منفذًا ، شيء ما ، شيء ما يمكن أن يفعله .

ابتسمت في وجهه ابتسامة بلهاء مكررة ، شاهدها ألف مرة ، ابتسامة تذوب على وجهها قبل أن تصل إليه ، وقالت :

– تعال جوه .

استلقى على السرير ، الملاءة متسخة ، الحجرة يملؤها شرد النهار ، القطار يمر ، صوته عال ومخيف . يقطع أوصاله . الشهوة تغطيه وتنحسر عنه . أمواج بحر راكد . الحر في رأسه ، الزحام . ابتسامتها تتوتر وتختفي . الذباب حولهم . إنه في الخامسة والثلاثين . أنوار تضيء في منتصف النهار ، شاحبة وبلا معنى . ماذا يفعل هنا .

لو دخل عليه المدير الآن . لوقف في منتصف الحجرة نصف عار هكذا ، مربوكًا ، وقال :

– أصل أنا أول البارح كنت ...

كل شيء بلا معنى ... هذا الذي أفكر فيه . ماذا أريد أن أقول ..

قال ، وهو يلتصق بها ويحاول أن يوقظ نفسه ويتنبه لما يحيط به .

– انتي خرجتي النهارده ؟

– رحت لخالتي ..

– ياه .. شبرا ؟!

– أيوه شبرا ..

التصق بها أكثر ، قال وهو يغلق عينيه ويضمها إليه فى محاولة نهائية وأخيرة :

- الأتوبيسات زحمة ...هه ؟!

- ٢ -

انتهى كل شىء فى لحظات . وشاهدته وهو يسقط فى مستنقع النوم الذى لا راحة فيه . نائم على جنبه ، مشدود وساقاه العاريتان يكسوهما العرق .

بدا البيت لها مكانًا غريبًا . لم تدر ماذا تفعل ؟ النور وشرد الشمس يملآن البيت . كل شىء مستقل فى ذاته يستعصى على الاندماج . وعليها هى أن تدور وسط هذه الأحجار . منكوشة الشعر ، عارية .

إنها الآن عارية ، هى أرادت أن تكون عارية . طوال حياتها كانت تريد أن تصبح عارية .. ولكن العرى ليس هذا ، هذا شىء مجرد عادى لا فرح فيه . أن تسير هكذا وسط الشقة ، وسط الضوء وفوق البلاط المغطى بالتراب معرضه جسدها لنظرات الأثاث القديم المهجور ، ولثقل الضوء الحاد الذى لا يرحم . هذا ليس عريًا . وهى لم تكن تريده .. الآن لم تعد تستطيع أن تريده أو تحتمله ، إنها بغى ، بغى ولكن فى الثلاثين .

توارت فى الحمام لتقف تحت الدش . كانت تريد أن يسقط عنها الماء شعورها الضعيف بالإثم والندم وأن يوقظ فيها أطماعها المتواضعة ونهمها الصغير ليؤنسا الوحشة التى تنتابها فى الظهر .

ليس هذا نصيبها . قطع الخبز المكسرة الملقاة فى آخر الصندوق . أهذا كل النصيب ؟

قميص نومها ، ملقى على المشجب ، إلى جوار غيار له قذر ، وتحتهما طشت قديم . بلاط الحمام قديم . ودهان الحائط مقشر ومتساقط ، وعلى حديد الشباك عنكبوت . أهذا كل ما هناك ؟

ليس فى البيت موسيقى ولا ضحك ، ليس هناك سوى هذا الرجل المتكور التعس . منظره لا يبعث على الفخر ، وامتلاكه نصر أقرب إلى الهزيمة ، هذا هو كل النصيب .

الماء يتساقط على جلدها السميك ، وجسدها المعتم يتحرك فى الحمام مكبوتًا يحاول التمرد وأصابع أقدامها ذات المونيكير القديم تتقلص على الأرض محاولة الاحتفاظ بشىء .

بغى فى الثلاثين . كل الحياة تبدو بعيدة . زوجها كان يضربها فى الحمام ويضحك . كان يريدها أمام الأولاد . يقول " ابعدى عنى إنتى نجاسة " ، ويبلع قطعة حشيش ويبكى . كان مخبولاً .

– أنت غبية يا عقيلة . غبية لكن جسمك حلو .

صوت الطالب الأشقر الأزرق العينين الذى قال هذه الكلمات ، لا يهدأ . إنها تصدقه ، أنها فعلاً غبية . كان أشقر وأزرق العينين وكان يشرب معها الشاى فى شقته التى فى الدقى . إنها غبية ، صوته لم يكن يخدعها ، لم يكن يسخر منها مثل الباقين ، وعندما سافر بكت . قال لها :

– خلى بالك من نفسك يا عقيلة لحسن إنتى غبية ، والناس حيكلوكى .

ماذا يأكلون ؟ حتى الأحلام راحت ولم يعد هناك مكان حتى للهزيمة . طشت قديم وبلاط وعنكبوت على حديد الشباك .

غبية وعارية وحمقاء . محبوسة هنا فى هذه الشقة . طاحونة قديمة تطحن بذورًا نيئة ، شقاؤها بلا معنى وليس له نهاية . تدور وراء فتحى ، وفتحى يدور وراءها ، النقود التى يعطيها لها ، مجيئة كل ظهر ، ذهابه ، الشقة الخربانة ، والأثاث القديم . ولدت حياتها ميتة ، تصاحب فى طريقها جثتها .

جسدها ميت يعيش إلى جوارها . تمد يدها لترتديه . لكنه يفر منها ليقف أمامها ويحدق فيها . الجسد الميت المكبوت الذى يحلم بالتمرد . أحلامه وردية وهو قاتم . يحن إلى النسيم ، وهو مبلل بالعرق والطين . يتوق أن يجرى من هنا .. ولكن فتحى يمسكه ، متسور عليه ، يضع عليه تعاسته وفقره ، ويلقى فوقه بنفسه المهزومة ، وثقله البارد المريض ضاغطًا على الأحلام قاتلاً كل شبهة للحرية .

بغى فى الثلاثين ، الماء يتساقط على الجسد ، الحبة التى فى البطن لا تزول . والصدر ساقط ، والحمام قديم .. ولكن ... ولكن .. دوامة صعبة تستعصى على الفهم تربطها بفتحى .

تشدها معه إلى القاع . شىء فى صمت العيون والجسد .

عندما يجهد التنفس ويمتلئ الجسم بالعرق .

عندما تطل نوافذ الشقة على الظلام ، وتستحيل رؤية المستقبل تشعر هى بأنها تحبه ، وأنه طفلها وأنها امرأته .

تروح الرؤيا وتجئ ، وتستمر حياتهما معًا ، تغطيها تفاصيل الواقع .

قشرة فوق جرح .

النفس تنزف .

الوحدة تتزايد والحلم يستعصى على التحقيق .

أتسلق ، فأقع ، فيغلفنى التراب .

كانت قد خرجت من الحمام ، وذهبت فى استسلام عادى لتصنع الشاى ، الذى سيشربانه معًا فى أكواب صغيرة إلى جوار النافذة التى تطل على أسطح العمارات .

- ٣ -

استيقظ ثقيلاً ، متعبًا ، يحمل فوق كتفيه عبء مبهم . جلس إلى جوار النافذة فجلست إلى جواره ، أكواب الشاى الصغيرة على الصينية القديمة بينهما تنفث بخارًا لا إغراء فيه. وفى نفسه توقع غامض للكلمات التى ستدور .

الشمس الغاربة تضرب الأعمدة وقطع الأخشاب التى تتناثر فوق أسطح العمارات .. فتلقى ظلالها لتبدو كأنها مدينة مهجورة معلقة فى الهواء .

سوف تتكلم ، أو ترشف الشاى ، أو تطلب منه بوجهها كلامًا ..

لم لا تراقب الشمس ؟ وهذا الخشب ، وأسطح العمارات . تعبير وجهها الذى يطلب دائمًا شيئًا لم لا يروح . التوقع القلق الذى تطلقه عليه لم لا يتوقف ؟

أنا أدفع كل ديونى . إيجار الشقة ، ومصروف البيت وجنيهات لها . لم لا تتركنى إذن . لم هذه البيضة التى تضعها تحتى . إذا وفيت بكل الديون والواجبات والالتزامات ألا يمكن أن تعيش .

حتى هنا فى هذه الشقة ، هذه العلبة التى يريد أن يغلق على نفسه فيها . كل الأشياء تتسرب . تدخل من الخروق . إنها علبة دودة القز . الخروق التى فيها للتنفس . ومن الخروق يتسرب كل شىء ، البيضة التى تحته ، ووجودها الثقيل . وصمتها الذى سينفجر .

تسرب بعض الأطفال فى العصر إلى الشوارع الخالية يلعبون ، بقع صغيرة من الملابس الملونة يراها فتحى تتقافز فى وسط الشارع الخالى ، من نافذته فى الدور السادس .

قمم الأشجار الصغيرة المقصوصة فى عناية تقاوم ، نسمات صيفية ضعيفة فتتحرك أوراقها حركة عصبية مبتورة متوقعة فى قلق وخوف لحظة الغروب .

الشارع فيما عدا الأشجار والأطفال القلائل خال لا تعبره فى فترة العصر هذه سوى عربات قلائل تمر متباعدة وبطيئة ، تحمل زوجات عجائز وسمينات ، يتنزهن فى عربات أزواجهن الذين ماتوا .

سيهبط الغروب على المدينة بعد قليل . سيخنق هذه البيوت العتيقة والشوارع الخالية . سيستمر يضغط على كل شىء فى رفق وإصرار حتى يلقى بنفسه فوق المدينة ، ثم يستريح ، عندئذ ستضاء المصابيح الكهربائية رايات للاستسلام ، وينتهى كل عذاب الاحتضار ..

كانت روح فتحى وعيونه معلقة على الشمس الغاربة .

يريد أن يمسك بخيط واحد يفهم به ما يدور حوله أو داخل نفسه . لكن كل شىء مختلط معًا ومتكور فى كرة ثقيلة تضغط على قلبه .. تجعله مشلولاً عاجزًا وعديم الحيلة . لم يكن يفهم أين هو من هذا العالم . ولا ماذا يريد ؟ اللحظة التى يعيشها الآن لا وزن لها ولا معنى . لا تصلح لأن تصبح ذكرى لأنها لاصقة بجلده وهو مستسلم لها ومهزوم .

أى كلمات تقال لا معنى لها ولا جرس . هو لن يقول . وهى لن تفهم . ستظل الكلمات مدفونة .. كبنات صغيرات تحت الرمل .

وعقيلة تنتظره . كلمات كثيرة معلقة فى فمها ، هى ليست مثله . إنها تستطيع أن تتكلم . والصمت ملك لها ، ولا يخيفها بل يطلق فيها رغبة لتحديه .

مالت عليه ، حاولت أن تمسك يده ، قالت :

– مالك .

سحب عيونه من فوق أسطح العمارات وقال :

– أبدًا .

كانت تسحبه إلى الداخل لتحبسه فى الحجرة . وهو يدخل فى استسلام وحزن . لم يكن فى استطاعته أن يتجنب شيئًا أن يهرب من شيء ، إنه يرى سطح حياته الراكد ممددًا أمامه إلى ما لا نهاية كذكرى صديق مات . ولكنه لا يقدر على التنبؤ بما سيحدث فى اللحظة التالية .

كان صوت القطار يدوى فى الخارج ويقطع عذاب الاحتضار ثم يعود الصمت يستنزف كل ما فى نفسه من قوة .

عيونها تحاول أن ترسم شيئًا مات . وعاطفة لم توجد . كانت تريد أن تتكلم معه . أن تضع ظهره إلى الحائط وتحاصره ليكلمها .

وفى كل نفسه لم يجد لها كلمة واحدة .

لو بحث أكثر فسوف يقع فى البئر .

لا شك أن الكلام فى هذا العصر الغارب أصعب من الجنس .

لو كان يرضيها أن يأخذها مرة أخرى للسرير لفعل . ولكنها تريد الكلام . تريد أن تبلل حياتها بلعاب فمها الغزير ، إنها لا تدرك النظافة التى يعنيها الجفاف .

ولا تدرك أنهما معًا مزروعان على أرض من الأسفلت وأن النمو مستحيل . تمد يدها وعيونها ، وجسدها يتثنى ، مليئًا بالرغبة فى شىء آخر . شىء حلمت به ولم تدركه ولم تعرف ما هو .

فجأة صرخت بصوت مشروخ ، عال :

– إنت عاوز منى إيه .. إنت عاوز تعمل فيه إيه ؟

صفعه السؤال . ما الذى يريده منها ولماذا يبقيها هنا ؟

– أنا كل اللى ليه شنطة وشوية هدوم . قول لى امشى وأنت مش راح تشوف وشى أبدًا . أنت بتعذبنى واللا بتعذب نفسك . محدش فى الدنيا دى بيغصب على حد .

أصبحت حركة مخه سريعة لا صوت لها ولا نتيجة ، تجهده وتقوده إلى الظلام . وصوت بكاؤها لا يقنع ولا يؤلم كأنه بيوت بلا أعمدة .

قالت :

– محدش بيغصب على حد . الدنيا واسعة ، والواحدة مش حتموت من الجوع .

أنا خلاص مش فاهمه حاجة ، احنا عايشين مع بعض ليه .

– علشان بنحب بعض .

– كان زمان أنت بتكرهنى ، بتكره تبص فى وشى .

– والله العظيم إنك عبيطه .

من أين يأتى هذا الكلام . إنه بعيد كل شىء بعيد ولا شىء هنا حقيقى .

ما هو على أية حال الشيء الذى يمكن أن يقوله لها . هل هو يحبها أو يكرهها . وما أهمية هذا لها أو لى . لا شيء . قليل من البراعة ويعبر هذه اللحظة الزلقة .

قام واقفا فى الصالة ، تحرك حولها حركة عصبية لا معنى لها . ضرب فخذيه وسوى شعيرات رأسه بيده . ثم ضمها إلى صدره .

– وحياة ربنا إنك عبيطه ، قومى يا شيخة قومى البسى وخلينا نخرج .

كانت الشمس فى الخارج قد مالت نهائيًا واختفت وراء أسطح العمارات وامتلأ الأفق بضوء أحمر باهت كأنها قديس يحتضر .

– ٤ –

فى الشوارع ذات النور الباهر ، أحست عقيلة أنها قد انتصرت عليه ، صدرها وقلبها يقفز بسعادة كأنها سمكة تعود إلى الماء . أنها تستطيع أن تضع يدها فى يده ، أن تعرض نفسها لعيون الناس ، وتدق بكعب حذائها وتلوى رقبتها علامة الفخر والانتصار .

وهو يلتصق بها ويبدو حذرًا رقيقًا يريد أن يخفيها ويختفى ، أن يذوب ، أن يسرع فى عمل شيء لا يدرى ماذا هو . وأن يتقن صنعه . هى التى تملك هذا الشارع . هو يسير على أرض غريبة ، مملوكة للأعداء ، وجوده الخارجي مهدد ، عيونه زائغة لا تستقر .

خطوات الناس سريعة إلى جواره تعبره بلا توقف وتخلفه هو يحاول أن يسير . الحركة حوله شديدة ، والحياة صاخبة ، الشبان والبنات . ليست له هذه المدينة : كل هذه الأشياء من حوله تجعله وحيدًا أكثر ، معزولاً أكثر .

– شوف ، بص .

وينظر ، وتدور أضواء ، وحدقة عينه المرهقة ترد له صورة كأنها عفريت . إنه لا يطمع فى أكثر من محل خال . إنه عجوز فى الرابعة ، الخامسة والثلاثين . موظف . وهذه المدينة ليست له .

فى شارع جانبى دفع فتحى بابًا زجاجيًا يقود إلى بار قديم . الموائد خشبية مربعة عليها مشمع أخضر وقديم . النور باهت والسقف عال ، المحل قد فقد عزًا قديمًا . والجرسونات بطيئة وقذرة .

نظر فتحى حوله وأحس أنه قد استراح من رحلة الشارع .

من خلف البار القديم ، فى نهاية المحل ، ابتسم جرسون وظهرت أسنانه الذهبية . جلس فتحى على المائدة المجاورة للباب . أمامه عقيله منتصبة وسعيدة تشعر بزهو أحمق .

بصق أحد الزبائن ، عجوز يقرأ الجرنال ، وقال بصوت عال :

– إزيك يا أستاذ فتحى . هات بيرة يا سيد .

التفت فتحى ناحيته ورفع يده دون أن يتكلم . مالت عليه عقيله . وهمست فى أذنه بشىء وضحكت . وابتسم هو وصفق بيده .

شيئًا فشيئًا سوف تهبط الأشياء داخله وتتراخى ، وهو ينتظر مقدم هذه الراحة فى ترقب قلق يكاد يبدو فى دقات قلبه . والبار صامت . لابد أنهم مبكرون . أقدام الزبائن التى تتحرك فوق القش المنثور ، تحدث فحيحًا كأنه صوت الثعابين .

العجوز يرفع الجرنال من أمام وجهه ويبصق على الأرض .

– عامل إيه يا أستاذ فتحى .

ورد فتحى دون أن يلتفت إليه :

- كويس إزيك إنته .

وعقيلة تبتسم ورقبتها تتحرك فى فخر كأنها عثرت على كل الحياة . ومالت بجسمها على الترابيزه .

- إنت عارف عمر ده مع مين دلوقت ، عارف البنت فريال . فريال الصغيرة ، اللى عامله شعرها ديل حصان .

- والتفت فتحى ناحية العجوز ، كانت ساقاه تبدوان فى آخر البنطلون رفيعتين وبياضهما ناصع .

-- فريال ؟! دى عندها ستاشر سنة .

- ستاشر إيه إنت راخر .

فى هذا البار عرف فتحى عقيله . فى هذا البار كل تاريخها وحياتهما معًا . بعد زجاجة أو اثنين من البيرة سوف تبدو الحياة بعيدة ، ولن يكون من الضرورى التفكير فيها . الرغبة القديمة التى كانت تحركه تتركه الآن ليراقب هذه الأشياء فى إهمال ، ونصف عين مغمضة ، كأن نصفه قد مات . لم يعد يعنيه من هذه الأشياء إلا أنه موجود فيها . إنه حقًا لا يريد شيئًا . ولكنها أشياء ضرورية لأنها موجودة . عقيله ، والبار ، والشقة وهو .

فتح باب البار ودخلت فريال . وسارت بخطوات سريعة نحو مائدة الرجل العجوز وجلست فى حزم ، وحماس . وفجأة تغير شكل العجوز أصبح فرحًا ، طفلاً ، كأنه يريد أن يقفز وصاح فى فتحى مرة ثالثة :

- أزيك يا أستاذ فتحى .

كان فى صوته هذه المرة فرح يكاد ينفجر عنه جسده العجوز النحيل . ونظرت فريال ناحية فتحى مبتسمة فى سخرية . وبعد لحظات كانت تعبر المحل خارجة وخلفها العجوز يكاد يقفز فى مشيته ملوحًا بالجرنال المطوى فى يده .

كانت عقيله تضغط على قدم فتحى تحت المائدة . ووجهها الكبير قد تدلى فى إهمال ، ورائحتها تختلط برائحة البيرة فى أنفه . وعينه معلقة على صورة قديمة لمنظر أوربى وبقية الزبائن فى الأركان . الجرسونات لا تزال تقف إلى جوار الجدران تراقب المحل فى تراخ . المروحة الكبيرة فى السقف تدور . وأمسكت عقيلة بيده :

– عن أذنك يا روحى دقيقة واحدة .

وأحس بشىء مائع ينكسب فى حلقه ، راقبها وهى تسير فى المحل ، الفستان الذى يتدلى على جسمها فى فقر ، وكعب حذائها القديم ، وهزة مفتعلة فى ردفيها .

« أى فأر قذر ، إنك حيوان » . صعدت هذه الكلمات إلى رأسه كأنها بخار ساخن . فبلع ريقه وقرر ألا يفكر . عادت عيونه تلتقى بالصورة المعلقة ، كان فيها بقرة كبيرة ترعى فى سهل أخضر أمام بيت يتصاعد من مدخنته دخان أبيض .

« ماذا يفعل عمر العجوز مع هذه الفتاة الصغيرة . فأر قذر » .

« قطع عليه تفكيره بائع السميط الذى حياه فى أدب وابتعد » .

« جسد عقيلة أصبح إطار كوتش مخروقًا . إنها لم تعد تصلح للمغامرات القديمة . فى جسدها ، لا مكان لها الآن . مثل هذا البار . حتى الخيار الذى يقدمونه هنا شائخ وكله بذور » .

إن التفكير فى عقيلة أصبح ينتهى الآن دائمًا بالرغبة فى التخلص منها . ينتهى بأن يرى نفسه حرًا من جديد أن يعود إلى هذا البار بدونها ، أن يراها تجلس بعيدًا على مائدة أخرى ، وألا تميل على مائدته لتهمس فى أذنه بأشياء . ولكن حريته كانت تبدو كحلم مستحيل . كيف ؟ وشقته فى باب اللوق كشعيرات لاصقة تحت أبطه . كغبار قذر ملتصق بجلده أيام الوحدة والارهاق التى سعى فيها إلى عقيلة وضمها إليه . هذه الأيام تعود عليه الآن كأنها مرض مزمن . لقد أصبح اثنين دون أن يدرى . أصبحت عقيلة ظله الثقيل دون أن يدرى . وجهها مرآته .

فى الظهر كان يتمرغ معها على السرير . وكان جسدها لا يزال جديدًا . كان يرهق رجولته ، ويمتلئ جسده بالعرق ، وكانت هى تضحك فى الحجرة ، وتصرخ ، وتجرى فى الشقة ويجرى وراءها . ولم يكن يشعر أن هناك شيئًا ينقصه .

وفى الليل كان يهرب منها . لم يكن يعود معها أبدًا إلى الشقة فى الليل ، ففى الليل شىء يخيفه من جسدها . أنه يريد أن يرى جسدها أن يتصل بها فى النور . ففى الليل تمتلئ نفسه بخوف أصم . يسكن فى داخله ويجعله يشعر بأن النهاية قريبة ، كان يأتى إلى البار معها إذا أصرت ، ثم يأخذها إلى الشقة ويتسلق المدينة حيث يسكن هناك بعيدًا فى طرفها الآخر .

عادت عقيلة لتجلس أمامه وتبتسم . وعندما رأى وجهها وأحس برائحتها تملأ أنفه مرة أخرى ، أحس لأول مرة فى هذا اليوم أن فى هذه المرأة قدره ومصيره . إن هناك شيئًا غامضًا بعيدًا يربطهما معًا .

إن الهروب منها مستحيل .

– ٥ –

بقى فى البار ثلاثة زبائن يعقدون صفقات صعبة مع بعض البغايا . ودب فى الجرسونات نشاط أخير ، وأطفئ النور الكبير فى البار . الليل يتقدم وعلى فتحى أن يواجه التحول الأخير فى النهار . دفع الحساب ، وعقيله وراءه . وخرجنا فى الشارع .

عندما جفف نسيم الليل عرقه ، أحس أن رأسه خفيف . وأن الصور التى يراها الآن صور من عالم غريب . الدكاكين مغلقة ، والأنوار فوق قمم المبانى تهتز ، وعربات الحنطور على النواصى تقف ملقية ظلها الثقيل تحتها .

قال لعقيلة :

– أنت كنت بتقولى أيه الضهر ؟

– امتى ؟

– بعد الضهر

– امتى ؟

ساعة ما كنا قاعدين جنب الشباك .

– باقول أيه .. على أيه ..

– علينا

– مش فاكره .

– كنتى بتقولى " الدنيا واسعة ، ومحدش بيغصب على حد "

– أنت بتفكر فى الكلام ده ليه دلوقتى .

– هو مش كلامك .

– أنا نسيته خلاص .

– كان حديثهما يرن فى الشوارع الخالية ، وأحس هو أن صوته غريب كأنه صوت شخص آخر . هذا الوجه ليس وجهه وهذه الحياة ليست حياته أحس أن صوته الذى يخرج من فمه مقاومة حمقاء لحياته المرسومة التى تسير ولن تتراجع ، فكف عن الحديث .

الليل الذى يحيط فتحى الآن يجعله وحيدًا جدًا ، وحزينًا جدًا . كل ما يريده ليس ملكه ، خطوات عقيلة إلى جواره تخنقه تدفعه إلى استسلام يريده ، ولا يقدر على غيره .

والقرآن الذى ينبعث من راديو مفتوح ويقرأ الترتيل يزفه إلى قبر لا يريد أن يلجه .

وصلا إلى باب العمارة ووقف على الباب مرهقًا يريد أن يهرب قالت عقيلة :

– تعال معايا .

– بلاش يا عقيلة النهارده ، أنا لازم أروح .

– شويه صغيرين .

– الدنيا وخرى ، وعندى شغل الصبح .

– عوزاك .

– بكره أشوفك .. الضهر .

– لا ، عاوزه أكلمك .

ركبا الاسانسير القديم ، ووصلا إلى الدور السادس . دخلا إلى الشقة المظلمة وجلس فتحي على المائدة في وسط الصالة .

دخلت عقيله إلى حجرة النوم وخلعت الفستان ورمت حذاءها وسط الحجرة .. كان فتحى يراقب حركاتها من خلال الباب .

ثم جاء صوتها رخوًا :

– حتزعل منى .. ؟!

– فى أيه ؟!

ألصقت وجهها بالمرآة ووضعت يدها فى شعرها الخشن ، وقالت وفمها ملتصق بالمرآة :

– أنا حامل يا فتحى منك .

– ٦ –

لم يدر فتحى كيف وصل إلى الشارع فى هذه الليلة . الحديث الذى دار بينه وبين عقيلة لا يذكر منه سوى كلمات قليلة .. كقطع مستديرة من العجين تطفو فوق زيت مغلى .

حدث كل شيء فجأة . حدث . دارت كلمات غريبة بلا جذور .. وابتسم . الهواء في الشقة يشح .. نار كاوية حرقت عينيه ومؤخرة رأسه . أعمى يتلمس طريقه إلى الخارج . لا يريد أن يصطدم في الكراسي والمقاعد . فقط ألا يحطم شيئًا .. أن يخرج من هنا ..

وجد نفسه في الخارج .. في الشوارع ذات الأنوار المتباعدة الشاحبة . عليه أن يذهب إلى البيت .. أن يعود في الغد إلى العمل ، أن يستمر كل شيء في حياته .

وأسرعت خطواته ، وأسرعت .. لم يكن يرى الشارع . ولم يكن يستطيع أن ينظر خلفه .. وأصبح في منتصف المدينة .

أحس أنه مطارد . يحمل شيئًا ثقيلاً مريبًا يريد أن يخفيه .

الشوارع خالية . لكنه خائف . شارع البواكي .. شارع محمد على . ميدان العتبة بلا زحام .

- أنا حامل يا فتحي .. منك .

ولم يقف ..

كانت أعمدة النور تلقي أمامه بظله ثم تسحبه ، خطواته تسير ، تطرق الأرصفة الخالية ، سيقان الأطفال العارية ، صناديق الزبالة المفتوحة ، قطط سوداء ، الفجيعة ساكنة ، نائمة ، ونوافذ كل المنازل مغلقة . امرأة عجوز تسعل وتتوارى خلف باب ، أنوار بائع الكباب ، هنا يعيش ، هكذا يذكر .. الأنوار توقظ الفجيعة . إنها حامل .

وقف فتحي أمام باب بيتهم الخشبي القديم ودفعه ليتسلق سلمًا مظلمًا .. من خلال زجاج باب الشقة رأى نورًا خافتًا في الصالة .

- مساء الخير .

وجاء صوت أخته من الحجرة البعيدة مقتضبًا :

- خير .

كانت جالسة إلى جوار سرير أخيه المريض . وفى يدها فستان قديم تعمل فيه الإبرة وعلى عيونها نظارة طبية مستديرة .

رفعت رأسها إليه لحظة ثم عادت إلى الفستان الذى فى يدها .

وتركته واقفًا على باب الغرفة لا يستطيع أن يتحرك . قال فى صوت هامس :

- فيه حاجة ، سهرانه ليه !

رفعت عيونها من تحت النظارة وحدقت فيه وقالت :

- لا ، مافيش .

تقدم بخطوات حذرة إلى داخل الحجرة ليقترب من سرير أخيه أحمد ، عيون المريض مغلقة وفى وجهه شحوب وإرهاق .

وقطرات من العرق الرفيع لا تزال تملأ جبهته ورقبته . وجسده يبدو تحت الملاءة البيضاء هزيلاً ونحيفًا ..

- هو تعب انهارده ؟!

- أيوه كان تعبان ، أنت كنت فين ؟ كان بيسأل عليك ..

جلس فتحى على سرير أخيه .. أحس أن كل جسده يتحلل ويكاد يسقط . إنه مرهق متعب . ويريد أن يغطس فى ماء معتم . يشعر بنظرات أخته المتهمة تجول فى أنحاء جسده الكبير تكاد تكشفه وتعريه .

وتقلب المريض فى فراشه ، فتح عينيه . عيونه واسعة وكبيرة مسحت وجه أخيه فى شوق ، ثم ابتسم . الأخت لا تزال تعمل فى الفستان . والابتسامة تضئ وجه المريض شيئًا فشيئًا .

فتحى يكاد أن يلقى بنفسه فوق صدره .

النور الوحيد فى الحجرة يضئ جانبًا من المخدة ، ورأس أحمد المريض واليدان الهزيلتان المليئتان بالعروق تعملان فى الفستان . والصمت المشحون معلق فى البيت القديم الملئ بأشباح الذكريات .

تحركت فتحية فى مقعدها وهى تقول :

– عاوز حاجة يا أحمد ؟

نظر إليها المريض بنفس الابتسامة ، فخرجت من الحجرة وتركتهما معًا .

أحس فتحى براحة وخوف . إن الحياة هنا تأخذ معنى آخر ، يريد أن يبوح بكل شىء . لأنه متعب ومرهق ، وابتسامة أحمد لا تنطفئ .. مريض منذ عام كامل وابتسامته لا تنطفئ .. تضئ مثل هذه اللمبة .. مد أحمد يده إلى فتحى وسأله :

– أخبارك أيه ؟

ليته لا يسأل . يعذبنى . رأسى فارغ . كل شىء هنا يذوب . فى حجرته لا مكان لى . إننى أحبه . كادت دموعه أن تخنقه . ولكنه قال :

– أخبار أيه .. هو أنا عندى أخبار .. كله زى ما هو .. الشارع زى ما هو ، والدنيا كلها زى ما هى .

كان يريد أن يقول شيئًا آخر . شيئًا هامًا وحقيقيًا . ولكن كل ما فى وسعه يستعصى على الإدراك المنطوق .

هنا يصبح الحنين أكبر والشوق أكبر . الشوق للمجهول الرائع المختفى وراء التعبير عن النفس .. وراء التلاقى . وراء الحرية التى يمنحها الصدق .. والفرح الذى تجلبه الحقيقة . لماذا لا يقول إنه عاجز وأنه مسكين ومصاب . وأنه لم يعد يدرى ماذا يفعل ؟

إنه يبتسم وأنا أحمل كل هذه القذارة . الجنين الذى فى بطنها ينتفخ فى رأسى . وجسدى يحمل رائحتها .

– أنت عارف يا فتحى أنا بافكر فى أيه طول النهار ؟ أول ما أخف راح نروح أنا وأنت إسكندرية .. لا ، مرسى مطروح .. ونقعد على طرابيزه . ونشوف الشمس وهى نازله الميه .. ونقعد نتكلم ونتكلم وبعدين نمشى على الرمل . وتقعد أنت تكلمنى عن الفراش الملون.. فاكر الرحله اللى طلعناها سوا فى البحر الأحمر ، كنت أنا أيامها فى سنة أولى حقوق ، كنت أنت بتحضر الرسالة بتاعة آخر السنة .. جمعنا يومها أكثر من ٤٠٠ فراشة .. فتحية بتقول إنهم لسه فى الأوده بتاعتك . عاوز أشوفهم .. ابقى جيبهم الصبح هنا . أنا باحب الألوان قوى . مش لاقى حاجة حواليه فيها ألوان .

كان صدره يرتفع وينخفض بسرعة وهو يتكلم . ووجهه يبدو عليه الإرهاق . الروماتيزم قد أصبح نشيطًا جدًا يرتقى إلى صدره فى سرعة ولم يستطع فتحى أن يوقفه عن الحديث .

– تعرف يا فتحى ، أنا عارف أن مافيش حاجة حتحصل ليه أبدًا وأنت معايا . أما بتكون هنا بأحس أنك بتحمينى . فتحيه بتعمل كل حاجة أحسن منك صحيح ، لكن أنت بتحمينى . باحس إنى مطمئن وأنت هنا .

– حاجة أيه يا واد أنت ، أنت بتخرف والا أيه . اوعى يا واد تكون سخن .

– وضحكا .

– ومد يده ليضعها على جبهة أخيه .. أنه يريد أن يضمه ، وأن يقبله ، ولكنه لن يقدر على سد فيضان المشاعر الذى ستطلقه حركة كهذه . قام فتحى واقفًا وقال :

– عاوزين ننام بقى الساعة واحدة

– انطفأت الابتسامة من وجه أحمد ، كأن لعبة تسحب من يده .

ولكنه استسلم وأغلق عينيه .

سار فتحى إلى حجرته وأغلق على نفسه الباب . كانت أكوام علب الزجاج الصغيرة التى تحتوى على الفراش مكومة على ترابيزه كبيرة فى طرف الحجرة مغطاة كلها بالتراب . خلع ملابسه . وألقى بنفسه على السرير . بعد لحظات أحس بالباب يفتح فى هدوء وفتحيه تدخل .

فتحى ، أخوك تعبان قوى .. الدكتور لازم يشوفه بكره .

– إن شاء الله

– من ساعة ما جيت أنا من الشغل ، وهو مش قادر يتنفس ، وشه ساعة العصر كان أزرق . أنت مش تخليك معانا الأيام دى ..

– حاضر يا فتحية .. سيبينى دلوقت بقى أنا عاوز أنام .. أنا كمان تعبان .

– ٧ –

ثلاثة أيام وأنا خائفة . فرصة أخيرة هذه الأيام . فتحى آخر فرصة . بعدها البوليس والشارع والمستنقعات ، سلالم هذه العمارة تقود إلى النواصى ، فتحى . سوف .. أقتلك ، أنت الفرصة الأخيرة .

كانت عقيلة راقدة فى السرير . الساعة تقترب من العاشرة صباحًا . ملاءة السرير قذرة .. ولكنها لا تراها . إنها غارقة فى تفكير يشبه المخاط . لزج ولا ينتهى .. كان قميص نومها ينحسر عن فخذين أسمرين وجسد منهوك أصفر كأنه أرض المقابر .. راقدة فى وسط السرير تراقب الشمس وهى ترتفع فى السماء وتدفع بالذباب إلى داخل الحجرة فيطن حولها . وحول قشرة الموز الملقاة على الأرض .. وقد اسودت وتثنت أطرافها .

فتحى لم يأت إلى الشقة منذ تلك الليلة . ثلاثة أيام والشقة كأنها كوم من الحراب تجلس هى فوقه . شىء يشدها ويمنعها من الخروج . كأن على باب الشقة تقف كل المخاوف والأهوال . دودة تدخل شرنقة ضيقة شيئًا فشيئًا . الخيوط تلتف حولها . كأن ماردًا أسود يحيك حولها الخيوط .. يختلط الخوف بالحنين وينزف العرق .. والأحشاء ساخنة تتحرك .. من هو السجان ؟

من الذى يمنع بغيًا من أن تنزل إلى الشارع وتأكل فى حرية .

هذا الباب البنى اللون والقفل اللامع .. وهذا الجسد الخفيف المستباح الذى لا قيمة له . فى داخل الجسد جسد له نفس الخصال والقيمة . ابنى مثلى .

لا أملك سوى هذا الجسد الذى أسحبه ورائى .. لابد أن بعض الرجال يشتهون المرأة الحامل . لابد أن بعض الرجال يريدونه ، طالب مراهق .. أو موظف جبان ، أو كهل ذو جسد ميت وعقل طماع .. دائمًا سأجد من يريدنى .

الخروج مستحيل . الشقة ضيقة .. وفارغة .. أريد أن أختلط بهذا المكان . أن أدع التراب والقذارة تتكوم حولى .. فقط ألا أتركه ، هنا لى سرير . وتستطيع الشمس أن تدخل على الحجرة .. أما فى أى مكان آخر ؟!

دق جرس الباب ودخل الرجل الذى يحمل لها الثلج كل ضحى ، إنه يبتسم فى وجهها وهو لا يزال على الباب فى بلاهة وعبط وهى تضحك له ضحكة خرساء بلا معنى .

ويسرى الارتباك فى جسد الرجل .. وفى جسدها .. تذرع أقدامه الغليظة الحافية أرض الصالة فى طريقه إلى المطبخ .. ويضع الثلج فى الثلاجة ويعود إلى الصالة يقف أمام عقيلة للحظات يحدق فيها ، يستحلب الاشتهاء والحسرة ، جلبابه مبلل ، وذقنه نابته تنحسر ضحكته وتقف هى أمامه ، لحظة غامضة صعبة .. الرجل ينظر إليها فى غيبوبة وخوف ثم يبتسم ويسرع خارجًا من الشقة يدمدم ..

تقف وحيدة فى الشقة معلقة من رأسها .. لماذا يضحك لها ؟

ودمدمات الاشتهاء العاجز فى أذنها كطنين النحل .. لم لا يمد يده ويجذبها إلى جلبابه المبلول القذر . ويتمرغ معها على البلاط .. إنها هنا من أجل هذا .. وهو يعرف . البواب .. وأصحاب الشقق .. يقولون ..

ويفور رأسها الصغير ، وينقلب الإنفعال إلى قوة حارقة تحرق جسدها الجائع العاجز ، فتلقى بنفسها على السرير ، تأكل حياتها بضروس عقلها .. طاحونة كبيرة تطحن البذور النيئة .. جسد ضائع .. وشقاء بلا معنى ..

أى راحة يمنحها الشعور بالإثم وأى سعادة ، ولو انفتحت طاقة ودخل على نفسها شعور بالندم . يشرب القلب الندم . القلب العطشان سيشرب الندم فى نهم . قلب مهجور مشقق جاف ، ككعب فلاحة عجوز .

حتى الدمعتان الهزيلتان الضعيفتان يتجهان بسرعة فوق سطح الوجه الكالح ..

اللبؤة العجوز . من صنع لها القفص ؟ ثلاثون عامًا عمرها ، شيء خفيف بلا وزن .. الطفلة الصغيرة التى تربت فى اليتم فى حوارى شبرا .. أصبحت بغيًا وحيدة وحاملاً . كانت تلعب فوق أكوام التراب بعروسة من قماش وقش وخرز .. كل الرحلة الطويلة لا معنى لها . سطا لص وسرق المعنى من الحياة .

أين فتحى الآن ؟ إنه يغرق وحده .. لماذا لا نغرق معًا .. لو كان معى فسنغرق معًا فى اطمئنان وراحة .. سوف نهبط .. ونهبط معًا .. سأتعلق فى رقبته كطفلة ..

وتحسست بطنها .

إنه خائف .. جبان .. أنا أعرف هذا .. طوال عمره كان جبانًا .. الرجل الجبان لا ينام على جنب واحد .. يتقلب ، يدور يتلاشى فى الأغطية والسرير . ولكننى أحبه .. طفلى ، تعودت عليه .. الوغد رأسه الأصلع وعيونه المستديرة .

ووضعت عقيلة يدها على بطنها وحدقت فى الشباك المنير المفتوح ، الضوء حارق ، فكرت فى حديقة ، فى طفل .. فى كوب لبن .. فى فتحى .. فى عربة أطفال .

الشقة حولها قذرة .. فتحى غائب .. كل شىء مستحيل .. الأرض .. الأرض والتراب .. وكل شىء قائم ولا وجود له الشمس تكسو الحجرة .. والملاءة متسخة .. الطاحونة تدور .. تطحن البذور النيئة والهواء .. بائع الثلج الأبله . خائفة .. الجرس لم يدق ، المفتاح لن يدور .. لبؤة محبوسة ، الضحى .. الظهر .. العصر .. لبؤة محبوسة ..

شهر أغسطس .. الدنيا حر . الطفلة تلعب فى الحارة ، العروسة مكسورة . ذراعها مبتورة وخرزة عينها ساقطة .

– ٨ –

الغرفة التى فى نهاية الطرقة رطبة وتشبه التابوت .. يحتلها فتحى كمكتب له .. صغيرة ولكنها فى الدور الثالث .. تطل على حديقة المتحف الزراعى .

فتحى يغلق الباب ، ويبقى فى الحجرة ، العمل قليل ، قليل أو لا يكاد يوجد .. ورقة أو ورقتان . ويظل التابوت مغلقًا ..

لا يدخل الحجرة سوى رجل البوفيه والفراش وبعض الزوار ..

هنا يشربون القهوة .. قهوة البوفيه هنا ممتازة .. قهوة ذات وش وثقيلة والبن مضبوط .. أى فراغ ؟!

مجموعة من الدوسيهات التى لا تفتح .. تنظف كل أسبوع .

الفراش هو الذى ينظفها .. أسماء .. مقتنيات ، فهرسة ، أرشيف .. شىء ما لامعنى له .. الحياة هنا لونها بنى مثل لون الخشب .. المكتب كبير ونظيف وخالى ..

أنا وحدى الذى أتحرك ، الجنين فى التابوت .. أنا والمروحة نقطة ثابتة ، قمة الحركة ، الطاقة الكامنة والشىء الذى لا معنى له .. فى منتصف المروحة التى تدور . حدق فى المنتصف تمامًا .. وأسمع خطوات الزوار فى الطرقة ، صراخ التلاميذ ، الجرنال فارغ .. فنجان القهوة قاعه جاف .

أحمد أخى .. المريض .. عقيلة .. عقيلة السجن ، الجرنال فارغ .. فنجان القهوة قاعه جاف .. لوائح . عمليات التصدير الكبيرة التى تقوم بها أعظم المؤسسات .. أفخم المؤسسات .. لا مؤسسات .. نحن المؤسسات .. من هى المؤسسات .. أبعد المؤسسات .. من قال .. نحن نقول .. هم يقولون . ولكن أنا أقول .

فنجان القهوة قاعه جاف ، وبقية الماء فى الكوب ساخن .. المروحة تدور .. لا شىء يدور . النقطة ثابتة .. أنا مسجون .. عقيلة سجن . أحمد سجن . فتحية سجن .. إنها بلا روح .. ماتت .

أحمد يحبنى . عيونه تحبنى . تحب أخاه . يغسلنى يطهرنى ولكننى أتلوث .. الطفح . كهل عجوز ذو خمسة وثلاثين عامًا ..

لو أظل هنا فى التابوت .. لا باب ولا شباك .. هنا أمان .. قمم الأشجار .. من النافذة والحديقة أريد أن ...

خطوات الزوار فى المتحف .. وقاع فنجان القهوة جاف ومنتصف المروحة ثابت لا يدور .

أدور .. وأدور .. خطوات فى شارع بلا نهاية .. أظافر تتشبث بالحجر .. أنا عربة معطلة ... عربة ملقاة فى وسط الصحراء ..

أى طريق .. كلها طرق .. لا يهم .. هنا أو هناك سوف أعيش .. أنا دائمًا أعيش . القلب دائمًا يدفع دمًا فى العروق .. والصدر يرتفع وينخفض . والجنس يتسلق الظهر ويمتلك الرأس والجسد .. ماذا يهم .. عربة خربة ملقاة فى وسط الصحراء ..

وفى لمعة من لمعات الفكر تصور فتحى معنى الكرامة . معنى الكرامة أن يكون الإنسان ثقيلاً .. صخرًا .. ثابتًا فى الأرض ..

أنا لا أملك الكرامة ..

بدونها يصبح الإنسان خفيفًا .. تكنسه مقشة .. تراب أقدامه لا تمتلك الأرض .. ضئيل . صغير .. يوضع فى تابوت وينسى ..

الكرامة تبهر .. ولكن أنت يا فتحى بلا كرامة .. لم أعرفها .. لو كنت تعرف الكرامة لما حدث هذا كله . أنت يا فتحى لوح رفيع لا سمك له . سطح أملس ..

لم لا أسقط .. واسكت .. ما جدوى الحساب والفكر .

ما جدوى الحرص والعد والرؤيا . لم لا أسقط فى الحياة .. أليست بئرًا بلا قاع .. لم أدور حول البئر ولا أسقط .. لم أخشى القاع .. سوف أذهب إليه على أى حال ..

أنت قذر، فكن قذرًا .. لم لا تكون ؟

تحرك . السجن هنا . وهناك . لا مفر .. أنت ولدت له . كأنفك . كأذنك .

هذا هو منتهى القدرة ، وكل ما وصلت إليه الأحلام .. إنها النهاية ، السور الأسود الذى كنت تخشى الارتطام به ، إنه يقترب .. عشت طول حياتك والسجن قائم والعجز قائم . الأسوار هنا مغروزة فى اللحم .. نصف الأحلام فى الخارج ونصفها تمزق على السور الشائك .. نصف ما أريد هنا . والنصف الآخر أكله القطار السريع .. الفضيحة قادمة .. وكل التماثيل تتكسر .

-٩-

انفتح باب المكتب ودخلت عقيلة .. فستانها أحمر وخطوطه صفراء .. حدق فيها فتحى .. ووقف .. كان يشعر أنها طويلة تسد الباب .. تحرك نحوها فى تردد ..

فى نفس هذه اللحظة التى فتحت فيها عقيلة الباب ، كان أحمد المريض يشهق ووجهه شاحب ، ويد الطبيب البيضاء الباردة على صدره ، كانت أخته تقف إلى جوار السرير ناحلة ، صفراء ، ليس فى وجهها نور .

- النبض ضعيف قوى ، شوف الأطراف يا أنور .

- لمعت إبرة رقيقة فى يد التمرجى وأخذ يشك بها قدم المريض العارية ثم ينظر إلى الدكتور ويهز رأسه ، ساد الحجرة صمت .

– أنا كنت ضرورى حشوفك النهاردة .. كنت جى بعد الشغل .

ابتسمت عقيلة ابتسامة صفراء ، وسقطت على الكرسى الموضوع أمام المكتب .. سوف تبدأ معه مبارزة صغيرة .. يجب أن يكون كل شىء واضحًا. أن تسير نحوه فى خطوط مستقيمة .. أن تصوب كلماتها جيدًا .

– الثلاث أيام اللى فاتوا .. كانوا غصب عنى مكنتش عارف ! !

لم تكن قد تكلمت بعد .. ابتسامتها المعلقة كانت فقط ترتعش فى تهدج . كان من الممكن أن تنفرج هذه الابتسامة أما عن ضحكة أو عن صرخة عالية . وعين فتحى عليها خائف ومتردد ..

– أزيك يا فتحى ..

أشار الدكتور لشقيقة أحمد أن تخرج من الحجرة .. هز رأسه فتحركت فى بطء لتقف على باب الحجرة . كان شىء ما يجذبها إلى الداخل . والدكتور والتمرجى يتحركان حركات أتوماتيكية .. وغامضة ... فى الحجرة .. عيون المريض لا تزال مفتوحة .. وجهه الأبيض الذاهب يتلقى النور فى برود .. ولا مبالاة .. وعلى السرير مطارق من المطاط ، وقطع من النيكل الذى يلمع ..

بعد أن خرج فتحى فى الصباح تدهورت الأحوال بسرعة .. لم تكن الأخت قد خرجت بعد .. جاءت الأزمة كانت عنيفة .. كان أحمد ينادى على فتحى .. تنفسه المرتفع يختلط باسم أخيه الغائب .. استدعت الأخت الدكتور بسرعة .. كل شىء يحدث وفتحى غائب .

فتحى كان يجب أن يكون هنا ..

– أنت هربت منى ليه ؟!

تراجع فتحى فى الكرسى .. وحاول أن يتماسك ويدع السؤال يذوب أو يفقد بعضًا من حدته ..

– أنا مش هربان يا عقيلة ، أنا عارف إنك ضرورى حتفكرى كده .. أنا صحيح كنت مشغول ، كنت مش عارف أعمل حاجة .. ولكن مفكرتش فى حاجة غيرك ..

– أنا كنت عوزاك طول الوقت ده وأنا عوزاك . أنت فاكر أن الكلام اللى قلته ده كان سهل على .. أنا فكرت يا فتحى ، وفكرت ، فكرت قبل ما أقولك .. وفكرت النهاردة قبل ماجى .. لكن ما فيش فايده ! مافيش حل .. الحل الوحيد لينا إن احنا نتجوز ..

– طبعا يا عقيلة ، أنا عارف ده وبفكر فيه ..

– لا ، أنت بتفكر ازاى تخلص منه .

– نعم ؟ ..

– مبقاش فيه داعى أن حاجه تستخبه . الأدب والذوق بتاعك مبقاش نافع . احنا دلوقتى كده .. على المكشوف .

– إنتى بتقولى أيه ؟!

– شوف يا فتحى .. الكلام بتاع النهاردة عوزاه يكون آخر كلام .. مش عوزاه يكون زى كلام كل يوم ..

– كلام أيه .. إنتى غريبة قوى .. أيه اللى حصل ..

– اللى حصل أنى حامل .. فيه حاجة بتكبر فى بطنى .. ده اللى حصل . أنت طبعًا مش عارف أيه اللى حصل ؟!

كان صوتها يعلو وفتحى يتلفت حوله فتصدمه جدران الحجرة الصغيرة .. أشياء جديدة تأخذ طريقها للحدوث .. التصدع النهائى قد بدأ ولن يوقفه شىء الآن ..

كان يبدو أن هناك كلمات كثيرة محشودة على لسان الشاب الذى يحتضر . الرقاد الطويل والمرض وحتى لحظات الاحتضار هذه لم تستطع أن تطفئ جوعًا غريبًا للحياة . كان يريد أن يرى أشياء كثيرة . ولكنه يدرك الآن أنه لم يعد هناك وقت .. كل الوقت الذى بقى قد يكفى لكلمات قليلة يستطيع أن يفكر فيها ، وقد لا ينطقها ، من الممكن أن يجد الإنسان مهربًا .. كان من الممكن !! .

فكر المحتضر فى مجموعات الفراش الملون .. فى قطع صغيرة من الزجاج الملون .. فى تركيبات بارعة من الألوان الباهرة ثم أغلق عينيه فى اجهاد مفاجئ ..

– أظن أخوه لازم يكون موجود ، ممكن تدى التمرجى نمرة التليفون .

– من يوم ما عرفتك وأنا محبوسة فى الشقة .. ما عرفتش حد .. ما شفتش رجاله .. أنا عارفه ، أنا بقول الكلام ده عشان تعرف .. عشان ما تحاولش تفكر ..

– عقيلة .. أنا مش عاوز الكلام ده .. مش عاوز أسمع . احنا فى المكتب ..

– أنا عارفه إنك جبان ..

– أحس أن شيئًا يكسر فوق رأسه .. أن كل ضعفه وحياته الكريهة تهب عليه الآن لتتحداه .. الأشياء التى لم يقتنع أبدًا بأنه قادر على فعلها تصبح الآن بسيطة .. أن ينتحر ، أن يقتلها ، أن يطلق الغضب الذى لم يره أبدًا .. الغضب الذى لم يتفتح أبدًا فى صدره .. يراه الآن يكبر ويتلوى فى ذهنه .. كأنه دخان ساخن .

كان يريد أن يضربها .. أن يجرها من شعرها الأكرت فى طرقات المتحف وأن يدع الجميع يرون كل شىء .. التلاميذ والموظفون يصطفون على جوانب الطرقة ويصفقون .. ثم يخرج بها من المتحف ويتزوجها فى ميدان التحرير .

أن يطلق الآن صرخات يهدم بها معنى حياته ، يعطى الشمس التى تريد أن تغرب معنى قبل أن تموت ..

شىء ما ممكن أن يحدث فى هذه اللحظة فيكف عن التفكير .. أن ينطلق منه فعلاً فى هذه اللحظة فيعدل كل شىء .. أن يكف عن الحساب ، أن يكسر العادة التى يحيا بها .. وأن يصبح فجأة شخصًا آخر .

منذ أن عرف عقيلة وهو يشعر بأن هذه اللحظة ممكنة ، وبأنها قد تحدث .. اللحظة التى يصبح فيها محاصرًا وعليه أن يقفز السور .. كان يعلق على هذه اللحظة كل الآمال ..

وكان يخاف منها كل الخوف .. وها هى الآن تقترب .. وجه عقيلة تتلاشى ملامحه أمام عينيه .. ويصبح كأنه سراب عميق .. إنها تحدق فيه وتنتظر .. إلى الآن وكلماتها كانت حسنة التصويب .. ولكنها لن تستطيع أن تصبر أكثر من هذا . إنها تتحرق شوقًا إلى أن تعود إلى طبيعتها .. أن تبكى .. أن تكف عن التمثيل .. إنها ترى نفسها تبكى وتقبل حذاءه .. ولكنها تتماسك ، بعد لحظات قليلة قد يسفر الأمر عن نتيجة . قد يتغير وجه العالم وقد يتغير فتحى .

إنه الآن يغلى . وعليها أن تنتظر الانفجار .

ليس هناك من يدرى كم كانت خطواتها صعبة إلى هذا المكان .. ولا كم فكرت .. الذى كان يطمئنها أنها شعرت فجأة أن كل شىء مدبر ومرسوم . وإنها لا تملك إلا الاستسلام للأشياء التى يجب أن تحدث .. أحست أن عليها فقط

أن تضع الإطار السليم الذى سيقودها إلى الحالة الجديدة من الحياة المكتوبة لها .. فكفت عن التفكير ، وأصبحت تتصرف وكأنها تتعقب خطوات شخص مر من قبلها ..

ولكنها الآن مجهدة .. تريد أن تستسلم .. أن تجلس على رمل بارد .. وأن تترك كل شيء يحدث .. إنها تحب هذا الرجل المصدوم الذى يجلس حائرًا أمامها على الكرسى .

تريد أن تمد له أى يد .. أن تساعده بشيء ما .. إلا أنها لا تملك .

كل الذى يحدث حولها يجب أن يحدث حتى ولو أحست فى وسطه بالغربة فقط لو يكف هذا الغثيان الذى يصعد بسرعة الى رأسها ويدير الحجرة أمام عينيها ..

جلست فتحية على كرسى فى الصالة .. عيونها فى الأرض ، وباب حجرة أخيها مفتوح يتصاعد من داخلها صوت غريب كان الدكتور لا يزال واقفًا ، على وجهه ابتسامة لا تزول .

والصالة تبدو كأنها ميدان ينتظر حدوث المعركة . كل الأثاث حولهم منتصب متأهب .. والكلمات التى يريد أن ينطق بها الدكتور تبدو مستحيلة .. فعلى وجه فتحية يأس وحزن كأنه تلال من رمال ساكنة ، لا يتحرك فيها سوى أصابعها التى تقبض على بعضها فى عنف .. وتتحرك بين اللحظة والأخرى كأنها تطلق شيئًا محبوسًا .

قال الدكتور :

– أظن مكتب الأستاذ فتحى فى الدقى ؟!

– وهزت فتحية رأسها ، وعيونها ترى وجه الدكتور لأول مرة .. كانت عيونها تبحث عن شيء تتعلق به .. قالت :

– فيه ألم دلوقتى يا دكتور ؟!

وهز الدكتور رأسه دون أن ينطق .

كان هناك ألم كثير .. ولكن الحنان والشوق إلى الحياة يغلفه ويجعله بلا أهمية . المهم هو القطار الذى يهدد بالذهاب مسافرًا . يحمل معه كل شيء . إذا رحل هذا القطار فسوف يتجرد كل شيء من معناه ، سيصبح الممكن غير ممكن والذى كان سيحدث لن يحدث .. حتى الذى حدث سوف يزول .

وأحس المحتضر أنه مهدد بالفراغ فخرجت من صدره شهقة عالية كان صداها فى الصالة ارتعاشة انتابت جسد فتحية .

كان فتحى لا يزال واقفًا فى الشباك ، يطل على الحديقة الخضراء ذات الأشجار الكثيفة .. ويشعر بعيون عقيلة فى ظهره .. كان يقول لها دون أن ينظر إليها :

– أنا محبش حد يدفعنى على تصرفات .. أنا اللى اتصرف من يوم ما عرفتك ما قصرتش فى حقك .

– أنا عمرى ما طلبت منك حاجة فوق طاقتك ..عمرى ما جريت وراك ومسكتك .. اللى أنت عاوزه كان بيتعمل ..

– أنا مش فاهم .. مش عارف أمال إنتى خايفة وقلقانة ليه .

قد تستطيع مثل هذه الكلمات أن تخفى كل شىء ... أن تمحو من العلاقة كل الأشياء التى تسبب الخوف والقلق .

وأن تتركها مستقرة وواضحة . كانت عقيلة تريد أن تستسلم للمجرى الذى يريد أن يقودها فيه .. ولكنها تذكر جيدًا تهربه منها ونظرة القرف التى تكسو وجهه فى بعض الأحيان .. وقلقه ، ورغبته فى الخروج من الشقة .. والشىء الذى حاولت دائمًا أن تمسكه ولكنه كان يفلت منها . لم يعد هناك مكان للتراجع أو التنازل .. عليها أن تدعه يفرغ الآن أمامها كل شىء ..

– أنا خايفه لأنى عارفه أنك عاوز تهرب منى .. عاوز تتخلص منى .

التفت إليها بسرعة وعلى وجه انفعال مكبوت :

– إنتى عارفه كده ؟

– عارفه ، وحسه

وسكت فتحى . لم يجد شيئًا يقوله ..

– أنت عمرك ما حسيت بحاجة ، غرقان فى نفسك بس .. من أول ما عرفتك عاوزه أكلمك .. وأنت بتهرب منى عاوز أقولك أن فيه فى قلبى حاجة . أنى بنى آدم . عايش جنبك وأنت مش عاوز تحس .. أنت دلوقتى ماتقدرش ترمينى ، ولازم تسمع الكلام اللى أنا عاوزه أقوله . أنت دلوقتى بتاعى .

نظر إليها فتحى وهو يبتسم .. كان فى صوتها شىء طفلى غريب ، وأصبحت قريبة جدًا من البكاء وكأن كلماتها المتحسسة البلهاء قد ألقت ماء باردًا على كل شىء .

كان كل شيء قد انتهى عندما وصل فتحى إلى البيت .

الملاءة البيضاء تغطى وجه أخيه وأخته معلقة فى صدره يتحرك بها ، ولا يدرى أين يضعها ..

امتلأ البيت برجال غرباء . يتحركون ويحركون كل شيء .. وفتحى يتحدث معهم ، ويلقى بعض التعليمات .. والساعات تتقدم .. والموت يصبح قديمًا فى البيت .

لقد بكت عقيلة وهى تتركه على باب البيت . كانت تنتظر أن يتركها تصعد معه ولكنه لم يقل لها شيئًا .. نزل من التاكسى وقفز إلى السلالم ولم يقل لها شيئًا . تذكرها بعد مدة عندما رأى أن البيت قد امتلأ بالغرباء .. لقد أحس أنه يريد أن يرى وجهها بين هؤلاء ، بينهم قد تختفى .

كان التراب يغطيه وهو واقف فى وسط المقابر جسده مليئ بالعرق والمنديل الذى فى يده قد أصبح قذرًا ، الناس ينسحبون من حوله . ولا يلمح إلا وجه أخته يصفع عينيه باستمرار ، نظارتها الطبية وفستانها الأسود .

إنه .. هو وهى .. غرباء هنا . ليس هناك شيء يمكن أن يفعلوه .. اقتربت منه جماعة من النساء ترتدى ملابس سوداء وقالت إحداهن :

- الست فتحية أختك حتيجى معانا .. بلاش هى ترجع البيت .

وهز رأسه ، واختفى وجه أخته من أمام عينيه .

إنهم جميعًا يتركونه ، ولا يخلفون وراءهم إلا الغبار .. والشارع الذى عليه أن يسير فيه أجرد كله أحجار ، وفوق الحيشان المعتمة اللون بعض الرايات المصنوعة من قماش باهت وفى ساقيه إرهاق وتعب .

لأول مرة منذ مدة يشعر حقيقة أنه خارج المدينة .. أن كل القاهرة بالنسبة له الآن ذكرى بعيدة .. كأنه لم يوجد بها أبدًا ، كأنها حكاية قصها عليه أحد .

والظلام قد بدأ يملأ هذه الشوارع المهجورة التى يسير فيها ومنظر الحيشان عن يمينه ويساره متكرر لا معنى له .. يقوده فى النهاية إلى مقهى صغير يجلس فيه بعض البنائين والعمال ... جلس على كرسى ثقيل من القش والخشب .. أمامه منضدة رفيعة سطحها من النحاس اللامع . الأرض تحته ترابية مرشوشه يلتصق طينها بحذائه المغبر .

شرب زجاجة كوكاكولا نصف باردة .. وأحس أن كل شىء حوله غير حقيقى . وأنه فى ديكور مسرح خالى . عبرت أمامه قافلة صغيرة من الأطفال تصرخ وتضحك ، وتساقطوا إلى جوار القهوة يلعبون ..

أحس بحرارة غريبة تجتاح جسده المرهق ، وبأنه يريد أن يبكى .. لأول مرة فى هذا اليوم الطويل يشعر أنه قادر على البكاء .. وبأن البكاء سوف يغسل أشياء كثيرة ..

كان حديث العمال الذين يجلسون إلى جواره عاليًا .. ولم يكن يستطيع أن يتتبع أى جزء منه .. وقف واستعد للانصراف وهو يحدق فى المكان وكأنه يفارق بيته الذى لن يعود إليه إلى الأبد .. أحس أنه سيظل يذكر هذه القهوة طوال حياته .. وهذا الصف الصغير من الأطفال الذين كانوا يجرون ويصرخون أمامه .. وهذا الظلام الذى يسقط على المكان مختلطًا بالتراب ، وبحديث العمال الذى لم يفهم منه شيئًا .

فتحت له عقيلة الباب ووقفت فى منتصف الصالة لم تكن تدرى ماذا تقول .. لم يكن فى الشقة نور . أنوار الشارع والعمارات المجاورة تدخل من النوافذ

المفتوحة وتلقى أشباح ظلال غريبة تحت الأثاث .. قميص نوم عقيلة الأبيض ينبعث منه ومن جسدها رائحة الصابون . لقد خرجت من الحمام الآن .. ووقفت أمامه فى الصالة تنتظر ..

كانت تشعر بسعادة لا تستطيع التعبير عنها . وكان هو متعبًا .. يكاد يسقط من الاعياء .. لم تدر بينهما فى تلك الليلة كلمات كثيرة .. ولكنه بعد أن استلقى فى السرير وقد غسلت له جسده ، وامتلأ أنفه برائحة الصابون والنظافة .. رقدت هى إلى جواره ساكنة .. والنوافذ مفتوحة ، ولا ضوء فى الشقة قالت :

– تعرف أن دى أول ليلة تبات فيها معايا ..

– ١١ –

وفى الفجر عندما بدأت القطارات تتحرك ، استيقظت هى لتغلق النوافذ . مئات العصافير كانت تصرخ فوق شجرة كبيرة مجاورة ، والدخان يرتفع من فوق المدينة فى بطء لتبدو معالمها الكبيرة خارجة من وسط الضباب . نسيت عقيلة نفسها . واختفى كل شىء سوى هذا المنظر الذى تحدق فيه وكأنه يغسلها أحست بحنان وشوق لأن تقوم بأعمال صغيرة وجميلة .

كان كل شىء يرتفع عن حياتها مع هذا الدخان الذى يغادر أسطح العمارات . وفتحى الراقد فى السرير الآن ، تحيطه الملاءات البيضاء النظيفة ، أب لهذا الطفل الذى فى بطنها ، والحياة كلها تستعد لإستقبال شىء جديد .

عادت إلى السرير ولكنها لم تستطيع أن تنام . ظلت راقدة إلى جواره تنتظر الصباح وعندما فتح عينيه ، تمددت هى على صدره لتقبله . أحس بثقلها مريحًا دافئًا ، وذهنه على الوسادة صافيًا ، وبصعوبة أدرك أين هو . كانت عيناه

تستقبلان نور الصباح فى الحجرة المغلقة هادئًا ونظيفًا ، ورئتاه تتنفسان للمرة الأولى هواءً حرًا لا ثقل له . ولم يصدق أنه يريد بسرعة أشياء تثبت له أنه لا يزال حيًا ، وأن ما يحيط به حقيقة . كل الأحداث والمشاعر القديمة إلى يعرف بها نفسه تتراجع لتختفى فى البعيد كأنها استقرت على شاطئ مقابل لبحر عريض ، تاركة إياه غريبًا لا يدرك معالم نفسه . حتى لامست يده جسدها الدافئ فتأوهت وضمها إليه بسرعة ليخفى صوتها وجسدها داخل نفسه الكبيرة الخاوية ..

نظر فى عيونها ونظرت هى أيضًا . أحس كل منهما أنه قريب من الآخر وأنه طيب ومحبوب ، واستراحت الأذرع على الأجساد ، فأخذها إليه فى هدوء واستكانت هى . وقد تخلصت أخيرًا من ارهاق طويل وتوتر . لم يكن فتحى يشعر بحركات جسده ثقيلة متعمدة ولكنه كان مرتاحًا ، متوافقًا مع نفسه ، ذهنه يستيقظ شيئًا فشيئًا مع حركات جسدها وجسده . وذراعاه يضمانها إليه ، فيتلاشئ كل شىء حوله ليغرق فى سكون رحب .

قالت عقيلة فى لذة ونهم :

– أنت كنت فين يا فتحى ، كنت فين .. ؟!

لوى رقبته كأنه لا يريد أن يسمع . كان مشغولاً بالفراغ الذى يسقط فيه . محاولاً أن يبقى ذهنه بلا أفكار. ولم يجد شيئًا يقوله سوى اسمها .

– عقيلة .

عندما جلسا معًا على المائدة يتناولان الإفطار كان كل شىء حولهما صامتًا ، وعلى وجه عقيلة ابتسامة مترددة تريد أن تقول :

– احنا خلاص ، احنا نقدر نبتدى من جديد .

كل شيء فيها كان يريد أن يقول هذه الكلمة . السعادة القصيرة التى عرفتها فى هذه الليلة وهذا الصباح ، تملأ جسدها بشعور لم تعرفه من قبل . ولكنها سعادة خجول لا تملك التعبير عن نفسها . إنها تقف على شفتيها تستجدى شيئًا يقوله فتحى ..

لو تعرف الآن فى ماذا يفكر ، عندما كان جسده لصق جسدها . كانت تعرف أنه لا يفكر فى شيء . ولكنه الآن ، وهذه المائدة بينهما . تفصلهما مسافة ثقيلة صعبة .. يضيع فتحى ويتحول إلى شيء غامض لا تعرفه . شيء كثير . لا حدود له ، لا يمكن فهمه ، يقلقها فيم يفكر ؟

إنه ليس حزينًا فقط ولا ساكنًا فقط . هو حزين وشيء آخر ساكن وشيء آخر . يتناول الإفطار معها فى الصباح الباكر وشيء آخر ..

والشيء الآخر يجعلها تلهث . عيونه التى تثبت على وجهها ثم تنحدر إلى يديها وترتفع إلى صدرها .. فيها شيء آخر ..

كانت تحلم فى الصباح الباكر ، وهى تراقب العصافير فى الشجرة ، وتراقب المدينة تخرج من وسط ضباب الفجر ، بأن الشيء الآخر قد راح . قد دفن مع الأخ الذى مات . ولكنه الآن يعود يجلس معهما على الإفطار .

– عقيلة احنا حنتجوز بكره الصبح ..

– خبط بيده على الترابيزه وقام ..

– ظلت تحدق فيه ، واقفًا أمامها ، حتى راحت صورته من عينيها ، وامتلأت رأسها بدوامة فارغة .

- ١٢ -

استجمعت نفسها لتقف ، راحت تدور حول الترابيزة . كانت تلمس بيدها أثاث البيت القديم وتحدق فيه . ثم ازدادت حركتها سرعة وأصبحت أقرب إلى الرقص .

ألقت بنفسها على الكنبة ودفنت رأسها فى المخدة الصلبة ، وبكت .

بعد ساعة كانت تحشر نفسها فى زحام الأتوبيس الذاهب إلى شبرا . كانت تريد أن ترى خالتها العجوز .. شوارع شبرا فى هذه الفترة تبدو لها رائعة ، تقودها إلى الشارع ذى النور المعتم الذى لعبت فيه .. هنا استيقظ جسدها لأول مرة ..

تسكن فى الدور الثالث .. الترابزين قديم يهتز عندما تلمسه .. السلم المعتم والدرجات متآكلة .. باب الشقة مفتوح ... خالتها تشرب القهوة فى الصالة الخالية .. عيون المرأة العجوز حمراء وضيقة .. شعرها ذو الألوان الكثيرة يطل من تحت المنديل الأسود .. أمامها ترابيزة صغيرة ... ووابور سبرتو مشتعل ..

- إنتى فين يا عقيلة ؟

- أنا جيت لك أهو يا خالتى ..

- مش تسألى علىّ يا عقيلة ؟

- بسأل عنك يا خالتى .

- عامله أيه يا عقيلة ؟

- حاتجوز يا خالتى .

- امتى يا عقيلة ؟

- بكره ..

- ربنا يحيينا ويحييكى .

- بتقولى كده ليه يا خالتى ؟

- بأقول أيه يا بنتى .. بأقول ربنا يحيينا ويحييكى .

- عوزاكى تشوفى لى الفنجان يا خالتى .

- ما يجوزش .. إنتى بنت أختى .. وعينى تترد قبل ما تشوف سكتك .

- إنتى بتحبينى يا خالتى .

- الله أعلم .

- شلتى كتير عشانى ، يا خالتى

- إنتى كمان شلتى .

- شوفيلى الفنجال يا خالتى .

- والله يا بنتى ما أقدر .

- أنا خايفة يا خالتى .

- كلها سكة واحدة ، وإنتى لفيتى ودرتى واللى زيك ما يخافش .

- تعبانه يا خالتى وعاوزه أستريح .

- كلنا هنستريح .

- إنتى فرحانه لى يا خالتى .

- الله أعلم .

- قوليلى كلمة يا خالتى .

- الكلمة اتقالت يا عقيلة . بس خلى بالك من اللى فى بطنك .

- عينى عليه يا خالتى ، حيشوف السعد .. أبوه موظف قد الدنيا .

- الرك على الأم يا عقيلة

- أمه بتحبه يا خالتى .

- صغيرة يا عقيلة ، صغيرة ولسه ما شبعتيش يا خسارة ، قومى يا بنتى . قومى لحسن الدنيا حتتمسى .

- احنا لسه الضهر .

- المغرب قرب وأنا عاوزه أصلى

- مش عاوزة تكلمينى يا خالتى .

- إنتى طول عمرك صغيرة يا عقيلة ، صغيرة وعايشة فى دنيا واسعة .

- أدينى وصلت يا خالتى .

- الله أعلم .

كان الحديث قد أرهق عقيلة ، والمرأة العجوز لا تزال ثابتة فى مكانها ترشف القهوة . الصالة الخالية من الأثاث تمتلئ أمام عقيلة بأشباح رجال كثيرة تروح وتجئ فى نظام . أحست عقيلة بغثيان وبأن الجنين فى بطنها يتحرك .

– عاوزة أنام عندك يا خالتى .. تعبانه .

– قومى خشى الأوده اللى جوه .

قامت عقيلة لتدخل إلى حجرة واسعة كبيرة .. ليس فى الحجرة سوى سرير عال أعمدته سوداء .. تسلقت السرير وألقت بنفسها عليه .. نور الحجرة ضعيف ونداء الباعة يصعد من الشارع كأنه قادم من عالم آخر .. صوت نساء يتشاجرن فى النوافذ .. فى هذه الحجرة ماتت أم عقيلة ، كانت ترقد فى هذا السرير والدنيا عصر ، وكانت عقيلة فى الثامنة .

رأت عقيلة أن خالتها واقفة عند رأسها تحدق فيها :

– عقيلة مدام حتتجوزى بكره ادينى الكردان بتاع أمك .

– لا ..

– ادينى الكردان .. أمك قالت كده .

– كدابه .

– أمك قبل ما تموت قالت لى آخذ الكردان .

مدت العجوز يدها على صدر عقيله .. باليد الجافة المعروقة .. وقبضت عليها ، وتصارعت معها وانفجرت فى البكاء .

– سيبى الكردان .. سيبى الكردان .

هبت جالسة فى السرير ، لتجد أن الحجرة خالية ، وصوت خالتها فى الخارج يدمدم بالقرآن .. كان فى رأسها صداع وقلبها يدق فى جنون .

عندما غادرت عقيلة خالتها فى الغروب .. كانت الشوارع مظلمة ورطبة . وخيالها تحت الفوانيس الصغيرة يلقى على الأرض الترابية ظلاً كبيرًا ووحيدًا . أحست أنها تختنق فى هذه الحوارى .. وأنها تريد النور .. النور بسرعة .

– ١٣ –

البقية فى حياتك ، البركة فيك .

لم يربطه بكل هؤلاء الرجال فى يوم ما شىء .. كلهم يرون فيه شخصًا صامتًا ، ويتعالى عليهم بهذا الصمت والأدب أنه الآن يراقبهم يتحركون هذه الحركات الغريبة ، ويتدافعون إلى حجرته فى أفواج ، يملئون الحجرة الصغيرة للحظات بدخان سجائرهم الكثيف . ويرهقون أنفسهم من أجل شىء لا يدركه ولا يدركونه .. شىء يتبخر سريعًا مع الدخان ..

فى الساعة الثانية تخلص من آخرهم ، أكثرهم إصرارًا على الحزن كان يمسك بذراعه طول النهار ويلصق جسده البدين بجسده ولا يكف صوته الهامس المبحوح عن الفحيح فى أذنه بكلمات غامضة كأنها نداء جنسى .

بعد أن تخلص منه أحس أنه يريد أن يسير وحيدًا فى شوارع كبيرة خالية . أنه يريد أن يفكر فى عقيلة . فمنذ تلك اللحظة الغريبة التى كان يجلس فيها على المقهى الصغير المجاور للمقابر وأحس بالدفء يسرى فى جسده وتذكرها . واختلط الحب بالخوف بالشعور العام بالحياة فى بوتقه من الحنين والرغبة . منذ هذه اللحظة وهو يحملها فى ذهنه بصورة لم تحدث من قبل . ويختلط وجودها المستمر بصورة أخيه أحمد الذى مات . الذى يرقد الآن تحت تراب ناعم ورطب ، بذكرى عيون أحمد المريض التى تحبه وترقبه . كانت هذه الأشياء

تجرى فى ذهنه يراقبها ، وتدفعه دون أن يدرى إلى شعور غامر بالتعالى والوحدة وبأنه فوق كل الأشياء . شعور متكامل بالحرية ، بأنه عاصر كل هذه الأشياء وظل بعيدًا .

كان فى المقابر يفكر فى عقيلة . كان وهو نائم مع عقيلة يفكر فى جسد أخيه الميت ..

أحس أنه قادر وأنه يدق بحذائه على طريق لم يسر فيه أحد من قبل ..

زيارة أخيرة عليه أن يقوم بها قبل أن يصبح تمامًا ملك نفسه ، قبل أن يصبح حرًا حرية كاملة . دخل إلى شقة كبيرة بعد أن صعد سلمًا رخاميًا طويلاً . فى داخل الشقة كانت حركة النساء اللاتى يرتدين الأسود تبدو كأنها كواليس مسرح للرقص ، واخترق هو هذه الحركة ، فذابت النساء فى الحجرات ، بعد لحظات كانت الصالة خالية وغاص هو فى كرسى كبير من القماش . دخلت عليه أخته . رافعة .. نظارتها الطبية المستديرة تبتلع كل ملامح وجهها لتؤكد عينيها القويتين ..

ظلت واقفة أمامه . وهو جالس لا يتحرك .. يتأملها . كان وجهها يرتعش بكلمات مكبوتة .

فقال :

– إنتى عاوزه حاجة .. أنا جى علشان أشوفك ..

هزت رأسها ولم ترد ..

بعد لحظات من الصمت قالت له :

– لا ..

– رايحة البيت دلوقتى .

– لا

وانفجر صوت بكاء .

تقدم فى جلسته على الكرسى ، وأدارت ظهرها له ، أمسكها من كتفيها وأدارها نحوه ، إنها لا تستطيع أن توقظ فيه شيئًا أنه يفعل شيئًا يجب أن يفعله .

– خليكى عاقلة أمال ..

انسحبت منه ووقفت بعيدًا فى وسط الصالة المزدحمة بالأثاث .

– كان مالى علينا البيت .. أخويا .

– فتحية !! مش كده ..

– انزل يا فتحى .. انزل .. إنت بتفكرنى بيه .

إنها لا تستطيع أن توقظ فيه شيئًا .. ولا شعره واحدة .. حتى لو ضربته على وجهه الآن لما تأثر .

– دخلت امرأة عجوز سمينة وشعرها أبيض ، وقفت تنظر إلى فتحية وهى تبكى وقالت :

– مش كده يا أولاد ، مش كده ، أمال احنا مش عوزينكم تقعدوا مع بعض ليه .. الفراق صعب وإنتوا بتفكروا بعض بيه .. الله يرحموا .. ويصبركم .

– ليس بينه وبين أخته كلام يقال .. كل منهما يعيش على مستوى مختلف ، إنه لا يستطيع أن يعيش تلك الأحزان ولا أن يواسى فيها .. لأن له شيئه الخاص .. وهو الآن مشغول بنفسه إلى أقصى حد .

– اتجه ناحية الباب وقال :

– أنا بكره مش فى الشغل .. يمكن أمر عليكى العصر .. وخرج ..

– قالت له امرأة شابة تشحت :

– تسمح يا أفندى ..

– ولم يقف ..

فى لحظة الغروب كان على الكورنيش ولم ير شيئًا .. إنه سيتزوجها .. غدًا سيتزوجها فى ورقة .. يتزوجها وهو يكره هؤلاء جميعًا .. إنه يحب نفسه .. يكرههم .. وسوف ينتصر .. ويتزوجها .

عندما دخل بيتهم الخالى المعتم كان أثاث الصالة مبعثرًا فيه فى الظلام ، حجرة أحمد مغلقة .. فتحها .. فى وسط الحجرة لا شىء .. لا أثر .. لم يكن هناك أثر . النافذة ، الباب ، كل شىء مغلق يختنق . المرآة تلمع فى الظلام . يده تمتد إلى العتمة لا تقبض على شىء .

فتح باب حجرته وتساقطت علب الفراش الملون . الزجاج ينكسر على الأرض . حذاؤه يدوس على الزجاج فى الظلام .

الفراش الميت الملون ..

يجرى من الحجرة . من البيت . من الشارع ..

فتحى أين تذهب ؟!

ووقف ..

فى الساعة الثالثة ظهر اليوم التالى تزوج فتحى عقيلة ، جاء المأذون إلى الشقة .. ومعه اثنان يصلحان للشهادة . وتم الزواج . كان فتحى متجهمًا جادًا .

وعقيلة تحاول أن تبتسم . والمأذون وصبياه يتطلعون باستغراب إلى الجو المحيط بهم ..

فى أكواب عادية شرب الجميع ماء الشربات الفاتح ذا الطعم المائع وتقطع الحديث المفتعل الذى كان يدور بين المأذون . بارك لهما وعادت الشقة إلى الصمت من جديد .

دخلت عقيلة إلى حجرة النوم . وبقى فتحى فى الصالة . .

رقدت على السرير وأحست أن الدنيا حولها خالية . وفتحى لا يزال يتحرك فى الصالة يدخن سجائره فى عصبية ..

أغلق كل نوافذ البيت واحدة واحدة .. ثم دخل إلى الحجرة التى ترقد فيها عقيلة وأغلق خلفه الباب . واقترب منها وكانت تبتسم .. خطواته بطيئة وثقيلة ..

مال على السرير .. عقيلة تحدق فيه .. أمسك رقبتها بين يديه وخنقها ..

بعد لحظات كانت عقيلة جثة هامدة ..

فتح النافذة ، فوجد صفًا من العساكر يحاصر البيت .. أغلقها بسرعة وجلس فى الصالة . ويداه الكبيرتان على المائدة أمامه ..

الحياة انتهت بالنسبة له . انتهت وقد اختار هو النهاية هو الذى أحدث النهاية . حدق فى يديه وفكر فى أن هذا هو أكبر انتصار ..

النوافذ مغلقة ، والشقة رطبة ، وهو تحول إلى إله . بالفعل أصبح الإنسان إلهًا . هذا الذى حدث الآن شىء مهم . شىء حقيقى .. سيظل يضىء الطريق لكل من يأتى بعدى .

هنا انهزم الإنسان . هنا قتل . هنا اعتدى بيديه على الوجود .. هزيمته دليل على أنه بلغ القمة . هنا انكسر وعيه وسقطت عنه الرقابة . واتحد فكره بالعمل .. هنا كف فتحي عن العذاب ، وانكسرت قدرته على تحمل حياته .

أستطيع الآن أن أكلم الناس . من حقى الآن أن أتكلم ، وكلهم يقفون تحت النافذة ينتظرون تصريحات خطيرة منى .

أنا .. النبى .. القاتل .

ودقت أيد كثيرة على باب الشقة .

اقتحم البيت ضابط شاب يبتسم ويجرى فى الحجرات بخفة . ووضع يده على كتف فتحي وقال له :

– اتفضل معانا .

استولى البوليس على فتحي .. وسار معهم فى الشارع تحيطه دائرة من العساكر ..

امتلأ السلم المؤدى إلى الشقة بعشرات من الرجال والنساء أما الأسانسير فكان قد تعطل بأربعة من الصحفيين يحملون الكاميرات . ويصرخون على البواب . كان باب الشقة مفتوحًا وعليه يقف عسكرى عجوز لا يدرى ماذا يحدث حوله .. نساء العمارة خرجن بقمصان النوم ليقفن على السلم يحدقن فى الحركة فى بلاهة وخوف :

– وحش .

– اللهم احفظنا .

- أنا كنت عارفه ، شكله زى المجنون ..

والصحفيون يصرخون فى الأسانسير :

- .. يا ريس عايزين نصور

الساعة بقت سابعة والصور مش حاتلحق .

أحضر البواب العجوز مفتاحًا لباب الأسانسير ، وزحف الصحفيون على بطونهم ليخرجوا من الباب الذى يعلو الدور الذى تعطل فيه الأسانسير .. كانت أنوار السلم تطفأ وتضاء محدثة صوتًا عاليًا .. وطفل فى الدور الرابع محبوس فى شقة يصرخ وأمه تمنعه من الخروج .

أما عقيلة فكانت لا تزال كما هى .. راقدة فى الحجرة المظلمة . لا تتحرك . وجسدها البارد يتلقى أضواء الصحفيين اللامعة .

فى وسط الصالة كان وكيل النيابة يقف يملى على الكاتب كلامًا رتيبًا ومنسقًا . فى هذا المكان كان فتحى يقف منذ ربع ساعة . وكان يدور فى ذهنه كلام عنيف غير منسق . لقد رأى فتحى قبل أن يقتل وجهًا كبيرًا على قرص الشمس . كان قرص الشمس الغارب يمتلئ بهذا الوجه الأسود .. وأغلق فتحى النوافذ .

- تم جرد الأشياء الموجودة فى الشقة والتحرز عليها بمعرفتى أنا . وكمل أنت بقية الصيغة .

تلفت وكيل النيابة حوله .. وأمر بإخلاء الشقة .. وخرج .. خطواته سريعة . كأنه يهرب من شىء .

كان منظر الجثة بشعًا : الفم مفتوح ، وعلى الرقبة آثار المقاومة الشديدة . وآراء السكان المقيمين فى الشقق المجاورة كلها تؤدى إلى أن القاتل كان

مجنونًا .. وكان يتصرف دائمًا تصرفات تدعو إلى الريبة .. ومن المؤكد أن هناك أسرارا أخرى رهيبة سوف يكشف عنها التحقيق .

* * *

القسم هادى .. العسكرى رقم ١ يقف على الباب لا يتحرك ، فى الصالة فراغ كبير ودكة واحدة .. فى ركن على الأرض امرأة متكورة فى كرة سوداء . رائحة غريبة تملأ المكان كأنها رائحة دم جاف .

فتحى يجلس على الدكة وحيدًا . الجاكتة إلى جواره ويداه بين ساقيه يضمهما إلى بعض قيد حديدى .. اللمبة الكبيرة القريبة من مكتب الضابط تلقى الضوء فى بقعة واحدة وتترك بقية المكان فى نصف ظلام .

على وجه فتحى جمود وهدوء .

المكان يوحى بأن الجريمة قد ذابت .. واختلطت بكل الحياة ، ليس لها وجود فى مكان ما ، ولكنها موجودة فى ذرات كل شىء هنا .. ولذلك فالتفكير فيها مستحيل .

لا يقطع صمت القسم ، سوى سعال عال يطلقه الضابط وهو يشعل السيجارة تلو الأخرى ويلف الدخان حول اللمبة القريبة من مكتبه ..

لا يمكن لفتحى أن يتنبأ الآن بما سيحدث ؟!

إن كل شىء سيسير فى مجراه الطبيعى . لم تعد هناك مفاجآت . إنهم هم يتولون كل شىء الآن ، وليس عليه سوى الانتظار . وأحس بتكامل غريب ، وبأنه موجود لأول مرة فى مكان حقيقى جدًا . يفعل شيئًا حقيقيًا جدًا .

* * *

دخل إلى الشقة ثلاثة ممرضين كبار ، يرتدون ملابس ليست بيضاء تمامًا ، كانت أجسادهم كبيرة ، ووجوههم متشابهة .

وقفوا مع العسكرى الذى يحرس الشقة يتكلمون للحظات .. كان يبدو أنهم أصدقاء قدامى . أشعلوا سجائر .. وضحك أحدهم ضحكة عالية .

اقتحموا الشقة ، وفتحوا حجرة عقيلة . خرجوا بعد لحظات . يحملون الجثة ، كان السلم خاليًا وعربة المشرحة تنتظر على الباب .

اختفى الجميع داخلها ، وانطلق صوت العربة العالى .

إلى جوار عمود النور كان ثلاثة أولاد يقفون يراقبون العملية ، وانطلقوا يجرون خلف العربة .

* * *

دخل فتحى إلى حجرة كبيرة ، مفروشة بالسجاد ، الكراسى الجلد كبيرة . فى آخر الحجرة يجلس ضابط كبير .. كان يسير خلف فتحى الضابط الشاب المبتسم ..

قال صوت الضابط الكبير الذى يبدو هادئًا وعريضًا :

– أنت بتشتغل فين ؟!

أجاب فتحى فى صوت محدد :

– فى المتحف الزراعى .

لم يكن يبدو أن الضابط الكبير يريد معرفة شىء محدد ، ولكنه يتفرج على فتحى . فقط .

- عندك كام سنة ؟!

- ٣٦ سنة .

- معاك شهادة ايه ؟

- بكالوريوس زراعة .. !!

- يا خايب .. حد يعمل كده فى نفسه .

- ثم بدأ الضابط الكبير ، يكلم الضابط الصغير الذى جلس على أحد الكراسى . كانا يتكلمان عن فتحى وكأنه ليس موجودًا .. وهو واقف فى الحجرة .. أكثر ثقلاً وواقعية من أى شىء آخر .

* * *

فى هذه الليلة عندما دخل فتحى حجرة الحجز . كانت الشوارع فى الخارج خالية . لم يكن هناك كثير من المارة ، والعابرون يتحدثون فى بطء . والدكاكين مفتوحة يقف فيها الباعة صامتين محدقين فى لا شىء .

وفى الظلام أحس فتحى أنها ماتت .

كانت الحقيقية ثقيلة عليه وشخير الرجل الممدد على أرض الغرفة منتظم وعال ، فأسند فتحى رأسه إلى الجدار .. ونام .. تكلمت الصحف فى اليوم التالى ، واستمر النقاش أياما .

وحتى بعض المثقفين حاولوا مناقشة الجريمة فى جلساتهم الخاصة ، وفى المقاهى .

واختلفت تفسيرات الناس للجريمة ، ودخلت على الحكاية حوادث غريبة . وقال البعض أنه اكتشفت أن الجنين لم يكن منه .

ولكن رجلاً عجوزًا يرتدى نظارات وشعر رأسه أبيض جلس على مائدة فى إحدى المقاهى الأنيقة وقال لبعض الشبان الجالسين حوله :

– أنا أرى أن هذه جريمة خطيرة وأن لها دلالتها الاجتماعية .. والنفسية الخطيرة على أزمة بعض .. الـ ..

فقاطعه أحد الشبان :

– المهم هل نستطيع تصوير نفسية القاتل وقت ارتكاب الجريمة .

واستمر حديثهم حتى ذاب من تلقاء نفسه ، وأخذ أكثرهم يحدق فى فناجين القهوة الفارغة ، انزوت الجريمة ، ودخلت إلى صفحات الجرائد الداخلية . وتابع بعض المحررين النشطين أخبار فتحى فى السجن ، ونشرت إحدى الجرائد حديثًا مع أخته ، ونشروا صورتها فى الجريدة . وأهم ما قالته إنها لم تكن تعرف شيئًا عن حياة أخيها الخاصة .. وأنه يبتعد دائمًا عن جو العائلة .. وقال أحد رجال علم النفس أن فتحى يعانى من حالة انقسام فى الشخصية .

وبعد أسبوع كانت الجريمة قد نسيت تمامًا واختفت من المدينة .

كان الجرسون فى البار القديم الذى كان يرتاده فتحى وعقيلة يذكرهما كثيرًا . ولكنه لم يكن يتكلم عنهما مع أحد . فقد كان يكره أن يرى الناس يناقشون هذه الجريمة وهم مجهزون بآراء سابقة فى الموضوع . ولم يجد أبدًا من يشترك معه فى فحص القضية على المستوى الذى كان يريد هو ، فظل يذكرهم فقط فى ذهنه كلما ذهب ليقدم طلبات على المائدة التى اعتادوا الجلوس عليها .

- ١٥ -

لم يكن أحد يتوقع أن يلقى فتحى هذا الخطاب الطويل الذى ألقاه فى يوم المحاكمة . كانت الدنيا قد أصبحت شتاء والشمس تفرش حوش المحكمة الصغير ، والقاعة الصغيرة التى تشبه فصلاً من فصول المدارس مليئة على آخرها ..

كانت القضايا كثيرة فى جلسة اليوم والمحامون والشهود مشغولون جدًا فى ترتيب أعمالهم . والقاعة لا يسودها أبدًا الصمت الكامل المهيب الذى يتصور الناس أنه يصحب جو المحاكم ..

القضاة ثلاثة من الشبان ، لا تتجاوز أعمارهم الأربعين ، ملابسهم أنيقة . ولكن ليس فى وجوههم ذكاء ، يبدو كأنهم ينفذون تعاليمات دقيقة ومعقدة ..

وعلى الرغم من الجو فى الخارج كان دافئًا وجميلاً ، إلا أن جو المحكمة كان رطبًا وله رائحة مميزة وأرضها الخشبية مليئة بالطين الذى حملته أقدام الناس إلى داخل القاعة .

أما منظر فتحى داخل قفص الاتهام فكان غريبًا حقًا ، يحيطه بعض الفلاحين والصعايدة وهو فى وسطهم قصير ملئ . دقنه حليقة وبدلته تبدو نظيفة ومكوية ..

لم يكن يبدو أنه يرى شيئًا ، كان يحدق فى سقف المحكمة وكأن الكلام الذى يدور حوله لا يعنيه ولا يفهمه .

عندما بدءوا فى نظر القضية تكلم أشخاص كثيرون . كانوا كلهم غرباء . وأحس فتحى بأن كلماتهم لا تمت إلى الموضوع بصلة .

وهب فتحي واقفا فسكت الشهود والمحامون .. وأخذ يتكلم بسرعة والكلام يتدفق منه كأنه شيء يهدر .

قتلتها لأنني لم أكن أريد أن يكون لي ولد . لم أقتلها لأنها بغي . ليس لزحام الاتوبيسات علاقة ، وليست أعصابي هي السبب .

إن هناك طعمًا مائعًا ولزجًا يملأ فمي عندما أسمع حديث المدافعين والشهود .

ليس لموت أخي علاقة . إنه كان مريضًا . وكان حتمًا سيموت .. لست خياليًا ولا مثاليًا كما حاول البعض أن يصفني .. ودفاعي المكتوب لا معنى له . إن القضية منتهية بالنسبة لي .

لم أقتلها لأني أكره الوظيفة ، أو أكره القاهرة أو أكره كل الأشياء السمجة والسخيفة التي يتصورها البعض ، ويلقون بتصوراتهم السخيفة عليّ .. لم أقتلها لأنني أحس بأزمة اليمين أو اليسار .. ولم أقتلها لأنني أعاني أزمة في فهم الوجود . لم أكن أريد لابني أن يولد .

كنت أفكر وأنا أقتلها في أنني لست مسئولاً عن شيء ، أفكر في أنني عبد لسيد كتب كل الأقدار . في أنني مواطن مطيع مؤمن وبرئ قتلتها وأنا خائف . وضعيف .. وعاجز حتى عن تصور الأمل .

لم أدر كيف قتلتها .. لكنها ماتت .. وكان مذاق مر يملأ فمي .

تأكدت أنني لم أترك أثرًا .. أن حياتي لن تلوث الجيل القادم .. وأن الدنيا لن تشهد فتحي آخر .. وأحسست بعد ذلك براحة .

وأنتم تعرفون بعد ذلك سير التحقيق ، إن الذي أريد أن أقوله أنني أتهم نفسي .. وأتهم أشخاصًا آخرين .. ولكنني أنا وحدي الضحية .. بقية المتهمين هربوا .. بعضهم يجلس الآن مختفيًا خلف كراسي القضاه .

(تسرى فى القاعة همهمة ، وينبه رئيس الجلسة فتحى إلى أن كلامه غامض) ..

– هل يريد سيادة القاضى منى أن أعود لكى أوضح النقطة السالفة ، أم هل يفضل أن أنتقل إلى نقطة جديدة . (كان فى صوت فتحى تحد غريب) .

– والقاضى يهز رأسه ويستشير قاضى اليمين واليسار فى شكل تآمرى قلق ثم يقول :

– أرى من الأفضل الانتقال إلى نقطة جديدة ..

– إننى فى موقفى هذا أشفق أشد الإشفاق على حضرات القضاة .. فإن موقفهم غريب وليس فيه شىء مسلى . فإنهم حتى لو أصدروا حكمهم على بالموت فإنهم سيحققون لى بذلك أملاً مكنونًا ..

إن حكمهم الرادع القاسى لن يصيبنى بفزع ، فأنا أتوقعه وأرحب به .

ولا أملك إلا أن أعتذر عن أننى قد سلبتهم هذه المتعة .. لقد جعلت أنا القضية قضية خالية من الإثارة بترحيبى السخيف بالموت .

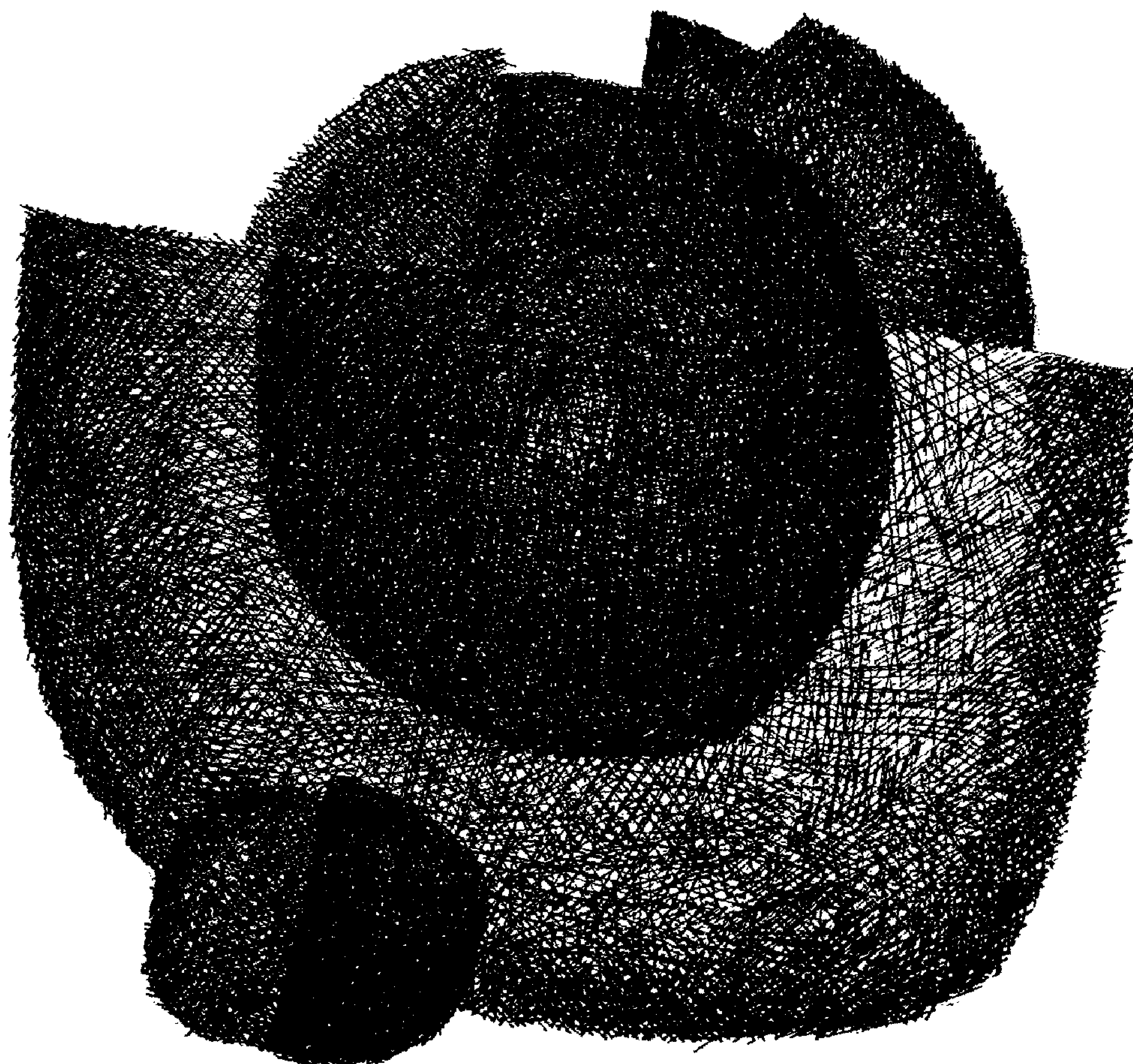
وأنا أكره أن أراها تستغرق وقتا من وقت المحكمة الثمين .. وإلى أن تصدر المحكمة حكمها أرجو الله أن ينعم علينا بالراحة .

وجلس .

" تمت "

« أكتوبر ١٩٦٤ »

زهـر الـلـيـمـون



- ١ -

أيقظه ضوء التاسعة صباحا . الذى يصبح حادا مزعجا فى الأدوار العليا من العمارات ، بعد أن يخترق النوافذ ذات الشيش الورقى الضعيف .

التاسعة صباح خميس . اليوم خميس وغدا جمعة ، ضوء صيف باتر ، سريع ، يلامس أطراف الأثاث القليل ويملأ فراغ الغرفة الخالية التى يسكنها عبد الخالق المسيرى فوق سطح بيت قديم فى السويس الساكنة .

محنة القيام من الفراش صارت مكررة ، معروفة الدروب والدوائر ، المد والجزر ، الرغبة والخوف من القيام والخوف والرغبة فى الرقاد . كل يوم تضاف تفاصيل جديدة . حسب الليلة الماضية واليوم المقبل . صارت الوحدة شرنقة كاملة الغزل ، غطاء سلحفاة عجوز ، الرأس يخرج ويدخل يرى الضوء ، يسمع الأصوات ، يلامس الناس والأشياء ثم تعود الرقبة البيضاء الرخوة إلى داخل غطاء السلحفاة القديم . الوحدة : وحدة عبد الخالق المسيرى الفريدة . وحدة المنفى ، والسجن . وحدة أمام حاضر غامض وعالم بعيد قديم كان .

اليوم خميس وغدا جمعة . اليوم يسافر إلى القاهرة . عادة شهرية غير منتظمة كعادة شهرية لامرأة تقارب سن اليأس ، عندما يسألونه فى القاهرة لماذا تأخر سيقول : العادة الشهرية قاربت الانقطاع . ويقهقهون . تغلب على محنة اليوم بالضحك فى سره ونفض الملاءة فى حماس لا يتعدى أرنبة أنفه .

أنا لا أنكش الماضى . هو الذى ينكش نفسه . هو الوحيد الذى يسكن معى هنا ، هو الوحيد الذى يدخل معى تحت غطاء السلحفاة بلا استئذان . تحت الجلد وفى العروق . لم يبتكر أحد بعد طريقة للخلاص من الماضى . فى وجهك وفى أطراف أصابعك . هو الذى ينكش نفسه ويفرض صحبته بلا استئذان .

سينزل من السرير بقدمه اليمنى ، عندما يفعل ذلك يكون لليوم طعم . مزدحم على الأقل ، أما القدم اليسرى فهى تفرض على اليوم الكآبة . عاود الابتسام وأصلح من بنطلون البيجامة القديم .

وضع إبريق الشاى وغسل وجهه جيدا بسرسوب الماء الرفيع الذى ينزل بصعوبة .

عاد يسأل نفسه : أى النافذتين أفتح : الكبيرة الغربية التى تطل على السطح ، أم العالية الصغيرة الشرقية التى تطل على الخليج وعلى جبل عتاقة . هو لا يرى المنظر إلا عندما يتسلق الكرسى لكى يفتح الشباك . يراه للحظات قصيرة ثم يهبط من على الكرسى فلا يرى شيئا . يظل المنظر فى خياله فقط . لا يرى منه سوى الضوء المنعكس على الجبل الداكن .

فتح النافذتين معا ، رغم تكرار المنظر فقد صدمه جمود الجبل وصموده . صامد ، لونه داكن قاتم ، مازال الليل يسكن فيه . لابد من عيون حية يقظة لكى تقتحمه وترى تضاريس الصخر والزمان فيه .

نافذة السطح الكبيرة ، تطل على سطح فقير أجرد تنبعث منه رائحة حرارة وغبار . وفى الأطراف مجموعة من صفائح وفخار مات الزرع فيها وجفت العيدان . باب غرفة أم يسرى جارته مغلق ، عليه حدوة حصان كبيرة ، ورسوم ملونة بالطباشير ، وبعد السطح على مدى البصر تربض المدينة ساكنة . أسطح قذرة ونوافذ مغلقة صماء .

عاد إلى غرفته ببصره ، وهو يقول : سأترك اليوم يمر ، سأنزلق على سطحه كما انزلقت بى أيام كثيرة . فى فمه طعم صابون رخيص ، يتأكد عندما يغيم النظر ، أو يبحث فى رأسه عن معنى مستحيل ، أو يجهد عين خياله بحثا عن منظر قديم لا يريد أن يعود .

فتح باب الغرفة أيضا . فتح كل ما يفتح ، وجلس على المنضدة الصغيرة وسط الحجرة ، تحيط رقبته الفوطة المبللة ، جرى بأصابعه على سطور الجريدة المفرودة على المنضدة وقال لنفسه : كنت أظن أن صمت الجسد علامة الصحة . ليس بى الآن مرض أو مرارة ، ليس عندى لا تمرد أو اعتراض . لا الرأس مثقل ولا الأحشاء منقبضة . ألا يمكن أن يكون صمت الجسد هذا من علامات الموت ؟

أسرع إلى المرآة الصغيرة يمشط شعره ، ويتأكد من وجود ملامحه هو بالتأكيد . دقق النظر .. فقد كانت المرآة مليئة بالبقع السوداء التى لا تزول . الشعر صار ناعما خفيفا لا يحتاج إلى تمشيط . من صاحب هذا الوجه الخامد . هذا الوجه الجميل القبيح . أين تختفى المشاعر والأفكار . أليس من الضرورى أن يكون لكل وجه تعبير ؟ ماذا يسكن وراء زجاج هذه العيون العسلية الطيبة ؟ هى وحدها التى تتحرك : تدور على انعكاس الأثاث القليل فى المرآة . ثم تحدق فى الفراغ والصمت . ولا ترى وجه صاحبها .. أنا صاحب هذه العيون واسمى الثلاثى عبد الخالق حسنى المسيرى ، حرك وجهه وانسحب من أمام المرآة ، وقد عاوده ذلك الابتسام المزمع الغريب .

قالت له ذات صباح : افتح نوافذك العسلية ، إنها تستطيع أن تحتضن الناس والأشياء ، وأغرقت عيونه بالقبل .

مع طعم الشاى الساخن الحاد الذى يجيد صنعه ، زال الطعم الغريب الذى يملأ فمه واستيقظت أطرافه . سمع خطوات أم يسرى تصعد السلم ، فكسا صدره العارى بالقميص الأبيض النظيف ، مازال يحب رائحة الملابس النظيفة ، وتقتله رائحة العرق . سبقت أم يسرى رائحة خبزها الطازج الذى تجلبه كل يوم من أطراف السوق . دقت على الباب بكف يدها وانداح صوتها الطيب يلم أشلاء الصباح ، وهى تقول :

- صباح الخير يا سى عبد الخالق .

غمغم بردود كثيرة ، وكأن صوته قادم من مكان بعيد . لم يعد يستطيع أن يخرج من لحظاته الخاصة بسرعة . فيخرج منه الكلام فى البداية مجرد أصوات تحمل الايقاع والشعور . تعود الناس منه هذا وصاروا يفهمون ما يريد أن يقول . استمرت أم يسرى تعلق على الحر والرطوبة . والسلم الملعون ، واختفاء السمك والخضار ، والزحام وهو يشرب الشاى ويردد اتفضلى .. ادخلى .. اقعدى . وضعت شنطتها البلاستيك على الأرض ، وأخرجت رغيفين فاخرين كعادتها معه عندما تذهب إلى السوق ..

قال :

- دايما عامر .. أنا نازل مصر النهارده .

أعادت الخبز إلى الشنطة ، وتأملته وتأملت الغرفة فى محبة وود وقالت :

- بالسلامة .. متنساش تقفل المحبس .

وتنهدت منصرفة وهى ما تزال تتكلم ، أحس فجأة بالندم . لم لم يأخذ العيش ؟ لم لم يستبقها لحديث أطول .. ولماذا يسافر على أية حال ؟

كانت الغرفة قد بدأت تمتلئ بذباب الصباح البليد ، فقام .. يغلق النوافذ ويكمل ارتداء ملابسه . وفى عتمة الغرفة التى جلبها إغلاق النوافذ ، راح يعيد ترتيب الكتب القليلة المتناثرة ، وكأنه يطمئن عليها . دواوين الشعر العربى القديم وروايات مترجمة ، وكتب قليلة أهداها إليه الزوار ، وبعض الأصدقاء القدامى . وقف أمام صورته الكاريكاتيرية التى رسمها له زميل قديم وهو يمسك فى يده سيفا خشبيا وعلى كتفه مخلة من قماش ملون ، ثم قرأ للمرة

الألف الكلمات التى كتبها صديق سكر عنده فى ليلة بعيدة ، كتب بقطعة من الفحم إلى جوار النافذة : إنما الناس سطور كتبت لكن بماء .

- ٢ -

أخذ عبد الخالق المسيرى يؤكد لنفسه أنه ذاهب إلى القاهرة فى فسحة وأنه ليس مستدعى لتحقيق ولا يساق إلى سجن أو اعتقال . ولكن شعورا ثقيلا لم يكن يفارق قلبه . خليط غريب من الخوف والانقباض ، لم يعد يجدى معه محاولة السخرية أو التفكه .

عندما جاء إلى السويس من أربع سنوات لكى يعمل موظفا فى قصر الثقافة كان هناك حلم غائم بأنه سيجد فى هذه الوحدة نفسه ، وأنه سوف يلم تلك الفوضى التى صارت إليها حياته . ولم يكن يحلم بتغيير كبير أو بأعمال عظيمة ، ولكنه كان يقول أن قطع علاقاته بالقاهرة سوف يجعله يرى الأمور بشكل مختلف ، أنه على الأقل سوف يصبح قادرا على التعايش مع الواقع الجديد .. والأهم أنه سيصبح قادرا على تنظيم علاقاته بالماضى .

مرت السنوات الأربع كأنها ساعات مكسورة ، زمن متناثر موزع ، لم يكن هناك عمل يذكر فى القصر ، وإن وجد فهو شكلى ، وموسمى ، وسخيف . وهو غالبا مستبعد من اللقاءات والمناسبات لأن ماضيه الشيوعى يطارده . أو هو على الأقل يتصور ويريد ذلك . ليس هناك علاقة بين تلك الحفلات السخيفة الصاخبة ، وبين حلم العمل مع الناس ومن أجلهم . ذلك الافتراض الجهنمى الذى يطارده فى الواقع وفى الأحلام . تغير الرؤساء والزملاء فى العمل واستقر هو فى المكتبة : بلا زملاء ولا كتب ، ولا رواد . قاعة فى نهاية ممر طويل ، مفتوحة النوافذ ، يتناول فيها الشاى ثلاث مرات فى النهار ، ويقرأ الثلاث جرائد ،

يراجع الثلاثة دفاتر ، ويترتب الثلاثة كتب . جاء من يريد أن يقرأ ، وذهب لأنه غيّر هوايته . أو لأنه لم يجد ما يقرأه . جاء له رجال المباحث والمخبرون وذهبوا لأنهم لم يجدوا عنده ما يخبروه عنه ، جاء الراغبون فى الصداقة والحديث ، ولكنهم وجدوا أن روحه قد جفت ، وجدوا أن الملل يغطيه كما يغطى التراب رفوف كتبه وأوراقه القديمة . فكر أن يكتب اسمه على خشبة هرمية – كما يصنع الموظفون – ويضعها على مكتبه ويكتب على الناحية الأخرى « إمكانية مهدرة ووقت ضائع » ، يقلب فى خياله الهرم الخشبى ويواجه اسمه ثم يواجه شعار المرحلة . يقوم ليطل على الخرابة المليئة بالزبالة المجاورة للقصر . خلال السنوات الأربع لم يخفت حضور القاهرة فى حياته . غول يأكل الأيام ليس شوقا إليها يشتاق ؟ وليس حبا فى نهارها أو ليلها أو ناسها الذين كانوا . ولكن كأنها جملة ناقصة لم تكتمل كلماتها . لا هى اتسقت ، ولا هى أفصحت عن معنى . وحش يسد الحلق .

يحب السويس ، فقط لو أبعدوه عن الميدان ، ومبنى المحافظة والقصر ، لو أبعدوا عنه البوتيكات الجديدة والميكروفونات ، والمجمعات السكنية التى خربت قبل أن يسكنها الناس .

يحب السويس لو أعادوا لها معناها ، اتساق «الكبانون» مع البيوت القديمة ، والكازينو الخشبى البعيد .

يحب السويس لو عادت الفراندة الكبيرة التى تطل على الخليج . و الشاعر أمل دنقل فى الليل يروى شعره فى ظلام الفراندة ، وجهه مثل جبل عتاقة وقامته مثل حبال السفن . لو أعادوا الناس كما كانوا بدون القمصان الملونة ، والأكمام المشمورة ، والشعر الملصق والبنطلون المحزق والمشية المخلعة .

يحب سمك الأدراج والسرنباق ، والطحينة المحوجة والسمسمية والرجال والبحر قبل أن يلوثه التهجير والأكاذيب والآمال المحبطة .

يحب الشوارع كلها قبل أن تنهشها فئران القذارة واللصوص الجدد .

يحب المد والجزر فى القمر تحت جبل عتاقة فى ليال ذهبت ولن تعود .

يحب الأربعين ، والحلقة ، وسيدى الغريب وكراسى المقهى المدهونة باللون الأخضر . عندما دخل مع صديقه أحمد صالح إلى مبنى وزارة الثقافة لكى يقابل الدكتور محمود فهمى ، كان يغالب شعورا بالغثيان لم تفلح فى دفعه السخرية السوداء التى يلقيها أحمد صالح على كل شىء ، أحمد صالح رفيق قديم ، هو الآن صاحب ورشة صياغة فى الأزهر ، تغلب على تناقضات كثيرة ، وزرع نفسه فى أرض جديدة لم يبق ما يربطه بالماضى سوى أحاديث الليل المطولة المكررة فى السياسة وفى تحولات الناس ، يعرف الجميع من ادعى ومن خان ، ومن أنكر واستنكر ، ومن تمسك بالأوهام ومن ضاع ، فى نفس أحمد صالح صفاء غريب ، وفى يده مهارة وفى قلبه سماح .

ولأن للدكتور محمود فهمى ذوقا خاصا فى الفضة ، فإن علاقته مع أحمد صالح صارت أكثر من حميمة ، يحمل له أحمد أطقما جديدة ، ويعثر له على قطع قديمة نادرة ، ويطلى للمدام القطع القديمة ، ويصلح ما انكسر منها ، يراه فى البيت وفى الورشة ، والتليفونات بينهما لا تنقطع : « لذلك يا أخى هو لا يرفض لى طلبا .. بل هو يتمنى . لذلك يا أخى لا تكن قفلا .. أرجوك ، ثم من يدرى قد ينقل من منصبه هذا غدا .. والمهم أنه يعرفك » .

ولأن أحمد صالح بارع ، وله حضور سمح ومريح ، فقد كان اللقاء أسهل مما تصور . انشغل أحمد بشرب القهوة . ثم فى تأمل قطع الفضة ، الأطباق والميداليات التى تملأ المكتب الكبير . قام الدكتور محمود ، وضع يده على كتف عبد الخالق وسحبه بعيدا إلى النافذة العريضة وقال :

- إجراءات الأمن ووزارة الداخلية ، أنا سأتولى إنهاءها مع الوزير مباشرة ، مثل هذه الأشياء يجب أنه تأتى من فوق ، حتى لا يعقدها الصغار بقى يا سيدى أن تختار : الإسكندرية زحمة ، والصعيد بعيد عليك .. ما رأيك فى السويس .

تدخل أحمد فقد كان الدكتور قد رفع صوته فى الجزء الأخير من الحديث قال :

- عين العقل ، الله يبارك فيك .. وعبد الخالق عاشق قديم للسويس .

- على بركة الله .. بعد أسبوع تستلم .

تغير كل شىء فجأة ، وفى بساطة ، وحمل صالح معه بعض الميداليات والكئوس الفضية التى فازت بها الوزارة لكى يعيد طلاءها فى الورشة .

فى الخارج ، ضرب عبد الخالق فى صدره وقال :

- عشان تعرف .. أنا اسمى أحمد صالح صانع المعجزات .

وابتسم عبد الخالق فى امتنان ودهشة .

- ٣ -

أنت يا حبيبى مركز الكون والوجود . كل شىء معك سعيد وممتع ، حتى ولو كان مراقبة عمال يرصفون الطريق .

أريد أن أعيش معك فى قارب صيد ، غليظ المجداف والخشب ، ونركن تحت الكبارى ، وندخل ليلا إلى القرى الصغيرة .

أريد أن أغسل ثيابك .. أنت لا تعرف كيف أجيد الغسيل .. و أنت هل تجيد الصيد والتجديف ؟

الساعة تقترب من العاشرة ، عليه أن يغادر السويس قبل الظهر ، حتى يصل إلى القاهرة قبل العصر ، فيجدهم جميعا فى الخمارة مجتمعين . عليه قبل ذلك أن يحصل على قطعة حشيش جيدة ورخيصة حتى يفرحوا بما جلب لهم من السويس .

تجنب الشوارع الرئيسية حتى لا يلتقى بواحد من الموظفين - المتنطعين - فيسألونه ويجيبهم بأدبه الذى ضاقوا به ، وضاق هو به قبلهم .

لا يريد أن يعرف أين كان مدير القصر أمس ، ولا ماذا فعل ؟ لا يريد أن يعرف من جاء من مصر إلى المحافظة أمس ، ولا عن ماذا يسأل .

يريد أن يتجنب الشوارع ذات الأرصفة المدهونة حجر أبيض وحجر أسود . يريد أن يتجنب الشعارات المكتوبة على سلال القمامة الفارغة . وإشارات المرور التى لا يتبعها أحد .

سلك طريقا خلفيا يدور حول المدينة القديمة ويخرج به إلى شارع ترابى يحده مرتفع مزروع بغابة من التين الشوكى العجوز ، تكسوه ستائر من العنكبوت والتراب ، يمتد الشارع حتى يخرج من المدينة ، وعلى جانبه الآخر حقول حرقت حوافها أتربة الطريق السريع ، وشكمنات عربات النقل .

سار فى الطريق الترابى مسرعا تثير أقدامه خلفه ترابا . حرارة الشمس المتزايدة ، وأشباح العابرين تخلق حوله زمانا ومكانا معلقين على ذرات غبار تخترقهم شمس ضحى بليد .

– أنا الضابط فتحى فرج ، سوف أشوى جلودكم .. وأبدلكم بعدها جلودا جديدة . وأنت .. أنت يا ابن البغى .. اخلع ثيابك كلها .. كلها .

كان الضابط سمينا قصيرا يلمع نحاس بدلته تحت الشمس ، وعيونه فتحات سوداء لامعة .

يدفع عبد الخالق عن نفسه ذكرى سنوات الاعتقال بترديد أغنية قديمة كان يرددها له صديق .. صار اللحن بلا طعم .. والذكرى تزداد وحشية ووضوحا .

اذهبى عنى يا أشباح . يا سنوات من هباء .. اصعدى واستقرى هناك ، وسط أدغال التين الشوكى . اخلطى دماء الشيوعى القديم بستائر العنكبوت . أو ادفعى فى حلقى بزهرة التين الحمراء ، أو بثمرة التين ذات الشوك نفسها . فقط لا تتركينى أسيرا ، انهش نفسى بالنكش والتقليب .

سقط غبار الطريق تدريجيا ، وأسلمته رطوبة الطريق الترابى إلى الأسفلت فدخل إلى المقهى الندى ، الذى تغطيه تكعيبة عنب . وسأل عن تاجر الحشيش فقالوا إنه لم يحضر بعد فجلس يشرب شايا رديئا .. وينتظره فى قلق .

– ٤ –

فى المقاهى وغرز الحشيش يشعر عبد الخالق بمزيج من القلق والفرح الطفولى هنا عالم خارج على القانون ، بعيد عن القواعد المرعية ، مضاد للعجلة الدائرة والتيار المندفع .

لم تعد الجلسات ممتعة كما كانت . هو ليس مدمنا على التعاطى ، أو حشاشا لكنه يقتل الفراغ ويتفرج ، هناك تراث قديم فى نفسه ضد الحشيش وتعاطيه كانوا يقولون : اسكر لو أردت .. ولكن إياك والحشيش فهو أقصر الطرق للقضاء على الثورية ، للقضاء على أية رغبة فى التعبير .

هو لا يتحدى التراث القديم ولا يناقشه ، لكن الأشياء تداخلت وفقد الكلام معناه . هو لا يصنع شيئا لا يقوم بأى عمل ، فلماذا يذكر هذه الأفكار القديمة ؟

فى وقت من الأوقات كانت هذه المقاهى الصغيرة عالما مستقرا راسخا ، تصب فيه المدن ما تحتويه من قصص وأساطير ، لكل مقهى طعم وطابع يرتبط بجزء من الواقع الحقيقى الذى عاش يتكلم عنه ولم يدخله . مقاهى القاهرة : الأزهر ، والحسين والجمالية ، ومعروف ، هى الأصل ، مؤسسات راسخة ترتبط بالتاريخ والتقاليد القديمة أما ما عرفه من مقاهى الأقاليم فكلها مقامة على الطريق السريع .

لم يعد لهذه الأماكن سحرها القديم ، لقد هاجمها الزبون الجديد قبل أن يهاجمها أو يهدها البوليس . الزبون الجديد قلب الغرز إلى بوتيكات . كان يحب مقهى قديما فى حى الأربعين ، وعندما زاره أخيرا ، وجد على المدخل فترينة تقدم سندويتشات الكبدة ، فتختلط رائحة زيت القلى برائحة الدخان العبقة .

وعندما سأل الساقى قال : كله أكل عيش يا أستاذ ، الحشيش بيجوع ، والحلو بقى غالى . غادر المقهى وكأنه فقد صديقا ، فقد كان ظلامها الرطب الهادىء الممتد إلى الداخل يحتويه فى فترات العصر ، ويبدو الشارع من الفتحة المضيئة البعيدة : كأنه عالم صامت لا شأن له به .

كانت بعض هذه الأماكن تحمل له معنى خاصا من السلام ، لم يعرفه منذ الطفولة ، خاصة عندما يجلس وحيدا ، ويشرب على مهل ، خمسة كراسى أو عشرة ثم يتلوها بكوب من الشاى ليخرج بعدها فيجد أن المدينة قد وقعت معه صلحا منفردا وصارت كل حروبها لا تعنيه .

صار الحشيش هو الآخر غالى الثمن محفوفا بالمخاطر ، رديئا لا طعم له يسبب له صداعا وغثيانا ، ولولا صديقه فتحى نور الدين الذى يسأله فى كل زيارة عن حشيش السويس لما فكر أن يجلس هنا ينتظر المعلم صابر الذى يبيع فى هذا المقهى قطعا صغيرة من الحشيش الملفوف فى عناية ، حشيش منظره خادع ولكن نوعه ردئ . ليس فيه من الحشيش سوى الاسم وبعض الرائحة . سأل عن المعلم مرة أخرى فى قلق فقال له الصبى وهو يبدل بكوب الشاى كوبا آخر : المعلم على وصول .. حالا يا أستاذ .

كانت أمه سمينة بيضاء ، تتحرك من الصباح الباكر بنشاط فى بيتهم الكبير ذى النوافذ والأبواب الكثيرة المفتوحة ، تسوق الخادمة سعدية أمامها لكى تقلب البيت وتمسحه كل صباح . كانت سعدية سمراء تكبره بسنة أو سنتين . لم تكن سعدية تكف طوال النهار عن العمل ، أو الخروج إلى السوق ، أو اختلاس لحظات قليلة لكى تلعب معه فى الطين ، أو تتركه يتحسس جسدها ، حتى تنادى عليها سيدتها وتلكمها فى جسدها المدكوك الأسمر ، فتبكى سعدية بصوت عال ، ثم تضحك ، وتعاود الجرى هنا وهناك ، حتى تستلقى فى آخر النهار على فرشتها القذرة إلى جوار باب المطبخ . أما أمه فقد كانت تستحم فى العصر وتبدل ثيابها ، ومنديل رأسها وتفوح منها رائحة خاصة تملأ البيت كله.

كان فى الثالثة عشرة عندما اختلس من كيس النقود الذى تتركه أمه فى الصالة خمسين قرشا . كانوا فى أجازة الصيف والأيام فارغة طويلة ،

وأصدقاؤه يذهبون إلى السينما ويفعلون أشياء كثيرة ، ولم يكن هو يحصل من أهله على أية نقود . كانت الورقة أم خمسين قرشا مطوية فى عناية فى أسفل الكيس ، ولم يكن يعتقد أن أمه سوف تكتشف ضياعها بسرعة .

أخذها حوالى الثالثة ظهرا ، والبيت نائم وخرج لكى يمضى مع أصدقائه وقتا ممتعا طويلا ، أخفى ما تبقى من قطع معدنية فى الحذاء وعاد إلى البيت حوالى العاشرة .

عرف أن أمه ضربت سعدية حتى سال منها الدم ، وأن البنت طفشت بعد أن أقسمت أنها لا تعرف شيئا عن النقود وأنها لن تعود أبدا ، وأنهم لن يعرفوا لها مكانا .

قال هو إنه يعرف أين ذهبت ، وأنه سيذهب لإحضارها فهناك نجار فى السوق كانت تتكلم معه كثيرا ، ويقول لها إنه من بلد قريب من بلدهم . فقالوا له اذهب ولا تعود من غيرها .

لم يصدق أنه خرج مرة أخرى إلى الشارع .

فى الظلام ألقى بالقطع المعدنية بعيدا ، وظل يجرى حتى وصل إلى الدكان . قالوا له حمدى النجار أخذ البنت إلى بيته . هناك وجدها منكوشة الشعر ، مكومة على الأرض تبكى ، ألقى بنفسه عليها وأخذ يضمها إليه ، ويقبل رأسها وحمدى النجار يقول : " حرام عليكم يا ناس .. البنت أمانة عندكم ، حد يعمل كده فى أولاد الناس .. افرض الفلوس ضاعت أو وقعت أو تكون الست صرفتهم وناسيه " .

عادوا هم الثلاثة فى موكب حزين . كان يشعر بسعدية تسير خلفه ، ودقات قلبه تصم أذنيه . لم يكن يستطيع أن ينظر إليها ، وهى تبكى بكاء غريبا ، ليس

كذلك البكاء الذى يعقبه ضحك .. كان الطريق طويلا ، وحمدى النجار يقول بين الحين والآخر : « ليه كده بس ، ده إنتو ناس طيبين ، وأبوك راجل طيب وأمير » .

وجدوا البيت مضاء ، وجميع من فيه ينتظر .

استقبلت أمه سعدية وأخذتها فى صدرها وهى تقول : « خلاص يا بنت .. امشى استحمى ونامى فى فرشتك ، خلاص ، قلنا خلاص ، هو أنا مش زى أمك » .

تكلم أبوه مع النجار قليلا ، ثم صرفه ، والرجل يدعو له ، للست الكبيرة ويقول : « احنا كلنا خدامينكم ربنا يبارك لك فى الأولاد ، البنت دى أمانة . أحسن بنت فى شغالات الحتة كلها ، والله كده يا سعادة البيه ، دى بتحب البيه الصغير زى أخوها " .

ظل هو يدور فى الصالة ، وهو يسمع نشيج سعدية ، قامت أمه لكى تضع بعض الطعام لسعدية فى طبق وتطمئن أنها نامت فى فرشتها .

قالت أمه لأبيه فى آخر الليل : « فلوس ولا مش فلوس .. البنت كبرت ، وأنا ماعتش عاوزاها فى البيت ، لازم تسافر البلد » .

بعد أن رحلت سعدية ، أصابته حمى شديدة كان يخاف أن تفشى الحمى والحرارة سره . كان يمسك بحديد السرير ، ويضغط على أسنانه ويبكى ، وأخته إلى جواره تبدل الفوطة المبلولة على جبهته التى تحترق ، وقد استحالت الغرفة وكل ما فيها إلى قطعة واحدة من رخام صامت .

عندما دخل المعلم صابر إلى المقهى دب فى المكان نشاط مفاجئ . كان يرتدى جلبابا أبيض نظيفا ، ويتحرك فى ثقة واطمئنان .

وضع فى يده قطعة الحشيش وقال : «دى حاجة جديدة .. حلوه عشانك أنت والحبايب » .

ابتسم له غير مصدق ، وأسرع منصرفا من المقهى ، والحشيش مازال فى يده .

– ٥ –

موقف الأوتوبيس والتاكسيات : هذا هو الجنون بعينه . أربعة أو خمسة من أجهزة التسجيل تندلع زاعقة من الرصيف ، أو من محلات العصير ، بعضها يردد القرآن بأصوات عالية غريبة ، واحد يصيح بمدائح صعيدية غير مفهومة ، وامرأة تصرخ فى غنج ملتهب على راجلها الذى سافر ولم يرسل خطابات .

وقف إلى جوار أقفاص فاكهة رديئة عليها أثمان غالية ، وكاد الرجل ومساعده أن يدفعانه دفعا إلى قفص من العنب المشوه القبيح . كانت النسوة المحجبات يسرعن فى ملابسهن الطويلة ، أجسادهن محشوة رخوة تهتز ، وهن يسرعن خلف رجالهن المتجهمين يتدافعون بحثا عن مكان خال فى تاكسى ، أو تذكرة متبقية رخيصة فى أتوبيس مزدحم . أرض الموقف قذرة ، وصناديق زجاجات المشروبات مرصوصة عالية ، كأنها متاريس حرب ستقوم فى أية لحظة ، ورائحة الأطعمة نافذة رديئة ، ولكن الأفواه حول العربات تأكل ، وتلقى بالبقايا تحت الأقدام ، وصبية صغار يغسلون الأطباق البلاستيك والصاج فى الجرادل من الماء القذر .

من أطلق كل هذه الغيلان ، وماذا تريد ؟

كاد يتشاجر مع بائع الفاكهة الذى يلح عليه ، وصاح فى جهه : « مش عاوز يا أخى .. مش عاوز » . استدار الرجل عنه وكأنه لم يسمع . وعاد يصرخ على بضاعته بصوت قبيح .

أخذ يبحث فى وسط الفوضى عن سائق تاكسى يعرفه ، حتى يضمن الجلوس إلى جواره ، إلا أن الوجوه كلها جديدة متعجلة ، فاليوم خميس وغدا جمعة ، وهناك فرصة لزيادة الأجرة أو لسائقين أغراب عن الموقف .

أحس بيد تشد بنطلونه ، لمح شحاذا أسود يزحف على الأرض وقد التوت سيقانه تحته ، يشد بنطلونه وينادى عليه بكلام غير مفهوم أحس بحرارة لاهبة تندلع فى جسده ، وقفز هاربا من مكانه .

كان الضابط السمين الأبيض واقفا فوق رأسه ، وهو منبطح على وجهه فى الرمل الساخن ، يلكزه بالحذاء فى ضلوعه ، قال له :

– ابتلع هذا التراب ، حتى لا أسمع صوتك ، كل حتى لا أسد به حلقك ، إلى جوار الضابط ، اثنان من العسكر ، فى أيديهم كرابيج سودانية مدلاة ، أمامه صف طويل من زملائه ، وقد انبطحوا على وجوههم يزحفون .

– يا عبد الخالق .. يا سى عبد الخالق . رد علينا يا أخى . أنت مش نازل مصر .

كان الصوت المعدنى الصارخ هو صوت مصطفى الكردى ، زميله المعار للعمل فى السعودية منذ ثلاث سنوات .. قبض على ذراعه وسار به مبتعدا عن مركز الفوضى .. لم يكن يشعر بالأشياء حوله وهو يخترق الزحام فى ثقة واقتدار ، وقد أسلم عبد الخالق له قياد نفسه ..

تغير مصطفى الكردى ، صار لونه أبيض ، واختفت البثور والخروم التى كانت تملأ وجهه وذقنه .. صار وجهه ناعما يطفح بالنعمة ، وتبدو عله آثار الطعام الجيد والمعلبات ، والعصائر والفيتامينات . قميصه ملون واسع ، والبنطلون يلمع فى الشمس ، وفى يده حقيبة بنية جلدية كبيرة كأنها خزانة متنقلة .

سمع عنه حكايات كثيرة : سمع أنه اشترى شقتين بواسطة كبيرة فى المحافظة ، للبنتين اللتين يعدهما معا لزواج قريب . وسمع عن الهدايا التى يحضرها من السعودية ، كما سمع أيضا أنه إلى جانب ذلك كله سوف ينشر مجموعة قصص على حسابه ، قصص كتبها فى السعودية .

كان التاكسى « البيجو » ينتظرهم خارج الموقف ، وقد احتلت الكنبة الوسطى زوجته وابنتاه ، وفى المؤخرة شابان بلا ملامح يرتديان بدلا كاملة ويتصببان عرقا . النسوة الثلاث كن يرتدين غطاء رأس وردى اللون ، وفساتين طويلة ملونة وقد صبغن وجوههن بطريقة واحدة ، وقطع من الذهب تلمع على الصدر وتتدلى من الأذنين . قدمه مصطفى لهم فى حماس قائلا :

– زميلنا الأستاذ عبد الخالق المسيرى ، شاعر وفنان كبير زميلنا فى قصر الثقافة ..

حيا الجميع ، وغمغم بكلام لم يسمعه أحد . وانحشر بين السائق ومصطفى الكردى الذى جلس وقد وضع يده خلفه ، وأدار نصف جسده لكى يواجه أسرته التى تحوم فوقها سعادة ورضا خانقان .

لم يعط مصطفى الكردى فرصة لأحد لكى يتحدث ، هو الذى يتكلم فقط . أنه يرى أن البلد فى أحسن حال . العمارات الجديدة والمبانى فى كل مكان والناس أحوالهم عال . ما ينقص البلد هو بعض الحرية والتجارة والأعمال ، والقضاء على الروتين ، وميراث التخلف والفقر ، وأثار سنوات الارتباك والعك . إننا لم نعرف بعد كيف نستفيد من علاقتنا مع أمريكا والغرب . الموانى مثلا مازالت متأخرة جدا . شىء لا يقارن بموانى السعودية والخليج . ثم استدار إلى عبد الخالق وقال فى ود مصطنع :

– وأنت يا عبد الخالق ، أحوالك عامله أيه ، ما فيش حاجة جديدة ؟ اخرج يا أخي بقى من الشرنقة بتاعتك دى . سافر ، أو اتحرك شوية . حرام عليك العمر بيضيع . وأنت راجل كلك مواهب .

ابتسم عبد الخالق ابتسامة لا معنى لها ، ولم يستطع مصطفى أن يستمر فى هذا الحديث فبدأ يحكى له عن سبب سفرهم إلى القاهرة . هناك أشياء كثيرة تريد البنات شراءها من مصر أنت عارف دلع البنات ، مع أن ما فيش أى حاجة ناقصة ، كل حاجة جايبينها لهم من السعودية ، بدل الطقم الواحد طقمين و ثلاثة . وأمهم مطوعاهم فاكرين أبوهم قاعد على بنك . عارف يا عبد الخالق يوم الغربة يساوى آلاف . لكن حنعمل أيه .

أحس عبد الخالق أنه أخطأ بأن ترك نفسه ينزلق إلى هذا المطب . ذهنه مجهد ، وحديث مصطفى ، وجوده كله لا يثير عنده أية رغبة فى التعليق . كل شىء كاذب ومصطنع ، والشابان الصامتان اللذان يجلسان فى الخلف يجسدان له مصيدة النقود الجهنمية التى يقع فيها الجميع . القروش القليلة التى فى جيبه حصن حصين . لا يريد شيئا من كل هذه الأشياء التى يتكلمون عنها . عليهم أن يتعلموا ألا يتكلموا فى أشياء لا تخصهم . مالهم هم ومال البلد . مالهم ومال الناس ، أو المعانى أو القصص أو الأشعار . لم لا يتكلمون فقط عن نقودهم ودولاراتهم . لم لا يخرج مصطفى من حقيبته الآلة الحاسبة ويعكف عليها طارحا وجامعا وضاربا . ويتركه فى حاله يراقب الصحراء . ويتمتع بانطلاق السيارة وبحركات السائق الواثقة . كان السائق نوبيا لطيفا صامتا .. لم يتكلم وكان شاهدا .

ويبدو أن مصطفى الكردى قد أحس هو الآخر بأنه تورط عندما حشر هذا البائس الفقير معهم فى العربة ، فاستدار إلى زوجته وآخذ يهمس لها بحديث

خاص هو لب الموضوع والحياة . أغلق عبد الخالق عينيه .وسأل نفسه : أين ذهب الحب ، والود الصادق « أين ذهبت الأفراح » واستسلم للنسمات الساخنة التى تهب عليهم من الصحراء .

بعد أن خرج من المعتقل بعام أو يزيد ، ودخل إلى جنة عرضها السماوات والأرض .. عثر عليها فى شوارع القاهرة .. هى التى عثرت عليه .. منى المصرى .. منى فقط . كم ردد اسمها فى الليل لكى يغسل به أحزان روحه . منى وكفى .. راحت تدخل إلى حياته كما تلبس يد رقيقة قفازا ناعما ..

عندما كان يدق باب شقة صديقتها الأجنبية التى تنتظره عندها ، كانت تردد اسمه فى شوق وفرح كأنها تلقاه مصادفة فى عالم غريب وتقوده إلى غرفتهم الصغيرة ، وتغلق الباب . سر النسيج السحرى الذى يدمج اللحظات والساعات مبذول متاح .

كان له كرسى قديم يطل على النافذة الطويلة ، يسكن إلى الكرسى وجسده يرتاح . لم تكن تضئ النور ، يرقبان معا دخول الظلام مع موسيقى موزار . نغم موزار يسحب روحه ويداه فى شعرها فى جسدها ، فى قلبه موسيقى وعلى شفتيها تضئ نجوم . ما أجمل السكون بعد العاصفة ، يحترقان معا لساعة ، ثم يحل صفاء غريب .. هل لهذا الذى كان اسما . وكيف تكون الحياة بدونه .. سؤال لم يعرف له أبدا جواب ..

كانت الإسكندرية مغسولة فى الشتاء بماء المطر ، والمقهى الذى يسكنون إليه أكثر النهار خال إلا من بعض اليونانيين العجائز والعشاق . يراقب تحت ضوء الشمس زغبا آصفر ناعما على ذراعها الممتدة نحوه على المنضدة ، قلب كفها ، ودار بأصابعه مع خيوط الكف وهو يحدق فى عينيها قالت :

– أنت لن تعرف أبدا . جئنا إلى الإسكندرية لكى أخبرك ، أنتهت إجراءات الهجرة بالنسبة لأخى وديع . أمضينا أنا وهو ليلة صاخبة أمس .. انتصرت ووافق على كل شيء ، سنتزوج اليوم .. أو غدا ، أو متى تريد . سيترك لنا شقته . وديع الآن يتحدث مع أبى وأمى وأنا الآن صرت لك ..

همّ بالحديث ، لكنها سحبت يدها ، ولامست عيونه وشفتيه ..

انتتبه على صوت الكردى المعدنى يقول :

– نمت يا عم ، يا بختك .. لا بنت ولا ولد .. احنا حننزل وسط البلد .. التاكسى يركن فى أى حتة . . واحنا نقضى المشاوير . ونتغدى ، ونرجع الليلة إن شاء الله . تحب تنزل فين :

– أى حتة فى وسط البلد فى وسط البلد .. أى حتة .

– لازم تيجى .. لازم أشوفك ، بلاش الهروب الدائم ده . عاوز آخذ رأيك فى القصص الجديدة . فى أول إشارة مرور ، شكر الشائق والكردى ، ودع الجميع :

– سلام .. سلام . ونزل مسرعا يخبط بالجريدة المطوية ترابا وهميا يغطى جسده كله واندس فى سيل الزحام .

– ٦ –

هى القاهرة . لم يغادرها أبدا . هى لم تغادره . هى الجلد والعظم والنخاع . هى الصليب والذكرى الأبدية . مدينة المدن . متوحشة وجميلة ، فى هوائها حرية وفى ضوئها قدرة واقتدار . من يسكنها عظيم ومن يغادرها منفى مسكين . لا يقدر أن يغيرها أحد .

نفض عن نفسه همّ الوحدة . واستقبل الناس والزحام بحب كاد أن ينساه .

أخرج الجنيهات العشرة الجديدة التى يحتفظ بها فى جلدة البطاقة ودخل إلى محل بقالة كبير . اشترى قطعة من الجبن الأبيض وزيتون أسود . وبحث حتى وجد عيش شامى ، ناشف ، منى كانت تحب الجبن الأبيض والزيتون . ولم تكن تأكل سوى العيش الشامى الناشف .

لامس أحجار المبانى القديمة التى تقوده إلى « بار الأمراء » وشعر بسعادة معتقة قديمة . وكأن شيئا لم يحدث . مازلت أعيش يا فرحتى . أعيش كما تعيش تلك الحجارة ، وقباب المبانى القديمة . مازلت أعبر تحت البواكى العالية . وأرى محلات الزهور القليلة وأراقب الماء ينساب على الزجاج .

تصادم فى فتيات صغيرات مرحات . وأحب صخب بعض الفتيان وضحكاتهم العالية المنطلقة . وقبض على لفة الطعام الصغيرة فى يده . وألقى بالجريدة – المتسخة فى سلة المهملات وقال : اليوم الخميس وغدا جمعة . سأسمع أطنانا من القصص والأكاذيب يا فرحتى مازلت حيا .

– ٧ –

عندما ترتفع عن روح عبد الخالق المسيرى . لسبب أو لآخر ، أستار الكآبة فإنه يشعر بنوع من النشاط يمر فى جسده كله كأن شيئا لم يحدث بعد . أو كان الأشياء فى بدايتها مدهشة وجديدة .

يفكر فى مشروعات متتالية . وسعادات صغيرة . بل أحيانا فى مطالع قصائد أو أشطر من أبيات الشعر .

دخل إلى « بار الأمراء » والساعة قد جاوزت الثانية بقليل ، كان المكان هادئ الإضاءة ونظيفا ، يمتد بطول عمارة قديمة ، وقد رصت على جانبيه

مناضد رخامية صغيرة . يفرشه الضوء المنساب من نوافذ زجاجية عالية مفتوحة لتجديد الهواء .

استقبله عم سيد الجرسون النوبى العجوز بفرح واشتياق حقيقى . وقف إلى جواره يعد له المنضدة . وينظف رخامتها فى تمرس وإتقان وهو يسأله عن حاله وصحته وعن أحوال الدنيا معه .

ثم زعق :

– بيرة سخنة ..

تركه بعد أن أخذ لفة الطعام التى فى يده ، لكى يعده له فى أطباق ، كان عم سيد آخر الجرسونات الذين تربوا على حب العمل وإتقانه .

ليس فى خدمة الشاربين ما يشين ، ولا ما يبرر التحايل أو النصب أو إساءة الأدب ، يتصرف بأدب وكرامة نوبية أصيلة لم يغيرها تبدل الزبائن أو ملاك المحل .

يعرفه ، ويعرف الأصدقاء منذ سنوات ، ويستدل باستمرار ترددهم على المكان على أن الدنيا مازالت بخير ، وأن هناك ناسا طيبين ، تأتى إلى هنا لكى تشرب و تتكلم وليس فقط تلك الغيلان الشابة التى انفلت عيارها ، وانقلبت سحناتها وانتفخت جيوبها ، تشرب لكى تسب وتلعن وتتشاجر ، وتخرج المطاوى . وكل ما فى جعبتها من دناءة وقذارة أو كل ما يقع عليها فى الحياة من ظلم وإهانة .

كان عم سيد يأتنس بهذه الشلة ، ولا يمكن لأحدهم أن يتصور المكان بدونه .

وضع الأطباق حول زجاجة البيرة بعد أن أضاف إليها الترمس والجرجير الأخضر وسأله عن السويس ، ولماذا لا يأتى كل أسبوع ؟ وحكى له عن نوادر فتحى وعن الحدة التى تعامل بها أحمد صالح مع بعض الأنطاع منذ أسبوعين ، ثم تركه قبل أن يضيق بحديثه أو يشعر بفضوله .

مع الجرعات الأولى من كوب البيرة ، أحس عبد الخالق بالاستقرار والهدوء وراح يتأمل بعض المعلمين المتحلقين فى دائرة إلى جوار البار القديم ، يتحدثون عن مباراة كرة القدم غدا ، وعن شئون لهم غامضة ومليئة بالأسرار والأرقام ، يقطعون جدية الحديث فيها بضحكات عالية حرة ، وعم السيد يخدمهم بحرص وإتقان ، فهم ضيوف صاحب المحل الجديد الذى يريد أن يوطد علاقته بهم .

لم يكن فى البار غيرهم سوى زبون أرمنى قديم ، يأتى كل يوم لكى يمضى فترة الظهيرة يراجع أوراقا كثيرة قديمة يخرجها من حقيبة جلدية ، أوراقا قد تكون أشعارا وقد تكون حسابات . لكنها تستغرقه كلية ، ليصبح منظره فى الركن ، تحت الضوء الخافت مثيراً للخيال ، كأنه بطل فى رواية روسية قديمة . وحيد وحدة مطلقة ولكنه راض وراسخ فى مقعده .

كان البيت الذى يقصده ، يسد حارة قديمة داخل حى الجيزة ، يقع إلى جوار كنيسة فى حوشها عدد من النخيل السامق العريق .

بعد أن صعد السلم النظيف ، وجد الباب الجانبى مواربا ، كان هناك زميلان قد حضرا قبله ولكن الاجتماع لم يبدأ بعد .

الكنب البلدى القديم على جانبى الحجرة ، وقد فرش بقماش ملون زاه ونظيف ، وفى الوسط منضدة رخامية بيضاوية يغطيها مفرش أبيض مشغول .

قدم لهم صاحب البيت الشاى ، واستمر بينهم صمت وقلق .. فقد كانت أخبار الاعتقالات تتزايد يوما بعد يوم .. وتشمل الصغار والكبار .

عندما جاء المسئول كان يبدو متعجلا وفى حالة غير طبيعية ، قال إنه سينهى الاجتماع بسرعة ، وطبعا سننصرف واحدا بعد الآخر ، لا أعرف متى يكون اللقاء ، المهم الأوراق ... الاعتقالات لا تهدأ ، سيصلون إلينا حتما ، المهم المحاضر ، محاضر الاجتماعات .. وكل الأوراق المطبوعة ، لا شىء يجب أن يبقى فى البيوت ، ولا لقاءات ، أحسن شىء هو التصرف بطريقة طبيعية ، البقاء فى البيت ، أو زيارة الأقارب ، إذا كان هناك وقت ستصلكم تكليفات جديدة ، والآن إلى اللقاء ، سأبقى هنا قليلا أرتب بعض الأمور مع الزميل .

كان وجهه طيبا وضخما ، وشاربه الكث يهتز من الانفعال . احتضنهم بحرارة وانتهى الاجتماع .

قبل أن يترك عبد الخالق الشارع نظر خلفه فانطبع على عيونه منظر البيت القديم والكنيسة والنخيل .

كان ينظر إلى ضوء الباب عندما لمح أحمد صالح واقفا ساكنا ضد الضوء ، ينظر إليه فرحا بوجوده . ثم أقبل عليه مبددا وحشته ، ناشرا حوله نوعا خاصا من المحبة الخالصة . فتح أحمد صالح قميصه وأخذ يجفف عرقه ، وملأ عم سيد المنضدة بالأكواب وزجاجات الصودا وزجاجة البراندى المعتاد الذى يشربون منه .

جاء أحمد صالح مبكرا قليلا لكى تتاح له فرصة الجلوس مع عبد الخالق وحدهما قبل أن يبدأ الصخب والضجيج .

منذ سنوات الاعتقال وهما يتبادلان تفاهما إنسانيا عميقا لا يتغير . أصبح أحمد تقريبا هو الصديق الوحيد الذى يزور عبد الخالق فى السويس بين الحين

والآخر ، لكى يمضى معه نهارا أو ليلة هادئة ليس لهما على بعضكما مخالب أو مآخذ . كفا عن الحكم والتأنيب ، وقبل كل منهما الآخر خارجا عن الأحداث والأيام . أحمد صالح يمده فى آخر الشهر بجنيهات يداوى بها حاله كما يقول . وعبد الخالق يسمع منه دائما أخبار مغامراته النسائية ، التى تقترب وتبتعد عن التورط فى زواج جديد ، وأخبار الألعاب القليلة التى يمارسها فى سوق الفضة والأشغال التجارية الجانبية التى تبقى المركب سائرا .

أما السياسة فقد صارت موضوعا يقتربان منه فى حذر ، يرددان أخبارا و طرائف ولا يغوصان أكثر من هذا حتى لا تبرز الأشواك ويحتد الكلام . ثم ينتهى إلى صمت خانق مرير .

الوضع الإنسانى هو موضوعهما المفضل يتفلسفان حوله فلسفة مكررة غير باهرة تدور حول : أن الضياع أو الهروب أو حتى الهزيمة ليست سوى نوع من الإصرار الأحمق على معان إنسانية أصبحت قديمة ومستحيلة . ولكنها هى كل ما يملكون ، ويتفقان على أن يتركا الأمر دون اقتناع كبير .

يقول أحمد صالح ، منذ أن نشر نسر صلاح الدين جناحيه جلسنا جميعا إلى جوار الحائط نبكى مع أننا لسنا يهودا . وعندما ضم جناحيه وجدنا أنفسنا فى العراء .

أصبح أحمد يشرب كثيرا وبنهم فى أوقات فراغه ، أصبح يحتد كثيرا فى جلساته عندما يدور حديث السياسة ، فيطلب منهم الصمت أو تغيير الموضوع ، ويحاول الاستغراق فى شرابه أو إعداد مزة مبتكرة جديدة ، وعندما يراه عبد الخالق فى هذه الحال فإنه يشعر بأن صديقه يستعجل نهاية ما ، فيشفق عليه ولا يدرى كيف يساعده .

أما أحمد صالح فقد كان يقول له . وهو يداعبه : أنت من تعرى على شط الحياة ولم يستحم ، أنت غواص فى كوب شاى .. شاعر بلا جنون . فيضحك عبد الخالق لكنه يظل يذكر الكلمات .

– ٨ –

كان البار قد بدأ يزدحم . عندما دخل فتحى نور الدين ومعه باقى الشلة كامل رستم المحامى المزدهر وناشد مراد الصحفى نصف المشهور .

أسرع عم سيد يعد لهم مائدة صغيرة حتى يجلسوا فى ارتياح . وامتلأت .. المنضدتان بالسودانى والطعمية ، وطلب رستم من عم سيد أن يأمر لهم برأس من الضأن تأتى لهم قرب النهاية ، وجاءت زجاجات البيرة والبراندى الوفير .

بدأ كامل رستم يخطب ويتلذذ بصوته العالى فتختلط الكلمات بصوت مضغ الطعام ، كان يحكى عن أسرار التعديل الوزارى المقبل لا محالة . وعن فضيحة البنك وزوجة صديقهم التى سحبت من فراش زميلة . وصديقهم الذى اشترى مطبعة وقطعة أرض ومازال يتكلم عن الكفاح والطبقة العاملة .

ثم مال رستم على ناشد الصحفى وأخذا يتهامسان بكلام نصف مسموع ، لعل أحدا يسأل أو يطلب مزيدا من التفاصيل .

كانت الضوضاء مع الخمر قد بدأت تخترق رأس عبد الخالق فقال لفتحى نور الدين الذى يجلس إلى جواره :

– أشتاق لهذه الحكايات ، لكن ما أن أسمعها حتى أصاب بالغثيان . ولا أطيق طريقته فى التلذذ بالفضائح والقذارة . كيف حال الأولاد ، و أمهم ، ستأخذنى معك بعد أن ينتهى هذا الهم إلى البيت ، أليس كذلك ؟ نعم .. نعم معى زفت يا سيدى . زفت من بتاع السويس .

ضمه فتحى نور الدين وهو يضحك فى فرح طفولى وقبل رأسه . قال عبد الخالق لنفسه وهو يراقب الأرمنى العجوز غارقا فى أوراقه ، وأمامه كأس الزبيب الذى لا يفرغ . يكفينى من الدنيا أن يكون لى صديقان مثل أحمد صالح وفتحى نور الدين . كان يريد أن يكف رستم للحظات عن الكلام ، وأن يترك الغبار الذى يثيره كلامه يهدأ ، ولكن فمه والطعام والكلام كانوا أمامه شيئا واحدا لا يتوقف عن الحركة ، فصاح عبد الخالق فى رستم قائلا :

– وبعدين .. وبعدين يا أبو العريف .

كان هذا التعليق كافيا لكى يخرج رستم مخالبه . برقت عيناه بنوع خاص من العدوانية . وتذكر عبد الخالق محاولات رستم القديمة لكى ينال منه ومن منى المصرى زوجته السابقة . وكيف كان يتكلم عنهما . وفى كل مكان . لقد حدثه عن منى بالسوء وحدثها عنه . كان يسعى بالوقيعة ملسوعا من سعادتهما التى لم تدم طويلا .

لمح أحمد صالح طيف الموضوعات القديمة يخيم على الجلسة حاول أن يوقف التدهور لكن رستم وناشد الصحفى كانا قد شكلا جبهة ضد عبد الخالق . وأصبحت العاصفة قادمة لا محالة .

عندما دخل مكتب الضابط الكبير ، استقبله الرجل واقفا وقال :

– طبعا الاستدعاء غير رسمى – ولولا الوقت لكنا تقابلنا فى مقهى – أريدك أن تشرب معى فنجان قهوة مضبوطا ، وأن نتحدث حديثا وديا .

قال فى غضب يحاول أن يتمسك به :

– لا أحب القهوة ، لا أحبها عندكم هنا على أية حال .

– لا داعى للحدة .. أنا أريد أن أكون صديقا .

– بكل أسف .. أنا لا أريد .

– نحن نعرف أنه لا نشاط لك الآن .. ولكنك تعرف الناس ، وهم يعرفونك ، نريدك أن تنسى الماضى . أنا أمد لك يدى .

– يا سيدى أنا لا أبيع .. ولا أشترى .. لقد أغلقت الدكان اتركنى فى حالى أرجوك .

ودعه الضابط غاضبا وهو يقول :

– الحمقى يضيعون فرص العمر ، ولا يطرف لهم جفن ، مع السلامة يا مسيرى .

كان رستم المحامى يواصل هجومه قائلا :

– يدك دائما فى ماء بارد . أنت تحب دائما المكان الدافئ فى الشتاء ، والطراوة فى الحر .

أسرع ناشد الصحفى بصوته الرفيع الطفولى يقول :

– ليس هو وحده . الجميع يفعلون ذلك .. الموضة الآن هى محاكمة كل من يتحرك . كل من ينجح فى شىء ما .

ها هم يحاولون أن يأكلوا كتفه من آخر الذراع مرة أخرى . لقد ترك لهم كل شىء ولكنهم يحومون حول جسده مثل الغربان . ابن البغى لا يستحى .

قال رستم وهو يضع قطعة كبيرة من لحمة الرأس فى فمه ثم يمسحها بكأس كبيرة :

– الأخلاق البرجوازية لا تسمح للواحد بأن يرى حقيقة موقفه أبدا ، لقد تعود الواحد أن يعيش وراء دخان تطلقه ذاته المتضخمة إنى أكره هذا التواضع والصمت الذى يخفى وراءه نوعا لا يغتفر من التعالى السخيف .

سحب عبد الخالق نفسا عميقا من صدره ، وأسند ظهره إلى الحائط ، حسب حساب أحمد صالح وفتحى نور الدين وعم سيد الجرسون ، كان فى الحقيقة يريد أن يبصق فى وجه الخطيب الكاذب ولكنه قال :

اسمع يا كامل يا رستم .. إن المؤامرة الشخصية التى تقيم عليها حياتك لا تسمح لك ولا تعطيك رخصة لأن تحكم على . إنك تحمل رخصا كافية لأشياء أخرى كثيرة . تركت لك ولأمثالك القاهرة ، صرت صاحب الصوت العالى ، المتحدث الوحيد . ورثت الجيفة . ورائحة كلامك تثير القرف . ماذا تريد بعد ذلك بالضبط .

أمسكه أحمد صالح من يده ، وجذب فتحى نور الدين كامل رستم إلى دورة المياه .

أما ناشد الصحفى فقد أخذ يتلفت حوله باحثا عن لحظة مناسبة للفرار .

وجاء عم سيد يلم الأكواب ويجمع ما بقى من طعام فى صينية معدنية . وقد خيم على وجهه وعلى المكان كآبة وحزن

– ٩ –

خرج عبد الخالق المسيرى ومعه فتحى نور الدين من البار ، فى هيئة جيش مهزوم .

قال فتحى :

– أنا مسئول عن هذه البداية السيئة .

استند عبد الخالق على ذراعه وقال :

– لا أحد مسئول ، إنهم هكذا دائما ، وهذه حياتهم ، ليس هناك شيء حقيقى يحدث لهم ، ليس عندهم شيء يفعلونه ، سوى أن ينشبوا مخالبهم فى أول شيء يتحرك ، هذه هى المتعة الوحيدة التى يعرفونها لا تهتم . نحن مازلنا معا . هذا هو المهم .

كانت مضايقات الناس ، وسخافة أقوالهم وأعمالهم تجد طريقها إلى سرداب فى نفس المسيرى فيقول لنفسه . وما لجرح بميت إيلام .

لمح حيرة طيبة وحرجا إنسانيا فى عيون صديقه فمرت على روحه ، نسمة ندية خففت من حرارة الشمس وضوء الشارع فى منتصف النهار ، ومن صداع الخمر والشجار وتلاشت من رأسه عيون الأصدقاء ، وكلماتهم الجارحة التى خرجت ممزوجة بالطعام الممضوغ ، والتى حاولت أن تهتك أستار عزلته التى ارتضاها لنفسه بديلا عن الموت أو الجنون .

من أجل هذه المشاحنات الحمقاء ترك القاهرة وحاول أن يستكين فى السويس ومن أجلها – أيضا – يعود فى زيارات خاطفة ، فى حلقة مفرغة من العذاب وتعذيب النفس ، يحتملها وحده ، وقد كفت أشعة الأمل أن تتسرب إلى داخله ، إلا للحظات كأنها دوائر ضوء تحت أشجار كثيفة ، تحرق هشيم نفسه ولا تضئ لعينيه طريقا .

توقف لكى يشترى سجائر وحلوى لأولاد فتحى وعندما عثرا على تاكسى أخيرا ، استقر هو فى المقعد الخلفى ، بينما جلس فتحى إلى جوار السائق يحدثه ويقوده وسط الزحام إلى بيته خلف ميدان السيدة زينب قرب زينهم .

فتحى هو الآخر زميل من أيام الاعتقال ، تعرف عليه هناك وليس لفتحى علاقة لا بالصحافة ولا بالثقافة ، كان موظفا إداريا صغيرا ، ارتبط ارتباطا هامشيا

بالشيوعيين .. ولكنه اعتقل وأمضى هناك أربع سنوات ، وعندما خرج تقلب فى البطالة وفى وظائف كثيرة حتى استقر أخيرا فى وظيفة صغيرة بشركة الكهرباء يحمل لعبد الخالق نوعا خاصا من الحب والإعجاب وتربطهما صداقة كأنهما أقارب أو بلديات .

استندا إلى جدار . وأمامهما صحراء مترامية ، وقطع صغيرة من أرض خضراء زرعها الزملاء بالخضروات .

سأل فتحى نور الدين عبد الخالق المسيرى بلا مناسبة :

– هل أنا خطر على الامن العام ، هل أنا خطر على مصر ؟ لم أحلم بالإضرار بأحد ، أراجع نفسى بالليل فلا أرى سوى أننى أردت الخير للجميع ، أنا فى الحقيقة معجب بعبد الناصر ، آراه شهما بطلا من الصعيد ، هل هو الذى وضعنا هنا ؟ هل هو الذى يأمر بالضرب والتعذيب . هل تفهم أنت ؟ اشرح لى أرجوك ، اشرح لى بكلام غير هذا الكلام المرصوص الذى يردده الزملاء الكبار ، فهو كلام يزيد الأمر غموضا بالنسبة لى .

قال المسيرى ، هو يتقاسم معه سيجارة وحيدة :

– كل ما أعرفه هو أننا نعيش كابوسا فى منتصف النهار ، هم يريدون أن يكسروا شيئا فى داخلنا ، يريدون أن يحولونا إلى بشر من نوع آخر ونحن نتمسك بما فى داخلنا كأنه الحياة ، المهم ألا نخرج من هنا على ظهورنا .

وظل فتحى وعبد الخالق يرددان هذه الكلمة لسنوات : المهم ألا نخرج من هنا موتى !

خرجا ولم يكونا من الأموات ، إلا أن حيرة غريبة وقفت حائلا بينهما وبين أن تعود الحياة كما كانت ، أصبحت تلك الحيرة هى الرباط ، كأن الحياة صارت بعيدة لا تلمس ، كأن الناس الذين يخوضونها بحماس ونهم مردة أو غيلان لا تشعر .

استقر فتحى نور الدين وتزوج من فريال لاعبة العرائس التى استطاعت أن تدخل إلى حياته ألوانا بسيطة وجميلة من السعادة ، كانت له زوجة وصديقة طيبة ، لم ترهقه أبدا بالأسئلة ولا بالمطامح ولا بالطلبات ، عرفت كيف تحول شقتهم الصغيرة التى حصلوا عليها فى المساكن الشعبية إلى بيت نظيف أنيق ، وأنجبت له محمد ونجلاء كانت فريال شيئا نادرا يدب على الأرض ، لا يستحقه سوى شخص طيب مثل فتحى نور الدين .

ظل بيت فتحى و فريال أجمل مكان فى القاهرة بالنسبة لعبد الخالق المسيرى ، فيه يستريح ، ويأكل وينام ، ويلاعب الأطفال ، ويمتد بهم السمر حتى الفجر .

الفقر هنا ليس جارحا ، والوحدة مطرودة ، والهم يبدده شاى جيد الصنع وخبز ساخن وطعام بسيط ، وفريال تتقن الدخول فى جمعيات تحل بها الأزمات الدورية ، وتتقن شراء الأشياء الرخيصة ، وخياطة الملابس والأقمشة الملونة ، فتبعث فى حياة زوجها وأولادها بهجة بسيطة ميسورة ، الشىء الوحيد الذى لم تفلح فيه فريال هو أن تطرد تلك السحابة الداكنة السوداء التى تحل أحيانا فوق رأس فتحى نور الدين ، فيغرق فى نوبات من الصمت والكآبة ، فيبدو وكأنه قد سقط فى جب أو عاد إلى المعتقل . ساعتها تحاول معه فريال بكل الحيل وعندما تعجز ، تأخذ أولادها وتزور قريبا أو صديقا أو تمضى ليلة عند أهلها فى الريف .

كان فتحى فى تلك الساعات يبدو كفلاح عجوز يبحث عن إبرة فى كوم من التين أو الهشيم .

ويقول فتحى لولا هذه المرأة التى تزوجتها لكنت الآن مجرما أو مجنونا .

كان يوما شتويا ، قرب رأس السنة ، التقى فتحى بعبد الخالق حوالى العاشرة صباحا ، جمعا فى الليلة الماضية نقودا تكفى المأذون ، والغذاء الذى قررا أن يكون فى كازينو الحمام ، وأن يكون هو العرس والزفة وكل الاحتفال .

جاءت فريال مع منى المصرى فقاما من المقهى ، واتجهوا جميعا إلى المأذون .

كانت فريال سعيدة ، أما منى فكانت تنظر إليهم فى حذر .

فريال ترتدى فستانا أزرق ، وتعتصر فى يديها حقيبة بنية صغيرة ، منى المصرى كانت ترتدى جاكت شمواه طويلا ، وفى صدرها مفتاح فرعون من الفضة ، كان فتحى منوما مأخوذا ، يبحث فى جيبه عن سجائر أو منديل ، وكانت منى تسعل سعالا عصبيا قصيرا أما عبد الخالق فكان يتصرف فى ثقة واستقرار غريبين عليه .

صعدوا إلى غرفة المأذون عن طريق سلم خارجى ضيق ، يتقدمهم عبد الخالق ، كان المأذون مضحكا متعجلا ، ظن عبد الخالق العريس ، قال عبد الخالق :

– يا ريت . ضحكوا . منى لم تضحك .

– فى الكازينو على النيل تأمل عبد الخالق وجه فريال زوجة صديقه ، لم تكن باهرة الجمال ولكنها كانت سعيدة وراضية بطريقة فريدة لا تنسى .

دخل فى الكرسى المجاور لها ، وقد فرد ساقيه ، وألقى رأسه إلى الوراء . من حق هذا الكائن المتعب أن يسعد وأن يستريح .

طول الجلسة كانت منى قلقة متوترة ، همست فى أذن فريال بكلمات لم يسمعها أحد وأصرت على أن تنصرف مبكرة ، بقى عبد الخالق مع العروسين حتى ركبا تاكسى قاصدين بيت أهل فريال فى الريف .

عندما التقى عبد الخالق بمنى فى اليوم التالى وعاتبها لأنها انصرفت مبكرة قالت فى تعمد وتحديد :

– أنا أحب فريال جدا ولكن طيبتها وسعادتها كانتا فوق احتمالى .

لم يفهم ، سألها مرة أخرى ، فقالت :

– كدت أختنق .

فسكت .

– ١٠ –

صافحه وجه فريال على باب الشقة ، استقبلتهما بترحاب وسعادة ، كأنها أم أو أخت فى صحن دار عامر وكريم كان وجهها مجهدا ، ولكنه مازال راضيا وسعيدا يحمل رائحة الأيام الطيبة ، فى وجهها شىء فلاحى رجولى ، طيب وشريف أفسحت لهما مكانهما المعهود على الكنبة إلى جوار النافذة ، وقالت :

– تأخرتم . الطعام برد والأولاد أكلوا ، هكذا أنتم دائما .

للبيت ضوء خاص لا علاقة له بالمكان الذى يقع فيه . له رائحة نظيفة وهدوء مرتب تتحرك هى فيه فى أناقة ودون افتعال ، أخرجت له جلبابا أبيض

نظيفا وأعد له فتحى الحمام ، فغسل عن نفسه كل آثار السفر وصداع البار ، كان فى الحمام نبات متسلق باذخ الخضرة رطب ، صورة فرعونية لأوز ملون ، للصابون رائحة نفاذة ، وكذلك للمنشفة كل شىء يحمل جزءا من روحها المجدة النظيفة التى لا تستسلم للهم أو للضيق . سأل عبد الخالق نفسه للمرة الألف كيف تعيش فريال بيننا ، ولا يلمس روحها التقاعس العام والإهمال وعندما يسألها كانت تقول ضاحكة : أنا لا أشغل نفسى بكلام فارغ لا جدوى منه .

تناول هو و فتحى طعاما جيد الطهو ، ذا مذاق خاص ، ولف فتحى سيجارتين بينما أعدت لهما فريال الشاى بالنعناع ، فتح النافذة ذات القضبان التى تطل على ساحة يلعب فيها أولاد الحتة الكرة ويثيرون غبارا وضوضاء ، إلا أن هدوء البيت ونظافته ينزلان عليهما سكينة وهدوءا خاصا .

فى الشقة التى عاش فيها مع منى كان هناك توتر مخزونٌ وقلق دائم ، كانت منى تخرج وتدخل باستمرار كأنها عاصفة ، تغير ترتيب الأثاث كل بضعة أيام . عندها دائما أفكار جديدة ، كانت مجنونة بالستائر ، تبحث عن لون يحتمل تراب القاهرة ، ولا يكون داكنا . لا تريد القماش الفاخر الغالى ، تكره القماش الرخيص المطبوع ، لا تطيقه .

اشترت جهاز تسجيل لكى تسمع عليه الموسيقى الكلاسيك ولكنها أرادت أن تسمع مع عبد الخالق كل المصحف المرتل بصوت الشيخ مصطفى إسماعيل . هى مسيحية لكن قلبها مسلم ، هى لم تغفر لنفسها أبدا أنها ارتبطت به . تنتابها لحظات صمت وبكاء ثم تخرج وتعود له ببعض الأزهار .

لم تكن تطيق أن يزورهم أحد ، هى تريده لها ، لا تعرف كيف تتحرك أمام الآخرين فى البيت . السندباد كالإعصار ، إن يهدأ يمت ، تشرب معه ثم تضيق

برائحة الخمر . الحياة معها كانت حلما مشحونا بالألوان ، لم يكن لليوم أول أو آخر ، كانت الساعات تتراكم أو تتساقط أو تستطيل ، تقول له أنت مركز العالم ، أنت قلب الدنيا ، هى التى كانت كذلك ، ولكنه لم يقل لها ذلك ، ساحرة كانت تفلت من يده كشعاع الشمس .

قالت فريال وهى تحمل فى يدها خطابا أزرق صغيرا .

– جاء هذا من كندا منذ أسبوع ، من منى ، ألا تريد أن تقرأ ؟ به صور لها وللأولاد . ألا تريد . أخذ الخطاب والصور ، جرى على السطور وجد اسمه . إنها ترسل له سلاما خاصا وتريد أن تطمئن عليه .

كم تبدو المسافات بعيدة .

وتلك التلال الخضراء التى تبدو خلفها فى الصورة . هل شاهدها قبل ذلك فى فيلم .

دقق فى ملامحها ، هل تغيرت ؟ جاء إلى فمه طعم شفتيها الحاد .

وضع الصور فى الظرف وناوله لفريال ، التى نظرت إليه ، ولم يقل أحد شيئا .

اندفع الأولاد محمد ونجلاء من باب الشقة ناحية عبد الخالق الذى استقبلهما فى حضن جلبابه الأبيض . كانت بهما شقاوة وعواطف فياضة . امتلأت بهما الصالة وتبدد ما كان قد خيم عليها من صمت ، انشغلت فريال بهما للحظات ، وقال فتحى فى جدية مفاجئة :

– مش عارف .. موضوع السفر – أيه رأيك .

مش عارف أكلم فريال فى الموضوع ، رأسها مثل الحجر .

كان هناك مشروع قديم مؤجل ، لكي يسافر فتحى نور الدين إلى الكويت مع زميل له فى العمل . العرض قائم ، ولكنه قد لا يبقى كذلك . فريال تقول لا . تقول لو سافرت سأموت ، هكذا رأيت فى الأحلام . واحد منا سيموت ، فتحى يقول ، الأولاد لا شىء عندهم ، لا شىء . و فريال تقول لا نريد ، لا شىء ؟ كل هذا ولا شىء .؟ كل هذه النعمة ولا شىء ، أن نقفل علينا الباب وأن نراك بيننا ، تغضب وتضحك ولا شىء . أنت لا تقدر كل هذه النعم . اسأل عبد الخالق المسيرى ، لو وافق .. أنا موافقة .

ولم يكن عبد الخالق موافقا لكنه كان يرى أن رغبة فتحى فى السفر تتزايد . كل شىء حولهم يضيق ، ولا شىء يتغير ، فريال وحدها مصدر الحياة والأمل . ولكنها هى الأخرى متعبة ووجهها متعب ، وملابسها قديمة . ويداها خشنتان من المسح والغسيل الشجاعة تنزوى فى الأركان ، الحياة الشريفة أصبحت تحتاج إلى أنبياء .

فى ٩ يونيو ٦٧ نزل عبد الخالق مع فتحى من نفس هذه الشقة ، بعد أن سمعا عبد الناصر يتنحى ، كانت أمواج من البشر تخرج معهم ، والمدينة مظلمة تضئ سماءها قنابل الصوت والضوء ، وقنابل أخرى بعيدة تنفجر فى الجبل وعبر النهر .

عندما وصلا إلى ميدان التحرير كان التعب قد هدهما وسد حلقهما الصمت والتراب ، اشتد الضرب فى السماء فجلسا على الرصيف والميدان أمامهما يضئ وينطفئ . خرجت نسوة متشحات بالسواد قادمات من حى عابدين كان صراخهن كئيبا ومخيفا .

قال عبد الخالق :

– بطلك الصعيدى تركنا .. والسماء تنطبق على الأرض . كان فتحى يبكى فى صمت وقال :

– اسكت أرجوك .

كانا قد تركا فريال وحيدة فى الشقة الجديدة ، تبكى وقد أغلقت الباب على نفسها فى حجرة خالية من الأثاث .

استمرا سائرين بلا اتجاه فى شوارع وسط البلد . من كل الحارات والشوارع الجانبية كانت جموع من الرجال والنسوة والأطفال تخرج لتغمرهما بضجيجها للحظات ثم تنحسر عنهما وتخلفهما وحيدين بلا اتجاه .

أمام محل حلوانى كان معلم سمين يجلس فى هدوء يدخن الشيشة بينما صبيه قد خلع ملابسه كلها ما عدا سروالا قصيرا وأخذ يسكب الماء على رأسه من جردل كبير ، ويغمر الشارع حوله بالماء وهو يصيح ، حريقة حريقة .

كانت فريال تعد لهما شايا جديدا ، بعد أن صرفت الأولاد مرة أخرى ، عندما جاءت تحمل صينية الشاى كان فى عينيها دموع .

جلست على منضدة لهما ، وقد جمعت رأسها بين يديها .

– أنا مثل أمى أحلامى لا تنزل الأرض .. أرى نفسى أموت لو سافرت سأموت .. هل هذا ما تريد .

رد فتحى فى محبة :

– يا ستى خلاص .. خلاص ينعل أبو السفر وسنينه ، قلها يا عبد الخالق .

ظل فتحى بقية المساء يحاول أن يستجلب جوا من المرح . ولكن فريال كانت تقوم وتختفى فى إحدى الغرف ثم تعود وقد احمرت عيناها وتورمتا .

قام عبد الخالق ، ودخل إلى غرفة الأولاد لكى يخلع جلبابه وعاد يرتدى القميص والبنطلون . تمسكا به ولكنه كان مصرا على النزول .

– إلى أين ..

– أبدا .. لا أدرى ..

ولم يفلح معه أى إلحاح .. وهو يغادر الشقة لمح الخطاب موضوعا على المنضدة فكر فى أن يعيد قراءته ، أو أن يعاود النظر فى وجهها مرة أخرى ولكنه انصرف ، قال وهو يغلق الباب :

– قد أمر غدا قبل السفر .

– ١١ –

لابد أن يكون لعبد الخالق المسيرى بيت ، وأن يكون له – أيضا – وطن . هكذا خاطب نفسه باللغة الفصحى وهو يهبط سلالم عمارة المساكن الشعبية ، تاركا بيت صديقه الذى يحبه ، فى حالة تصدع وكأنه مشرف على الانهيار .

تلك الرغبة القاسدة ، المفسدة فى السفر بحثا عن المال . من زرعها ، وكيف تنمو هكذا فى كل مكان . من الذى سيبقى إذن ؟ الكل يرغب فى السفر ويتحايل عليه ، ومع ذلك مازالت الشوارع مزدحمة ، ومازالت المدارس تقذف بالأولاد فى الفسح وفى نهاية الدورات وكأنهم قطعان غير مهذبة وغير مرعية ، أين البيت ؟ وأين الوطن ؟

كان يخترق تلالا من التراب ومن أكوام الزبالة ، ويخوض فى خرابات كانت حدائق أقيمت فيها بيوت خشبية للإيواء السريع ، الغسيل فى الشوارع ،

وحلل الطعام على النوافذ والنسوة يتحلقن حول التليفزيون فى مداخل الغرف المفتوحة على الشارع .

لم تستطع عيونه أن تتعود أبدا على هذه الفوضى التى لا اسم لها ، إنها ليست فقرا ليست تخلفا ، إنها حالة مرضية تسلبه الهوية والشعور بالانتماء ، مازال للبيت معنى وصورة فى ذهنه ، كذلك مازال للوطن معنى وصورة ، صورة خضراء بها فلاحون يعملون فى حقل ، وعمال يخرجون من مصنع ، وأسطوات يعملون في ورش تقع فى حارات رطبة ونظيفة ، وتلاميذ ينتظمون فى صفوف دراسية ، لم يعد يرى هذه الصورة ، تحيط به تراكيب جديدة مشوهة ، يتوسطها التليفزيون الذى لا يكف عن الإرسال ، يخطف الأبصار والعقل بتداعيات الصور ووميض الألوان يتكلمون فيه عن مصر غريبة ، مصنوعة من ديكورات ملونة وأنوار كاشفة وصبية وفتيات يتمايلون فى خلاعة ويرددون اسم مصر فى أناشيد وطنية تتميز بالرقاعة .

لا تخلو نافذة من تليفزيون ، ورجال ممدون على الأسرة أو الكنب ، أمام التليفزيون ، وأطفالهم أمامهم على الأرض يغوصون بأصابعهم فى أطباق طعام له روائح نفاذة .

الليل مازال فى أوله ، المسلسل التليفزيونى يشد الناس جميعا ، فيسود صمت فاجع ، كأن وحشا أسطوريا يزور المدينة كل يوم . فيغتصب النساء ، ويسلب الرجال قدرتهم وعقولهم ليتركهم بعد ساعة غير صالحين لشىء ، كأنهم مدافعون أغبياء عن مواقع مهزومة .

تنفس الصعداء عندما صعد إلى الشارع الكبير ، وخلف وراءه الحى الذى نما بلا منطق ولا اسم كأنه مستنقع صناعى يموج بالبشر ، العربات

السريعة تجرى فى الشارع معلنة بأضوائها الباهرة ولونها اللامع انفصالها عن كل شىء واستهتارها بكل ما يحيط بها من بشر وعلاقات .

ظل يصعد فى الشارع وهو لا يدرى إلى أين يذهب بالضبط كان يقول لنفسه لقد أوغلت فى السفر يا مسيرى ، السفر فى نفس المكان ، وما يحيط بك غريب ومفاجئ لا تعرفه ولا يعرفك ، لقد صرت عجوزا ولا يحق لك أن تبدأ من جديد .

لامس الهواء الجاف القادم من الجبل - عبر المقابر - العرق الذى يبلل وجهه ويده أعاده إلى حالة لينة من اليأس المعتاد . تعود أن يحمل يأسه معه فى سير طويل بلا اتجاه كأنه قاصد إلى قلب الغربة أو الفراغ .

ليس من المؤكد من قال هذا ، ولا متى قاله ، وليس هناك شهود معتمدون . لكنهم اتهموه بأنه يعمل مع البوليس ، هكذا ، مع البوليس ، مخبر وكاتب تقارير ، اتهموه بأنه ينسق مع المباحث لكى تخترق جلساتهم وتعرف كيف يفكرون .

كان التوقيت مرغبا ، عقب أن هجرته منى المصرى ، وسافرت . يدور فى الشوارع ، وبيوت المعارف ، والأصدقاء يسكر ويضيع وينام فى أى مكان يمضى النهار نائما والظهر فى مقهى . يمضغ الصداع والإسبرين ، وفى الليل يبحث عن مأوى جديد يتجنب الأصدقاء المقربين ، ولا يحب أن يقرب بيت الأسرة كان يغوص وحيدا ، ذقنه غير حليق ورأسه مشتعل بالقسوة والدمار ، يتلاطم مع محيط دائرة بلا مركز ، ويسقط فى نوبات طويلة من تعذيب النفس والإشفاق عليها ، ويشترى بكل ما يملك زجاجة خمر ردئ ، المصائب لا تأتى فرادى ولكنها تتجمع وتتوالى على رأس الضعيف .

والساعة قد قاربت الرابعة ظهرا ، فى يوم شتوى كئيب عندما دخل إلى المقهى الجانبى الرخيص الذى يتجمع فيه بعض المثقفين ، دخل حاملا همه ، وصداعه الدائم كانت عيونه تحرقه . طلب الشاى ، وأسند رأسه بيديه لكى يغطى عيونه الملتهبة .

عندما رفع يديه من عينيه رأى أمامه فحلا طويلا من المجموعة التى تجلس إلى جواره . مال الفحل واستند على منضدته وقال :

– رائحتك أصبحت كريهة ، لولا ماضيك ، وكونك رجلا كبيرا ، لكان الحل علقة لا تنساها ما بقى من عمرك ، لكننى أحذرك من المجئ إلى هنا مرة أخرى .. يا مخبر يا ابن الكلب .

إنه لا يتقن الشجار .. ولم يتعود أن يستعمل يديه ، ولكنه قذف الفحل الزئيم بمقعد مجاور . استعدت المقهى لمعركة بالأيدى والأكواب والمقاعد .

– أنا مخبر يا ابن البغى .. أنا مخبر ، وعليك أنت ، وما قيمتك ماذا تفعل ، ومن أنت ؟

ظل يقذفه بالأكواب والكراسى ، ويبصق عليه ، والفحل يتقافز والناس تحول بينهما .

ضمه الجرسون وصاحب المقهى ، وسارا به بعيدا حتى الناصية وطلبا منه أن يقصر رجله عن المكان قليلا فهؤلاء لا يعرفون التفاهم .

أصابه الحادث فى أم رأسه ، وظل راقدا عند فتحى نور الدين و فريال لعدة أيام حتى استعاد توازنه ، وعاد مرة أخرى إلى الطريق .

وصل إلى الحدائق الخضراء الواسعة المقامة تحت القلعة ، وكأنه صحا فى مكان غريب نظيف مفروش بالخضرة وبالأضواء . مبنى القلعة العالى المضاء يحجب عنه المدينة بكل ما فيها ، وهو يخطو تحت النور ثم يندس فى الظلام فى لعبة تسرى عن روحه وكأنه قطعة شطرنج على رقعة فسيحة .

كان هناك رجل عجوز يدور على النجيل الأخضر وفى يده خرطوم كبير ، تنساب مياه غزيرة مندفعة ، يروى الأرض فى استغراق وإتقان . وقد شمر بنطلونه وبدت سيقانه رفيعة قوية ثابتة فى الأرض ، عربات صغيرة ركنت جنب الحدائق ونزل منها ركابها . فتى وفتاة وسيدة وأولادها . كان يسود المكان هدوء واتساق . زاده هذا إحساسا بالغربة فإن تجاور الأشياء ، الشىء ونقيضه ، أصبح يخيفه ، هل هذه هى الحقيقة المحيطة به . أم أن هناك فسادا فى قدرته على إدراك الأشياء والربط بينها . أن تصبح الحياة مشاهد متجاورة أو لحظات متتابعة لا يشدها شىء ولا يدفعها شىء هل هكذا يبدأ الجنون والانفصال .

ظل يمارس لعبة النور والظلام . ينتقل من بقعة مضيئة إلى بقعة مظلمة ، وهو يقول لنفسه : منذ مدة لم أتذوق اللون الأخضر ، لم أعد أذكر أن فى حياتى ألوانا ، إننى أتردد فى خط لونى قصير : يبدأ بالأبيض ويمر بالرمادى وينتهى عند الأسود . أين ذهبت باقى الألوان ؟

كانت هذه رحلة الرحلات ، فيها اجتمع مع منى المصرى وذابا واختلطا وقررا الزواج . حياته قبل رحلة مرسى مطروح شىء وبعدها شىء آخر . الأيام العشرة التى قضاها معها هناك فى آخر سبتمبر من ذلك الزمن البعيد ، لها

سلطان خاص على القلب والروح ، تعود ذكراها كأنها القمر أو حليب مصفى . ليس لها حدود جارحة تنساب على روحه كأنها غفران يمسح ما يحل به .

كان زمانا غير هذا الزمان ، لو سئل فيه لما تصور أن تصير الأمور إلى ما صارت إليه .

الماء أزرق والرمال بيضاء ، أقدامه العارية وأقدامها تتلاقيا فى قلب ماء دافئ وجسدها القوى الحر الملئ بالأسرار يبعث فيه نشوة وهدوءا ، لأنه قريب ومستحيل .يبزغ ويغيب مثل الشمس هناك .دائما فى فرح واحتفال سرى غامض يخصه هو وحده .

أيام حسن فيها الحظ ، واستوت الريح فى الشراع .

كانت قد أخذت منه وأعطته فى أيام تعارفهما الأولى فى القاهرة ، كل ما يؤخذ ويعطى . كانا معا فى كل مكان وفى لا مكان – وكان رفيقهم الشعر – تقول له : كل ما تلامسه يضئ . الشعر على طرف لسانك ، أذوقه وأنت تقبلنى ، هو الحل ، والخلاص لك . ولدت لى ولكى تقول الشعر . يقرأ لها قصائد مما يحفظ فتطلب أبياته هو : وتهب كالموج الغامر تضمه فى تحقيق لم يحلم به . تتوالد معها الأشعار تتوالد وإن لم تكتب . وتختلط بالأحلام الغضة العذراء .

قرارهما السرى الذى اتخذاه هو أن يكون شاعرا فقط . يكتب حبه وأحلامه للناس . وذابت قضايا وصراعات كثيرة على لسانها ولسانه ومحت بجسدها وروحها صفرة الصحراء وعذاب الاعتقال .

كانت هناك دائما ، رطبة ندية ، تحمل له طعامه وشرابه ، وظله وتدفع عنه الضوء والضوضاء .

كان يعمل بالترجمة فى إحدى الوكالات الأجنبية ، نقوده كثيرة وإن لم تكن منتظمة ، أما هى فلم تعرف أبدا حاجة للنقود . كان المشروع ألا يرتبط هو بعمل منتظم وأن يضع لنفسه معها تفرغا متصلا للشعر وكان للمشروع تقاسيم وتفاصيل كثيرة ، يزوران فيها القرى ويجمعان الرقص والأغانى وأشكال النسيج والفضة والفخار ، وتجمعت فى حقيبتها أوراق كثيرة وكتب ، وعناوين ، يفردونها فى المقاهى ويقضون النهار فى ترتيبها وإعادة الترتيب .

بعد أن كاد الصيف ينتهى قررا أن يذهبا إلى مرسى مطروح وكان مفهوما بينهما أن هذه الرحلة هى لأخذ القرار ، وتحويل المشروع ، عملية واقعية يتحدون بها اختلاف الدين والوضع وكل تلك الاختلافات التى قام فوقها ذلك الارتباط العاصف الغريب . كان مفهوما – بينهما أيضا – أن كلها اختلافات جوهرية وهامة – ليس فى حد ذاتها ولكن لأنها متباينة فى حياتهما فى تركيبهما الشخصى . وكان اكتشاف أى اختلاف جديد يعنى اكتشاف فرصة جديدة للقاء .

ذهبا بعيدا ساعة الغروب . كانت تقترب منه وتبتعد . وكان يشعر كأنها الهواء الذى يتنفسه .

عندما التفت إلى الوراء وجد أصوات المدينة قد اختفت تماما . كذلك الناس لم يكن هناك أحد . ليس على الشاطئ الأبيض الممتد بلا نهاية ، سوى قارب قديم رابض على جنبه لا يصلح للإبحار .

ارتجف فجأة وهو يسير على النجيل الأخضر ، وكأنه أحس بها تسير إلى جواره . نفض عن نفسه البارق الغريب . عبر شارع صلاح سالم قاصدا المقهى القديم الواقع فى حضن الجبل .

صار المقهى الحجرى البسيط كازينو ، بطريقة رديئة . أعيد تنظيمه ، فاختفى الجبل ولم تعد تراه أو تشعر به وامتلأ المكان بلمبات كهربائية ملونة ومناضد مخبوءة سيئة القصد .

تردد فى أن يجلس ولكنه رأى منضدة بعيدة تطل على الجرف المنحدر . أمامها الأحجار الكبيرة المقطوعة من الجبل . ملقاة بلا نظام . كان هناك شىء حقيقى قوى الوقع فى ذلك الفراغ البدائى المنظم الذى تطل عليه المنضدة ، فجلس يواجهه وقد أعطى ظهره لدمدمات الناس فى المكان .

– ١٣ –

حدق فى الظلام الذى أخذ ينتشر فى الهوة العميقة التى أمامه . فلم تضايقه كتل الظلام بل بعثت فى نفسه سكينة . وأخذ جسده يتراخى ويستقر فى المقعد عندما جاءت الشيشة وشد منها أنفاسا طويلة صعدت إلى رأسه .

يوم آخر وليل آخر . الخميس ينتهى . ولم يحدث شىء ، سافر ولم يسافر، لم يغادر نفسه . ولن يغادرها أبدا . الحصار الخفى الذى يحيط به ، لم يعد يزعجه كثيرا يلتفت إليه ، فيشعر به ، فيدفعه عن نفسه ، بدمدمة لحن أو كلمات . أخذ الليلة يردد "كهيعص" يرددها دفعة واحدة ثم يعيدها ممطوطة منغمة ، وعلى سحر الحروف فيها يرضى بوحدته ويقبل وجوده الغريب هنا وحيدا . تمنى لو كان معه كرسى قديم وقلم ، وخط فى بحار الصفحات حروفا وكلمات وأشكالا معلقة فى الهواء . لم يجد سوى المفرش الذى يغطى المائدة فظل ينقر عليه بأصابعه وهو يشرب الشيشة وعصير الليمون البارد .

رفع أبوه – قبل أن يموت بسنوات – قضية على المصنع الذى كان يعمل به موظفا قديما فى الحسابات ، لكى يطالب بتعويض أو مكافأة ما يراها حقا له .

ظل يتكلم فى القضية ليلا ونهارا لسنوات . يراجع مذكرات المحامين ويرجع إلى كتب فى القانون ، ويمضى نهاره فى صحبة وكلاء المحامين والمحضرين متنقلا بين المكاتب والمحاكم ويستعين على ظلم الظالمين – إلى جانب كل ذلك – بالصلاة ليلا وقراءة القرآن .

كان قد بنى بيتهم القديم على يديه ، فى أطراف الدقى التى كانت حقولا . استنزف البيت كل ما ادخره ، واقترضه أو تحايل فى الحصول عليه ، واستغرق بناء البيت حياة الأسرة كلها : أبوه وأمه وأخوه . وأخوته البنات وأيضا .. هو . دارت حياتهم حول هذا البيت : غرفه الواسعة ، وحديقته الصغيرة ، وعناية أبيه المبالغ فيها بكل تفاصيل البناء ، والنجارة والتشطيب ، وخوفه الدائم من «العوايد» والضرائب ومن تسرب المياه فى الجدران .

وبعد أن استقام البيت واكتملت جدرانه وأسواره ، عصف بأبيه «مشروع» جديد بأن يبنى فوقه « الدور الثانى » استطال المشروع واستبد ودخل فى حيز التنفيذ كان العزم قد وهن وارتفعت الأسعار وبلغ هو الستين ، استحدث لنفسه قضيته الجديدة المسيطرة .

ولم يكن يملك سوى أن يسمع له ، يلفه حب أخرس لذلك الرجل العجوز الوحيد ، الذى يموت أمامه بالتدريج من جراء الهم والضيق الذى يحمل به نفسه فى الصباح والمساء .

كان حصوله على هذا التعويض يعنى كل شىء . يعنى انتصارا ما ، وإكمالا لهذا البناء الشبحى الذى قام فوق البيت ولم يكتمل . كان يعنى نهاية طيبة وشىء تحقق ولكن حكم المحكمة كان رفض الدعوى وإلزام المدعى بالمصاريف .

فى أيامه الأخيرة كان يسحب جلد خروف أبيض ، ويصعد إلى السطح وقد توضأ وترك الماء يجف على وجهه وجلبابه الأبيض . وهناك فى بقعة نظيفة فى السطح بين الأعمدة ، يقيم صلاة هادئة مستقرة لا تنتهى .

كان هو يراقبه عن بعد ، وقد جلس عند مدخل السطوح يلفه ظلام ، ثم يضئ جلبابه الأبيض نور شاحب .. ومات .

شهر وأسبوع لم يذهب إلى البيت .. لم ير أمه المريضة ولم يزر أخاه ولم يسمع شيئا عن أخبار أخواته البنات . يذكرهم فتستيقظ فى نفسه عواطف متناقضة من المحبة والإنكار وخيبة الأمل . لكنه يراهم جميعا غرباء بعيدين ما عدا أمه . التى تنتزع ذكراها قلبه من موضعه ، وتبعث فيه رغبة فى أن يهم من مجلسه ويذهب إليها .

لكنها الآن بعيدة مريضة ، تحرك له أصابع يديها المعروقتين ، وتبتسم فى وجهه ابتسامة شاحبة ، ويتركها وهى مازالت تدور بعينيها المندهشتين على وجهه وجسده ، تحب أقراص النعناع وكولونيا ماء الليمون ، وسجائر قليلة تدخنها خفية ، وهى راقدة مستسلمة لرعاية وتسلط العائلة الجديدة التى أقامها أخوه فى البيت .

منذ عامين والجسد ساكن والأدوية ثابتة ، والجميع ينتظر أمر الله سترحل هى الأخرى قريبا إلى ذلك المعلوم المجهول .

كانت ساعة حرجة بين العصر والمغرب ، النافذة مفتوحة ولكن الضوء خانق كان يدخن سيجارته إلى جوار النافذة ، بينما منى المصرى قد جمعت ساقيها وكورت جسدها على الكنبة فى نصف ظلام . قالت ليس أمامنا سوى أن نكون عمليين . ثقل وقع الكلمة على قلبه كان الصوت ليس صوتها قالت : هى قررت أن تسافر تريد بيتا وأولادا وهنا لن يكون لها أبدا أولاد . هذه الحياة ، لا يمكن ، لا معنى لأن أقف على كتفك ، أو تقف على كتفى كلنا نغوص ، نغرق .

أخرجت سيجارة ودخنتها ، أدار وجهه ناحيتها ، لم يستطع أن يرى تفاصيل وجهها المختبئ تحت الشعر والظلام . كانت قد اتخذت قرارها منذ أيام . ما الذى أفزعها بالضبط ؟ هو ؟ أم كل شىء حولها .

كل الكلمات والمحاولات كانت تنقل إليه شعورا واحدا بالنهاية وبالمستحيل .

فى الحمام حاول أن يتماسك ، ولكن عمودا من فراغ كان يدق من رأسه إلى قدميه قال لها : لنخرج لنأكل شيئا فى الطريق .

كانت نار الشيشة قد انطفأت ، عبث بأصابعه فى بقايا الدخان ، ولم يشعر بشىء ، فكر فى أنه قد يكون سقط من فوق هذا الجبل ولم يشعر . موجود هنا على هذا المقعد بعد السقوط . حجر من الأحجار ، لكنه لا يثير غبارا ولا يسمع لسقوطه ضوضاء .

قام واقفا ، وهو يسأل نفسه إلى أين ؟ إلى النيل أم إلى سيدنا الحسين .

كان النيل بعيدا ، أما الحسين فليس عليه سوى أن يقطع الشارع . ويسير بحذاء المقابر ، فيجد نفسه هناك .

– ١٤ –

سأل عبد الخالق المسيرى نفسه ، أيهما جاء أولا : الليل أم النهار ؟

أجاب مسرعا : « الليل مصباحى » ، ولدت فى الليل ، وأرى نفسى فى الليل أموت .

خرج إلى الطريق بعد منتصف الليل لم يكن ليله مشروعا من المشاريع التى تصنع فى المناضد المزدحمة بالرجال والنساء ، أو فى السيارات التى

تخترق المنحنيات إلى مقاصد مبهجة مضيئة . كما لم يكن ليلا حانيا فى غرفة تبقى نوافذها مضاءة حتى الفجر . كان ليلا مطرودا . جافيا ، جفت فيه المباهج والدموع .

يدخل فى الليل إلى الشرنقة القديمة ، إلى غرفات ضيقة خالية من الأثاث . ويكون وحيدا . سكون يتصاعد ويبقى رأسه خارجا ، ينظر ويتنفس. تغلق صفحات الكتب .

هو لا يحلم كثيرا فى الليل ، النهار هو العذاب الحق . الذكريات بالليل يحيطها عازل من الصوت ومن الصدمات . فى الليل يجد نفسه ثقيلا ، ثابتا على الأرض . أما النهار فإنه يقتلعه ويقذفه ويصنع به ما يشاء .

أسفلت الشارع يلمع صاعدا ، هابطا يحده من الجانبين كتل من ظلام المقابر المغبر تتناثر فى داخله بقع من الضوء تقاوم الانطفاء ، وعبد الخالق المسيرى يقطع المسافة التى أمامه حتى ميدان الحسين مسرعا متأكدا من مقصده كأنه ذاهب إلى محل عمله ، يسقط ظله أمامه طويلا نحيلا يجذبه إلى عالم مسحور لا يصل أبدا إليه .

يتنفس هذا الأبد الذى يحيط به . الأبد الذى لا يقبله ولا يرفضه . يخترقه ، يسير خلاله ، ويشعر له بكثافة ككثافة الماء المالح ، يطوح ذراعه اليمنى فيه وهو يسير كأنه يريد أن يدرك بها شيئا ، أما ذراعه اليسرى فهى مدلاة إلى جواره يتحسس بها وجوده .

كشافات السيارات المبهرة ، وغبار المقابر ، وبقايا اليوم المتصاعد من المدينة الراقدة فى الظلام ، يأخذونه جميعا فى رحلة عبر زمانه ومكانه ، رحلة مكررة من الكشف المحبط والتحقق المستحيل .

يفكر ، ولا يفكر ، تتعثر الأحلام فى الأحجار ، ويتصادم الإقبال والأدبار فى الحوارى الضيقة التى صارت هى كل تلافيف دماغه .

ركنت روحه إلى شاطئ مهجور ، قارب قديم ، تشربت أخشابه بالماء وتفتتت حوافه فى الرمال .

فى الغرفة الداخلية ، طاقة نور وحيدة ، مغطاة بالسلك والعنكبوت تسقط منها أشعة ثابتة مليئة بالغبار . يقع تحتها دولاب الفخار يديره رجل صامت ، تتحرك ساقاه ويداه على طين رطب ، فتتصاعد أمامه أشكال من الأوانى والقلل ، فيما يشبه السحر . يحملها صبيه ورجال ، إلى ساحة واسعة تحت الشمس ، تقع أمام بناء غريب الشكل ، تطل منه نيران قديمة ، تحرق الحجر وتضئ فى النهار .

فى أطراف المكان أشجار كافور وسنط تحتها " قلل " مكومة كثيرة ، وآلاف من القصارى " الفخارية " المرصوصة كالطرابيش ، وكلاب تتمطى فى الشمس .

وهو صبى كان يذهب إلى هناك مع أخته ، لكى ترسم العمال والمنظر الطبيعى . تحمل معها الأوراق والأقلام الفحم وتأخذه معها لكى يؤنسها ويحميها ، فقد كانت تخاف من الكلاب .

أبدا لم يتكلم ذلك الرجل الجالس خلف الدولاب . كان يرفع عينيه إليهما فى إهمال ، ثم يعاود التحديق فى الطين الطرى الذى يتشكل تحت يديه .

كانت رسوم الرصاص والفحم ساحرة بالنسبة له ، يتأملها فى طريق العودة ، ويفرح هو وأخته بها . لكن استغراق الرجل فى الطين والدولاب ظل سرًا غامضًا يتحدى الاختراق .

الميدان يضج بزحام مفاجئ وضوضاء ، كأنه جزيرة يصب فيها كل ما بقى فى المدينة من حياة ، دخل إلى الميدان مع عربات الجرائد التى تلقى على الأرض بأكوام من الورق محدثة صوتا مكتوما يضيع وسط النداءات المسعورة التى تنطلق من حناجر الرجال والصبية وهم ينادون على الجرائد . وكأن هناك ثورة أو انقلابا . تسربت النداءات إلى عدد من الشوارع الجانبية ، وبقيت أكوام الجرائد على الأرض . وقف يتأمل عناوينها . ثم اشترى واحدة منها ، وهو لا ينتظر أن يجد شيئا يقرأ . لكنه وقف يقلب صفحاتها ويراقب حركة الميدان وهى تعود إلى سابق عهدها قبل ضجة قدوم الصحف .

كان واقفا تحت عامود من أعمدة النور ، يفتش فى الصفحات الداخلية عن خبر طريف أو جريمة مثيرة . بعد أن انزلقت عيونه على التصريحات المكررة والأخبار المعادة .

من أجل هذا جاء إلى القاهرة ، من أجل أن يقرأ الجرائد مبكرا فى سيدنا الحسين . عادة قديمة تمتد إلى أيام كان يشعر فيها أنه يضع يده على نبض قلب حبيب . رأسه والجريدة الآن يدوران فى فراغ عقيم . يستعجل نهاية الخبر قبل أن يقرأه ما بين مبتسم وغير مصدق ، ويتوقف عند المقالات والأعمدة كأنه يحصى مصارع الرجال .

وجد مقالة لزميل من السنوات القديمة . كان يرتدى مسوح الكهان الزاهدين . يقرأ الكلمات وكأنه يسمعها منه ، كاذبة ، ملوثة . لا تخفى سوى شبق غريب للحياة والمتع . صعد ببصره إلى رأس المقال فوجد صورته مبتسما ، تلمع أسنانه البيضاء ويتساقط الكذب من شفتيه . صنع من الجريدة عامودا ورقيا رفيعا ، وضرب بها ساقه . وتحرك صوب مطعم ممدود فى الشارع .

كان يخفى كتب الشيوعية القليلة التى يمتلكها مع بعض المنشورات فى أسفل درج من أدراج المكتب الكبير الذى تركه له والده قبل أن يخرج إلى المعاش بسنوات . كانت كلمات الكتب تفتح له عالمًا سحريًا غريبًا ، عالمًا رجوليًا قويا يعيش فيه رجال قادمون من عالم « جوركى » ، حيث العمال أبطال يحملون أحلامًا ومآسى ، ويتحركون فى الفجر خارجين من مصانعهم وسط ضباب ودخان . والمثقفون يتكلمون كلمات قليلة حسنة التركيب عميقة الدلالة . تلامس واقع الحياة وتمتلكه وتقلبه . كلمات كأنها طقوس ديانة جديدة يمارسها فى الخفاء ، فيشعر فى نفسه برضا وتفوق ، يرددها أمام الناس بحساب وكأنه يخشى على كلماته ، وعليهم ، لقد صار يمتلك التفسير والإجابة ، ولا يحب أن يلقى بها مرة واحدة .

صار يعرف ما هى الاستراتيجية وما هو التكتيك ، أصبح قريبًا من حل لغز العمل والنقود وأصبح أسيرا لكلمة العدل والعدالة ، كأنه يمتلك مفاتيح المستقبل .

عندما فتح الدرج لم يجد أوراقه مكانها ، وجدها موضوعة فى مكان ظاهر على المكتب .. دخل أبوه جادا متجهما وأغلق عليهما الباب ، قال :

– صرت الآن رجلا ، هذه نيران تضعها فى بيتى . أوراقك هذه لا مكان لها هنا . تريد أن تهدم كل ما بنيت . نريد هنا أن نتعلم وأن نعيش ، وأنت ماذا تريد ؟ ليس وراء هذا غير الخراب . هل تريد أن أجرى وراءك فى السجون .

لم يعرف بماذا يرد . شعر بأن الكلمات التى يعرفها ليس لها مكان أمام هذا الرجل . تلعثم غاضبا معتذرا ، مدافعًا عن نفسه وقال أبوه فى حسم :

– لا أريد أن أرى هذه الأوراق هنا . أليس عندك دراسة ، لا وقت عندنا لمثل هذه الأشياء ، التفت لنفسك ، ولحياتك .

كان يأكل كبده ومخ . ويتأمل باب الحسين المفتوح ، عندما شعر بيد توضع على كتفه :

– مش معقول .. عبد الخالق المسيرى ؟

على رأسه كان يقف حمدى عبد المجيد صديقه الرسام ، ومعه ثلاثة من الأجانب . فتى وفتاتان يرتدون ملابس متقاربة . كان مرحا يتحرك فى خفة وانتصار دائم . يبيع لوحاته بأسعار مرتفعة ويقيم معارض مستمرة مرة أو مرتين فى السنة يتكلم عن معارضه نقاد الصحف وينشرون صوره وصور أعماله ، فيبدو وكأنه يسير من نصر إلى نصر . كان عبد الخالق يسميه بينه وبين نفسه الكذاب الملون المقبول . وكثيرا ما يفكر فيه وهو فى وحدته فى السويس ، فيحسده أكثر من أى شىء على تلك الألوان التى يسكبها على الورق ، وتلك الخفة التى يستطيع أن يحتفظ بها لنفسه . كان يقول أنه مثل أم العروسة «فاضية ومشغولة» ويرتاح أحيانا لصحبته . ويراقبه فى استعراض دائم لذاته . استعراض هو الآن يشاهده ويشترك فيه .

قال حمدى الرسام فى احتفالية مرحة :

– بسرعة .. بسرعة .. انتهى من هذا الطعام السخيف . والحق بنا فى الفيشاوى .

ثم مال عليه قائلا :

– الليلة صيد لا يعوض .

رفعت عنه هذه المصادفة عبء التفكير فى الليلة ، فمع حمدى وأصدقائه يستطيع أن يكف عن التفكير . يستطيع أن يستمتع بمراقبة ألعاب نارية لا معنى لها ولا خطر منها ، تسليه وتنقله إلى الجانب الآخر من الحياة . الجانب الملون المزدحم .

انتهى من طعامه فى بطء ، لكى يترك لهم فرصة الاستقرار فى المقهى ، فهو يعرف تلك المقدمات الطويلة التى يتقن حمدى صناعتها ، فى تعريفهم على المكان ، وتقديمهم إلى صاحب المقهى والجرسونات ، وكيف يرد على أسئلة الرواد فيما يتعلق بالخواجات وجنسيتهم وعملهم وكيف يدفع الفضوليين من رواد الليل ، ويدافع عن صيده فى مهارة وظرف .

عندما وصل إلى المقهى كانت الجلسة قد أخذت شكلها المستقر . الفتى الألمانى دفع بكرسيه إلى الخلف واستند على الحائط ، ونشر تحت الضوء كتابا مليئا بالخرائط يقرأ فيه ، ويضع علامات بقلم رصاص .

كانت « إيفا » قد اقتربت من حمدى بشكل ملحوظ ، وقد استقر ذراعها على مسند مقعده ، تعبث فى حبات السودانى المتناثرة على المنضدة ، وتضحك بصوت عال وتقذفه بواحدة . كاشفة عن فم شهوانى رفيع وأسنان كبيرة .

كأن « مونيكا » كانت تنتظره . كانت تمد ساقيها على مقعد أخلته لعبد الخالق ، وقدمت له سيجارة .. سألته إن كان يتكلم الإنجليزية ؟ هل هو رسام أيضا ؟ هل سافر إلى أوربا من قبل ؟

كانت تتكلم بسرعة طفلية . وتدخن فى شراهة . لم يبذل حمدى أى جهد فى التعارف أو التقديم بل ترك الأمور تجرى فى شكل طبيعى . سحب نفسه من صديقته .

و قال لعبد الخالق :

– أنت معانا إن شاء الله .. مش كده ؟

كان آخر من وصل إلى الاجتماع الذى يعقدونه فى مقهى « باريس » الكبير ، كانوا أربعة وهو الخامس . كانت هى مسئولة الجماعة ، سمراء حادة الملامح عصبية ، وإن كانت تكسو وجهها بابتسامة ثابتة ، قالت فى ابتسام ساخر :

– تأخرت . لا علاقة لك بهذه الاجتماعات . الدقة فى المواعيد بداية الالتزام الصحيح .

أحس بحرج ، ولم يرد كان جدول الأعمال مزدحما . هناك التقرير السياسى الذى يناقش التطورات السياسية ، ثم التثقيف ، وكان عليه هو أن يقدم ملخصا لكتاب لكى يقدم فيما بعد للزملاء العمال ، أخذت منه الأوراق ، قالت إنها ستقرؤها فيما بعد وترد عليه . وعليه أن يقدم كتابا آخر ، عندما كان يراها تتكلم بثقة زائدة وبسرعة ، كان يفتقد شيئا حيا فيما يفعلونه .

فى كل اجتماع كان يفكر فى طريقة للخروج من لقاءات المقاهى ، والكلام المحفوظ المعاد ، وعندما كان يشير إلى مشاعره من قريب أو بعيد ، كانت تنظر إلى الزملاء وهى تقول :

– لا نريد الدخول فى كلام مثقفين . ليس فى الاجتماع على الأقل هناك تكليفات كثيرة .. والوقت محدود .

أخذت مونيكا تتحدث فى إنجليزية بسيطة عن « اليوجا » وأخرجت من حقيبتها كتابا قديما جلدته بورق أخضر قديم ، وأخذت تشرح له بعض البدايات

والتمارين الأولى . لم تترك له فرصة للرد أو حتى السؤال ، كانت تأخذ موافقته وكأنها أمر بديهى ، ولم يكن هو يريد أن يجهد نفسه فى استعادة مفرداته الإنجليزية .

ظل يتطلع إلى وجهها ويتأمل ذلك الحماس الغريب الذى تتكلم به وكأنها تعرفه منذ أعوام .

كانت تسبح فى عالم واسع غريب من الأفكار والأوهام ، وتحرك جسدها وساقيها فى حرية وكأنها فى بيتها ، واستغرقه ذلك الخليط الغريب من الحرية والبلاهة ، هى من النمسا رفيقة سفر « لموريس وإيفا » لا تدرى كم ستبقى فى القاهرة ، ولكن حمدى قدم لهما فى بيته المأوى وسهل كثيرًا من تنقلاتهم بسيارته الصغيرة . موريس غارق منذ سنوات مع إيفا وحمدى الآن ينضم إلى الطابور . أما هى فلا تشكو ، إنها تحب الوحدة . ولا تستمتع بالعلاقات العابرة ، هى لا تشعر بأنها مهجورة . فهى تستطيع أن تتصرف مع نفسها ، يمكنها أن تتكلم كثيرًا ، كما يمكنها أن تظل صامتة لأيام . " اليوجا " فتحت لها أسرارًا كثيرة لا تعرفها عن نفسها ، كشفت لها عن قوى غريبة ، وعن أنواع من الإرادة لم تكن تشعر بها من قبل . أهم شىء أنها جعلتها تقبل الناس كما هم .

كانت منى المصرى قد رتبت سهرة مع عدد من الأصدقاء فى شاليه صغير مجاور للهرم ، كان هناك شواء وشراب كثير ، وعدد كبير من الناس .

كان قلقا ، ولم يحب الطريقة التى تتصرف بها وسط هذه الجماعة . كان يشعر بأنه غريب ، لم يكن يجد خيوطا لحديث متصل مع أحدهم ، أو معها ، سألته مرتين « مالك » فلم يقل شيئا .

كان قد شرب كثيرا ، كذلك هى ، وبعد أن انصرف الجميع انشغل هو فى جمع الأطباق والزجاجات ، لكى يتخلص من توتره وغضبه . اختفت فى غرفة

داخلية ثم أطفأت الأنوار وخرجت عليه فى قميص شفاف لم تكن تستعمل مثله . كان فى شكلها شىء غريب كأنها استعارته من الأصدقاء لم يكن يريد أن يقبل هذا ، وتعلقت فوقهم لحظة صمت ثقيلة .

– أنت وما تحب . إذا لم يكن هذا يعجبك فسوف أخلعه . من البداية وأنت مصر على أن تفسد الليلة ..

– لقد فعلت كل هذا من أجلك .

كان موريس قد أغلق كتابه ، وأغلق عينيه وتناوم . بينما حمدى وإيفا يتضاحكان وقد استطالت رقبة حمدى ، ولم يعد يخفى نظراته لصدرها وساقيها

اندس عبد الخالق بين الفتاتين فى المقعد الخلفى للسيارة الصغيرة . وهو يشعر بجسد إيفا « الباذخ » يضغط عليه فى لامبالاة بينما ، مونيكا لا تكف عن الحديث . كان حمدى يضحك فى عصبية ويحكى نكتا مترجمة . بينما احتل موريس المقعد المجاور له .

عندما دخلوا إلى الشقة الصغيرة المليئة بالصور المرسومة والأكواب المتناثرة بدا حمدى مشتعلا يريد أن يواصل السهر . أخرج زجاجة من النبيذ وأحضر أكوابا وحاول أن يستعيد « إيفا » إلا أنها انشغلت بخلع ملابسها واندست إلى جوار الألمانى الضخم الذى تمدد على كنبة صغيرة ، نظرت إليهم وهى تقول ضاحكة :

– إلى الغد ..

أما مونيكا فقد كانت تعد لنفسها المرتبة التى دخلت فيها ونظرت إلى عبد الخالق برأسها وكأنها حيوان أليف فى شرنقة وأدارت لهم ظهرها .

قال حمدى ، وهو يجرع كوبا كبيرا من النبيذ :

- معلش .. ضحكوا علينا الخواجات .

حاول حمدى أن ينشغل بالرسم والألوان ، أما عبد الخالق المسيرى فقد نام في مقعده .

- ١٦ -

أيقظه أذان الفجر المتصاعد من ميكروفونات متعددة ، تحيط به فى منطقة باب اللوق .

لم تطل الإغفاءة أكثر من ساعتين وصحا وجسده يؤلمه . كان المكان قريبا بالنسبة له تحت الضوء الخافت الذى يتسلل من النافذة الكبيرة المفتوحة .

« إيفا وموريس » تحت غطاء ملون واحد على الكنبة ، و « مونيكا » فى داخل حقيبة النوم ملفوفة كأنها دودة ضخمة ، لا يظهر منها سوى أطراف شعرها الذابل الخفيف . أما حمدى الرسام صاحب الشقة فقد كان صوت نومه ينبعث من الحجرة الداخلية التى تحتوى على سريره الكبير .

الأكواب متناثرة إلى جوار النائمين ، تحتوى على بقايا شاى وقهوة ، ونبيذ وأعقاب سجائر ، وقشر موز وبرتقال .

رغم كل الحياة التى أمضاها متنقلا فى بيوت . الغرباء ، فإن عبد الخالق لم يألف أبدا هذا الاستيقاظ المفاجئ فى مكان غريب . تهاجم هذه اليقظة الغريبة ما بقى فى روحه من وحدة وتماسك . أزال آثار النوم والليلة الماضية وهو يتحرك ببطء فى الحمام الملئ بالفوط . ووضع لنفسه إبريق شاى على النار . وجمع قدر ما يستطيع من الأكواب وحملها إلى المطبخ الذى استحالت الحركة فيه وسط « الكراكيب » وأكوام اللوحات والألوان المتناثرة فى كل مكان .

مع السيجارة الأولى وكوب الشاى الدافئ ، وقف فى النافذة الكبيرة التى تطل على عدد من الأشجار فى حديقة مجاورة قديمة .

كان أذان الفجر قد انتهى . وخلف دمدمة عالية صادرة من الجوامع المجاورة ، وقد اختلطت بأصوات العصافير التى انطلقت فى ضوضاء صاخبة مجنونة . كان قد أعطى ظهره لذلك العالم المرتبك الغريب الذى يملأ الشقة .

اليوم كان - أيضا - يوم الجمعة . كان قد مر على زواجه من منى المصرية عام أو يزيد . هدأ كل شىء . دخلا وحيدين إلى الرمال الناعمة . كراسات الشعر ذات الأغلفة الملونة المسيكة التى تجمعها له من المكتبات القديمة ، تحتوى على أسطر قليلة وصفحات بيضاء كثيرة . هو يتلفت حوله ، فيرى الأشياء بعيدة ، يتحرك فى دائرة ساكنة . يجمع الصورة ويتحدى الفراغ بزيارات سريعة للقرى يعود منها موزع الذهن قلقا .

هناك مسافة لا تعبر بين الحلم والتحقق . هناك أحلام ملونة تبهت أو نغمات تذوب بلا نهاية .

تسللت إلى شقتهم ، رغم الباب المغلق غربة خبيثة . تدفع بمنى المصرية إلى ركن بعيد ، تعالج فيه قلقها وحدها ، وتراقبه وهو يتخبط بين الأوراق ، والموسيقى ودخان سجائره الذى لا يتوقف .

كان صباح يوم الجمعة ، هو يخاف الجمعة دائما . فراغ فى اليوم أو قلق من ذكريات الطفولة ، يخاف امتداده ، وساعة نحس تختبئ فيه قبل الظهر ، أو بعد صلاة العصر ، وتشيع قلقًا وترقبًا فى كل ساعات النهار .

أعد إفطارًا لها ، وله ، فى محاولة للصلح بعد الكدر الذى ساد ليلة أمس .

كانت تسأله فى قلق ، أسئلة دائرية تحاول حصاره فى هم يشمله ، ويشمل الدنيا كلها .

كانت تسأله . وبعدين ؟ ماذا نفعل ؟

الطعام المنمق فقد طعمه . وكذلك كلمات الأحلام كانت تشعر أنها ابتعدت عن كل شىء عن أسرتها ، وعن الأصدقاء الذين تربت معهم وعن زيارات الكنيسة التى كانت تبعث فى نفسها طمأنينة . قد ابتعدت عن الرفاق ، وهم أيضا ذابوا ، تفرغت لمشروع حياتهم والشعر ، فسقطت فى هذه الشقة المعزولة التى تقع فى وسط البلد . يزورهم أصدقاء متناقضون بعضهم يتكلم عن الآثار والأزهار ، وبعضهم يتكلم عن الإمبريالية والفقر والتخلف . بعضهم هاجر ، وبعضهم سافر للعمل ومن بقى يسأل :

– وبعدين ؟

فى تصاعد يثقل قلبه وروحها .

كأنهم استحالوا إلى عيون تتفرج وأيد تشير . وهو يدور باحثا عن مخرج وكل المنافذ تضيق .

كان الصباح صباح جمعة ، جلست على مائدة الإفطار التى أعدها تقطع فتات الخبز ولا تأكل :

– لا داعى للنهايات الدرامية الفاجعة . أرسلت لأخى وديع فى كندا أخبره أننى صرت الآن جاهزة للهجرة . سأنسحب من حياتك فى هدوء . لا يمكن أن أراك هكذا . فأرا فى مصيدة ، ولا يمكن أن أعيش أنا هكذا . لا يمكن أن يصيبيك من ناحيتى ضرر . يمكن أن تبقى هنا فى الشقة إلى أن تدبر لك مكانا . سأرتب هذا مع الأصدقاء قد تكون حمولك بدونى أخف . هل تسمعنى ، لم لا ترد ؟

كان كل الهواء ساكنا ، مكوما لا نسمة هواء . كأن قيظ أغسطس سيستمر إلى الأبد .

فكر عبد الخالق المسيرى يومها : ليست منى المصرية هى التى تهجره ، الحياة تنسحب وتتركه جافا ملقى على الشاطئ الحجرى إلى الأبد .

انتابته نوبة سعال جاف . نظر خلفه إلى الشقة المرتبكة ، ورأى ضوء النهار يفرشها ببطء كأنه يدخل إلى أهل الكهف ، أخرجت " مونيكا " رأسها من حقيبة النوم ووضعت يدها على عينيها ، وأشارت إلى ضوء النافذة . كان لون وجهها شاحبًا باهتًا كأنها ميتة .

أسرع يصلح من شأنه فى صمت ، وغادر الشقة متسللا أغلق خلفه الباب فى هدوء .

لم تكن القاهرة قد استيقظت بعد . لم يكن فى الشارع سوى بعض عربات الزبالة تجرها حمير هزيلة ، يعتليها صبية اختفت ملامحهم ، يرتدون أسمالاً لا لون لها .

ولم يجد الفجر ما يستقبله به سوى نسمة باردة سريعة ، لامست وجهه أحس بحرقة فى عينيه وقال لنفسه : لم العالم خاليا هكذا كأن لم يكن هناك أبدًا بشر .

– ١٧

مع ضوء الفجر سأل عبد الخالق المسيرى نفسه : هل ما مر من الحياة أصعب ، أم تلك الظلمة المغبرة التى يسير إليها مترددا بين الشوارع الجانبية والطريق الكبير ، الطريق الذى يقوده عبر ميدان التحرير والكبارى إلى الدقى : حيث بيته وبيت أبيه وأخيه ، وغرفة من حبلت به .

مغرم هو بالسؤال الذى لا إجابة له .

هل تحمل الأيام لـه شربـة ماء ؟ أم أمامـه صحـراء ورمـالا ؟ القاهـرة صامتـة لا تجيب . نوافذها موصدة غامضة ، ترد الأيدى الممتدة نحوها فى سؤال ورجاء . وهو يدب فى طرقاتها فى وهن ، لا يسمع لخطواته وقع ، وليس فى روحه نشيد .

كانت الكبارى العلوية الحديدية تحجب عنه اتساع السماء التى لونها الضوء . أعمدتها القصيرة الغليظة المتتالية كأنها أسوار سجون بعيدة لصبية أبرياء .

أسرع فى خطوه وهو يعبر الميدان الخالى إلا من عربات مسرعة قليلة ، وتمنى أن يصل سالما إلى النيل . بدأ سواد أسفلت الشارع يلمع بندى الصباح والأضواء المنعكسة عليه . أحس برطوبة ماء النيل تتخلل جسده العجوز باعثة فيه بعض الهمة . على كوبرى قصر النيل لامس الحديد المندى البارد ، واستنشق بعمق رائحة المدينة التى يعرفها .

لم يكن السور الذى يحيط بيتهم قد اكتمل بعد . أرض فراغ وحقول صغيرة تحيط به من كل جانب .

فى الناحية الشرقية سكنت عائلة « أم رضا » فى عشة مصنوعة من الصفيح والطين مقامة تحت شجرة ليمون كبيرة .

شجرة فارهة ضخمة كثيفة الأوراق ، صحيحة كثيرة الأزهار والثمر . كانت أم رضا تعيش من بيع ثمارها وبيض الدجاج ، وأشياء أخرى كثيرة تقضيها أو تبيعها لأصحاب البيوت المجاورة .

تعيش فى قطعة الأرض هذه ، كأنها ملكة ، مالكة ، تحت شجرة الليمون الفارشة . على مدار السنة ، تتداخل خضرة الأوراق اللامعة ، مع الزهر الأبيض

الناصع مع صفرة الليمون المفرحة عندما ينضج على الشجر . كانت « أم رضا » تصنع فى قطعة الأرض الفراغ هذه ، تحت شجرة الليمون . بهجة ونظافة لا تشوبها شائبة .

ورغم أن " رضا " كان ابنها الصغير فإن الجميع كانوا ينادونها « أم رضا » . كان فى مثل سنه مليئا بالحيوية ذكى العينين ، باسم الوجه ضحوكا . يدخل كل البيوت ويخرج منها يجر وراءه عجلات من بكر وصفيح . تداديه النساء والفتيات ويتمنى كل الأطفال أن يلعبوا معه . لم يكن يشغله عن بهجة الحياة لا مدرسة ولا تعليم ولا يحجبه عن ملامستها لا بنطلون أو حتى حذاء .

كان صديقا لعبد الخالق ، لم تكن تفصلهم سوى المدرسة . وضيق أمه وإخوته بأن يبقى جالسا فى العشة مع رضا وأم رضا طوال النهار ، لم يبق إلا أن يأكل وينام هناك .

كان رضا بارع اليدين يستطيع أن يصنع بيديه ما يشاء من الطين والحديد والحجر . له هوايات كثيرة متنوعة ، ولكن جمع قطع الحديد وفكها وربطها كانت أحب الهوايات وأعظمها . يجوبان المنطقة كلها بحثا عن قطع الحديد والعلب وكل ماله شكل غريب ، ليصنع رضا من هذه الأشياء عجلات وعربات ونحلا وعصافير ، ومن الأوراق والفتل يصنع طائرات ومدافع . لم يكن رضا يحتفظ بما يصنعه بل كان يغدق بها على كل من حوله من أطفال .

عندما عاد فى العصر من المدرسة كان كل شىء قد انتهى .. عثر رضا على قطعة حديد كبيرة ، أحضرها وأخذ يعالج فكها تحت الشجرة . لم تكن قطعة الحديد سوى قنبلة قديمة منسية فى إحدى الخرابات . انفجرت لكى تمزق جسده إلى قطع .

ظل يسمع تفاصيل الحادثة لسنوات ، يجمع التفاصيل قطعة قطعة . لم يدر كيف انسحبت أم رضا من قطعة الأرض . ولا أين اختفت . ولم يعد يذكر متى ذبلت شجرة الليمون وفقدت ما كان فوقها وتحتها من بهجة وحياة .

كانت مياه النيل ساكنة يعلوها ضباب كثيف يرتفع ببطء ، لكى يرى النهر عملاقا راقدا لا يتحرك ، انطفأت أنوار الفنادق وأعمدة الشارع والكوبرى ، يحب عبد الخالق المسيرى . أن يشهد هذه التحولات حيث لا تذوب اللحظة فى اللحظة التى تليها بل تعلن بصراحة عن الانتهاء .

واصل السير إلى منطقة الحدائق والأشجار الكثيفة . وراقب بعض الملاهى وهى تقذف الزبائن الأخيرة والعاملين ، وهو يشق طريقه إلى ميدان الدقى .

وقفت منى المصرية خلف زجاج المطار . كانت تحمل حقائب قليلة وقد علقت حقيبتها الجلدية الشهيرة على كتفها . مازال فى الحقيبة أوراق له ، بها كلماته ورسائله وقطع من الشعر كتبها ولم يكملها وبها صور له معها ، وتذكارات من البحر والصحراء .

وقفت خلف الزجاج ، تتحدث مع ضابط . كأنه يعرف ما تقول .

نظرت ناحيته نظرة أخيرة .

عندما استدارت كانت كأنها كوكب خرج عن مداره وتفتت إلى شظايا متناثرة .

عندما وصل إلى الميدان كانت الحياة قد بدأت تدب فيه . جلس إلى المقهى المجاور لبائع الجرائد الكبير كان يفرش الجرائد والمجلات والكتب .

جلس على كرسى مجاور لـه . وطلـب شايـا ودخانـا . الجرسـون جديـد لا يعرفه .. وفى المقهى من الداخل بعض العمال ، أما الخارج فالكراسى مرصوصة والرصيف نظيف .

عليه الآن أن يهدأ ، وأن يستعد للذهاب إلى بيت العائلة . المكان أقوى فى الذهن منه فى الواقع . ثقيل مزدحم ، هناك أخوه سعيد ، أو الشيخ سعيد أستاذ الشريعة الذى خلع جبته وقفطانه منذ سنوات . سيجده وعائلته . زوجته والأولاد مؤسسة غريبة . استطاع سعيد أن يحشو حياتهم بالنقد بعد أن تغرب فى البلاد العربية لخمس سنوات . سيجد أيضا أمه على البرزخ بين الحياة والموت ، وعليه أن يسير على الصراط وأن يستعد لاقتحام كل هذه الأشواك .

هو لا يزورهم فى كل مرة يحضر من السويس . ولكنه فى هذه المرة يشعر بأن أمه تناديه وأن عليه أن يصل معها حوار كاد أن ينقطع .

قالت له أمه : كنت عزيزًا ، جميلاً ، ولكنك لم تكن تكف ليلا عن البكاء . كان أبوك يطردنا أنا وأنت من الحجرة لكى ينام . فأحملك وأقف بك عند الباب الكبير حتى تهدأ وتنام .

سعيد كان يراقبنا وقد استيقظ للصلاة فى الفجر ، سعيد كان دائما قويا مستقلا صامتا لا يحب الكلام .

أما أنت – يا قلبى – حتى بعد أن صرت رجلا .. أراك كثيرًا تائها ملهوفا تبكى فى الليل .

توالى الصباح سريعا على الميدان ، وانتشرت السيارات والأتوبيسات تسير فى كل اتجاه ، وآن له أن يقوم قاصدا محطته التالية .

جمع من بائع الجرائد بعض المجلات والكتب الدينية لأخيه سعيد . واشترى من بائع السجائر الكبير أقراص النعناع وزجاجة من كولونيا الليمون لأمه وواصل السير فى اتجاه ما كان يوما ما أطراف الدقى ، حيث يقع ما كان يوما ما بيتا له .

– ١٨ –

كان البيت قديما قصيرا . تحيط به مبانى حديثة وعمارات عالية . دور واحد ، ترتفع فوقه بعض الأعمدة الخرسانية والطوب الأحمر ، فى مشروع لم يكتمل لدور ثان .

من ناصية الشارع ، وقبل أن يدخل ، كان يستطيع أن يرى نافذة الغرفة التى تقيم فيها أمه . وقد فتحت ، وأخرج على نافذتها فرش السرير .

وجد الباب مفتوحا . وفى لحظات كان يقبلها ويلمس بوجهه الماء البارد الباقى على وجهها بعد أن مسحته بالفوطة المبللة .

منذ مدة طويلة لم يلمس أحدا ولم يلمسه أحد .

مدت يدها تتحسس رأسه ووجهه ، ودمدمت بكلمات مخنوقة حسبها دعاء له .

كانت نوافذ الغرفة مفتوحة ، وهى راقدة فى سريرها تحت النافذة ، لم يستطع هواء الصباح بعد أن يجدد ما فى الغرفة من رائحة الرقاد والمرض والأدوية .

سحب كرسيا وجلس فى أقرب مكان لفراشها . أخذ يديها وقبلهما مرة أخرى وضع أقراص النعناع فى يد وسكب ماء الليمون على صدرها وجبينها .

كانت أظافرها جافة وطويلة ومتسخة .

أحست زوجة أخيه بهما فجاءت تحمل لها بعض الطعام . تكلمت بصوت عال سريع ، لم يعد خافيا أن المكان يضيق بهذا الجسد الراقد المعذب .

كانت قدرية زوجة أخيه سمينة بيضاء ، مازالت بعد كل هذه السنوات غريبة على المكان ، تراعى المريضة الراقدة بكل ما يمكنها من صبر ، وبكل ما يفيض من طاقة واهتمام .

لكنها كانت تهمس له فى كل زيارة بجملة مكررة محفوظة : أين أخواتك البنات أنت تزورنا أكثر منهن .. ألسن هن أولى برعايتها منى ؟

كانت تتحدث عنها دائما بضمير الغائب . وأمه تراقبها وهى تتحرك فى الغرفة فى قلق وخوف . لا يرتاح الوجه العجوز إلا عندما تخرج من الغرفة .

أمسكت قدرية بزجاجة ماء الليمون . وشمت ما فيها . ثم عدلت فى مهارة من وضع الجسد الراقد لكى يتناول الطعام . دمدمت أمه بأصوات لم يلتفت إليها أحد .

قالت قدرية :

– سأصنع لك فنجان قهوة من بن الشيخ سعيد .

رفعت الأم وجهها فى رجاء ، فقالت :

– وأنت أيضا .. طبعا مادام عبد الخالق هنا .. يبدأ الدلع ويفسد النظام وسيجارة كمان يا ستى علشان خاطره .

مدت أمه بيدها التى تحمل أقراص النعناع لكى تريها لقدرية فعاد يقبل يدها المعروقة من جديد .

انشغل بترتيب الأشياء حولها لم تكن تكف عن الهمهمة بأشياء لا يفهمها بالضبط ولكنها كانت خليطا من الذكريات والشكاوى والدعاء .

جاءت قطة سوداء كبيرة . وجلست على الملاءة المفروشة على حافة النافذة . عادت الأم تتناول طعامها القليل فى عناء واستغراق ثم طلبت منه كوب ماء بالإشارة . وطلبت أن يرفع الأطباق ، ثم طلبت أن يعيد جسدها إلى وضعه السابق .

فتح الراديو الصغير الموضوع إلى جوارها ، فانطلقت منه أغنيات الصباح .

كان البيت مازال ساكنا . الأولاد لم يستيقظوا بعد ، وأغلب الظن أن سعيدا فى حجرته يصلى أو يقرأ القرآن .

أطل من النافذة . ومن هناك رأى ما تبقى من شجرة الليمون ، كانت ذابلة محصورة بين العمارات ، لم يكن يظهر منها سوى ساق غليظة قديمة خشنة ، وأوراق مصفرة ذابلة .

سأل وهو لا ينتظر إجابة :

– هل مازالت الليمونة تطرح ؟

– مدت رقبتها ناحيته وهمهمت بكلام كثير .

دخلت قدرية تحمل فنجان قهوة عبق الرائحة .

وكوبا به كمية صغيرة لأمه ومن خلفها أطل جسد سعيد الممتلئ بجلبابه الأبيض ، وقال :

– يا مرحب . خطوة عزيزة .. أوحشتنا يا رجل .

– ١٩ –

مد عبد الخالق المسيرى يده لأخيه ، وقدم له المجلات والكتب الدينية التى اشتراها له من ميدان الدقى قال :

– أنا أيضا مشتاق إليك يا أخى ، خذ هذه المجلات سوف ألحق بك .

هذا يوم جمعة ، معتق قديم ، قال لنفسه : امسك باليوم ، عانقه أو ذب فيه إن استطعت ، ولن تستطيع أبدا .. فهو قد فات .

أمه الراقدة ، اتساع البيت ، وارتفاع السقف وطعم القهوة المرة . كل هذا يحمله إلى حال جديد ، يشعر بحدود جسده ، وبزمن عجيب ، خليط بين الماضى والمستقبل .

إلى جوارها – أمه – وهى راقدة ساكنة ، وهو متنقل فى فراغ الغرفة بين المقعد المجاور لسريرها والنافذة ، غمضت عليه الأشياء رغم بساطتها ، واستحالت رغم المواقعة .

كل الأشياء العملية المفيدة التى يمكن أن يقوم بها ، أن يقدمها ، حاضرة . ولكنها تافهة مقطوعة الذيل ، تسقط فى سلة المهملات ، التى امتلأت بأوراق الدواء وقشر البرتقال . . حملها كى يلقى بها فى المطبخ متوددا للحظة ، معتذرًا للوجود .

عاد كى يجد أمه قد ابتلعت قهوتها بسرعة . وطاف بوجهها خيال رضا واستسلام . كان الراديو يدش كلامًا متصلاً ، فأسكته وراح يراقب فراغ الحجرة ثقيل الوقع .

اقترب يمسك بيدها الضعيفة الباردة بين يديه .

تغيرت أشياء كثيرة فيها وفيما حولها .. لكن بقى لها هذا الوجود الطاغى الذى يخترق كل الحجب والحواجز ، وينفذ إليه فى الأعماق ، صار لها – الآن – وجود مطلق لا يناقش .

لا يرى فى عينيها نفسه فقط ولكنه يرى الوجود كله وقد استحال إلى جبل من القطن الأبيض ، يبتلع الصوت والصور .

كانت تحرك شفتيها ، جفون عينيها ، يديها ، أصابعها ، هذا فقط هو ما يتحرك لابد أن القلب يتحرك ، وشرايين فى الدماغ ، تدفع أمامها صورًا وخيالات ، وقصاصات من مواقف وكلمات .

عبر يدها ، جلدية الملمس ، التى خلت من الحرارة ومن الحياة ، انتقل إليه تيار بارد من الاستسلام .

كانت تشير إليه وتسأل لسانها الثقيل فى فراغ ، تهز رأسها فى ارتعاش فيشير لها فى تأكيد . هى لم تقل ، وهو لم يفهم . لكنهما متلقيان على البرزخ بين السماء والأرض .

بعد أن سافرت منى المصرية إلى كندا ، كتب لها خطابًا ولم يرسله : رحلت أما أنا فلم أرحل . شب فى الدار حريق . الأشجار والجدران والأحلام ، فحم بللته مياه .

أذكرك كما يذكر رضيع أمه ، فم ملهوف ، ولا ثدى .

القطارات تحملنى دائما إليك ، ولا وصول .

تساقطت كل الأزهار بلا ثمرة . الجسد العارى لا تستره فى الشتاء الخرق .

مد يده تحت الغطاء يلامسها ، بعد الفراغ من الحب فوجدها باردة تبكى قالت : نصفى معك ، النصف الآخر لا أدرى أين ذهب ؟

سكتت ، عندما قال لها : أحبك فوق الطاقة وبلا مبرر .

للوقت هنا ايقاع آخر . اللحظات محشوة بالماضى ثقيلة . تحدثه بلا كلمات عن ذلك العمر الذى توقف .

وقفت قدرية زوجة أخيه على رأسه . وكأنها تستعجله أن يقوم من الحجرة حتى تنفرد بالمريضة . لكى يفرغا من طقوس الصباح ، أصبح الكل معها يستعجل أمرًا ما . هى وحدها التى تتعلق بالزمن .

ترددت إليه بعينيها كى يبقى إلى جوارها تشير إلى الراديو وتقدم له أقراص النعناع . وهو يتلفت حوله وقد تصلبت عضلات رقبته وأسقط فى يده .

بعيدة هى . لا يستطيع أن يقدم لها شيئا . ولا يقدر على الانسحاب .

– ٢٠ –

كانت غرفة سعيد تقع فى الطرف المقابل من البيت . شبه معزولة مغلقة دائما . يشعل فيها أحيانا عودا من البخور ، فتبقى فيها رائحة خاصة مختلطة بوضوئه وصلاته ورائحة الكتب القديمة التى لا يقرأ غيرها .

بينه وبين سعيد حوار حميم لم ينقطع منذ أن كان سعيد فى الإخوان . رغم كل ما حدث فإنهما يبقيان معا حوارا دائرا وكأنهما يفكران معا فى مصير البلد .

منذ سنوات عندما غادر سعيد مصر إلى الإمارات ، كان يقول لى أنه يهرب برأيه ودينه . وأنه لا يرى معنى للبقاء هنا وسط أحلام الاشتراكية البلهاء وعسف النظام والطرق المغلقة ، وقال : هذه قصور من ورق . وأنتم تخدعون أنفسكم .

هناك فى الغربة . شاخ سعيد . أوغلت به الأيام فى أرض يقف فيها وحده . لم يعد يجد معنى للكلام أو الجدل . أصبح يراقب ، تراكم الوقت والنقود ، وعشرات التفاصيل المتعقلة بمصروفات البيت وسعر التحويل ، والمدخرات والودائع . لا يعرف هدوء النفس إلا بالصلاة وقراءة القرآن .

زاد وزنه كثيرًا ، وانقطع عن لقاء الأصدقاء ، انتهت سنوات الإعارة ، عاد إلى الكلية يلقى دروس الشريعة ، ويسير جنب الحيط . تكور وأغلق أبواب روحه حريصًا خائفا يتذكر صباه وشبابه كأنه شخص آخر .

دخل عليه عبد الخالق وقال مداعبا .

– ألا تفتح نوافذك هذه أبدا .

– وماذا سيدخل .. ضوضاء .. وغبار !!

– نظر سعيد إليه فى محبة واشتياق ، وقال له :

– اعتصم معى فى غرفتى . يكفيك لف ودوران .

كانوا قد تجمعوا حول أبيهم يسمعون الراديو ، بعد أن احترقت القاهرة ، كان سعيد غائبا منذ أيام مع الفدائيين فى القناة . لم يستطع أحد أن يوقفه ، وظل أبوه يسأل عنه ويحاول أن يستعين بمعارفه لكى يعيدوه إلى البيت . كان هو فرحًا يدافع عن أخيه وينسج له فى خياله صورا وحكايات من البطولة والاستشهاد . كان خروجه مع الفدائيين شيئا خارقًا واضحًا وسط تراث من الأشياء المتوسطة الصغيرة .

عندما احترقت القاهرة تصور أن أخاه سوف يأتى فى جيش من الأبطال لكى يقلب البلد ، ويطرد الإنجليز ، ويسافر فى أرض حرة من الإسكندرية إلى

السودان ، كان يدعو الله ألا تنجح اتصالات أبيه ، وألا يعرف مكان سعيد ، وحلم ذات ليلة أن أخاه جريح فى كهف جبلى وأنه يحمل له الماء والطعام .

وفى تلك الليلة ، سمع دقات خافتة على زجاج الباب . كانت أمه نائمة فى مقعدها من الإرهاق ، وكان هو بين النوم واليقظة ، يسمع برنامجا غنائيا فى الراديو .

هب أبوه واقفا وأخذ سعيدا فى حضنه . أجهش الاثنان فى البكاء .

أغلق سعيد غرفته على نفسه ، وظل أياما لا يخرج ولا يكلم أحدا ، أما هو فقد ظل لفترة يتهم أباه ونفسه ، بأنهما هما السبب وأنهما أقرب إلى الخونة والجواسيس .

قال سعيد وهو يقلب فى المجلات التى حملها له عبد الخالق :

– كبرنا .. لم نعد ، نصلح لشىء .

– لا بل هى الأيام لا وجه لها ولا قفا .

ضحكا .. أخذ سعيد يحكى له عن الكلية . وعن الدائرة الراكدة التى يتحرك فيها . حتى البحث والمناقشات فى الفقه والشريعة ، أصبحت من رابع المستحيلات . إنهم يتحدثون فقط عن الملازم ، وعن الدروس ، وعن الإعارات والإضافى ، قال سعيد :

– صار بينى وبينهم فراسخ . صرت راضيا بما عندى . راغبا عما عندهم ، وأنت ألم تهدأ بعد ؟

يستطيع سعيد أن يخترق معه السنوات ، وأن يعيده إلى أسئلة بسيطة وإجابات مستحيلة .

– أنت يا عبد الخالق فشلى الأول ، لم أستطيع أن أستردك من ماركس ولينين .

– كبرنا على الوعظ يا شيخ سعيد !

– أنت لم تكبر أبدًا ، مازلت بالنسبة لى أخى الصغير التائه . وأنا هناك فى الغربة كنت أراك فى أحلامى وقد اشتعلت نيران فى رأسك . أقرأ لك آيات القرآن . وأدعو الله أن يتوب عليك من الشيوعية والشعر .

– تاب الله علينا .. لا شيوعية ولا شعر .

– كلنا مذبذبون . لا نحن من هؤلاء .. ولا نحن من هؤلاء .

كان سعيد يقلب فى الأوراق الموضوعة أمامه على منضدته الأرضية المنخفضة التى يستعملها للكتابة والقراءة . وقد جمع إلى جوارها سجادة الصلاة ، والمصحف الكبير ، وبعض كتب التفسير .

صمت للحظات وعرف عبد الخالق أنه سيعود إلى البيت والاستقرار – وصلاح الحال – دخلت قدرية تحمل صينية شاى عليها أكواب صغيرة . وقفت وكأنها تتبادل مع سعيد حوارًا صامتا ، فتأكد له أن الموضوع سيفتح لا محالة . لم تكمل الدور الثانى ، لم لا تستقر ، لم لا تتزوج قبل فوات الأوان .

يعتصم عبد الخالق حيال هذا الموضوع المكرر بنوع من التعالى الأجوف ، الذى يخفى خوفا دفينا لا يحب أن يدعه يظهر .

لقد أصبح الإقدام على أى نوع من التصرفات العملية حماقة ، لا يرى لها مبررًا ، ولا يقدر على احتمال سخفها .

لا يمكن أن يفهم سعيد هذا ولا قدرية . لا أحد يستطيع أن يشاركه هذا الشعور ، هذا هو فساده الخاص ، الكامن فى النخاع . ليست هناك بطولة

أو فخر فى أن تبقى حياته هكذا ، إنه خوف ينمو كل يوم ، ويتعلم كيف يعتاد على صحبته .

كانت القرية بعيدة فى وسط النوبة القديمة قبل أن تغرق ، يقيم هو ومنى المصرى عند صديق رسام استأجر بيتًا طينيًا صغيرًا ، وراح يرسم ويسجل لحظات الوداع لأرض جميلة تغرق .

يحيط بهم فى القرية ، وفى البيت هدوء ضاغط ، كأنه صمت كنيسة خالية . يراقبون الشمس والقمر والنيل الرابض الضخم . يتحركون فى هدوء كأنهم يحاذرون من تعكير الصمت .

يخرج مع منى فى جولات بعيدة ، كل أثر للقرية ، وللنوبيين والنوبيات القلائل الذين يستعدون فى أسى وصمت للرحيل .

فوق التلال البعيدة ، أو عند منحنى مهجور للنهر ، كان يلتقط أحجارًا صغيرة مستديرة غريبة اللون والملمس ، لم يلمسها أحد من قبله ، ثم يتركها وقد أفزعه هذا الشعور .

كانت منى صافية ، تستغرق فى تأمل الأشياء أو قد زال عنها قلقها وتوترها وانفتحت روحها لتلقى الشمس والهواء .

فى ذلك الصباح كانت قد غسلت له جسده بماء بارد جلبته من النهر . واستعدوا جميعا لشاى وإفطار متأخر تحت الشمس ، عندما جاءهم على غير العادة ضيف غريب ، بدوى عجوز رحال يتاجر فى الدخان الأخضر الذى يجلبه من السودان .

مع الشاى الساخن والخبز الجاف ، تحدث الشيخ حسين عن حياته ، رحلة طويلة مع النهر والصحراء ، مع فراغ الليل والقمر الدوار . فى وباء الكوليرا ،

ماتت له الزوجات والنخيل والأبناء جميعًا ، وبقى وحيدًا فى البيت لا زرع ولا عيال . بقى وحيدًا بين الجدران والأحجار . طلعت عليه شموس وأقمار وهو يجوب النوبة مترددًا بين الحدود والحدود . ينزل فى القرى ضيفًا ، يأكل الخبز الجاف ويشرب الشاى ، ويشعل شيشة صغيرة يشرب منها الدخان .

كان له وجه صلب قديم ، بعد أن شرب الشاى أسند رأسه إلى حجر كبير ومد جسده الفارع الطويل على الأرض وكأنه جزء منها وسط الرمال والأحجار .

حرك أصابع قدميه ، وجمع يديه تحت رأسه ، وحرك عينيه فى قبة السماء ، وقال بعربية ناصعة :

– راحة البدن .. أكبر نعمة على الأرض .

« راحة البدن » فى شوق صادق تردد فى أرجاء الأرض .

ردت قدرية خلفها الباب ، وأصبحت الغرفة وكأنها مكان معزول عن العالم ، هى تحمل معها قلقًا مكتومًا وقرارات مؤجلة ؟ . تريد دائما أن تنجزها . إنها لا تتعلم أبدا القانون البارد الذى يستشرى فى لب الأشياء . تريد أن تضمن ، أن تحقق ، أن تقتنى أشياء ، ليس فى نهم ولكن فى حماقة . قلبها فارغ . وهى مشغولة من الصباح إلى المساء . كأن حركتها الخارجية انعكاس لقلق متجدد فى داخلها كينبوع ماء . دجاجة قلقة ترى جامع البيض يقف مستعدًا خلف السلك . منذ أن تزوجها سعيد وهى هكذا لا يأخذها شىء ولا تعطى نفسها لشىء . قالت :

– طارق يذكرك كثيرا هذه الأيام يسأل عنك ويستخرج من الدواليب والأدراج كتبك القديمة ، إنه الآن يدخن يا سيدى . صار فى الجامعة ويقول أيضا أنه يكتب الشعر . يتجنب الحديث مع والده .. وأنا لا أكاد أراه .

سعل سعيد فى ملل وكأنه يريدها أن تتوقف أو تغير الموضوع ، ولكنها استمرت متنقلة من الحديث عن طارق ابنها ، إلى تطورات مرض أمهم الأيام الأخيرة إلى ضرورة تغيير الغسالة .. وأخيرا : ألم يحن الوقت لكى تحزموا أمركم بشأن البيت والدور الثانى .

قام سعيد واقفا لكى يوقف تدفقها القلق قائلا .

– مائة مرة .. قلنا هذا موضوع أتكلم فيه أنا وعبد الخالق فقط .. أرجوكى . ألم يستيقظ الأستاذ طارق بعد .. ؟ لم أسمعه عندما جاء أمس .

– تهربت من الإجابة ، وأوضحت أن عندهم اليوم فتة ولحم مسلوق على الغداء وأنه لن يجد مثل هذا اللحم فى أى مكان آخر .

بعد أن خرجت تنهد سعيد . وأسند ظهره للحائط وقال :

– جنون . أصبح البيت لا يطاق ، لا شىء ينتهى أبدا ، لا شىء يسكن ، كأنها تريدنى أن أعود ، وأسافر مرة أخرى .. ربما كان هذا فعلا هو ما تريد .

اختلفوا فى تلك الأيام اختلافًا مرعبًا كاد يصيبه بالجنون . كان الاختلاف بين الرفاق من أقسى أنواع العذاب . يتكلمون باستمرار . ويضربون رءوسهم فى جدران المعتقل الذى وصلوا إليه أخيرًا . القلق والتوتر يشكل وجودهم بأشكال جديدة ، غير تلك التى كان يعرفها من قبل .

كيف كان وجهه هو . من المؤكد أنه كان قليل الكلام . لم يخترع نظريات ولم يبتكر تحليلات .

قال أحدهم : القناع لا يخفى الأنياب ، قشور الاشتراكية هذه ليست إلا برقعًا عربيًا مزخرفًا تتستر وراءه الانتهازية الشمطاء .

وراح يشرح نظريته بجسده ويديه ، وكان منظره مفزعًا .

وضع أحدهم يده على كتفه وقال :

– لابد أن نضع الملح على الجرح . كل هؤلاء يحاولون تمييع النضال ، أعرف نفسك تعرف عدوك ، الصدمة جعلت كل ما فى الرأس أوهامًا . نحن أخلص أصدقاء النظام ومع ذلك نحن فى السجون والمعتقلات . وهناك فى قمة السلطة قوتان . وفى القاعدة تحالف مستحيل .

واستمر يتحدث فى أذنيه حتى أصابه دوار ، جلس على الأرض حتى لا يسقط فى إغماء .

هناك صاحبه دائما شعور بأنه يعيش فى جب ، فلم يكن يسأل من أين تشرق الشمس ، كان يعد الشهور على أصابعه ، وتتجمد على وجهه ابتسامة لا يحب أن يسترجعها .

حاول سعيد أن يستعيد هدوءه وانبساطه مع أخيه فقال :

– هل مازلت تتطلع عبر البحار ، إلى كندا .. واستراليا ، وما بين النهرين ، ألا تريد أن تجد لك زوجة قبل أن تخرج إلى المعاش .

قام عبد الخالق ضاحكًا يبحث عن ابن أخيه فى البيت . مع طارق تشرق دائما شموس صغيرة وكثيرة له وجه نبيل وجبهة رائعة قامت بينهما رغم السن والبعد وندرة اللقاء علاقة روح ودم . يألفه طارق ويستريح إلى صحبته طوال صباه ، كان يحب أن يجلس إلى جوار عمه وهو يقرأ .. وكثيرا ما أهداه هو كتبًا اختارها له فى عناية عندما كان أبوه مسافرًا . كان كل منهما يمد يده للآخر عبر سنوات كثيرة وزحام شديد .

وجده يقرأ الأهرام . ويشرب الشاى فى سريره هب واقفا فأخذه بين ذراعيه وضمه جيدا إليه .

كان فى جسده الشاب صلابة وتوقد ، صنعا ذلك الشعور الرخو الذى كان يشعر به . قال لنفسه : " عبد الخالق المسيرى . طارق المسيرى " ماذا يهم . وسأله بينه وبين نفسه : هل تسمع هذا الصوت جيدًا ؟

جلس إلى مكتبه الصغير ، لامس كتبه وكراساته المفتوحة وقال :

– أين السجائر : اعترف بكل ما ترتكب من آثام : هات بسرعة كل ما عندك من أسرار . أمك تشكو منك وأبوك يمتنع عن التعليق ، أما عمك فهو يريد أن يسمع . قل ماذا تفعل يا شيطان !

تمسك طارق بجريدة الأهرام ، يريد أن يسأل بسرعة عن تفسيرات . كان غاضبًا محتجًا على كل شىء ولا يرى كيف يمكن أن يستمر الحال هكذا .

امتلأت الغرفة بالتساؤلات . وحاول هو أن يرد على كل شىء دفعة واحدة .

– ١٢ –

كانت الغرفة الشرقية مسكونة بضوء صباح الجمعة الفارغ البطئ .

يوم قديم عاشه من قبل ، كل التفاصيل فيه مفاجئة ومألوفة فى نفس الوقت . مرت به من قبل لكنها تعود إليه الآن تحت ضوء جديد مغسولة فى بحار الصمت البعيدة .

كأنه يحاول تذكر اسم صاحب وجه يعرفه حق المعرفة ، يعرفه كما يعرف نفسه ، لكنه لا يستطيع الإمساك بالاسم .

سحبت دورة الزمن روح عبد الخالق المسيرى وهو جالس يراقب ابن أخيه تأمل فيه مولده وصباه ، وسقطت أمامه ، سنوات عمره .

هذه الغرفة كانت غرفتي : الخلوة ، ومهبط الوحى ووكر الملذات ، ليس له فيها الآن سوى صندوق حديدى تحت السرير ، وذكريات أيام معلقة فى الهواء ، ونافذة مفتوحة امتلأت بها عيناه قام أمامها - الآن - جدار الجيران ، وابن أخ يحبه ويخشى أحكامه ويخاف من نفسه عليه ، قال لنفسه لك يا طارق أن تسأل وعلىّ أن أجيب .

كان طارق فى السنة الثانية من كلية الآداب سار شوطًا بعيدًا مع اليسار الجديد ، يناقش ويعترض على كل شىء ، ويرى أن الكل متقاعس بليد ، وأن كل المتكلمين ليسوا سوى مبررين لأخطاء . داعين لقبول أوضاع لا تحتمل . كأن الثورة الشاملة على ناصية الشارع التالى ، وكأن التغيير الشامل حلم لا يقبل الانقسام . هو يحتمل حياته هنا مع الأسرة ، وفى الكلية ، وفى كل هذا المجتمع بشكل مؤقت . ذلك الود والصداقة التى تجمعه بعمه عبد الخالق المسيرى . مصدر خطر عليه ، فهو يريد أن يكون نشيطا فعالا ثوريا بالمعنى الجديد ، حاسما باترا قاطعا فى الأحكام ويرى أن عمه وكل من كان يساريا قديما ، لا يصلح لشىء سوى المتاحف .

- ماذا يفعلون الآن سوى الدفاع عن تاريخ قديم ، إنهم يقدمون المبررات ويصنعون شعارات يرددها غيرهم ، كل كلماتهم وأفكارهم أصبحت على أفواه من لا يؤمنون بها ، من لا يشعرون ، أصبحت شعاراتهم عملات يتاجر بها من يريد . الشعارات أصبحت مصدرًا من مصادر الدخل . بعضهم جمع من وراء شعاراته أموالاً وبعضهم اكتفى بالندب والاتهام والبعض الآخر ...

شعر عبد الخالق بتلك الابتسامة القديمة التى كان يكسو بها وجهه فى المعتقل تعود لكى تتجمد على شفتيه . إنه يعرفها بتلك الشدة العضلية التى تحيط بفمه فلا يدرى ماذا يفعل بها ؟

أخذ يشير لطارق بيده لكى ينتظر أو يراجع كلامه . ولكنه استمر قائلا :

– أنا لا أقصد أن أكون قليل الأدب . أعرف أنك قادر على أن تفهمنى ليس لأنك عمى فقط ، ولكن لأنك كنت أمينًا ولأنك ترفض الإدعاء .

ضحك عبد الخالق فى عصبية وقال :

– لذلك تريد أن تجردنى من كل شىء . على أية حال . لم تكن أفكارى ملابس أرتديها لم تكن بدلة نضال ، كذلك أغلب الرفاق ، لو أن منظرنا صار غريبا فى عيون حضرتك ، فقد تمزقت ثيابنا فى الطريق ، من له عينان للنظر فلينظر .

كان الحديث بينهما مكررًا يدور منذ فترة ولا يصل إلى جديد ، يرى عبد الخالق الحدة المتزايدة فى ابن أخيه ، ويرى التراخى والتسامح اللذين يقابل بهما اتهاماته يرى الحركتين ويقبلها كظاهرة من ظواهر الطبيعة .

يقول لنفسه فى إرهاق وضيق : قبض الريح ، تكسرت النصال على النصال . مع طارق راوده الإحساس كثيرًا بأن الدائرة قد أغلقت . طارق يصعد الجبل ، وهو يهبطه .. لكنهما يحرثان فى أرض واحدة .

كانت حرارة الصحراء فى أغسطس ملعونة ، وعبث وجودهم هناك مازال مصيبة مجنونة لم تستقر بعد . وجوه جديدة مازالت تأتى ، أسماء مشهورة ، أدباء ومثقفين ، طلبة ، وعمالاً .

الأفق فى النهار ينتهى باللون الأصفر ، تلمع الشمس فى سراب متكرر مازال يحمل صور الأهل والأحبة ، والشوارع ، والمقاهى ، والنيل . وفى الليل تلمع نجوم كثيرة ، وسجائر مشتعلة تضئ مجهدة للحظات ثم تنطفئ فيطبق ظلام على ملامح شاحبة .

زيارات الضباط ، والحراس الجدد ، تنهش فى الجراح الجديدة كل يوم . الأسئلة تصارع الإجابات ، فتصرعها لتهب من جديد ، تنين له ألف ذراع . يتجمد الدم فى العروق أو يسيل ، وتمتلئ الأحلام بالرءوس المتطايرة .

فى كل ساعة نبى كذاب ، أو شيطان غلبان لا مكر له ولا أنياب .

عليهم أن يجمعوا الحصى الصغير ، وأن يتركوا الكبير .

أن يقفوا فى الشمس ، وأن يتجردوا من الثياب ، من يذهب إلى مكاتب الإدارة ليس خيرا ممن يعود منها ، تهمه لا أنكرها وشرف لا أدعيه ، بدون نظارة النظر لا يمكننى أن أرى شيئًا . سقط الصف الأول . هناك حقائق يجب أن يعرفها المسئولون .

كان الطابور طويلا مهزومًا ، به رجال أقوياء خرجوا بروحهم بعيدًا عن المكان ، واتصلوا بقوة نابعة من الناس والأرض ، وبه نفوس ضعيفة خائرة وأرواح حائرة ، لكن الطابور يتقدم فى رحلة عابثة إلى الجبل ، ويعود من هناك وقد جمع أعشابًا وقشًا ، وبقايا الآراء والأفكار مكبلة فى أرجلهم عاجزة مهدرة يجرونها بين الحياة والموت .

من أجل الوطن . والأجيال .. ومستقبل الاشتراكية من أجل فجر لا يطلع ، وعدل لن يكون ... علينا أن نتمسك بالحلم والوجود .

فى الغرفة كانت الأشياء ثقيلة ثابتة ، كأنها هنا منذ الأبد تطلع إلى طارق فى ملابسه المنزلية وشعره المنكوش .

وسأل عبد الخالق المسيرى نفسه :

– ماذا عندى لكى أقدمه له ؟

– ٢٢ –

سحب عبد الخالق المسيرى حقيبة حديدية كبيرة من تحت السرير ، تركها هنا منذ سنوات . يكاد يعرف ما فيها دون أن يفتحها ، لها رائحة هى بقايا منى المصرى ، وبقايا الأيام التى أغلق عليها .

تلفت طارق حوله فى ارتباك فقال له عبد الخالق :

– دع الموتى يدفنون موتاهم ، وعد بعد قليل : اصنع لنا شايا بنفسك .

كأنه لم يختل بنفسه منذ سنوات ، هبطت عليه شجاعة نادرة وسكينة ، أزال التراب الذى يغطى السطح فى جرأة ، وامتلأت خياشيمه بالرائحة الغريبة .

فى الحقيبة كراسات الشعر القديمة ، وخطابات من منى ، وخطابًا إليها ، وديوان «أزهار الشر» بالفرنسية كانت تقرأ له فيه ، أفراس بحر قديمة ، وقطع من الأحجار ، زجاجة عطر فارغة ، وصور ، وأيقونة قديمة ، وصليب خشبى كبير ، وبها ظرف كتب عليه « أوراق رسمية » وجواز سفر لم يستعمل ، وعظام صغيرة وجدوها فى الصحراء ، وقواقع كبيرة يسمع فيها صوت البحر .

قال لنفسه وهو يدس يده فى الأركان البعيدة :

– قد أجد نفسى مختبئة هناك ، لو وجدتها لقدمتها لطارق .

خرجت أصابعه وقد غطاها التراب .

تناول الكراسات ، وسقطت عيناه على كلمات شعر كتبه ، صارت الكلمات بلا طعم ، كأنها بئر مياه جفت ؟ استمر يمارس طقسه الغريب ، وقد خلت نفسه

واستحال فراغها ثقيلاً محيرًا ، يخاف هذا الإرهاق الذى يحاصره فتبدو الطرق جميعها وقد سدت وصار يواجه نفسه كمن يقف فى مواجهة جدار أصم .

كانت منى قد صنعت فستانًا جديدًا لهذه المناسبة ، ليلة رأس السنة . يحتفلون بها عند صديق غنى يسكن فى شقة كبيرة تطل على النيل مليئة بالضوء والكئوس والموسيقى العالية .

كان حذرا منقبض الصدر ، جديد عليه أن يراهم هكذا ، كانت تمسك بيده فى أول السهرة حتى لا يهرب . أو يسقط فى حالة من حالات السكر الشديدة التى تفصل بينه وبين العالم ، فيغرق فى الصمت ، أو يصبح بلا معنى كطفل مشاكس .

جديد عليه أن يراهم هكذا .. كل الرفاق والأصدقاء .

ينكمش فى ركن لا يتحرك ، معه كأس مختثر بلا مذاق . تتركه قليلا ثم تعود إليه .

جديد عليه أن يراهم هكذا .. استداروا .. وكل منهم دائرة صغيرة فى قلبها كذبة ، أو مؤامرة صغيرة حولها رداء لامع . يأتى إليه واحد منهم فرحًا منتصرًا بلا معنى ، كأن عيونهم من زجاج .

يتحدثون عن كل شىء . عن السيارات والمرور ، عن الغلاء والشقق عن الإسكندرية ، والاشتراكية ، عن الاتحاد السوفيتى ، وأسعار الطائرات .

أحاديثهم ، والموسيقى الصاخبة ، والدوائر التى يتحركون فيها تطرده بعيدًا إلى شرفة مفتوحة خالية . قطع من النيل يراها من خلال أشجار كثيفة .

تسللت خلفه ، واستندا صامتين إلى سور الشرفة ، تصلهما ضوضاء مدغمة ويفصلهما ظلام .

أمسك بوجهها بين يديه ، وحدق فى عينيها وقال :

– نحن بلا مستقبل .. لأننا لا نعرف الكذب .

هذا هو الباقى إذن ، تنحل أشياء الحقيبة أمامه إلى أيام ثقيلة بعيدة ، لا يدرى إن كان هو الذى عاشها أم أنها تخص شخصا آخر .

عندما فتح طارق الباب فجأة ، أغلق الحقيبة ودفعها بقدمه تحت السرير ، ونفض يديه بسرعة من التراب .

شىء فى وجهه منع طارق من مواصلة الحديث . وضع الشاى أمامه على المكتب وعاد يقلب فى جريدة الصباح .

وعندما طال بينهما الصمت ، قال طارق :

– يظهر أن جدتى تريد أن تراك ، أما أمى فهى تسأل إن كنت ستبقى معنا للغداء .

قال عبد الخالق وهو يسحب نفسه من بعيد :

– لا .. بل سنخرج ، تعالى معى حتى الميدان .

– ٢٣ –

انتزع نفسه من البيت بصعوبة ، هاربًا إلى لا مكان ، وعند الباب الخارجى وجد طارق ينتظره لكى يسير معه حتى ميدان الدقى .

جاء غريب ، وغريب يعود .

بحث عن شجرة الليمون فلم ير سوى أطراف منها بعيدة ، تظهر خلف البيت بين العمارات .

هل يريد طارق أن يسمع حديثه عن شجرة الليمون ، عن زهرها الأبيض المتساقط على الأرض ؟

هل يستطيع أن يتحدث معه فى ضوضاء الشارع المتزايدة عن سر تلك العلاقة بينه وبين الزهرة البيضاء ؟

سيحسب هذا رومانتيكية عرجاء .

هو يرى أن يتحدث عن الانتخابات ، وعن أحداث الصعيد ، وعن حركة الطلبة فى أسيوط .. هذا حقه وهذا مصيره .

أما عبد الخالق المسيرى فقد كان يرد عليه وعقله غارق مع زهرة الليمون . أريجها الذى لم يشمه اليوم ، أريج الماضى ، والأرض ، والوطن ، رائحة رضا ، وأم رضا ، والعشة الرطبة ، والأرض الخضراء ، ألن يستطيع أن يدفع عن رأسه أبدا هذه الخيالات .

كانت الدكاكين تملأ الشارع ، وتحيط بالبيت من كل جانب .البيت مازال بأعمدته الخرسانية العارية التى تعلوه ، والطوب الأحمر الذى لم يكتمل ، قائما فى الوسط فى تحد أحمق يبعث على الضحك أو البكاء .

أعطى للبيت ظهره ، اندلعت الميكروفونات فى الحى كله تعلن الاستعداد لصلاة الجمعة ، وبدأت جموع المصلين تعبرهم فى جلاليب بيضاء نظيفة ، وهو وطارق يخترقان الشوارع الجانبية فى طريق مختلف إلى الميدان .

أمسك بيد طارق الحارة ، وتمنى بينه وبين نفسه لو أنه امتلك كلمات بصيرة ، كاشفة يقولها فى اتساق ، فيعيد للقلب القلق بعض الهدوء .

كانت الزيارة قد فتتت كثيرا من التماسك الخارجى الذى يدعيه ، هو يريد أن يتمسك بصياغة الكلمات لكى يجمع واقعه المشرف على التفتت والانهيار .

من أجل هذه اللحظات خلق الشعر .. ولكنه يبدو الآن بعيدا مستحيلا وليس أمامه سوى أن يسمع دقات طارق على الباب المغلق .

كان صغيرا يخرج قبل الغروب فى نزهة مسائية مع أبيه . أيامها كان أبوه مشغولا بإكمال بناء البيت ، بعد أن ينصرف العمال الذين يعملون فى البياض ، يغتسل جيدا فى الحمام الذى لم يكتمل بعد ، ويرتدى جلبابا أبيض نظيفا ، ويصحبه فى جولة بعيدة إلى حقول ممتدة حولهم ، حتى يصلوا إلى ساقية قديمة قرب السكة الحديد .

تبدأ الرحلة وتنتهى عند شجرة الليمون .

كانت هى العلامة والراية ، بيتهم كان هو البيت المجاور لشجرة الليمون كانت هى العنوان .

أريجها صاف ، يسافر فوق خضرة الحقول .

قال له أبوه :

– بعد أن ينتهى عمال البياض ، سنشرع فى زراعة الحديقة . هل تحب أن تعمل معى فى إصلاح الأرض والزرع ؟

كان غارقا فى حلم نبيل ، لوحت الشمس وجهه . وحطت على جبينه سعادة التحقيق والبناء .

سأله :

– هل ستزرع لنا شجرة ليمون ؟

داعب رأسه قائلا :

– كل الأشجار ، تكفينا ليمونة أم رضا ..

أمضيا النزهة يتحدثان عن أنواع الأشجار ، والزهور ، وعن المقاعد الخشبية التي سيقيمونها فى الحديقة . اشترى أباه كرنبة كبيرة من فلاح فى حقل ، وقبل أن تغرب الشمس الحمراء فى الأفق استدارا عائدين يخترقان الحقول ، وجهتهما البيت وشجرة الليمون .

عندما اقتربا من عشة أم رضا .. قامت المرأة من أمام النار التى أوقدتها . حملت لهما حبات ليمون خضراء نضرة ذكية الرائحة . كانت الأرض أمامها مفروشة بزهر الليمون المتساقط ، أبيض ، أصفر القلب ، مهدر ، وهى تدوس عليها بأقدامها الحافية الكبيرة . أما على الأغصان فكانت الأزهار قوية بيضاء نضرة كأنها تاج فوق الخضرة .

مال يجمع بعض الأزهار المتساقطة وتمنى بينه وبين نفسه ألا يزرع أبوه شجرة ليمون فى الحديقة

كانت سورة « الكهف » تنساب من ميكروفونات الجوامع ، باعثة فى المكان جوا متصاعدا مفارقا للواقع ، تترسب الكلمات فى صدره فتجمع شتات نفسه فى نغم باحث عن قرار .

وعلى النواصى فرشت الحصر ، واجتمع المصلون فى صفوف ساكنة ، وقد أعطوه ظهورهم ، وهو يشق طريقه مع طارق إلى الميدان .

كان الميدان شبه خال ، والأتوبيسات تتلكأ عند المحطات .

قال طارق :

– اليوم ستكون القاهرة مدينة مهجورة .. فى الثالثة مباراة الأهلى والزمالك استقل الأتوبيس الذاهب إلى ميدان التحرير ، قبل أن يصرخ خطيب الجمعة كأنه يريد أن يوقظ الأموات .

- ٢٤ -

امتلأت أنف عبد الخالق المسيرى برائحة التراب المبلول فى داخل الأتوبيس الخالى الذى يخترق حى الدقى والكبارى قاصدا بسرعة إلى ميدان التحرير .

ربط السائق رأسه بمنديل مبلول ، بعد أن غسل الأوتوبيس من الداخل وأغرقه بالماء وأدار راديو صغير على محطة تذيع أغنية دينية لأم كلثوم .

راح الكمساوى يغلق حساباته (فى المنافستو) ويدخن بنهم سيجارة غليظة فى يده ، يحصى نقوده القليلة ، وهم يقتربون من محطة الوصول ، فلن يركب - بعد الآن - أحد .

« هدمت ما بنيت ، أضعت ما اقتنيت » .. الشعر مهاجر يسافر فى الاتجاه المعاكس .

كل الرحلة انتهت ، أو كادت ، وتصاعدت رائحة الانتهاء .

فى دقائق وصل الأتوبيس إلى ميدان التحرير ، بسرعة فاجأت عبد الخالق المسيرى.

إذا كان القلب خاويا هكذا ، فكيف تكون الأطراف . كان الميدان بلا شك كأن يدا باطشة غليظة قد عبثت به ، وراح عبد الخالق يبحث عن ممر يفضى إلى رصيف أو مقهى ، امتلأ الميدان بالسدود والجدران الخشبية وقد اعتلاه غبار ناعم يجعل الضوء ثقيلا كأنه ضوء الساعات الخانقة التى تسبق الغروب .

حلت به وحدة ثقيلة ، وغربة لا يعرف كيف يدفعها عن نفسه . ليست هذه هى الأماكن التى كان يقصدها ، وليس هو الكائن الذى يعرفه ، من كان يتصور

أنه سيسير فى ميدان التحرير عجوزا هكذا ، تائها ، لا يعرف مقصده . وقدماه لا تحملانه إلى مكان .

جلس إلى أول مقهى يعرفه ، كان واسعا فصار مثل الخندق ، كان مفروشا بالضوء والشمس نظيفا ، فسار معتما مصطنعا يضاء بلمبات صغيرة فى النهار . كان المقهى خاليا إلا من فتاتين تغطى وجهيهما أصباغ رخيصة ، ومعهما شابان من العرب يختفون فى ركن من الأركان .

الجرسون قد شاخ هو الآخر ، واتسخت ملابسه البيضاء ، صارت يده تهتز وهو يصب له القهوة ، تعرف عليه وتذكر وجهه ، ولكن الاثنين كانا أكسل من أن يفتحا حديثا .

انتهت صلاة الجمعة ، وامتلأت الشوارع بالناس للحظات ، ثم خلت المدينة وكأنها تنتظر انفجارا ، وبقى الجرسون العجوز مستندا إلى باب المقهى ينظر إلى لا شىء .

كان هذا منذ عصور سحيقة . فى نفس هذا المقهى ، وكان اليوم - أيضا - يوم جمعة ، ينتظر منى المصرى لكى يستلما الشقة . ويبدأ فيها حياة زوجية بعد أن مضى عليهما شهور بين بيوت الأصدقاء ، والبنسيونات والشوارع والحدائق .. وكل العالم .. أحضرت معها حبات من اليوسيفى وسندويتشات وشنطة كبيرة .

جلست إلى المنضدة أمامه ، وامتلأت الحياة حولهما بالأشياء الممكنة والبسيطة ، أشياء لا تحتاج إلى سؤال تقدم نفسها . تشاركه دون ازدحام كان يريد أن يقبلها ، أن يحتويها وقد أسلمت وجودها له .

حديقة الميدان ، خضراء لامعة مليئة بالزهور ، كان يريد أن يسجل تاريخ اليوم فى تمثال ٢٣ أكتوبر ، شربا شايا ساخنا مع السندويتشات وأكلا

اليوسفى ، وجمع القشر فى كيس ، أمسك يدها وقد استسلما للحظة كاملة فى شمس خريف مصرى جميل .

لم يكن أحد منهما متعجلا للقيام ، فشربا قهوة ، وسألهما الجرسون عن سر البهجة التى تسودهما هذا الصباح ، ولماذا لا يشركونه فيها ؟

مرت به لحظات حسب أن لها صفة الدوام ، ورأى أن منى خلقت له ، وجاءت هنا من أجله فقط ، فى عيونها فرح عذب ينهل منه ، وفى بشرتها ووجهها يضج الابتسام .

سأل عبد الخالق المسيرى نفسه : ثم بعد ؟ إلى أين من هنا ؟ وكيف أحمل هذا الإرهاق والعناء ؟

تعلقت أشلاء الميدان ، وبعض من أشلاء نفسه على زجاج المقهى وأحس أن كل العالم يقف على كتفيه .

— ٢٥ —

تحركت اللحظات والساعات كما تتحرك ، وخرج منها إلى وهم الاستمرار الذى يبقيه متفرجا ، فقد حماسه .

عليه أن يبقى فى الطريق حتى تحين ساعة الركوب إلى السويس . اكتملت عطلة نهاية الأسبوع بلا بهجة أو فرح . مباراة الكرة قد أخلت المدينة ، وتجمع الناس فى المقاهى التى أغلقت نصف أبوابها . وامتلأت بالكراسى المرصوصة لمشاهدة التليفزيون .

يعطيه الجميع ظهورهم ، ولا يتعرف عليه أحد ؟ لماذا جاء إذن ولماذا يعود ؟

لا أحد يحتاج إليه ، ليس له ضرورة . لا هنا . ولا هناك ، تساقط وتساقطت أيامه ، كما يتساقط زهر الليمون ، بلا نبل ولا أريج .

تتخبط أقدامه فوق أرصفة شوارع وسط المدينة الخالية بلا هدف أو رغبات ، العمارات ، والشقق تتجمع ضاغطة عليه ، وحياته حبات عقد منفرط فى يديه ، ذقنه نابتة وقد اتسخ قميصه ، ولم يبق فى جيبه من الجنيهات العشرة سوى أوراق قليلة .

لم يكن هناك سوى أحمد صالح ، فى ورشته الصغيرة فى الأزهر سيكون هناك مشغولا ، وخال البال ، يراقب الصبيان يعملون فى الدكان ، والنساء يعبرن الطريق أمامه ، يعد لسهرة أو يقلب فى سيرة الناس فى حكايات لا تفرغ .

لم يره فى هذه الزيارة سوى لحظات فى جلسة البار السخيفة ، وتركه حتى دون وداع .

بعث تذكر صديقه بعض الحماس فى خطواته ، فأخذ يبحث عن أتوبيس ينقله إلى الأزهر .

هو لا يريد أن يدخل إلى بيت مرة أخرى الآن ، لا يريد أن يسمع شقشقة نساء ، أو أزيز خلاط ، وهو بالتأكيد لا يريد أن يسلم عينيه لوميض تليفزيون .

وجد الطرقات التى تؤدى إلى ورشة أحمد صالح أكثر رحمة وإنسانية ، كانت رطبة ظليلة ، مندأة برائحة العطارة والحياة ، ومشغولة بالعابرين ، والعاملون لا يكفون عن إلقاء التحية أو الصياح بالنكت أو السباب .

من آخر الشارع رأى أحمد صالح يجلس على باب الدكان ، حوله ، وفى يديه ، بعض الأوانى الفضية يفحصها ويلفها فى أوراق ناعمة .

أكد له أحمد صالح أنه كان يفكر فيه . كان يسأل نفسه أين أمضى الليلة وكل النهار ، فكر فى أن يسأل الليلة فتحى نور الدين ، ولكنه ابن حلال جاء فى الوقت المناسب لكى يتناولا معا طعام الغذاء .

كانت الورشة صغيرة مزدحمة بالمشغولات والأوانى المليئة بالماء وبنشارة الخشب ، وصوت وابور الجاز الكبير يختلط بضوضاء الشارع .

وقد عكف ثلاثة من الصبيان على الأوانى البلاستيك ، يخرجون منها أزرارا ونجوما فضية ، أما أحمد صالح فقد جلس عند باب الدكان إلى منضدة قديمة يراجع العمل ، ويلف الشغل فى أوراق وقد استغرق فى أفكار بعيدة .

لم تكن هذه عادته ، منذ شهور لم يتكلما معا ، ولم يسهرا سهراتهما الحميمة لا فى السويس ولا هنا ، كانت عيون أحمد مأخوذة وقد سكن على وجهه خوف غامض .

من مجلسه إلى جوار أحمد صالح ، كان يراقب السماء ونهاية الشارع وقد بدت بعض المبانى القديمة المهدمة فى ضوء العصر المبكر ، داكنة سوداء كأنها ظهور قافلة .

أخرج له أحمد من درج المنضدة سيجارة حشيش ملفوفة ، ولم يشعل لنفسه واحدة . حسب أنه يريد أن يتقاسماها معا ، ولكن أحمد قال :

– خلاص .. عليه العوض .

وحكى له حكاية الأزمة القلبية التى فاجأته منذ أسابيع ، وكيف أنه مات وصحا مرة أخرى ، وأن الدكتور أنذره أخيرا بالتوقف عن التدخين ، والطعام والشراب ، وأشياء أخرى كثيرة .

وبعد أيام تسربت القرارات والأوامر ، وعاد إلى الشارع ، ولكنه صار - حقا - يخاف من السيجارة .

كان فى وجهه شيء داكن ، وأحس أن هناك قلقا حقيقيا لا يقدر على إخفائه ، انتقل إليه بسرعة فزع جديد ، ولكنه تماسك قائلا :

- ليس هناك شيء جديد ، هذا ضرورى ، بعض الراحة ، وترجع زى الحصان .

ولكن شيئا كان يقف على أكتاف أحمد صالح ، ويحوم حول وجهه ، يؤكد أنه لا يصدق صديقه . انشغل فى لف قطع الفضة ، وأرسل أحد الصبية لكى يستعجل لهما صينية الغداء .

بدأت النهاية من أطراف الأصابع ، لم يكن أبوه يعرف المرض ، ولم يكن يستسلم إليه . لا يذكر أنه شاهده راقدا فى سريره . يدعك جبهته بالليمون إذا أصابه صداع ، ويشرب شايا بالليمون إذا أصابه مغص ، ويسخر من النساء المتمارضات ويقدم لهن عصير الليمون .

بدأت النهاية من أطراف الأصابع . كان يصيح : نار يا أولاد .. نار فى أصابعى ، كان يغسلها بالماء ، ويرفعها إلى السماء مستجلبا عليها الهواء . ثم أخذ يحضر من الأجزخانة أدوية مختلفة الألوان يغمسها فيها .

أخذت نوبات الالتهاب الشديد الذى يصيب أصابعه تتقارب وتتكرر وبدأت حبوب حمراء تملأ أصابعه .

قال له الأطباء الذين أخذ يتردد عليهم : « أوكزيما » حساسية من نوع خاص ، صار لايتحدث إلا عن هذا الموضوع ، يكرر أمام الزوار أنها ليست

معدية ، وأن الدهانات والمرهم لن تجدى ، فهى مرض داخلى ، يسكن الجسم كله ، وهو متأكد أنه لا علاج له .

ومع ذلك ، أخذ يبحث فى الأعشاب ، وفى الوصفات البلدية . رجل فى أقصى المدينة فى حلوان ، يقدم لمرضاه مرهما خاصا من تركيبة .

سافر إليه ، وجاء بزجاجة غريبة ، وعلبة صغيرة ، يخلط ماء الزجاجة بمسحوق العلبة وتتصاعد رائحة كريهة ، ثم يسقى بالسائل أصابعه ، التى صارت حمراء ملتهبة ، وانعقد على جبهته قلق وألم .

كان يخفى يديه ، ثم يعود فيحركهما ، ويستغرق فى مراقبة حالتها . استحوذت أصابعه الملتهبة على حياته .

جاءت صينية الطعام ، مستديرة وشهية ومليئة بالأطباق الصغيرة ، وقد غطاها رغيفان كبيران ، أخلى أحمد المنضدة أمامه ودعاه للطعام أخذا يتناولان طعامهما دون شهية كبيرة على غير العادة . فقد كان أحمد يحسن دائما استقبال الطعام .

كان قد بقى فى الصينية طعام كثير ، عندما ملأ بطنه بماء القلة البارد وأشعل سيجارة ، فأشعل أحمد صالح هو الآخر سيجارة .. وراحا يراقبان الطريق .

حل عليهما مع كوب الشاى ، صمت ثقيل ، وكأن كل منهما يسمع دقات قلبه ، وأحس بأن أحمد يقاوم لكى يدفع عن نفسه الخيالات الثقيلة وأنه يستجلب بصعوبة نكتة هنا أو حكاية من هناك .

وعده بأن يأتى قريبا إلى السويس لكى يرتاح عنده أياما .

– تعرف تشتغل ممرض ، وتعمل شوربة خضار . بس يا أخى السلم عندكم عال ، لازم تدور على فيلا .. أو شقة على البحر ..

وضحكا .

قام عبد الخالق متثاقلا ، لا يريد أن يفارق صديقه ، الذى أصر أن يسير معه حتى آخر الشارع ، وأن يعطيه بعض النقود سلفه حتى أول الشهر .. وافترقا .

– ٢٦ –

من خلال طرق متعرجة كثيرة ، وجد عبد الخالق المسيرى نفسه مرة أخرى فى مواجهة بحار البشر والضوضاء فى موقف التاكسيات .

كان الغروب قد أقبل مسرعا ، والناس من حوله يستعجلون كل شىء . واحتفظ هو فى داخله بشعور بطئ وثقيل كأنه يسير فى مياه سميكة .

غريب جاء ، وغريب يعود .

تدلت يداه إلى جواره ، وانحط فى مقعد إلى جوار سائق يعرفه ، فى تاكسى «بيجو» . ما لبث أن امتلأ ، وانطلق يشق غابة من الأضواء والخيالات والعربات المسرعة فى الاتجاه المقابل .

هبط عليهم الليل فى الطريق ، وتدلت رءوس الركاب على صدورهم ، وأدار السائق شريط قرآن كريم بصوت مقرئ قديم .

كان نور العربة يدفع أمامه كتلا من ظلام ، وأسلم عينيه لاتساع الصحراء حوله ، وسأل نفسه : كيف يحسب الناس الأيام ؟ ما الذى يجمعها .. وكيف ينفرط .. هل هى مثل المسافات ؟

عند مدخل السويس اختصر السائق الطريق ، وسار فى طريق ترابى قصير ، تحده أشجار التين الشوكى العجوز ، وأشجار أخرى تكشف الأنوار عن سيقانها الغليظة وأفرعها المتهدلة ، وتتبع العربة أشباح ضخمة تسبح فى الغبار .

فى السويس أسرع مبتعدا عن الميدان المضئ . وسار فى الشوارع الجانبية للمدينة التى نامت مبكرا .

تسلق درج السلم المظلم ، وجد أن أم يسرى جارته قد تركت لمبة كهربائية صغيرة مضاءة فوق غرفتها على السطح ، وصوت التليفزيون الجديد لم يسكت بعد .

المدينة كما تركها ، ساكنة ، أضواؤها خافتة كأنها مركب ضخم يبتعد . أما الزرع الجاف الذى يشغل زاوية السطح البعيدة فقد بدا له وكأنه شخوص صغيرة جالسة القرفصاء .

أطل من السطح على البحر البعيد ، وعلى جبل عتاقة ، حارس صامت يزداد فى الليل جهامة .

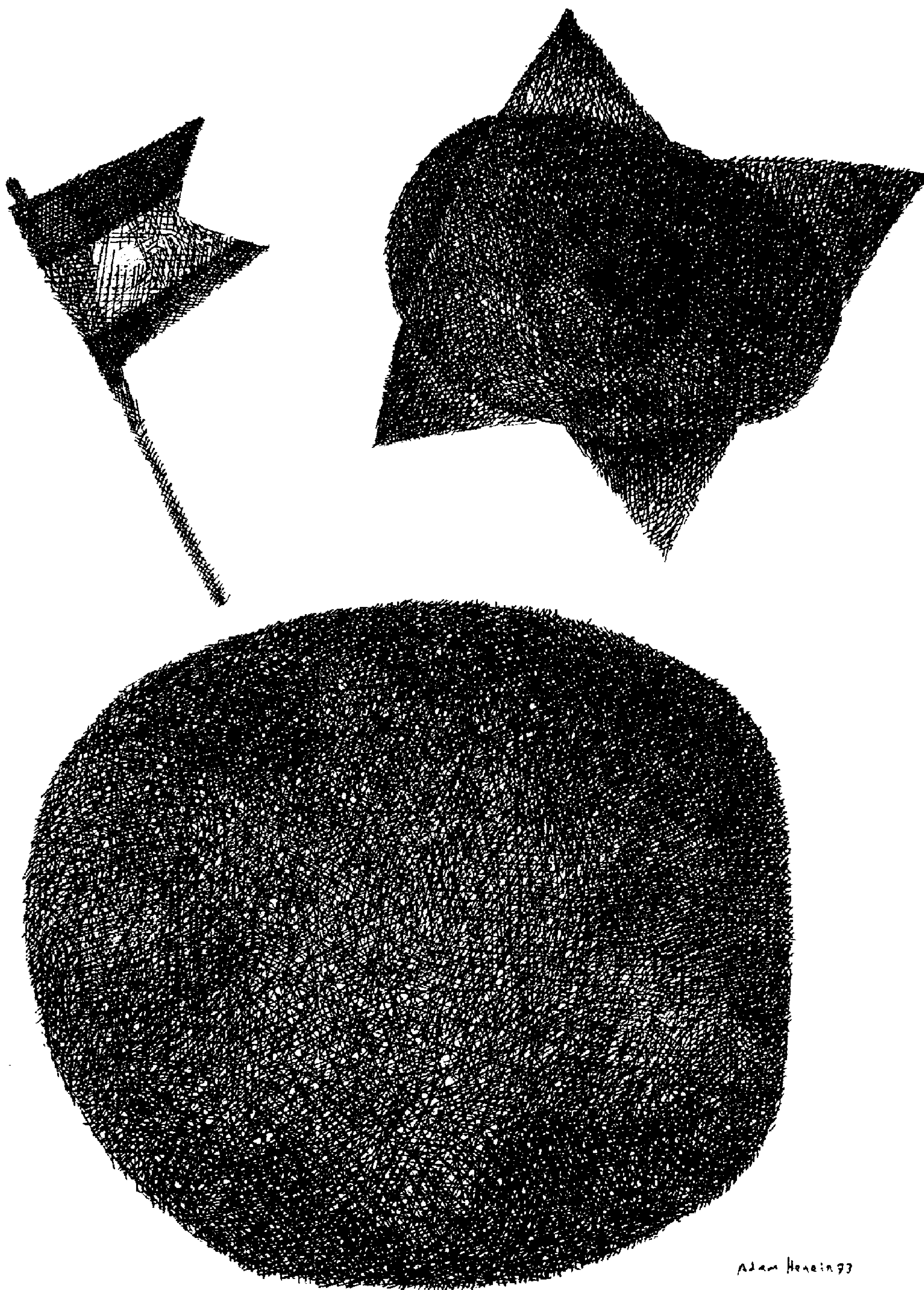
أخرج مفتاح الغرفة من جيبه الصغير ، أضاء النور ، وتعرف على نفسه من جديد فى الأثاث العارى والسرير الصغير .

وضع إبريق الشاى على النار ، وفى انتظار أن يغلى الماء ، استلقى على السرير ، وقد وضع يديه تحت رأسه ، وعيناه مفتوحتان تحدقان فى السقف .

* * *

« أكتوبر ١٩٨٧ »

أيام وردية


Adam Henein 93

فى هذه الأيام ، لم يكن أمين الألفى يعشق إلا شجرة سنديان فريدة ، تقف وحدها خارج البلد قوية جميلة موجودة حقا ، تتحمل تسلق فروع « الجهنمية » الملونة عليها وتتباهى بها .

يعشقها فعلا عشقا ليس كعشق الشجر ، هكذا قال أمين الألفى لنفسه ، وهو خارج فى تمشية ليلية وحده « بالشبشب » والبيجامة ، متمنيا ألا يرى أحدا ، وألا يضطر لتبادل الحديث .

هذا هو الطريق الوحيد الذى يخرج به بعيدا عن الوسط ، يقوده إلى المدخل الترابى ، على جانبى الطريق عربات قديمة وآلات غريبة الشكل ، يغطيها تراب كثيف ، كذلك الذى يحاول أن يتخلص منه على وجهه وعلى صدره ، وعلى الجانب الآخر أشجار صبار وأشجار أخرى ميتة فقدت ملامحها مما حل عليها من محن .

سيخرج بعد قليل من عنق الزجاجة ، ويجد نفسه بعيدا هناك عند الشجرة .

خطواته أسرع وأوسع من المعتاد ، يعد حتى عشرة ، ثم يعود يعد من جديد ، لا يصدق أنه أسير هذا الزمان وهذا المكان ، وأنه لا حيلة له ولا مهرب .

ذلك العشق الذى يشعر له بدبيب فى عروقه ، هو ما يبقيه حيا .. يعد عشرة بعد عشرة ، رغم كل الأسى والضيق الذى يشعر به ، وملايين الأشياء التى لا يقبلها والتى لا يرضاها ، والتى يتجرعها .. يعد .

« لو أعد أيام حياتى مع الخطوات لوصلت الهند .. ٥٤ سنة و٤ أشهر و٨ أيام ، خطوة ، خطوة ولا شىء فى يدى ، ولا تحقيق .. العشق الكامن هو الذى يبقينى حيا » .

أمين الألفى أخصائى اجتماعى تعليم الدقهلية ، المنصورة الثانوية ، مفكر عربى قديم ، مصلح اجتماعى سابق ، مترجم وكاتب لكنه - أساسا - مفكر عربى وحيد ، كثير الأقنعة ، بعد طول ازدواج وظلم صار فقط لحظات مفتتة وماضيا يتوارى من نفسه ، ملاحا قديما رابضا على الشاطئ مهزوما فى الليل وفى النهار .

صنع لنفسه هذا القناع الذى يخرج به من الظلام ، لا يرى نفسه الحقيقية أحد ، لزوجته شادن عنده قناع خاص ، بكى على صدرها مرات ، صدور قليلة تلك التى استطاع أن يضع رأسه عليها للإغفاء أو البكاء أو حتى لمجرد السكون ، صدور قليلة جدا ، وهو الذى يعتبر نفسه عارفا بالنساء .

أما بسمة وبهجت ، ولداه . يرى فى عيونهما عشقا عميقا يبعث فى بواره بعض الحياة ، عشر خطوات أخرى ويجد نفسه هناك ، عشقه الآن يسرى فى عروقه ، تمتلك عليه الشجرة نفسه ، قائمة هناك وحدها فى انتظاره ، تلمع فى حياته دوائر ضوء فضية ، يجد نفسه فيها ، ثم تنحسر وتبتعد ، وتتركه يقبض بيديه جيدا على هواء ، يسند أمين الألفى بيده على ساق الشجرة الخشن المتين .

عندما اختارت الشجرة هذا المكان لكى تقف فيه وترتفع ، هل كانت تعرف أنها ستتطلع أمامها الى حياة أمين الألفى كاملة ؟ هو لا يرى سوى ليل ودخان وأضواء مدينة بعيدة ، هى العالية ربما ترى شيئا آخر ، هل هى مثله أسيرة الموقع والزمان . هل تعرف هى الجواب ؟

كان منظر أمين الالفى بالشبشب والبيجامة مستندا على السنديانة الضخمة فريدا فى الكون كله الآن ، لابد أن هناك شبكة جديدة تولد فى مكان ما تجمع بين الناس والأشياء فى عدل واتساق أكثر ، لا يمكن أن يظل هكذا يحمل كل هذا الضيق وحده فى الليل قرب الحقول .

السير فى طريق العودة كان محبطا مهينا ، حتى التراب والأحمال فوق صدره .. راجع بها ، سيمر على أجزاخانة الدكتور ظريف ليأخذ حباته الثلاث ثم يشق بعد ذلك طريقه إلى كهف الزوجية السعيد .

* * *

الدكتور ظريف جالس وحده هو الآخر . استند بكرسيه مائلا على جدار مدخل الأجزاخانة وتمدد فى بلادة ، الشارع خال بعد أن أغلقت باقى الدكاكين .

يراقب البعوض يموت عند النور الصاعق . هو مسيحى أربعينى ، عازب متصلب الرأى ودءوب . يدافع خلف دكانه عن حياته وموقعه . تجارته تتقدم ببطء قاتل . السفن التى يجهزها للإبحار ، راكنة لا تريد أن تبحر ، الحياة لا تريد أن تتغير .

ضاحكا قام مرحبا بزبون آخر الليل . بينهما ما هو أكثر من زبون وحبوب جلسا طويلا على نفس الرصيف . أخرج ظريف له كرسيًا ، أمسك به أمين الألفى ولم يجلس . وقف ينتظر فى صمت حباته الثلاث دون أن يقول شيئا .

آخر ما يريده الآن هو ذلك الحديث المكرر الثقيل عن القرف من البلد ، وعن الموظفين صراصير المحافظة ، ومشاكل الرصف والكهرباء وذلك الدفاع الضارى عن مواقع مهزومة أصلا . سيأخذ حباته ويرحل .

سرعان ما يغير أمين الألفى رأيه . بعد أن اندفع ظريف يتكلم عن كل هذه المسائل مجتمعة ، استند هو على زجاج الأجزاخانة وتركه يعيد إدارة الشريط .

فيلم ممل بايخ . لا يمكن أن يكون فى هذه الأجزاخانة المتربة البائسة شىء جديد .

قال أمين الألفى وهو يراقب ملامح الدكتور التى تتغير كل لحظة : ليس لدى هذا الدكتور شيء من مؤهلات النجاح المعاصر . مؤهلاته أقل من مؤهلاتى شخصيا ، بدلا من العشق عندى ، فى حياته دأب نملة هو لا يغامر بالقفز فوق أصغر قناة .

أليس غريبا أن يسقط الناس فى الأماكن الملائمة لهم ، سيدير ظريف شريط حياته هذا هنا الى الأبد .

أمسك أمين الألفى جبهته العريضة بيده وضغط .

قال ظريف : إسكين ؟ !

رفع يده مودعا : " لا " وانصرف .

قال لنفسه : أهرب من الناس ، وأهرب من نفسى أكثر . إلى متى ؟

* * *

عندما يخبو العشق فى العروق تصبح الحياة مستحيلة ، ترنم أمين الألفى حزينا :

الحياة العشق والعشق الحياة ، لابد أن تشتعل عشقا حتى تشم رائحة الوجود ، دون ذلك تسقط معهم ، مع الملايين التى تعيش وتموت دون أن تعشق أو تحب ، الملايين التى تفعل طوال حياتها ما لا تحب ، وأبدا لا تستطيع أن تدرك ما تحب .

منذ متى وأنت لم تشتعل عشقا ، هل مازلت تذكر « ف .. » بعد الحب ، تضع يدها على جبهتك وتقرب من عينيك عينيها وتقول : ألا تعرف يا حبيبى أنك مركز الكون ؟ كل الأشياء بدونك لا معنى لها ! هل كنت تصدقها ؟

هل من الممكن أن تسمع هذه الكلمات مرة أخرى ؟ فتتأكد من صدق نبرة الصوت ، وترى النبع الذى خرجت منه الكلمات .

« ف .. » صارت هى والكلمات والنبع ، قطع قماش قديم فى صندوق عتيق الرائحة ، تذكر رغم كل تلك الأيام ، شعورك النفسى والجسدى الفريد .. وتذكر لون الأفق .

ماذا يمكن أن تفعل فى روحك تلك الحبات الثلاث ، المقوى والمهدئ والمنشط تركيبة السعادة الرخيصة التى اخترعتها أنت والدكتور ظريف ، جريا وراء الحلول الوسط ، وهربا من أسعار الدواء الفلكية ، رضينا بالهم وهو لم يرض ، الحبوب الملونة فقدت مفعولها ، يلقى بها يوميا فى جب سحيق . ربما كؤوس البراندى الرخيص التى أدمنها هى التى تفسد كل شئ ، كثيرا ما يشعر أمين الألفى بعدها أنه يدخل فى ظلام دامس .

كانت خطته أن يموت موتة عبقرية عندما يبلغ الخامسة والثلاثين بعد أن يكون قد حقق فى حياته أعمالا فذة . كأن يعمل مثلا صيادا فى نهر النيل ، وأن يتزوج امرأته الحلم « ف .. » وتحول هى القارب إلى بيت ، وأن ينجبا أولادا وبنات ، وأن يبيع من السمك البلطى فى القرى وأن يوزع على الفلاحين مع الأسماك رقعا مكتوبا عليها أشعار وحكم وأغنيات ، وأن يعود إلى القارب فيجد طعاما مطبوخا ، وملابس منشورة ملونة . يكتب تحت النجوم على ارتجافات موج النهر عشقه للوجود .

كم مرت ثقيلة وسقيمة كل تلك الأيام ، بعد أن فسدت الخطة ، وخرج كل شىء من يده .

أعلن تغير صوت شبشبه البلاستيك أنه دخل إلى المر الترابى الذى يسبق عمارتهم .

وقف سيتجمع نفسه ، ويتأكد من مكان الحبوب فى جيب البيجامة .

* * *

خطواته ثقيلة متباطئة وهو يصعد درجات سلم عمارتهم الضيقة .. بالتأكيد سيجد فى الصالة زوجته « مس شادن البيلى » مدرسة اللغة الإنجليزية أم الأولاد وقد هجعت فى آخر نهارها قبالة التليفزيون .

قالت دون أن ترفع رأسها ، إنه لن يكف عن أفعاله هذه حتى يتسبب لها وللأولاد فى فضيحة .

أكثر شىء يغيظ شادن الآن هو أن ينزل بالبيجامة والشبشب ، لذلك فهو يفعل ذلك كل يوم مستمتعا بالانقلاب الذى يحدثه فى عقلها ودمها .

لم يرد ، توجه فى تصميم إلى محارته الحميمة ، أعز مخترعاته العملية وأقربها إلى قلبه ، إلى « البلكونة » الصغيرة التى أغلقها بالخشب والزجاج الخشن ، فصارت عشه الوحيد ، والسنتيمترات التى يملكها . يستطيع فيها أن يغلق على نفسه بابا ويتنفس .

اطمأن فقط على أن الأولاد قد ناموا ، وأنهم لم يسمعوا بصقة المساء المكررة هذه . وأن فى الثلاجة زجاجة ماء بارد .

قبل أن يدخل ، ترك ماء كثيرا يغسل قدميه على بلاط الحمام .

* * *

أخيرا فى مقعده ابتلع حباته الثلاث ، حوله هنا كل ممتلكاته الإنسانية ، كتب قليلة يعرف بعضها ، أشرطة كاسيت قديمة وجديدة ، وأوراق . مجلات

قديمة . فى مخزن صغير زجاجة براندى بها بعض كؤوس . قطع مخدرات من بقايا الأصدقاء ، صور لناس قديمة يقلب فيها أحيانا ثم يعيدها إلى ظروفها البيضاء .

فى أركان البلكونة وتحت سقفها المائل الخانق القريب ، ساعات ممتدة من الوحدة ، وأطنان من أثقال وهموم ، قال الحزين صلاح عبد الصبور – وهو أيضا يقول – : « إنى انهزمت ولم أصب من وسعها إلا الجدار » .

أصاب أمين الألفى أكثر قليلا من الجدار . الساعات التى يمضيها هنا وحده يستحضر عشقه . يحاول أن يبعث فيه الحياة ، أو يراود كتابة قصة أو مقال .

يحاول صياغة رفضه فى كتابة لا يقرأها أحد . أحيانا يكون راضيا بهذا ، ويحمد الله عليه كثيرا . يقول لنفسه هناك ملايين من البشر تقطع وتوضع فى علب كل دقيقة ، هو لم يتحول – بعد – إلى سمكة منزوعة الرأس والزعانف وموضوعة فى علبة سردين .

ضم المقعد عظام أمين الألفى الكبيرة ، التى كانت تصنع له – زمان – قامة طويلة مؤثرة ، بانت تحت الضوء ملامح وجهه الكريمة التى مازالت تحمل آثار وسامة . عيناه كانتا هائمتين متسعتين فيهما أحزان وأشجان كثيرة ، عموما كأنك قد رأيته من قبل وتعرفه .

أمين الألفى يشعر بأن عصورا كثيرة قد مرت عليه يسميها أحيانا مراحل . ما يندم عليه هو العصر الذى كان الناس فيه يتكلمون مع بعض ، عندما كانت هناك « لغة » رصد هو اللغة وهى تنقرض وتندثر ، بداية من يونيو ٦٧، عندما حلت عليه وعلى البلد قصمة الظهر الكبرى . من يومها وأمين اللألفى جالس بين رفوف خالية لدكان بقال قديم .

عندما انسحب من مواقعه في القاهرة وجاء الي المنصورة ،كان يريد أن يعيش مرحلة جديدة . ساعده أصحاب العلاقات من بقايا معارفه فى الحصول على هذه الوظيفة فى التربية والتعليم ، اخترع لنفسه هو الاختصاصات والنظام فقد كان على أية حال قادما من العاصمة ، وقادرا على إقناع كبار صغار الموظفين بما يقترحه أو يراه . هو وزوجته « مس شادن » يدّرِسان فى مدرستين مجاورتين . هى تدرس الإنجليزية وهو أخصائى اجتماعى ومراقب للنشاط الذى لا وجود له متفرغ تقريبا ، لا يفعل شيئا ، ولكنه صاحب كلمة وتأثير فى البلاهة البيروقراطية التى تدور من حوله فى كل مكان ، وفى الاتصال ببعض من لهم كلمة فى الوزارة . أهم ما حدث أنه لم يعد يشتاق إلى القاهرة . لم يعد يطيق الإقامة فيها على الإطلاق ، إذا ذهب يعود فى نفس الليلة .

* * *

يعزى أمين الألفى نفسه فيقول إنه مادام قادرا على استحضار عشقه والحلم به و السير وراءه حتى فى الخيال ، فإن الحياة تستحق أن تعاش ، ولها رغم كل شىء مذاق .

الحياة تبدأ بعد الأربعين ، وهو فى العشرين إذن .

يستطيع أن يبدأ من جديد ، هو ليس بغلا من بغال الحكومة . لن يقبل تنفيذ حكم الإعدام فيه .

الحصار الذى فرض على شادن حتى أخذوها وضاعت منه ، هو الجرح الجديد والموضوع الذى يشغل فكره وروحه . تمت محاصرتها منذ عامين بقيادة « أبله الحاجة زينب » وعدد من المدرسات المحجبات والمنقبات ، حتى ابتعدت زوجته عنه تماما .

خاض من أجل الإبقاء عليها أهوالا ، ودخل فى خطط طويلة ومؤلمة . دخل فى نقاشات عميقة ، داس فى أحلام مجهضة ، وأفكار مرتبكة ، ومزايدات مزيفة .

الكلام أو النقاش صار بعد الأيام الأولى مكررا مرهقا بشكل لا يطاق .

يراقب رفضها له وهو يتصاعد ، فيختلط عنده الغضب بالإشفاق باليأس من كل شىء .

يراقب كيف تبنى بينهما هذه الجدران والسدود . توغلت فى أركان شقته كتب عذاب القبر بما فيها من ثعابين ومرذبات حديد مشتعلة ، ومخاوف أبدية لها رائحة شواء البشر . أخذوا زوجته التى كان يجدها فى الفراش ، أمام أطباق الإفطار وأكواب الشاى ويلامس وقت الضيق شعرها ووجهها فى محبة وحنان ساعات الغروب . المحاولة التى ترهقه وتصيبه باليأس ، هى محاولته لأن يحمى بسمة وبهجت من الآثار المدمرة للصراع الدائر بينه وبين أمهما ، ذابت كل المعانى والقيم التى ظن أنه أقام عليها علاقته بشادن والأولاد ، ليس حوله من يكلمه فى الموضوع ، أو يأخذ رأيه ، الجميع حوله يرى أن ما يحدث أمر طبيعى ، بل هو مرغوب فيه ومطلوب .. وأنه هو الحل .

متروكا هكذا وحده ، ومع لسعة كؤوس الخمر الرديئة ، وسواد الصداع الذى تسببه . استطرد مدخنا ما شاء له من سجائر ، نزلت عليه قبل أن يغفو شظايا لامعة من ذكرياته مع المرأة الحلم التى أحبها قديما " ف " .

كل شىء فى جسدنا مستعد للحب ، درجة الضوء مشجعة على كل الحماقات ، خدر الشمس الغاربة يسرى فى غرفتهما الطويلة العالية المفتوحة مباشرة على النيل . همست فى أذنه « فى الليل سننام يا حبيبى ، عاريين ملتصقين حتى الصباح ، خذ يمينى وسادة لك » .

* * *

يحاول أمين الالفى كل يوم أن ينزل من بيته فى الصباح متأخرا قدر المستطاع ، حتى لا يجد نفسه فى قلب عاصفة الصباح اليومية التى يخلقها تدافع الأطفال والشباب ، تلاميذ وتلميذات المدارس وقد اندفعوا من كل الاتجاهات فى موجات لا تنتهى .

الطريق إلى المدرسة يمر بكل الطبقات الإنسانية والمعمارية التى تراكمت فوق قلب المدينة .. يمشى فى الوسط حيث الأحياء القديمة بشوارعها الطيبة المنتظمة ، ثم يخترق الأبراج القديمة والحديثة والتى تحت الإنشاء ، جاثمة على قلب المدينة وقلبه . رموز حية للملايين المتوحشة التى تجرى فى مجاريها بعيدا عنه وعن الناس . بعدها مباشرة يخترق عشوائيات متنوعة تخترقها أزقة رائحتها لا تطاق .

الدروس الخائبة التى يعطيها لنفسه كل يوم عن حال البلد والمجتمع والناس، تصلح للعرض فى متاحف للأفكار الهزلية ، أو أناشيد للمغنى الفذ فؤاد الاسكندرانى .

المدرسة بناء عجيب يلخص كل ما فات ، فى الوسط فيلا عريقة ، لها واجهة من الزجاج والخشب ، عالية السقف حيث يقع - والحمد لله - مكتبه ومكاتب الكبار ، أما باقى الفصول فقد تناثرت فى أعداد متنامية لا متناهية . تؤرخ لاختلاف سياسات وزراء التعليم وتنوعهم . عشوائيات نوافذها مفتوحة ليل نهار وتراب كثيف يغطى العملية التعليمية كلها .

للمكتب الذى يجلس فيه متفرغا لعمل لا شىء نافذة . هنا يتلقى كل الأهوال والمساخر ، يحملها إليه المعارف والزملاء والتلاميذ .

يراقب تمثيليات رديئة ، تجرى على أوراق رسمية قادمة من الوزارة أو مرسلة إليها ، فيها وقائع وأرقام لا علاقة لها بهذا الواقع الصاخب الوحشى . ينتهى عند العصر ليتجدد كل صباح .

يسارية أمين الألفى القديمة تعاوده كأنها الحمى. فيتصور أنه كان من الممكن حل كل هذا . كان من الممكن أن تكون الأحوال أحسن بمئات المرات لو وجد أناس حقيقيون يطبقون الاشتراكية ويعيدون بناء البلد .

لم يفهم أبدا لماذا انتصر الانتهازيون والضباع فى كل مكان . لماذا انزوى كل وجه نبيل وكل قيمة شريفة ؟ أخذت هذه المدرسة من عمره وأيامه الكثير . دخلها وهو مازال يملك طريقا خاصا للتفكير ، معتمدا على يقينين أو ثلاثة . يملك حماسا للقبض على حقيقة أو اثنتين و ها هو الآن يراقب القنابل الموقوتة ، ليس عنده ما يقول .

كان أمين الألفى فى أول أيامه فى المدرسة يشعر برغبة غير معقولة للانتقام من كل ما ومن تسبب فى قصمة الظهر فى ٦٧ . كان يريد أن يلقن الجميع درسا .

اشتغل كثيرا مع التلاميذ ، وعمل ملفات للفقراء وللحالات الاجتماعية والمرضية والنفسية . عمل دفاتر لرصد الاختيارات ، وكتب الأسماء ، ورفع الأوراق ، وحصل عل بعض الاعتمادات وسطر الأوراق بأقلام ملونة و ها هو كل شىء وراءه ، الدفاتر والأوراق فى الدولاب يغطيها التراب . شاهد على أن لا شىء يحدث .. لا شىء يتغير .

لم تعد حتى الجرائد تشغله . بعد أن استقر على شطآن اللاجدوى ، صار لا يقرأ فيها إلا الحوادث البشعة أو الطريفة ، الحوادث التى يعض فيها إنسان كلبا .

أما مقالات الرأى وجرائد المعارضة فقد توقف عن متابعتها عندما صار الجميع يتحدثون بصوت واحد ويختلفون فى الحليات والتفانين .

مرت بأمين الألفى هنا فترة يعتبرها - كما يقول المثقفون - « قمة الدراما » بعدها يكون كل شىء تافها متهافتا لا ضرورة له . هى الشهور القليلة التى نظم فيها محاضرات وندوات فى المدرسة عن فلسطين . اشترك معه عدد كبير من التلاميذ وحضر المحاضرات مئات من المدرسة ومن خارجها ، عيونهم كانت جادة نظيفة ، تبرق كلماتهم بحماس نادر وتطلع ، ينعش وجوده كلام الأولاد وحماسهم .

يحاول باستمرار أن ينسى نهاية التجربة كأنها لم تحدث ، تلك المواجهة اللامعقولة بينه وبين ضابط المباحث بحضور الناظر ، والتى أكد له الضابط فيها أن هذا النشاط خطر وغير مرغوب فيه .

حاول أن ينسى الغضب الحارق المحبط الذى سكن عروقه وتأكد له أنهم يكذبون ، وأن أحدا لا يريد أن يفعل شيئا ، صار يسخر من نفسه لأنه لم يكن يعرف هذا من قبل ، وأنه مضغ العلقم كل هذه السنوات . كانت « فلسطين » فى عقل أمين الألفى فى هذه الأيام وقبلها وبعدها : رمزا ، فكرة مسيطرة يقيس بها مواقع الناس ، « عاملا مساعدا » يكشف به الصدق من الكذب .

هو قد خلع نفسه من السياسة ، أو هى التى خلعته ولكن بقيت فلسطين السليبة معنى يسافر وراءه ، واسما يبحث عنه فى دواوين الشعراء ، وكلمات الصادقين . كوى بها جراح يونيو ، وعيش الفقراء حوله والمطحونين ، ولا طاب جرح ولا نفع دواء . سمع أحد المدرسين يشير إليه ساخرا « بتاع فلسطين » .

صارت ساعات المدرسة تمر ثقيلة ، عندما كف الأولاد أن يأتوا إليه ، ويئس هو من أن يذهب إليهم . انحشر معه فى المكتب أربعة من الأساتذة الأجلاء ،

الذين يديرون « أبعديات » للدروس الخصوصية ، وينشغلون فى شئون مادية تجعلهم ينسون حتى أسماءهم .

يقول أمين الألفى لنفسه : سعيد فى هذه الأيام من يعثر على شىء يشغله ويستغرقه إلى هذا الحد ، فلا يشعر بما يجرى حوله .. سعيد .. وغليظ الجلد جدا . الدرس المكرر : تفرغ فقط لنفسك .

* * *

عرف أمين الألفى ظروف ضيق مادى خانقة لكنه لم يعاقر الفقر المزمن ، ولم يذق طعم بكاء طفل بلا طعام . لذلك عندما عرف " مفتاح " الذى له من العمر اثنتا عشرة سنة ، ولكنه من الفقر يبدو فى السابعة ، حطت على كتفيه أثقال الوجود كلها وانقصم ظهره مرة أخرى .

كان « مفتاح » كائنا دقيقا وجميلا يشع بالذكاء ، وكل الطيبة الممكنة لطفل فى سنه وظروفه .. متفوقا جدا وفقيرا جدا ، علاقته معقدة ومركبة مع أغلب الأساتذة وكثير من التلاميذ . تشابك أمين الألفى مع تلميذه مفتاح الى آخر درجة . استطاع أن يدبر له كل ما أمكنه من دعم ومساعدة غير جارحة . كثيرا ما أخذه ليسير معه ف نوبات المشى التى كانت تجتاحه .

أصغر إخوته الأربعة دقيق الملامح ، نظيف . أبوه نوبى ، عامل فى السكة الحديد ، أمه امرأة سمراء نظيفة (تعمل أحيانا فى بعض البيوت) مفتاح يعبدها عبادة . تطلع أمين الألفى من خلال مشاعر مفتاح وكلماته إلى واقع نادر لا يعرفه ، لا يوجد إلا فى الروايات العظيمة حيث العواطف النبيلة التى لا يتم التعبير عنها ، والأعمال العسيرة الشاقة التى تؤدى فى صمت ، وكان مفتاح مصدرا لفرح حقيقى ، صادفه أمين الألفى فى وسط الغروب ، إنه وهو

البرجوازى المتعفن – كما كان يقول الرفاق قديما – يستطيع أن يتخلص من الشعور بالانفصال والذنب ، أو كما يقولون أيضا « أن يعاود الاحتكاك مع واقع متغير » . استطاع أن يدبر عملا لمفتاح .. قارئا للأستاذ مندور الذى كف بصره . كان الأستاذ القديم أكثر من سعيد بذكاء الولد وتفوقه . . وكان مفتاح يشتعل عشقا للمعرفة والكتب التى يقرأ فيها للأستاذ مندور . وللآفاق الجديدة التى تفتحها له الجرائد والمجلات والكتب التى يقرأ فيها للأستاذ مندور .

عندما كان أمين الألفى يبدو سعيدا فرحا بمفتاح كانت زوجته مس شادن البيلى تقول إنه هكذا دائما خيره واهتمامه دائما للخارج .

صار يصحب مفتاح – إذا لم يكن يقرأ للأستاذ مندور فى زيارته – إلى شجرة السنديان خارج البلد . هناك كان الحديث والصمت بينهما مترعا بصفاء فريد .

رتل مفتاح يوما عليه ، بيت الشعر الذى علمه له الأستاذ مندور ، كان يكرر البيت فى فخر ونبرة عربية سليمة .

فلا هطلت بأرضى أو سمائى

سحائب ليس تنتظم البلادا

كانت مشاعر مفتاح تغلبه وهو يشرح فى سعادة المشاعر التى يبعثها بيت الشعر فى نفسه . كان يقول أبو العلاء كان أعمى هكذا قال الأستاذ مندور .. هل يرى العميان أحسن منا .

سأله مفتاح مرة – بلا مناسبة – :

كم تستغرق الرحلة من هنا إلى فلسطين على الطريق السريع ؟

* * *

أبلة الحاجة زينب هى التى قادت الحصار ، الذى أخذ من أمين الألفى زوجته شادن البيلى ، بعد زواج دام سنوات وسنوات : « الحاجة » امرأة من نوع غريب لم يعرفه فى حياته . امرأة كاملة التسليح ، فى الحجم والجمال والذهب . كتاب الله ، وحجابها الأنيق وذكاؤها الخارق جعلت لها فى المدينة نفوذا بالغا .

أحيانا تأتى بكل هذا « الهيلمان » لكى تزوره فى مكتبه بالمدرسة . فى البداية كان يخشى هذه الزيارات ولكنه وجدها ممتعة ، فصار ينتظرها ويتمناها .. يمضى ساعة حقيقية حية وسط مستنقع الأيام المكررة هذا .

يتبارزان عن بعد . وتهدده ببؤس العاقبة وسوء المآل . كل سنواتها بعد أن عادت من الخليج كرستها لإعلاء كلمة الله وهداية عباده وفعل الخير . عرفها أمين الألفى قبل الإعارة ، قبل الحجاب ، وكان شعرها أحد مفاتنها.

مرت العلاقة بينه وبين أبلة الحاجة زينب – أو زيزى كما كان يناديها وهما وحدهما – مرت العلاقة بمراحل و أزمات واختناقات . ولكنها كانت دائما تنتصر عليه وتتحداه بما تقوله وبما تخفيه . كان الصراع على شادن ضاريا . هى تحسمه دائما منتصرة مؤكدة أن شادن امرأة عاقلة مستقيمة ، وأنه هو المعوج التائه . ذكاؤها وحضورها الإنسانى الخصب كأنهما هالة جميلة لها . فيصبح من الممكن أن ينتقلا فى الحديث بسرعة إلى المشاركة فى شىء قديم له لديهما معزة خاصة . عابرين بسرعة فوق الحوادث والوقائع ولجاجة الواقع المزيف والكلام المكرور .

تقول له وهما يراقبان الحوش الضيق وقد امتلأ عن آخره بالتلاميذ يتحركون ويصخبون ويتشاجرون كأنهم قنابل قابلة للانفجار . تتأملهم وتقول فى كلماتها الخاطفة الخاصة المليئة بالحرارة : لا حل إلا تعاليم الإسلام

والاستقامة . أرى الهداية صعبة وضرورية ، محظوظ من يصادفها . أنت تريد أن تقعد ملوما محسورا .

وقع عليها زوجها فى صفقة سريعة صاحبت إجراءات الإعارة . هناك أنجبا - بفضل الله - رجلين . فى آخر سنوات التعليم الآن . صنعا معا ثروة وعقارا . قاما معا بالحج مرات . وفعلا معا كثيرا من أعمال الخير ، وأعمال الشر التى تجبرك عليها الحياة العصرية . وأخيرا .. أضاف زوجها فضلا إلى أفضاله فرحل مبكرا . عام وبضعة شهور ، بعد العودة وانتهاء الإعارة . رقد أياما ورحل . ومن ماله أكرمته وأكرمه الله بمدفن فاخر تزروه هى بانتظام . زيارة أبلة الحاجة زينب دائما زيارة وتجارة ، هى دائما مشغولة متعددة المقاصد ، فعل الرغم من أنها تؤكد له أنها لا توافق على « أبعديات » الدروس الخصوصية التى أقامها الزملاء الأجلاء ، فهى تأتى - أيضا - لكى تتحدث معهم فى صفقات ومصالح متبادلة . مع كل واحد منهم لها أسلوب وطريق ، وهو يراقبها فى استغراق .

من الطبيعى أن موضوع شادن لا يفتح هنا فى المكتب أمام هذه الصقور المستعدة لكى تلوك وتنهش فى أى موضوع .

ممتعا يكون السير مع أبلة الحاجة أو الجلوس معها لساعة ، فى فندق فاخر ، أو فى ناد على النيل ، ولأنها امرأة صالحة ومتماسكة ، فإن نبرات صوتها وأداؤها لا يتغيران عندما لا يكون هناك ثالث معهما .

خبيرة هى بالدنيا ، تراها جيدا ، لكنها لا تعرف سر تقسيم الحظوظ ، يقينها بالله لا يجعل فى حياتها مكانا للأوهام . لها طقوس تؤديها كل الوقت ، حتى لا يجد الشيطان إليها منفذا .

هى متأكدة أن أمين الألفى رجل طيب ، بل من أطيب من عرفت من رجال . شادن هى الأخرى طيبة ، وهى تخاف عليك ، لا أنا ولا هى نملك لك شيئا .

حال بيننا الموج ، وأنت لا تريد أن تركب معنا .

يسمع أمين الألفى فى شغف إلى حديث المرأة الحار المتدفق ، ويفكر فى أنه سيجد نفسه بعد أن تفارقه فى نفس البلبلة والارتباك .

لو جلس إلى شادن اليوم أو غدا ، وهذا لم يعد يحدث ، فهل يجد ما يقول ؟ حياة جرداء . عليه أن يعيش وحده هذا الخواء المرعب .

يتركه هذا اللقاء العابر المتكرر والمرغوب فى نفس الحالة دائما .. مجرد طفل تائه بين الرموز .

* * *

سبحان الله .. قال أمين الألفى عندما استيقظ صباح يوم الجمعة .، سكون خاص .. وساعة مخفية فى هذا اليوم تشيع فيه رهبة معينة وتوقعا .

شرب قهوته الطويلة ودخن عددا من السجائر .. شادن مع الأولاد عند خالهم « الحاج شوقى » ، « على وش الدنيا » فى الشقة التى ترى النيل ، سبحان الله .. كم هو راض عن قاع الدنيا هذا الذى يقبع فيه ، عندما يكون ساكنا هكذا خاليا من الدوشة والصراعات .

الساعات التى ينفرد بنفسه فى الشقة ، صارت عيدا يصادفه فى أيام سعده ، غالبا ما يكون وحده أيام الجمع ، قال لنفسه سبحان الله أخفى موعد الموت وتفاصيل النهاية . تراوده كثيرا فكرة الموت كمهرب أو حل ، ليس نبيا ولا شهيدا وليس منتحرا . فقط لم يكن يتصور أن يكون الحصار خانقا هكذا .

حياته بين يديه كومة بلا حل ، الهاجس الذى يتردد – وقد صاحبه طوال عمره – أنه عاش هذه اللحظة من قبل . عاشها بأدق التفاصيل نفس الساعة ونفس الضوء ونفس الفراغ المحيط به . يبعث فيه هذا الهاجس شعورا بالغثيان وارتباكا شديدا فى الإحساس بالوجود .

سبحان الله فى هدوء البيت هذا ، والهدوء الخارجى النادر الذى يسبق صلاة الجمعة كان أمين الألفى قادرا على أن يسترجع هواجس روحه ، مفاصل حياته المحورية ، بلا قلق ، وبقدر محتمل من تأنيب الضمير .

قال لنفسه : نادرا ما تفكر بشكل حقيقى ومفيد . متقافزا دائما حتى الإعياء . تقع دائما فى نفس النقطة التى منها بدأت . مفكر عربى حقيقى ، وحيد منفى يفكر على لحم رأسه بلا جدوى ولا جديد.

يدمن من يريد أن يوهم الناس بأنه مثقف ، كلمات مثل : قضية ، وموقف ، وخندق واحد وصراع ، أما أمين الألفى فهو يرى نفسه فى صالة شقته أمام أكواب القهوة الفارغة والمنفضة

المثلثـة : عاريـا ، مخترقـا تمامـا ، منـزوع السلاح . فى الحقيقة ليس عنـده ما يقول ، كما أنه ليس من حقه أن يشكو .

إغواء التفكير فى النساء فى سن أمين الالفى هذه إغواء لا يقاوم .. أن تفعل الأشياء غير أن تتذكرها . يسقط على الأشياء فى الذاكرة ألوانا وأضواء جديدة تعود اللذة أوقع ، وكذلك الجراح .

التدريب الحقيقى الذى فى حياته على الحب ، قليل جدا لم يعش فى ظله الفعلى سوى لحظات قليلة فى حياته . هل هذا حال كل الناس ، أم هو وحده الذى لا تنمو له بذور وتتفتت كل الأشياء فى يديه حتما فى النهاية ؟ مع « ف ..» عاش حبا كقوس قزح واختفى . ومع شادن دخل حقل حنطة ، أنجب منها البنت والولد . كانت حقل قمح أخضر طازجا . لم تعد الآن إلا وعدا كاذبا ، وحلم ظهيرة ثقيل .

أمين الألفى يرى أنه من السخيف جدا التفكير فى : من المسئول فى مثل هذه المسائل ؟ المسئولية تقع على كل .. كل شئ يتحرك . يرى كيف أننا – وهذا ضمير يحب أن يستخدمه المثقفون حتى يوهمونا بوجود جماعة أو انتماء – أننا – نحن جميعا – لم نعرف الحب . لا ربانا عليه أحد ، ولا نحن اخترعناه ، بدلا منه نجد عندما ننظر فى أنفسنا مخاوف وحرمانا ..وقهرا كثيرا . نصدره للأولاد ، فخورين بما نملك من غباء .

عندما قابل شادن فى القاهرة بعد انهيارات ٦٧ ، كانت تجرى فى مكاتب الجرائد والمجلات ، تكتب موضوعات وأخبارا لإعلاء كلمة اليسار وقوى الشعب العامل ، مندفعة متحمسة ، فهى حقل قمح خصب نادر ، دخل إليه هربا من النهم والهلع الذى أصاب الجميع ، تلسع أشواك السنابل فى حقول القمح . عناء صارخ لإثبات الذات وتواصل مستحيل . ما فى يده الآن حبات قليلة من قمح جاف .

تقول له شادن إنه مازال يفكر فى « ف .. » ويتمناها ، لأنها رفضته ولم تتزوجه ، هل يصح للزوج أن يصارح زوجته بكل ماضيه ، المهم ، متى أدارت هى له ظهرها . هل أحبته مطلقا فى يوم من الأيام ؟ !

العشق عند أمين الألفى لا يمكن أن ينقلب إلى النقيض ، الوحشة التى كان يشعر بها صباح الجمعة الحزين هذا : كثيرة على قلبه وظلم لا يستحقه .

انطلقت الخطبة وأذان الجمعة من كل ميكروفونات الجوامع المجاورة واضعة بالنسبة له نهاية ميلودرامية كأذان الفجر فى آخر الأفلام المصرية القديمة .

* * *

لا يدرى أمين الألفى كيف انتقلت علاقته الخاصة والمركبة مع معانى وتصاريف قضية فلسطين السلبية ، إلى أولاده : بسمة المتسرعة التى لا تستقر مع شئ . وبهجت المندفع ، كان قد ألقى شبشبه الصغير فى وجه الجنود الإسرائيليين فى رفح عند الحدود وهم فى رحلة إلى هناك منذ سنوات . لم يكن يلقى أمامهم خطبا ، بل على العكس كان يسخر من الكلام الحماسى العاطفى الكبير . وهو لم يكذب أبدا على أولاده خاصة فى المشاعر . يعتقد أنهم يفهمون جيدا ، يميزون الصدق من الكذب ، ببراعة ثاقبة أكثر من الكبار . شادن هى الأخرى تكره اليهود كراهية التحريم خاصة بعد أن تحجبت صارت كراهيتها صماء .

فلسطين .. متى تصمت تلك النغمة الحزينة الممضة التى تربض تحت كل الأيام والساعات . نغمة تتصاعد فى القلب مستمرة ثابتة ، رغم طبول الأكاذيب ، وطبول الموالد التى يدقها العرب عندما يتذكرون للحظة أنهم مهزومون وأن هناك وطنا سليبا ، يدقون طبول الموالد ويقيمون عروض الأزياء .. ويبنون

ديكورات أفلام بينما الحزن فى القلب كامن ، والحقيقة قوية مزروعة فى الأرض على بعد ساعات فى المشرق .

أدمن الألفى – من ضمن ما أدمن – أن يروى لنفسه شريطا لا يتوقف ، بداية من الأسلاك الشائكة ، وخطوط الرسام الذى حفر فى ذهنه شكل الطفل الفلسطينى اللاجئ ، صورة أبواب مدينة القدس ، وصور لزعماء يهود قدامى ، وصورة خاصة جدا ليهود فقراء ينزلون من باخرة قديمة إلى أرض فلسطين ، لا يدرى كيف استطاع المصور فيها أن يمسك بلحظة ملامسة الأقدام للأرض . الصورة هذه لا تفارق ذهنه ، كما لا يغيب عن باله صوت نشيد يتردد بصوت مجروح قديم .

كمن يستمتع بتعذيب نفسه أخرج أمين الألفى خطابات صديقه ناجى فريد ، الصديق الوحيد الذى كانت له معه مراسلات يحتفظ بها ، مات ناجى فجأة فى الخليج ووضعوا جسده فى ثلاجة حتى تجمد شعر ذقنه الأبيض . ودفنه هو بنفسه فى مدافن عائلته الترابية الجرداء ، كان ناجى فريد مهندسا وضابطا احتياطيا ، اشتغل بنشاط وتفوق فى إصلاح دبابات الوطن ، وبعد العبور خرج من الجيش ، واشتغل بنفس النشاط والتفوق فى التجارة فى الخليج . حقق نجاحا ماديا كبيرا ، لكنه عاد بعد سنوات فى صندوق داخل ثلاجة وقد تجمد شعر ذقنه الأبيض .

خطابات غريبة ، أكسبها موت كاتبها المبكر ملمسا وصدى ، كأنه يلامس وجهه بأصابعه .

أمين العزيز : هل تذكر عندما كنا نتحدث عن السلام . السلام وحركات التحرر ؟ هل هو نفس السلام الذى يتحدثون عنه الآن ؟ هذا السلام الجديد

أشعر به أحجارا ثقيلة على قلبى . إننى أخفى وجهى بيدى عندما أقول هذه الكلمة . أقرأ مقالات « ...... ؟ » الأخيرة ترى كيف أصبح السلام « ممسحة » .

« أمين : هنا فى الخليج قد لا تحب الفلسطينيين الذين تلتقى بهم فى النهار ، تجار .. شطار .. أولاد عم اليهود ، فى الليل لو فتح أحدهم لك قلبه ، فسوف ترى نوعا من العذاب الإنسانى لا تصدق أنه موجود . شىء آخر غير الجحيم ، اسمه « الشتات » . فى الليلة الماضية سهرت مع رجل فلسطينى . استطاع أن يدخل إلى إسرائيل لمدة ٤٨ ساعة ، ذهب فورا إلى حيث يقع بيت عائلته المهدم ، أمسك بخرطوم ماء وأخذ يروى الأرض الخراب المحيطة بالبيت لمدة الـ٤٨ ساعة وعاد . لم يكن يرى أية حماقة فيما فعل ، بل قال لى هذا أحسن عمل قمت به فى حياتى .

صديقى : لا أظنك قرأت هذا التحقيق الذى كتبه صحفى إسرائيلى اسمه « أمنون .. » يصف فيه فى إعجاب وتقدير قدرة اللاجئ الفلسطينى على التكيف تحت كل الظروف ، وقدرته على استعمال الأشياء فيما لم تخلق له : كيف يسد النافذة المكسورة بالتليفزيون الخربان ، وكيف يسند الباب المكسور بالثلاجة التى لا تستعمل ، عبقرية عربية يحسدنا عليها ابن ..... لكننى لا أعرف لماذا أورد هذه الفقرة فى وصف مذبحة صبرا وشاتيلا ، ولاكيف استطاع أن يكتب هذا ! فى نفس هذه اللحظة كانت امرأة تتابع تجوالها المستمر بالقرب من حفرة جماعية فى مخيم شاتيلا ، مات ١٣ عضوا من أسرتها ومن بينهم رضيعها البالغ من العمر ٤ أشهر ، توقفت .. جلست على الأرض ، ذرت ترابا على رأسها وصاحت : وإلى أين أذهب الآن ؟ »

فى آخر الخطابات كتب ناجى فريد ملحوظة بطول ورقة الخطاب : أعجب إحصائية رأيتها اليوم فى تقرير من الأمم المتحدة تقول : « إنه فى مقابل كل

مقاتل يقتل فى الحروب الأهلية فى العالم الثالث يكون ١٠ أطفال قد قتلوا أو ماتوا فى الدمار الذى تحدثه الحرب .. مبروك عليك المستقبل الإنسانى المشرق .. والسلام » .

جمع أمين الألفى أوراق ناجى فريد وأعادها إلى الظرف الأبيض فى الدرج الأخير ، حاول أن يخلص من شعوره بملامسة ذقن ناجى ، فوضع نفسه تحت دش الماء مغمض العينين .

* * *

كانت مصر تلعب اليوم مباراة هامة مع بوركينا فاسو ، ولم نكن قد أحرزنا هدفا بعد ، فساد المدينة كلها حوالى الرابعة عصرا صمت مضاعف مريب . لو أحسن أمين الألفى التدبير لكان الآن يتفرج على المباراة وسط مجموعة يمارسون الطقس الجهنمى فى غياب كامل هكذا هو : قدم هنا ورجل هناك .

المهمة العاجلة والثقيلة عليه الآن هى أن يتصل بهم عند خالهم ، هناك على وش الدنيا فى الشقة التى ترى النيل : خمس غرف ، وأطقم مذهبة وأجهزة إلى السقف . طعام كثير وأربعة أولاد وخير وافر وامرأة بيضاء وافرة هى الأخرى . سيرد عليه واحد من العائلة المتخمة ، لكى يرتجل هو فيها تمثيلية إذاعية رديئة . يعتذر فيها عن الاستمتاع بكرمهم المكشوف وأطباقهم المتخمة .

فى حلقه شىء لا يبتلع من شقيق زوجته هذا . شوقى الذى يأكل كثيرا ويتكلم كثيرا ونادرا ما يسمع . لحيم ، كأن مشاعره اختنقت تحت لحم متراكم كثير . تفرغ بحماقة للإمتلاك . محصن ضد الاختراق . عدله مصلحته ، وساتره الإسلام . بمناسبة وبغير مناسبة يقول : « إن الله يحب أن تؤتى رخصه كما يحب أن تؤتى عزائمه » . عقد صفقة رابحة مع الله ، فاز فيها فى

الدنيا والآخرة . له كف غليظة يصفع بها أولاده على وجوههم ، وإذا تحدث يصمت الجميع .

أولاد أمين الألفى الآن فى بيت هذا الرجل مع أمهم يمضون وقتا طيبا بعيدا عن جفاف حياتهم واكتئابه ..

ربما يكون التفكير العلمى الوحيد الذى يمارسه أحيانا هو تفكيره فى مستقبل بسمة وبهجت ، أول الإعدادى وأول الثانوى . يحبهما كحبة عينه ، وجودهما المطلق الذى يشعر به حوله ، شعور لم يعرفه من قبل ، يجتمع فيه عشق ما مضى بما لم يحدث بعد . سبحان الله أخفى عن الناس الموت ، وتفاصيل النهاية .

أخفى المستقبل وخلق الاحتمالات . ولأنه ليس معتادا على التدبير و التخطيط فإنه يقع سريعا فى خوف جسدى وقلق . يرى الغابة التى يعيش معهم فيها والمستقبل الذى بلا ملامح ، فيرتد سريعا إلى معانيه المطلقة وأوهامه المكررة عن الحياة .

من الشارع رفع سماعة التليفون وطلب الرقم فهلت عليه الضوضاء . وسمع صوت أولاده ، بل هو متأكد أنه سمع صوت زوجته شادن يضحك من بعيد وكأنها عرفت أنه هو الذى يتكلم . بعد أن فرغ من مهمته الثقيلة وجد نفسه صغيرا جدا وسط هذه المدينة الكبيرة الخالية .

خط الأفق فى نهاية المدينة كان صارخا تصنعه أبراج عالية وجوامع جديدة مزهوة بنفسها ، عادت تطارده اللحظات القديمة التى عاشها من قبل . وافتقاده لليقين بحدود جسده . قلبه سليم ، ولكنه متعب . سار خارج المدينة على الطريق المرصوف الطويل حتى لا تدركه ضوضاء نهاية المباراة التى انتهت بالنصر المبين .

عندما لاحت له شجرة السنديان خارج خط الأفق هذا ، عرف أنه يعشقها فعلا . روحه تنتعش بما ينبعث منها ، لكن هل يقدر أن يشكو لها ما يشعر به فى قرارة روحه من ظلم ووحدة . كانت ترسل مع نسائم الغروب زهور الجهنمية التى تسلقت ساقها حتى النهاية . زهورا ملونة ، خفيفة شفافة تتطاير حولها فى الهواء أو تسقط تحتها على رءوس العشب . أما هى فهى صامتة ثقيلة تقول له ما لا يمكن أن يفهمه .

تحت الشجرة جاءت إليه « ف .. » امرأة الحلم قادمة عبر الحقول ترتدى ملابس غريبة ، ذات ألوان مبهجة ، فى العادة ، لا يختلط حلم أمين الألفى بواقعه هكذا ولكن من هذا الغروب الشتوى الشاحب والمتسارع . أحس بـ « ف » تمسكه من يده ، وأنها تقوده عبر ممرات ضيقة متداخلة ، ينزلقان بخفة فوق سلالم ودرجات صاعدة وهابطة . إلى أن يصلا إلى شرفة واسعة تطل على الدنيا كلها من خلف زجاج سميك . يمارسان الحب واقفين ، يشاهدان الدنيا .. والدنيا لا تراهما . كان جسده يعرق فعلا ، واعترته مع نسمة هواء قشعريرة باردة حتى العظم .

عاد إلى الشجرة صائحا عليها ، مخاطبا إياها ، حتى كف عن أن يتبين ملامحها . دخلت فى نطاق الليل الذى أخذ يهبط من هنا ومن هناك . ليل جديد ، يتبعه نهار جديد ، يهبط على أمين الألفى متكررا ، بنفس الشروط ، ونفس المواصفات .

* * *

الشىء غير المتوقع الوحيد فى النهار بطوله ، كانت هى الحالة التى وجد عليها الدكتور ظريف ، عندما مر عليه فى أجزاخانته ليأخذ حباته الثلاث .

سعيدا ، مبتهجا متحمسا لكل شيء كأنه شخص آخر ، عرف على الفور أن الدكتور ألبير بشاى يزوره قادما مباشرة من أمريكا . من دفعته تخرج فى قصر العينى ، نفس السنة ، يعيش هناك . أستاذ وطبيب أمراض نفسية وعصبية . يحمل لظريف صداقة عميقة ومركبة ، كان بينهما - ولا يزال - تكامل فريد ، وأخوة لم يعد لها وجود الآن . بعد أن يصل الدكتور ألبير إلى القاهرة بساعات ، يكون قد جاء لزيارة ظريف فى المنصورة . يمضيان معا كل ما يمكن من وقت ، رغم جدول ألبير المزدحم باللقاءات والأعمال . هو واحد من الأسماء القليلة المهمة والنظيفة فى تخصصه ، نادرة هى الأسماء الكبيرة - مثل اسمه - التى لا تقترن بالغنى الفاحش المثير للريَب .

عرفه أمين الألفى - شخصيا - قابله مع ظريف أكثر من مرة ، وسمع عنه كثيرا ، وقرأ له مقالات يكتبها بمسيحية خيِّرة ، ونوايا علمية وطبية متفائلة كثيرا ما فكر فيها وهو غائب ، وسأل نفسه : لو أنه يعيش ما نعيشه كل يوم ، هل كان سيحتفظ بهذا القدر من التفاؤل والنظافة - حتى الجسدية - التى تميزه .

انشغل ظريف بزبون كثير الأسئلة وتركهما معا فى حديث متدفق سيعنى الكثير لحياة أمين الألفى . متى تنتهى مرحلة فى الحياة وتبدأ مرحلة أخرى . هل يحدث الأمر فجأة ، أم يتسلل عبر فراغ اللحظات ، فتجد نفسك فجأة وقد تغيرت ؟ هل تستطيع أبدا أن ترى نفسك بعيون الآخرين ؟ أخذ بشاى يستمع إليه ويراقبه دون فضول جارح أو حكم أو اتهام . حضوره كان يشجع أمين الألفى على الكلام . معه يجد لغة غير كاذبة وغير معقمة . يتكلم معه فى مسائل ما كان يظن أنه عاد قادرا على التطرق إليها مع أحد . حدثه فجأة عن عزلته ، وعن الشجرة ، وعن الناس الذين تحولوا إلى جزر منفصلة . تكلم عن الوقع

الحقيقى لمسألة فلسطين فى روحه . عن الألم والإهانة التى أصبحت زاده وشرابه . وحدثه حتى عن زوجته . يسمع جيدا ، ثم يشير برأسه أو يده فكأنه فهم حقا وشعر . كأنه يفكر معه أو بدلا عنه .

علاقة الدكتور ألبير بشاى مع فلسطين ، ومنظمة التحرير الفلسطينية لا تخفى على أحد ، حتى يعتقد البعض أنه فلسطينى ، ما يعمله شىء حقيقى صامت ، يصل إلى الناس بعيدا عن الكذب والشعارات والعدسات . يعمل هنا وهناك وفى الأرض المحتلة وحتى فى إسرائيل ، وسط أمواج من المحتاجين واللاجئين والجرحى ، يخوض فى عذاب وأساطير لا تخطر على عقل بشر ، استمع إليه مأخوذا بما يقول من حقائق عن المسألة الفلسطينية وعن المنظمة وعن البشر الذين يتحولون وسط كل هذا العذاب ، إلى بؤر غير إنسانية من الأنانية و الفساد . لا شىء يبدو غريبا لا شىء على الإطلاق . كل شىء يصب فى بحر اليأس الذى بلا شطآن .

عندما وقف ظريف على رأسيهما ، غيّر ألبير الموضوع وهو مازال حقيقيا وصادقا : غريب أنك جئت الآن . كنا نتحدث عنك ، هذه المرة لابد أن تأتى معى إلى القاهرة إلى مصحة « نابلس » فى مدينة نصر . يجب أن أفحصك هناك ، أنا وبعض الزملاء . لم أعد أحب ما أسمعه من ظريف عن أحوالك ولا أحب ما أراه أمامى ، كأنك فى التسعين تجر فى رجليك مئات السنين . كان فى صوته نبرة قدرية .

فكان هذا هو ما فعله أمين الألفى .

* * *

الضوء فى المصحة كان ثابتا طوال الوقت . ليس حادا باهرا ، لكنه لا يبقى فى المكان لا ظلالا ولا غموضا . المبنى جديد يقع فى أطراف القاهرة الكبرى البعيدة ، تحيط به حدائق خضراء نظيفة . لا يعرف - أمين الألفى - كيف يأتى إلى هذا المكان وحده . جاء به الأصدقاء فى سيارة ، وهنا تركوه ، ينتظر الدكتور ألبير بشاى حتى يفرغ من مواعيد مرضاه .

كانت الأحوال قد تدهورت بسرعة فى الفترة الأخيرة ، أفلتت أعصابه منه فى المدرسة عدة مرات ، كاد يشتبك مع فحل من فحول الدروس الخصوصية بسبب بديهيات لم يعد أحد يذكرها أو يهتم بها .نصحه زملاء السهرة أن يتغيب عن المدرسة أياما ، لأن الرجل يتربص به ، وقد يدبر أى فخ أو مكيدة ، الرجل يدور قائلا : أمين الألفى يريد أن يخرب بيتى ويحرم أولادى من لقمة العيش . المشكلة الحقيقية كانت فى البيت لم يعد يستطيع أن يسمع صوت زوجته وهى تتكلم .. يقلب كيانه الصوت الذى تغير . أصبح صوتا غير إنسانى كأنه قادم من آلة مخترعة حديثا . صوتها مع أولادها كان يدفعه إلى الجنون ، مدفع رشاش من الأوامر والنواهى والانتقادات . عندما يكون هادئا فإنه يكاد يضحك فى عبه من ردود الأولاد عليها .لغتهم المأخوذة من قاموسه تدفعها هى الأخرى إلى الجنون فتكلم نفسها . حرب استنزاف يحترق فيها الطرفان ، ولا نصر محتمل ولا هزيمة .

السؤال الغبى الذى ظل أمين الألفى يسأله لنفسه كل يوم - بل كل ساعة : هل هذه حياة ؟ هل هذا بيت ؟ ازدادت عليه فجأة الآلام فى الساقين ، والكتف الأيمن ، أصبح القيام من الفراش الجاف الذى انتقل إليه فى البلكونة عذابا جسديا ونفسيا لا يقدر عليه يغيب عنه المبرر أو الدافع لاحتماله . نصائح الناس وإرشاداتهم عن أطباء واقتراحات لأدوية

وأعشاب تطارده وتزعجه . هو يردد مع سؤاله الغبى المصمت عن الحياة والبيت كلمات يرددها كأنها أغنيته المفضلة « أخفى الله الموت ، وتفاصيل النهاية ، إذا لم تكن تدخر لنا مفاجأة فما معنى أى شىء » .

إذا وضعت السيارة على أول المنحدر فأنت فى حاجة لقوة هرقل لكى توقف اندفاعها إلى الهاوية ، رقد فى فراش المرض شهورا . لو كان من الممكن أن تسمى ما يرقد فيه فراشا ، أو ما يعانيه مرضا . تطوله ألسنة اللهب من كل جانب مع عجز وضيق يتنفسهما بدلا من الهواء . بقدر ما سمحت به الإمكانيات المادية والعملية دخل فى الدائرة الجهنمية للأطباء والتحاليل والتكاليف والتضليل وسوء النية . الجميع يرددون لا شىء ، لا شىء بك ، كأن العالم فقد البصر والشعور . وحده يرقد فى بلكونته فى آخر النهار ، تحت زجاجها الخشن المترب ، يدخل عليه ضوء الشمس ، وضوء لمبات الشارع الكبيرة وضوء القمر وتراب وضوضاء الشارع المتقطعة المكررة . الناس جميعا مشغولين بالمضغ ، أو بالغزل على أنوال كراهيتهم المتبادلة ، ينسجون أقمشة لا يستعملونها يسمعهم من مرقده ، ويسمع التليفزيون لكنه لا يراه ، تستوقف حالته الراهنة مصطلحات الـ١٣ ٪ والـ ١ ٪ لا يدرك علاقة هذه النسب المئوية بالوطن ، يرى بعين خياله فلسطين تمزق بسكين باردة .

انفردت به وهو راقد قضية فلسطين ماذا يفهم ؟ وماذا يصدق ؟ وما هى كل هذه الكركبة والقدرة على اختراع الأكاذيب ؟ . الناس تركوه وحده مع ملايين الأحلام والأوهام والأشعار الميتة . هل يتذكر الأحياء أم الشهداء ، أم يكتفى بتأمل حطام ذاته ؟ هل هى قضية عامة سياسية وقومية أم هى قد صارت بالنسبة له قضية شخصية متورطا فيها منذ الأزل ؟

تحت نيران رشاش شادن المحموم رقد أمين الألفى فى بلكونة شقته ارتبكت بسمة ابنته بين فراش أبيها وصوت أمها الداوى . أما ابنه بهجت فقد انزوى فى أركان الشقة مذعورا . حلاوة الروح – فقط – هى التى أخرجته من تحت البطانية التي يلف بها نفسسه فى عز الصيف ، لكى يطلب العون من الدكتور ألبير بشاى .. للحق كان رجلا مصريا أمريكيا تصرف بإنجاز وحسم وبطريقة عملية ، فبعد تدخله بأيام وجد أمين الألفى نفسه فى الوقت الراهن جالسا على دكة بيضاء فى طرقة طويلة فى مصحة نابلس ، ينتظر الدكتور ألبير بشاى حتى يفرغ من مواعيد مرضاه .

* * *

هل تريد أن تسمع منى أم تريد أن تتكلم أنت ؟ ، ولأن أمين الألفى يحب أن يسمع فقد أخذ يشاهد نفسه يعاد ترتيبها على لسان الدكتور بشاى ، يشرح له تشخيص حالته وطرق العلاج . اكتئاب مزمن طبعا ، المرض نفسى جسدى . نفسى أولا أم جسدى أولا . لا أعلم . وليس مهما . المهم أنك ستقيم معنا هنا فى مستشفى نابلس للأمراض العصبية والنفسية . اكتئاب واعتماد يقترب من الإدمان على الخمر والمهدئات معا . لا أعتقد أنه ستكون هناك أعراض انسحاب صعبة . لذلك أقترح أن تجرى لك فى نفس الوقت جراحة ضرورية وبسيطة – البروستاتا – كل الرجال فى مصر قبل الخمسين يعانون من متاعبها فى التبول وسرعة القذف . ترتيب الدخول والنفقات ستكون أسهل لو قلنا مستشفى بدلا من مصحة . ستجرى لك الجراحة وتنقل إلى قسم الأعصاب ، المصحة هذه الكلمة المريحة سيئة السمعة هنا وسيئة الحظ . الاكتئاب ألف نوع ونوع ، صفحات ودرجات فى كتاب أكبر من ألف ليلة وليلة . البشر كلهم يكتبون فيه .

انتابت أمين الألفى فى الوقت الراهن رجفة خفيفة وعاوده الشعور بأنه قد عاش هذه اللحظة من قبل ، ورأى هذا الرجل النظيف يتكلم عنه بطلاقة تحت الضوء . ارتبكت فى ذهنه الأشياء والمعانى والكلمات . كل شئ يحمل مجرد شبه للحقيقة .

انتهى الرجل النظيف الجالس تحت الضوء من كلامه قائلا : اعتمد علىّ ، أنا واثق أنك قادر على أن تضحك فى النهاية .

*   *   *

استراح أمين الألفى لإيقاع الزمن الجديد فى المصحة . لم يشعر للحظة واحدة بالحبسة أو بالضيق . لم يخطر على باله أبدا أنه معزول عن العالم ، هذا هو العالم الحقيقى ، أما الآخر فقد كان كابوسا وانقشع . وجد نفسه على أعتاب ساحة من الهدوء لم يعرفها منذ مدة طويلة . بشكل ما أحس أنه لم يعد وحيدا ، وبنوع من الرضا يربط اللحظات فيضمها سياق معقول . ما أراحه حقا هو تلك العلاقة عن بعد التى قامت بينه وبين الدكتور بشاى ، المشغول دائما بعشرات المرضى والأعباء الإدارية . حتى عندما عرف أنه هو وثلاثة أو أربعة من الفلسطينيين المتنفذين يملكون عددا من المستشفيات مثل هذه ، فلم ينفره منه أى ملمح من ملامح الثراء الجديد نتن الرائحة .. فكر فى أن الخاص عندما يدخل فى العام فإن الإنسان يرتاح . أمراضه هى أمراض البلد – أمراض ملايين غيره – هو محظوظ رغم كل شيء . لكن هل هو حقا مريض؟ أجروا له عملية البروستاتا بنجاح بعد حقنة بنج نصفى فى العمود الفقرى ، كانت مؤلمة ومربكة ، فقد ظل يراقب الجراح وهو يكوى داخله مبتسما . وشم رائحة الليزر الكاوى كرائحة دكان الكباب . ظل فى آلام جسدية قاسية بعد العملية . كل ألم يستثير فيه صلابة لم يكن يتصور أنه يملكها . كان الألم يقربه من جوهر وجوده .

تذكر الصديق المتصلب المتطهر القديم ، الذى كان يقول له دائما « الإنسان يجب أن يجلد نفسه حتى يجدها » ، ولم يكن يصدقه . بعد أن انتهى الألم نقلوه إلى عنبر الأعصاب الهادئ الجميل . وبقيت أوراق دخوله المستشفى تدل على أنه فى قسم الجراحة وليس قسم الأعصاب . واحدة من حيل الدكتور ألبير العملية المفيدة .

العنبر عشر غرف مصفوفة . منها أربع مغلقة ، لا تعرف إن كانت مشغولة أم خالية .. حالة واحدة مزعجة ، أما الباقى فنباتات هادئة غائبة عن الوعى ، فى نهاية الطرقة صالة مستديرة يطل زجاجها الواسع على أشجار وفيلات بعيدة .

انعكاسات الظلال ليلا على الواجهات الزجاجية الكبيرة كانت تجعل من الصالة والطرقات ومداخل الغرف المفتوحة مكانا جميلا مؤنسا لا وحشة فيه .

أمين الألفى لا يصدق أن الكيماويات التى فى الأدوية هى التى فعلت به هذا . رغم أنها أدوية غالية أغلبها مستورد . لا يمكن أن تكون هى الكيماويات التى صنعت تلك المسافة الجديدة التى يستطيع أن يطولها بتنفسه ، غرفته أحسن غرفة ، قريبة من الصالة ولها شرفة مستقلة . عيبها الوحيد أن بها سريرا ثانيا وقد يأتى مريض جديد فى أية لحظة لكى يقيم معه .

ممرضات العنبر كن أربع نساء قاهريات شديدات ، يتمتعن بقدرة خارقة على الحركة والكلام ، تم اختيارهن بعناية ، ويبدو أنهن يتقاضين مرتباب مجزية لأن أغلبهن يقطعن رحلة عذاب رهيبة مرتين فى اليوم من أقاصى جنوب القاهرة الكبرى حتى شمالها . هذا الأخضر الواسع النظيف . يتناوبن الورديات ويوزعن مع الطعام والدواء أشياء أخرى . تبقى حكايات الغرف الأخرى حية طريفة وحاضرة . الممرضون الرجال أغلبهم من فلسطين بعضهم مقيم فى مصر والآخر عابر من شتات الى شتات .

هؤلاء الفلسطينيون يتكلمون فى أشياء أخرى غير حكايات الطريق والغرف . ويتكلمون فى السياسة والظلم الواقع عليهم ويتحركون فى نشاط غاضب لا جدوى منه . لو لا الضجة التى يحدثها " ممدوح " كل يومين أو ثلاثة فتعيده عائلته محدثة ضجة كبرى من الاستغاثات اليائسة ، والتدخلات الغبية . لو لا هذا المهرجان المضحك المبكى لكان المكان بالنسبة لأمين الألفى : حلما أو جنة على الأرض .

اختفى من أذنيه – على الأقل – صوت المضغ الضارى الذى يدور فى الخارج حيث الشعب كله يشتغل بإصرار على أنوال الكراهية والعدوانية ، حيث لا مهرب من خيوط المؤامرة أو تداخلات الشبكة . هنا لا يشعر بأن الناس يدفعونه لكى يخلى لهم البقعة التى يقف فيها .

* * *

وضعت أبلة الحاجة زينب سرا مبلغا كافيا تحت حساب المستشفى ، والأهم أنها وعدت أن تقنع الوزارة بأن يكون العلاج على حساب الدولة . كذلك تقدم عدد من أصدقاء القاهرة القدامى بمد يد المساعدة المادية والشفوية .

أصبح الإناء عامرا وابتعد كذلك شيطان الحاجة المادية الذى كان عليه أن يقابله كل صباح . كان شيطان الحاجة المادية يقابله كل صباح ، جامعا مع شياطين أخرى من جراح يونيو الشخصية المهينة ، ومن مسار فلسطين ومن غرائب العرب ،حيث يجد نفسه يجتر حياته مثلما يفعل خروف . كل شىء فى الخارج كان يدفعه إلى مربع ضيق أخير ، هنا يعيش أفقا واسعا لا يحده إلا الجنون .

أما فيما يتعلق بشادن والبيت فقد قررت هى أنها بهذا تكون قد وصلت إلى آخر المطاف ، وأنها بعون الله والأخوات سوف تنهى كل شىء . قرارها كأنه شىء يحدث لشخص غيره . هى والأولاد والمنصورة والمدرسة وكل شىء يتراجع الى أغوار سحيقة ، ينظر إليها فى إرهاق . من بين دخان خفيف تحضر إليه شجرة السنديان المهيبة ، عيون الفتى مفتاح الذكية النظيفة ، كما يأتى إليه من هناك ظل كان يعرفه لمقام ولى من أولياء الله ، ولى صغير ، مقامه ما زال وسط الحقول . جلس فى ظل المقام ، ودخل إلى حضن آيات قرآنية كان يرددها شيخ ضرير . صاحبته الآيات عمرا طويلا .

* * *

زارت شادن البيلى زوجها أمين الألفى ذات ليلة فى المنام . كان قد بقى مستيقظا بعد أن هدأ العنبر ونام ، فى الوقت الراهن ، لا يسأل نفسه كم الساعة ، ساعته مغلق عليها فى الدرج يتابع أيام الاسبوع : الأربعاء ، الخميس .. لكنه لا يعرف اليوم من الشهر ولا الشهر ذاته . انساب فى طرقات المستشفى كقط لا يحدث حتى حفيفا . جلس ساعة طويلة جنب الزجاج تحت بقع الضوء وانعكاسات الظلال على الجدران البيضاء ، صمت جسد أمين الألفى كله . لا يشعر أن له رأسا أو رجلين أو قدما ، قال لنفسه ضاحكا : لعلها علامة من علامات الشفاء . بعد أن أخذ جلسته مع الضوء والظلال عاد ثقيل النفس لكى يرقد منتبها فى فراشه يرى على ضوء الطرقة الداخل من الباب المفتوح ، السرير المجاور الخالى مشدود الغطاء . فى تلك الليلة زارته زوجته شادن فى المنام .

شادن القديمة التى أحبها ، حقل القمح الذى كان يضمه بين ذراعيه . كان الحلم جنسيا مترعا بالغرام والحماس . كانت تتأوه فى صوت مثير ، يتصاعد

إلى صراخ . وعندما انتهى هو فى وقت غير مناسب .. صرخت فى ألم ، فاستيقظ . تغيرت حتى نوعية وطريقة الأحلام . كانت من قبل هواء . الآن ، صار أمين الألفى يدخل بجسده إلى الأحلام ، كأنها بحار ماء ، يشعر فى الحلم بالأشياء يلامسها وتلامسه ، لكنها صامتة متتالية كأنها نسيج واحد .. أحلام الليل وأحلام النهار ، وتلك التى يراها كلما أغلق عينيه .

* * *

بحث أمين الألفى طوال حياته عن الزهرة الصفراء . زهرة شجن . تشفى من ألم نبيل ، عشق مأخوذا ما فى معناها أكثر من شكلها. زهرة أو وردة لا يهم ، المهم أن تكون صفراء لها ذلك النوع الفريد من العطاء . كانت « عفاف الـ... » هى وردة حياته الصفراء التى وجدها فى ذلك العنبر الأبيض الذى يطل على المساء .

نزيلة معه هنا . صاحبة غرفة من الغرف المغلقة . سمع عنها كثيرا قبل أن يراها هى من عائلة فلسطينية عريقة من : أريحا « عائلة ... » كانت تدرس فى بيروت أيام الحرب الأهلية وفى أيام الاجتياح اغتصبها ثلاثة من الملثمين . يقال إنهم من الكتائب حمل الجنود اليهود حطام جسدها المنتهك .. طارت فى رحلة علاج وترقيع جسدى ونفسى ، طارت إلى كل أرجاء المعمورة ، وتضافرت الجهود المالية مع الدبلوماسية ، فللعائلة ضلع كبير فى السلطة الفلسطينية : بالمال والنفوذ وبتمسك منها على البقاء ، استقرت هنا فى القاهرة فى مصحة « نابلس » .

نصف حاضرة ، نصف غائبة ، أقل من نصف كائن حى .

بعد عدد من اللقاءات المدبرة وغير المدبرة ، بعد أن جلس معها طويلا وهى

هادئة أو هى على مشارف نوبة أو هى تحت تأثير المهدئ الشديد تيقن أن هذه الروح هى وردته الصفراء التى ظل يبحث عنها . تمنى أن يجمع لها كل لحظات السعادة والوجود المتكامل التى عرفها فى حياته وأن ينثرها تحت قدميها ، قربانا وهدية خالصة ، علها تداوى بعضا من التعاسة والشقاء الذى عاشته . كأنها فلسطين وردة صفراء . أشجان ملتهبة وجراح لا تطيب ، أثناء العلاج ازداد وزنها زيادة كبيرة ، كما تغيرت طبيعة حركات جسدها تغيرا ملحوظا ، فلم تعد قادرا أن تعرف هل هى ذكر أم أنثى . عفاف كانت فى أول الثلاثينيات مليئة بالفضول والطيبة والسذاجة والمرح المدفون فى العيون .

فى غير النوبات الرهيبة التى لم يكن يراها أحد سوى الطبيب وواحد من الممرضين الفلسطينيين الأشداء التى تنام فيها وتغلق عليها حجرتها لأيام . كانت له وردة صفراء ، تدخل عليه غرفته فى ضحى المستشفى الصامت ، استراحت للجلوس عنده ، تقلب فى الجرائد والمجلات . تدخن بلا انقطاع لا سجائر تكفيها . تقول « هات سيجارة » قبل أن تقول « صباح الخير » تطلب بطريقة كريمة طبيعية ، فلا تملك إلا أن تقدم لها السيجارة مبتسما رغم تحذير الأطباء والممرضين « هى لن تتركك ولن تكف أبدا » .

كان أمين الألفى يشعر بامتنان خاص لها لأنها أنست إليه ، كأنها سامحته وغفرت له وقبلت أن تجلس إليه ، صامتين متقابلين يدخنان لا يذكر أنه سألها سؤالا واحدا عن الوقائع . ظلت فسيفساء جدارية الحادث البشع تتجمع وراءها . كأنه يعاين طحن العظام وخلع الأظافر دون طلب ودون توقف وهو جالس أمامها يدخن .

نادرا ما يطل من عينيها ذلك المرح الفلسطينى المشغول الملون ، ساعتها تضحك وتشيع حولها أمانا وفرحا ثم تنصرف وهى مازالت تدخن فى هدوء الملائكة .

* * *

لأن أمين الألفى كان المريض الخاص للدكتور ألبير بشاى فقد وجد عناية خاصة ، عومل هناك بكثير من الاعتبار وبعض الفضول . كان زواره القليلون من أنواع وقبائل مختلفة : ناس من المنصورة ، فلاحين ، وثلاثة من أصدقاء القاهرة القدامى ، أحدهم ممثل فى مسلسلات التليفزيون أثارت زيارته لغطا كبيرا ، أصعب الزيارات على نفسه كانت طبعا زيارة بسمة وبهجت له . هذه الزيارة التى حاول كثيرا تأجيلها أو تجنبها . الجميع أصروا على أن تتم . الحمد لله تمت ، وكانت قصيرة . جاء بهما إليه قريب له محايد ، ظل صامتا طوال الوقت ينقل بصره بينهم وهو حائر .

تقاطعت نظرات الأولاد فى الغرفة الصامتة ، فوق القناع والماكياج الذى وضعته لهما أمهما مع زكيبة من المحاذير والتنبيهات والمخاوف . جحيم كانت نظرات بهجت المحبوسة التى لم تكن تصل الى وجه أبيه ، بل تستقر فوق صدره . جحيم آخر كانت أصابع بسمة وكفاها ، لا تعرف ماذا تفعل بهما بلا غاية ولا مستقر فى نهاية الزيارة القصيرة ، الطويلة جدا والثقيلة ، لم يستطع أمين الألفى إلا أن يمارس هوايته الدائمة فى صياغة المواقف فى جمل وتراكيب شعارية . فقال لنفسه بعد أن غادراه « أغادركم لأننى أحبكم » ، وسقط عليه بؤس ووحدة شديدان . أراد أن يصيح وراءهما علهما يسمعان أيام وردية لكما » !

* * *

لو أن أمين الألفى عاش فى أعماق البحار أو سافر فى الفضاء الخارجى لما عاش كل تلك الأحلام والتصاوير التى صار يدخل فيها ويخرج منها هنا فى هذه المصحة ، أحلام وراء أحلام تتتابع فى سلاسة غريبة . نهايات اللحظات فيها ليست حادة جارحة . والواقع اليومى الراهن ينساب أيضا كما فى الحلم بلا مقاومة . أما الوقائع التى تشبه الحقائق فهى تحدث هناك بعيدا عنه . الوقائع المليئة بالكذب والكراهية صار يسمع عنها ولم يعد مضطرا للسباحة فى هذا التيار .

فى هذه الليلة اصطفى أمين الألفى حلما قديما وأخذه إليه . خروج الجيش المصرى لحرب فلسطين ، حرب الإنجليز واليهود معا فى ٤٨ ، هو يرتدى البنطلون القصير . فى قبضة يد والده عند منطقة مجاورة للعتبة الخضراء ، لعلها شارع عبد العزيز أو أول محمد على . جدران المبانى عريضة ضخمة جدا كذلك الأبواب الخشبية عالية وراءه وأمامه . رغم محاولاته المتكررة ، أبوه لا يريد أن يفلت يده . فى الرصيف نقر من ماء وطين لعلها كانت مطر . الرصيف ، ونصف الشارع مزدحم بالواقفين والمارين فى اتجاهات مختلفة . للعربات الكبيرة والدبابات البطيئة دوى مهيب مع الهتاف والزغاريد . يرى من بين الزحام سيقان الجنود الرفيعة الملفوفة فى « القايش الكاكى » تنطلق إلى الأمام وتعود فى حركة ممتعة لا تنتهى . أبوه لا يرضى أن يفلت يده.

قبضة الحلم القديم تدخله فى ضيق عتيق وشعور بالقهر وانعدام الحرية . لا يقدر أن يصيح مع الناس أو يجرى فى قلبهم ، واقعا تحت تحفظ شديد . أشياء كثيرة مخنوقة تنتقل إليه عبر اليد القابضة ، والإجابات الضائقة المقتضبة التى تبعث على الكراهية ، كان أبوه مصرا على أن يخرج بسرعة من هذا الزحام الذى وجد نفسه فيه ، بينما أمين الألفى يموت ويبقى فى قلب هذا

المهرجان . صار متأكدا أن هذا الحلم بالذات يجعل جسده يفرز كيماويات معينة : سما بدائيا رهيبا . ممتد المفعول . تتداعى من حوله كل الظلمات ، والأسئلة الخانقة التى تجثم على صدره دون إجابات . تتجمع كل ليالى الظلام والقهر والدم خلف جحافل طوابير تحاصره . فى القلب منها معنى فلسطين السليبة وما يدور على الأرض من قهر وظلم ومهانة . فلسطين الداخل والخارج . شتاتهم وشتاته . كلمة الوطن التى ينازعه فيها مردة وشياطين . فى النهاية يلقى به الحلم خارجا كرجل فقد القدرة على الانتصاب . مقصوم الظهر يحمل ما لا يطيق .

نسمة العشق مستحيلة . الأطراف أبدا لا تجتمع ، ولا يجد شيئا مكانه ، هل بدأت الضباع تنهش جثث الناس فى الشوارع ؟ يعرف أمين الألفى جيدا ، ألا شىء يخرجه من هذا التداعى المرعب الذى يطبق فيه عقله على قلبه . سوى تغيير الهواء . أو تغيير نظام الساعة . أن يخرج من العالم والزمان أو يدخل فى نظام كونى جديد .

الأدوية التى يأخذها هنا ليس لها تأثير مباشر ، فهى – كما يزعمون – للعلاج ، وهو هنا لا يجد تلك الكؤوس الرمادية الفعالة التى تصيب رأسه مباشرة وتنقله إلى حال مفارق بعيد . خرج من سريره ثم من غرفته مصطحبا سجائره لكى يتنقل فى ليل الردهات الصامت. . دخل إلى الليل الأبيض الطويل فى ساعة ساقطة من الزمن . بين ليل لا ينقضى ونهار لا يطلع . فى الوقت الراهن ران على الظلام خارج الزجاج ، صمت آخر ثقيل ، غير الصمت الموجود فى الممرات ، وعند مداخل الغرف المفتوحة ، أحس خلفه بالوجود الثقيل لممدوح – مدمن الهيروين – وقد جمع جسده النحيل على دكة رفيعة وجلس يرقبه ويدخن .

ما بينهما ظل حتى الآن مغلقا . يراقبه هو عن بعد ، ويسمع كل حكاياته . لكنه يبقى أبواب الجحيم مغلقة . حرق منزوع الجلد لا يقدر أن يلمسه ، لا يعرف شيئا عن الهيروين ربما لذلك يرتعد ويخاف . يراه دخل مع الانفتاح ، مسحوق أبيض يرشه الأعداء ، لتصبح أجساد الأطفال الغضة ، جماجم وأشلاء . سرطان يذكرون اسمه فى استعذاب لفزع جديد . الليلة كان كل شىء معدا لكى يسمع من ممدوح كل ما يقدر عليه من كلام غير مترابط .

« والدى الحاج مسطول دائما ، الفحم فى المنقد ليل نهار .. حجر إسكندرانى رهيب .. وحده أو مع الزوار . رائحة الحشيش فى أنفى منذ الرضاعة » يحسب أنه يقول حكما وأمثالا بينما كلامه وكركرة الشيشة واحد . أضحك منه وهو يقول عنى أننى مجنون . حبسنى ابن الـ.... ثلاثة أيام فى مخزن خشب .

عيون ممدوح كانت تتقافز على أمين الألفى ومن حوله بينما يحك فى صدره سلسلة ذهبية غليظة ، يتكلم بسرعة . بسرعة ثم يصمت يمد يده يلكزه ليتأكد أنه يسمعه . كلماته مفردة تصيب سامعه كطلقات شاردة ، هى كما يقول : « خارجة فورا من هذه الجمجمة ».

« تعرف الممثل الذى زارك ، أراه فى التليفزيون ، صديقك . هل يضرب ؟ أنت جربت ؟ » . تحسس ممدوح قطع سكين بطول خده الأيمن وقال « أنا عملت ده بالسلاح . أجمل ما فى الأبيض أنه يجعلك تراقب الدم يسيل فى هدوء » .

انتاب أمين الألفى خوف بارد . الفتى الذى لم يتجاوز العشرين ، يضم جسده النحيل ويفرده كثعبان جبلى جائع . أصابعه المعروقه المتصلبة لا تكف عن الحركة باحثة عن شىء لا وجود له .

تنقل ممدوح خلفه فى الصالة والردهات وهو لا يكف عن إطلاق حديثه . ساعات طويلة مازالت بين أمين الألفى وبين إفطاره وحبوبه المهدئة . وظل

ممدوح يتصاعد ولا فرار منه . اقترح أن يلعبا « البنج بونج » على الطاولة التى فى الركن .. ظلا بقية الليل يلعبان لعبا أعرج . بينهما كرة بيضاء حمقاء لا تريد أن تنكسر .

* * *

هروب أمين الألفى المستمر منذ بداية الوعى ، كان من أن يجد نفسه مصبوبا فى قالب من تلك القوالب القابضة ، التى تجعل من البشر حالات بغيضة أو مثيرة للشفقة . يفكر هكذا ليس لشعوره بأنه فريد أو أحسن من الناس . لكن لأنه يراهم جديرين بما هو خير من ذلك . ولأن التشوه والبشاعة التى تحدث للبشر فى الوقت الراهن حوله : عبث ، بغيض لم يجد فى نفسه أبدا قدرة على ابتلاعه .

بحث وراء كل قوالب الناس التى عرفها فى حياته . حالات ، قوالب أشرار ، مساكين ، قوالب انتهازيين ، سفلة ، ومن استسلموا لواقع لا يسمح بالأسئلة . اقترب منهم ونظر فى داخلهم قدر المستطاع . نادرا جدا ، ما صادف عشقا صادقا أو فرحا حقيقيا بالحياة . غيوم وقش ودخان ، حالات وليسوا بشرا .

عشقه الفياض داخله على « يقين » بأنه يوما ما لابد أن يلتقى الطرفان .

الجديد الطاغى فى أحلام أيام المصحة الوردية أن أمين الألفى كان يرجع بسهولة إلى أيام طفولته وصباه ، وأيام شبابه المبكر . يذهب إلى هناك بكامله ويعود ، يفرح بهذا التنقل الحر فى الزمن . لكن الصور المسترجعة لم تكن أبدا مفرحة أو سعيدة . يرى الشريط كله فيسمى نفسه ساخرا : « تعيس الألفى » أو « محبط الألفى » ويفتح « محلات الألفى للكآبة والظنون » .

يرى أمام عينيه مرة أخرى أغلب تجارب حياته تنتهى إلى لا شئ ، تتوقف قبل أن تكتمل . تفسد كل النهايات ، أو تتسرب من بين يديه كالماء . يتابع المسار الذى أوصله إلى حالة العجز عن التخطيط أو الحساب أو بناء شىء فوق شىء . اكتفى بالعشق . ولم يعرف الطموح . إتَّبع قلبه وروحه فصار أمره إلى ما صار إليه .

يسأل أمين الألفى تحت وطأة صور حياته المتعاقبة .

هل هو زاهد متعفف ؟ أم هو جائع نهم لا يشبع ؟ بيتهم القديم كان مزدحما عالى السقف ، أو هكذا كان يشعر لأنه أصغر إخوته ، ضائع بين سيقانهم ، مضغوط فى أماكن ، وهدوم ضيقة . كل الأشخاص حوله وجدوا لأنفسهم حلا إلا هو . لأن البيت يقع ملاصقا لنهر النيل فإن السقف كان مشغولا دائما بدوائر ضوء منعكسة من الماء . تبقيه دائما متوترا . عيون تتابعه وتراقبه لا مكان ولا مهرب .

البيت لا يكون خاليا من البشر إلا لساعات نادرة قليلة . تحدث على غفلة فيسرع متلهفا ليمارس حريته التى يسمونها شروره . لاهثا تتسارع دقات قلبه ، يمزقه مقدما شعور حارق بالذنب لا يعرف له سببا . يندفع رافعا الجرائد القديمة فى رفوف دواليب إخوته . ليجد صورتين لامرأة عارية ، وصور فتيات يعرفهن ، وقصاصات من خطابات غرام . فى حقيبة أمه القديمة نقود جديدة فى « أستك » يقتبس منها ورقة أو ورقتين حسب الشجاعة التى تواتيه مقنعا نفسه بسرعة أنها سرقات شرعية . ينتقض من الرعب عندما يفتح الباب فجأة ويدخل منه الأعداء القادرين الذين يملكون للباب مفاتيح ويستطيعون الاقتحام عليه فى أى وقت .

يعرف أن لكل عالم حدودا ولكل كون أفقا ، ولكن لماذا عالمه هو دائما ضيق ، ضاغط ، قريب الحدود . أنا هنا . ربما لا يخرج صوتى أم أن العالم أصم . يفر إلى نهاية العالم . اختار بقعة على شاطئ النهر ، ضحلة ، يمتد ساحل النهر الطينى لمسافة . يحتلها " عربجية " المنطقة ، يأتون إليها ليغسلوا أجسادهم ، وأجساد خيولهم وحميرهم المتعبة الجريحة . يراقبهم طويلا .. بعد العصر

وعند الغروب تشيع فى هذه البقعة حركة صاخبة ، ملونة ، مدهشة ومليئة ببهجة بائسة ، خالية من كل القوانين .

* * *

لاحظ أمين الألفى أن « عفاف الـ... » غائبة لم تظهر منذ أيام ثلاثة . أدرك أن مكانها فى حياته يزداد عمقا ورسوخا . وردة صفراء حقيقية ، تجمع فى تلافيفها كل المآسى والأحزان ، فى معناها ومبناها . أين ذهبت يا وردتى الصفراء ؟ يا مسيحا يحمل عنى الخطايا والشرور .

نظرتك الساهمة غفران صنع من ذهول .

لا غفران ، بل ذهول صامت أصفر .

ثلاثة أيام غائبة ، لكنها حاضرة فى قلبه كل الحضور .

يفتقد جلسات التدخين الكثيف .

الكلمات المتقطعة المتباعدة فى ضحى المستشفى البليد .

لم تكن جلسات اعتراف أو تحليل . ولا بحث فى وقائع وربطها بأفكار . جلسات من عشق خالص للحياة . كم تحب الحياة ، تلك الوردة الصفراء . تعشق الحياة ، وتشيع حولها ذلك ، رغم ما حدث لها وما هى فيه .

عفاف ، الوردة الصفراء ، كانت تجسيدا بريئا خالصا لعشق هذه الحياة الملعونة .

من السهل هنا فى العنبر استقصاء كل الأخبار ، ومعرفة كل ما يحدث فى الغرف المغلقة أو حتى فى مكاتب الأطباء . عرف بسهولة أن الوردة الصفراء

دخلت فى نوبة عنيفة مدمرة من نوباتها العصبية . وأنهم غالبا استعملوا معها صدمات الكهرباء ، التى تتركها خالية من الحياة لأيام وأيام .

دخلت عليه غرفته فجأة ممرضة متينة لم يرها من قبل . تفحصته هو وعرفته فى فضول ، ثم استندت إلى حرف السرير وقالت فى نبرة فاحشة :

– تعال .. هى مش عاوزة حد يخش عليها غيرك .. تردد ، وفكر متثاقلا ، لكنه قرر أن يكون وحده عندما يدخل إليها .

* * *

أحلام وصور الرحلة الأوروبية لها فى نفس أمين الألفى مكانه خاصة مميزة قام برحلته الأوروبية الوحيدة لأن علاقته بالتنظيم الطليعى استمرت بعد النكسة .

كانت المكافأة منحة للسفر والتدريب فى منظمات الشباب فى البلاد الاشتراكية سابقا ، ألمانيا الشرقية ، وتشيكوسلوفاكيا والمجر وتنتهى برحلة التدريب فى موسكو عاصمة الإمبراطورية البائدة .

منذ أن عاد وهو يحاول استرجاع صور هذه الشهور الثمانية بصعوبة ، كأنها تقع خارج سياق حياته التعس . خضراء لامعة من الخارج ، لكنها محشوة بمشاعر مرتبكة تدور كلها حول « العورة » كشف العورة وستر العورة . تأتى صور ووقائع الرحلة الأوروبية فى نغم وإيقاع مختلف . لكن اختلاط عوراته وعورات الحياة أمامه صاخب . تكشفت عورة التنظيم الطليعى عندما تعرف على الزملاء فى نفس الرحلة : أحدهم كان « يفك الخط » وحاصلا على نفس هذه المنحة للدراسة والتدريب فى الخارج . عورة البلاد الاشتراكية التى تكشفت

بعد أيام أمامه ، والطبقية الإنسانية بين أعضاء الحزب وباقى الشعب . عورة الأكاذيب الحضارية التى يخفيها والادعاءات . عورة التخلف والتمدن .. والتراب والثلج والوقت والموسيقى الكلاسيك . والعورة الكبرى ، عورة معاملة النساء وفهم معانى الحب ودقائقه .

ما دفع وقائع وصور الرحلة إلى حدود اللا معقول ، أنه كان يتحرك طوال هذه الشهور ، وسط مجموعة مختارة من البلاد العربية . وبالطبع كان الأخوة العرب يمثلون كل ما فى واقعنا العربى المجيد ، من بلاوى ، وأمراض ، وعقد.الاكتشاف كان كم الكراهية الغبية المتبادلة . يحاولون اخفاءها فى كذب بارد . لا يتبادلون إلا الكذب وكشف العورات ، عورات الروح قبل البدن . فى صور كأنها منزوعة من كابوس ، يراهم : يتجرعون شرابا قويا ويعاقرون النساء ، وبعد ساعة تجدهم يتبادلون الشتائم واللكمات على ضفاف نهر الدانوب .

يريد أن يستنشق بشغف هواء جديدا . أن يعرف ويرى ويعيش ، لكن الكابوس الجهنمى الذى يتحرك من خلاله يطارده بمعانى العورة . عليه دائما أن يدارى هذا ويخفى ذاك .أن يقدم تبريرات واعتذارات لكل الكون ، عن كل هذه العورات التى هى جروح لم تنظف . الأخوة العرب المختارون معه كانوا مشغولين لأقصى درجة بالنهم والاستحواذ والاغتصاب . وجد أمين الألفى نفسه هناك يتعلم داء الاعتذار ، ويدمن عليه ، ظل يمارسه وهو واقع تحت إحساس فادح بالظلم . عثر فى حانة نبيذ قديمة ، تقع فى أطراف المدينة ، بعيدا عن مسار السيرك العربى القومى ، الذى طاح فى المدينة يبطش بالأماكن ، ويدهس الخصوصيات ، عثر فى هذه الحانة الهادئة على (مى وزياد) زوج وزوجة ، شابان فلسطينيان ، يعيشان فى الغرب مع العائلة منذ أيام بعيدة تقع يبن النكبة والنكسة ، اكتشف عروبتهما ، وبصعوبة وتوجس وافقا على الحديث معه .

ولكن سرعان ما تدفقت دماء نقية فى العروق وأصبحوا أصدقاء .

صار يمضى معهما أوقاتا سعيدة ، وحدثهما عن السيرك الحضارى الذى يعيش فيه . كانا يضحكان . كل ما يرويه مجرد « فلكلور » قديم يعرفه الجميع . كل هؤلاء الذين يعايشون الغزو العربى الحديث لأوروبا . لهما بيت صغير يطل على البحيرة ، جلسات وليال طويلة أمضاها فى ضيافتهما البسيطة الودود . عرف أمين الألفى وحده ليلاً فى هذا المكان الساحر الجميل : أن القاموس قد تغير ، وأن الحسابات اختلفت . وأن الوطن قد يكون فيلمًا وثائقيًا بارعًا ، أو أغانى شجية على شريط .

الحياة الجديدة تفتح آفاقا لا متناهية لمن لا « يتحجر » فى موقف أو يصدق شعارات . يتابعون بدقة ما يحدث على أرض الوطن هناك . وجودهم هنا يمدهم بمعلومات وحقائق لا نعرفها . لم تكن المسألة أن عواطف ومشاعر قد ماتت ، أو أن آراء قد تحولت . المسألة أن هناك أشياء جديدة يجب أن تفعل ، معانى جديدة تكتشف وتعاش .

أرغب ما حدث لأمين الألفى هناك أن معنى « الوطن » تفتت فى رأسه وفى يديه ، فكأنه وقع فى جب عميق ، سقطت كل رايات رحلته الأوروبية من رأسه ، لم يبق سوى الشعور « بالعورة » والسقوط فى جب عميق .

* * *

فى منتصف الظهيرة وفى وسط حضور من أى نوع ، لم يكن أمين الألفى يكف عن مطاردة الصور والفكر والظنون ؟ احتار هل هى التى تأتى أم هو الذى يذهب إليها ؟ منها عاصف ، ومؤلم ، ومنها ما ينساب ويدخل إلى عظامه ، فكأنه يعيشه من جديد . الممتع الوحيد والجديد والمختلف أن اللحظات ليست مرعبة مخيفة كلحظات الحياة فى الخارج . اللحظات فى الخارج تطرح دائما سؤالها

القاسي والمؤلم : ثم بعد ؟

- الصور هنا والظنون والفكر مجردة من هذا السؤال الفتاك : ثم بعد ؟! لذلك تبدو اللحظات سهلة . منسابة تصب فى حاضر راكد بلا مستقبل . دائما ما يؤكد أمين الألفى لنفسه فى سياق شعوره بالذنب الذى لا مبرر له ، أنه شخصيًا لم يعرف عضة الفقر . ذلك الفقر الذى يراه سائدا حوله . تلك الأنياب القاتلة التى تقتل فى البشر مجرد إمكانية التفكير ، دعك من التفكير فى المستقبل . الفقر « الدكر » الذى فى ظله يعرف المعنى الحقيقى للضيق ، وللمرض وللانكسار وقهر الرجال . لم يعرفه هو ، لكنه عاينه وتطلع فى قلبه وعرف كيف يسدل الفقر ستائر سوداء على الكون كله ، مارد قوى لم يقدر عليه سيدنا على . مازال حرا يذرع الأرض بأقدام باطشة .

يجالسه عندما يجالس « عمار » الممرض الفلسطينى . مفتول الجسم مقتحمًا وافر الصحة . يأتى لكى يشرب معه قهوة عربية مغلية فى الليل . فى الثلاثين وفى رقبته عشرة أخوة وأولاد يسكنون فى قرية . على أطراف « الزقازيق » . تقيم العائلة هناك منذ النكبة وقبل النكسة . مازال هو لا يحمل جنسية ولا جوازا . لاجئا مازال على أطراف الزقازيق . لا مصرى ، ولا فلسطينى . كل ما يحمله ورقة حائلة اللون تثبت أنه يستحق الإعانة . مات أبوه وهو يزرع فى أرض غيره فى السنوات الأخيرة لم يكن يريد أو يفكر فى العودة . كان يريد أن يدفن فى مدافن الزقازيق . هذا هو الوطن .

أنا - عمار - أيقظوا فى حياتى حلم « عودة » ، « أية عودة » . اليهود أغنياء جدد ينهشون الفقراء بأنياب من حديد . عندى الآن صحتى وعضلاتى وأستطيع أن أعرق لتلك الأفواه العشرة . ولكن ثم بعد ؟ !

أتمسك بالعمل هنا بيدى وأسنانى . هذا حصن أقامه الأغنياء أمثالهم ، ونحن نتعلق بالأسوار . لو أدرك أبى مثل هذه الحصون !

ولكنه مات فلاحًا فقيرًا يعزق بالفأس فى أرض ليست له . له الآن شبر من الأرض فى أطراف مدافن الزقازيق . أقطع المسافة من هنا إلى الزقازيق مرتين فى اليوم . أخوض فى بحار من الفقراء أمثالى أسألهم : ثم بعد ؟ ولا يملكون إجابة .

أخذ يشرب القهوة المرة . ويدخن من سجائرى فى نهم من كف عن التدخين لأسباب مادية . كان يسأل أسئلة محرجة عن التناقض بين المعاملة التى يلقاها فى الدواوين وأقسام الشرطة . وبين ما يكتب فى الجرائد . أو يذاع فى التليفزيون ، ،يسأل : ثم بعد ؟ ! ثم بعد ؟ ! ولم يعرف أمين الألفى له جوابًا !

* * *

فجأة هلّ عليه القرد أبو صديرى ، يصبغ شعره بالأسود الفاحم ويدهنه « بالفازلين » الغالى الجديد . جاء « عبد القادر » محامى المنصورة الأشهر والأشرس . فى صحبته زوجته شادن وأبلة الحاجة زينب . دخلوا فى طابور منتصر على عدو لم يرفع إصبعا للمقاومة . حصلوا على الطلاق وكل ما أرادوه . لا أحد فى البلد كلها يستطيع أن يقف أمام أبلة الحاجة خاصة عندما يكون محاميها عبد القادر .

كان أمين الألفى قد صار يرى الأمر كله وكأنه بضاعة تالفة حتى أنه يدقق فيهم الآن ليتأكد أن وجودهم حقيقى وليسوا من ضمن الفكر والظنون . يحملون أوراقًا كثيرة لكى يوقع عليها .

الطلاق ، والتنازلات ، وطلبات شادن وباقى الجلادين ، قالوا كلاما كثيرًا مأخوذًا غصبًا من كلمات القرآن الكريم والرسول « صلى الله عليه وسلم » كذبوا طويلاً فى قلوبهم قبل أن تكذب ألسنتهم . يكرر القرد فى وقاحة أنه تجنب فى المحكمة فتح موضوعات شائكة كثيرة . طبعا بإرشادات الحاجة التى تحمل له عطفا وإعزازًا .

شادن – فى الوقت الراهن – تجلس الثالثة على اليسار بعيدة عنه ، تعالج ألا تلتقى عيونهما بالنظر إلى الأرض والسقف .

وهو يسمع تعليقات المحامى المسجوعة الباهتة ، وتدخلات الحاجة التى تقولها فى تؤدة وكأن وحيا يهبط عليها . الكلام كله لا يعنى شيئا بالنسبة له ، ما يقع يقع لشخص آخر .

وجه شادن مازال جميلا فى الحجاب الملون الجديد الذى لم يره عليها من قبل . جسدها لم يكن خافيا عليه . كان مثيرًا كما يظهر له فى الأحلام . . توقفت عيناه على جسدها ، لكن كأنه يتحسس تمثال رخام . كلمات ومدن ، وأماكن ومعان جمعتهما معا كانت تدوى فى رأسه كطلقات رصاص .

القاهرة خالية تحت الحصار فى أثناء أحداث الأمن المركزى . رجال فارون يختبئون فى مداخل العمارات ، وتحت السلالم المظلمة فى عز النهار . يمسك بيدها ، يعبران شارعا مفتوحًا قاصدين أقرب شقة لصديق .خائفة ، قلقة مما يحدث فى البلد . فى وجنتيها حرارة وجمال يكفيان عينيه لقرون . تدمدم لنفسها : كفرة .. لصوص .

الشوارع خالية واسعة كأنها تستعد للغسيل « هل يكونون مرة صادقين مع أنفسهم ويضعون تمثالا لهزيمة يونيو فى ميدان التحرير » أحكم قبضته على

يدها . قضيا ليلتهما فى شقة أقرب صديق . كم كانت حارة وجميلة ليلتها . حقل الحنطة كان وطنًا له .

عادت أبلة الحاجة تتكلم عن الافتراق بالمعروف ، وعن مستقبل الأولاد . وعندما تسأله عن رأيه كان يبتسم ابتسامة لزجة وهو فى الحقيقة يريد أن يبصق على كل شىء .

فى أيام اجتياح لبنان واحتلال بيروت كان يغلق على نفسه غرفة نومه، مع شرابه ودخانه . رائحة كريهة يشمها فى أنفه ويتجرعها من حلقه وهو يقلب مؤشر الراديو بين القاهرة وأورشليم . تفتح شادن عليه الباب ، يرى فى عينيها معنى هزيمة الرجال . تبعد الأولاد عن الباب ، ويبقى البيت صامتا . تعاود بعد فترة فتح الباب لكى تطمئن أنه لم يمت بعد .

بعد أن حال بينهما الموج ، وصار بالنسبة لها من المغرقين كان هو يراها دائما كأنها تسير مبتعدة فى طريق طويل سريع ، ولا تلتفت . يراها صخرية جامدة . أما هو فيرى نفسه وحيدًا . وحيدًا .. وحدته مركز الألم ، مصدر الدموع الحجرية التى تخنقه ولا تريد أن تنفرج .

يقول أمين الألفى لنفسه فى رتابة : « لكن هى ليست المسئولة عن وحدتى » .

* * *

أخذ وقتا طويلاً لكى يحسم أمره بشأن زيارة « عفاف الـ.. » فى حجرتها . استوثق من ممرضات وممرضين يعرفهم ، أنها طلبته فعلاً وأنها فى حالة تسمح بالزيارة . أخذ وقتا طويلاً أيضا لكى يراجع مشاعره الكبيرة المرتبكة حولها ، ولكنه تأكد أن وردته الصفراء بغيابها مجرد ثلاثة أيام قد تركت فراغًا فى قلبه كبيرًا .

ارتدى قميصًا قديمًا يحب لونه ، ووضع بعضًا من ماء الليمون ، وحدق فى المرآة محاولاً أن يرفع من عينيه – قدر المستطاع – ما يشعر به فى قلبه من حزن وكآبة وظنون . حاول أن يفتح عينيه وروحه . قطع الخطوات الى حجرتها مسرعًا . فتح الباب . وجهها ضئيل شاحب فى قلب السرير . لم يبق منها سوى وجهها ، فقط عيناها ترسلان له سلامًا مع ابتسامة بعيدة متعبة . جسدها كله كان مختفيًا داخل مستطيل كبير من القماش الأخضر ، الجسد كله كان مليئا بالجروح والإصابات . اقترحت هذه الخيمة توضع عليها عندما يأتى أحد ، صوتها ضعيف مختلف ، خافت ومتعب . جلس إلى جوار رأسها وسمعها بصعوبة تقول : المكافأة التى وعدونى بها عندما تطيب الجروح هى أن الطبيب سيسمح لى بالخروج معك ، ليلة فى المساء . أمسية طويلة فى القاهرة . تأخذنى معك إلى كل مكان .. هذا طبعا إذا وافقت .

دارت رأسه فجأة . أحبها فى تلك اللحظة قدر ما عشق كل الحياة .

* * *

خلال أيام وردية عاشها أمين الألفى فى المصحة لم يكن يشعر أنه يمشى على الأرض حقا .. كان يعيش فى الخيال . عندما تعيش فى الخيال فأنت لا تريد شيئا . ولا تجرى وراء شىء ، وقد لاءم هذا طبعه وجاء تماما على هواه .

كثيرًا ما جلس أمين الألفى والمنضدة مبسوطة أمامه يحدق فى ثلاثة أو أربعة أشياء موضوعة عليها : سجائر ، ولاعة ، كوب ماء ، منفضة وقلم : يعيد ترتيب الأشياء مرة ومرات كأنه يبحث عن وضع أمثل ، أو حل لكل الكون ، تستغرقه اللعبة تمامًا وينصرف ذهنه عن الغليان الذى لا يجدى فيه أى دواء .

كان فى الوقت الراهن مستغرقًا فى لعبته وحيدًا فى الشرفة الضيقة ، عندما رأى فى بهرة ضوء الباب جسد « الأستاذ مندور » العجوز البدين الكفيف ممسكا بيد الفتى « مفتاح » الصغير . وقفا غريبين مفاجئين ، فقد وجدا الغرفة خالية وهو يرقبهما من الشرفة .. ما أغرب تداخل الأوقات والأزمنة . رؤيتهما المفاجئة جعلته يذكر أيام المنصورة ، وشجرة السنديان عشقه الأخير . تذكر غرابة منظره كأنه يرى نفسه وهو يتحسس الشجرة ويلامسها وهو معها وحيد بالبيجامة والشبشب عند الغروب . لم يكن يتوقع الآن أن تجود عليه الدنيا بهذا الغمر من العواطف فى قلب غرف المستشفى البيضاء الباردة . أطال صمته حتى يشبع عينيه منهما . عندما اكتشفاه قاوم أن يفتح ذراعيه ويأخذ الصبى فى صدره . يرحب بالأستاذ مندور ويقول إنه لم يكن هناك داع لكل هذا التعب بينما يراقب عواطف مفتاح وفرحه الذى يتقافز فى عينيه وعلى صفحة وجهه الأسمر النظيف .

يتصرف الناس بطريقة مختلفة تمامًا عندما لا تكون بينهما حسابات أو مصالح الأستاذ مندور يشحذ حواسه الناقصة لكى يتبين المكان الجديد .

أما مفتاح فكان قد تغير كثيرا . كبر ، وشب على قدميه ، متطلعا بعينيه الذكيتين ، مرتديا قميصه الأبيض النظيف والمكوى بعناية . يتطلع حوله كأنه يرى الأشياء لأول مرة ، تطل من عينيه دهشه خصبة مباركة . كأنه قوس قزح الذى عدمناه فى السماء .

استرخى الأستاذ فى مقعده يشرب كوب شاى فتله ، ويدخن السيجارة الأجنبية التى أشعلها له ، تقطعت بدايات الحديث بينه وبين مفتاح مرات فى البداية ، ثم اندفع يحكى له بحرارة كل ما حدث ويحدث فى المنصورة وفى البلد ، وأغرب ما يراه فى الدنيا وفى التليفزيون .

ما كان يدهش مفتاح هو السرعة التى يتغير بها كل شئ . الناس والشوارع الجديدة . والعمارات التى تمتد بعيدا « بعيدا حيث كنا نذهب إلى الشجرة ، إلى السنديانة الكبيرة » .

لم يجد أمين الألفى فى نفسه الشجاعة لكى يسأل مفتاح : هل قطعوها ؟ . هل قطعوا الشجرة ؟

.. ولم يعد لا هو ولا الفتى الى ذكر الموضوع .

تدخل الأستاذ مندور شارحًا أن مفتاح يشعر بأن الأشياء تتغير وتجرى بسرعة لأنه لم يعرف بعد قيمة الأيام . تلفت مفتاح حوله رافضًا الدخول فى اللجاجة الفلسفية حول قيمة الأيام ، وأخذ يحاول أن يسأل : هل السرعة التى تحدث بها الأشياء طبيعية ؟ ولماذا لا يحدث له هو أى شئ؟ الأشياء ما إن تصبح مفهومة حتى تتغير وتعود غير مفهومة . الأسئلة ، كل الأسئلة عيب ، أو تثير مشاكل .. لماذا يقولون أشياء ثم يرجعون فيها ؟ لماذا يظل الصبى الفلسطينى يضرب بالأحجار بينما الجندى الإسرائيلى يضع القنبلة على عربة صغيرة بالريموت ، ويوجهها إلى قلب المظاهرة الفلسطينية ؟ لماذا تشتد الأمور ثم تعود لتضعف .

ولماذا لا نذهب لنساعدهم ؟

لماذا .. لماذا .. لماذا تكلم الفتى الآن بالذات عن فلسطين ؟ هل لأنه يعرف أن المستشفى فلسطينى وأن اسمه « نابلس » هل يتطلع الفتى إلى قلب أمين الألفى ، ويعرف المصيبة التى يسببها اسم فلسطين له ؟ هل عرف الفتى بفطرته السليمة أن هذا الموضوع يربض تحت كل ظنونه وأوهامه ، وشعوره اليومى بالمهانة وقلبه المطعون ؟

أدار الأستاذ مندور رأسه دورة عميان كاملة وقال :

- أشم هنا .. رائحة فلسطين .

ساعتها لم يدر أمين الألفى ماذا حدث له . الجملة التى قالها مندور كانت أكثر مما يحتمل . لما فيها من رخاوة عربية مصطنعة كاذبة لا حقيقة ولا صدق ولا شعور . أية رائحة ... ؟ و أى فلسطين .. أشم هنا رائحة فلسطين .. ! منغمة مغناة .. شعر أمين الألفى أن الرجل يلقى عليه عبوة ناسفة ، كأن كل كلاب الأرض هجمت تنهش فيه ، ليس أمامه إلا أن يضرب بيديه العاريتين وأن يقاوم . كان يسمع صوت نفسه يتردد فى الغرفة عاليا غريبا عليه .

الجملة جسدت أمامه الأمة بأسرها التى تأكل الكلام ، تمضغ الماء ، تغنى مشاعر كاذبة لكى لا ترى الحقيقة . عاهرة خلف غباء جلف ، جهل ونفط ، وأجهزة حديثة وثياب تلمع ، لم يبق إلا أن تقف على الكرسى وتلقى علينا الأشعار ، وتردد أناشيد العودة والنضال والصمود . حدثنا لو أردت عن الزيتون والبيارات .. وعن الوطن . ردد لو أحببت صورًا ومعانى قديمة لم تعد تسكن رأس أحد ، سوى رأسك المحروم من الصور ، ورأسى العليل الذى هزمه الواقع وطرحه أرضا .. أمامك هنا فى مستشفى المجانين هذا وتقول : أشم هنا رائحة فلسطين .

هل قال أمين الألفى كل هذا الكلام للأستاذ مندور الكبير ، حسن النية . أم أنه كان يصيح به إلى أقوام تسكن رأسه ؟ ليت كل الأنغام المبثوثة فى صحاريكم تنفجر مرة واحدة ، ربما استيقظ الراقدون . كان أمين الألفى يحسب أن أحدًا لن يوقفه ، إلا أن مفتاح قال وكأنه قد كبر فجأة :

- حضرتك متضايق النهارده .

بدا عليه إعياء ،وامتلأ وجهه بالعرق فأنهى الزائرين الزيارة فى ارتباك ورحلا مخلفينه مرهقا مرتبكا كفيل دخل فجأة إلى محل للزجاج والخزف .

* * *

من حق أمين الألفى أن يفرح قليلاً ولكن كيف يعرف الفرح طريقه إلى هذا القلب الأسير . كان فى الدنيا قديما ، فى بعض أركانها ونواحيها جمال يوقظ العشق فى قلبه ، ويبقيه حيًا . متعة تلك اللحظات لم تكن مثل اللذة والانتشاء . كانت انتقالاً إلى وجود آخر ، الروح فيه تعيش اتساق مع ما جاورها وترتفع عن كاهلها الأحزان . أن تعرف هذا النوع من العشق مرة واحدة كافية لأن تقع فى الإدمان الممتع للبحث عنه . توقف منذ زمن عن أن يسأل ما هو هذا العشق الذى يحركه . ذلك العشق الذى جعل حياته كلها انتظار .. أو مجرد مشروع أحيانًا كان يجده فى عينى زوجته . أيام يظل يبحث فى وجه بسمة ابنته عن زاوية تكون فيها بارعة الجمال آسرة للروح . مرات أحس بهذا العشق الطاهر يملأ روحه وهو يسمع موسيقى بيتهوفن . كان العشق يملأ روحه إذا جاء طاهرًا وعظيمًا .

فى ذلك الضريح الصغير لولى الله المغمور الذى مازال يقع وسط الحقول ، أحس بذلك العشق يملأ عليه زمانه ومكانه . أراد أن يمسك به فقبض بيده على النحاس البارد الذى يحيط بالولى ولا مس الخيوط وقطع القماش المربوطة فى الشباك .. وأفلت منه العشق مرفرفا كحمامة بيضاء . أيامها وقع فى عشق شجرة السنديان ، كان فى وجودها شموخ وحرية ، مندفعة عالية ، من الأرض وتشير إلى وجود آخر .

سأل أمين الألفى نفسه : من الذى يدير دفة الزمن الآن ؟

لم يعد يرد فى خياله صور أفكار أو ظنون من الزمن الراهن القريب . لم يعد يتذكر أو يفكر فى أشياء حدثت منذ أيام ، أما الذكريات القديمة البعيدة فهى تأتى إليه ناصعة بديعة الألوان . فى الليل أحيانًا كان يفكر فى شادن زوجته وفى الجسد الذى أعطته له ، ويشعر تجاهها بامتنان وإشفاق ويقول لنفسه إن روحها لم تحتمل رحلة العذاب فى انتظار اكتمال العشق . بسمة وبهجت دمعتان . أسلمهما إلى عالم لا يرضاه . بلا ندم يفكر : قد يرث أحدهما عشقه كاملاً . ربما يقدر أن يصنع منه شيئا .. ليس عنده شىء آخر ، الباقى فى دولاب الذكريات .. كانت (ف ..) امرأة الحلم التى أحبها قبل زواجه ، تأتيه الآن وكأنها قنينة صغيرة مليئة برماد ميت ينتظر من ينثره فى الهواء ، ويقول دون أسف لقد كانت تريد شيئا آخر .. انثرها فى الهواء .

ليس حلمًا جاءه أثناء النوم. لا على الإطلاق ، بل هى وقائع حدثت فعلاً فى زمان ومكان لم يكن من الممكن أن يراها . شجرة السنديان كانت تقوم فى بقعة من الأرض مرتفعة قليلاً بين ملكيتين أو حيازتين . على يمينها فلاح محدود الأرض يراه أحيانًا هو والعائلة تحتها أو فى ظلها - فلاح قديم فيه شبه منها . امتلك الأرض التى على اليسار مستثمر غريب جديد ، له عربات وجرارات يقف بعيدا ويشير ، له أعوان وعيون وسلطة . أشيع أن الشجرة تقف فى طريق مشاريعهم ، مكانها .. مدخل طبيعى للعربات والجرارات . وظلها يفسد خطط المستقبل .

ظل الغريب يرويها سرا بماء غامر . دقوا إلى جوارها « طلمبة » ماء تضخ فى جذورها سيلاً لا ينقطع من المياه المندفعة . حتى اعتبر الناس أنها سقطت لأن عمرها انتهى ، أو أنه القضاء والقدر ، أو أن ريحًا عاتية لم تحدث قد قصفت عمرها . لم تنشر الصحف ولم تنقل الأنباء أخبار الجريمة البشعة التى ارتكبت بالماء .

استيقظ - أمين الألفى - من نومه أو من غفلته ، على صوت سقوطها العظيم ، كانت ساقه تنتفض ، بلا مبرر كأنها ديك مذبوح .

* * *

غاب الدكتور ألبير بشاى هذه المرة طويلا فى أمريكا وعندما عاد أرسل لأمين الألفى من يخبره أنه قادم لزيارته . كان الموعد قرب الظهيرة ، تأخر بعض الوقت ، لكنه حضر نظيفا بشوشًا ، مليئًا بالوعود والقدرات . فحصه فحصًا إكلينيكيًا سريعًا ، وهو يردد كلمات مطمئنة ، تأكد أمين الألفى أنه سمعها منه من قبل . قال جسدك أساسه سليم بالإنجليزية يقولون « دستور » الجسد ، أساس قوانينه ونظام عملياته الأساسية . لو أن شخصًا آخر عامل جسده بهذا الإهمال والقسوة لما احتمل . لم يعرف أمين الألفى هل يفرح بهذه الملاحظة أم هى دليل على أنه نطع لا يشعر .

ضحك ألبير بشاى ضحكة أمريكية مقتضبة تستعمل كفاصلة لتغيير الموضوع ، أو للدخول فى الموضوع الأساسى وقال إنه يستطيع أن يعتبر العلاج منتهيًا الآن ، أنه مع بعض النظام والانضباط النفسى والجسدى يمكنه أن يواجه العالم ويعيش الحياة !

فكر أمين الألفى أنه فى الحقيقة لم يطرأ عليه أى تغيير: يتعب بسرعة من أى مجهود أو تركيز . ضيق الخلق جدا مزاجه كما هو متقلب . وأشياء أخرى كثيرة لا يعرف الآن كيف يضعها فى كلمات تقال للدكتور . الكلمة التى حملت عنه كل ارتباكه كلمة « خائف » فظل يضعها فى جمل كثيرة غير مترابطة . سمع الدكتور ألبير منه دون اهتمام كبير ، وقال إنه علم بالترتيب الذى حدث لكى يخرج مع « عفاف الـ . » وأن ما بينهما من صداقة ، دليل أكيد على أنه تمام ،

وأنه لا يمكن أن يكون خائفا من شيء .. أنه أحسن مما يعتقد بل أحسن مما كان الدكتور ألبير نفسه يتوقع .

عاود أمين الألفى الشعور بأن الدكتور يحمل له رسالة معينة أو يريد أن يقول له شيئا ما لبث أن قاله بالفعل .

– تعرف أننا لا نتركها تخرج بدون حراسة أو أمن . كون أنك ستكون كل هذا ، شيء رائع .. رائع حقا . غير فى روشتة الدواء رفع أدوية وأضاف فيتامينات وحقنا أسبوعية .. وقال إنه يحدد موعد خروجه مع الأطباء .

« أنا أواجه العالم وأعيش الحياة » ؟! قال أمين الألفى لنفسه ضاحكًا .. وكيف ؟ للكلمات عنده معان أخرى فيما اعتقد ، ربما يتكلم عن عالم آخر .. وحياة أخرى غير هذه . تمنى لو أن أيامه الوردية هذه تمتد إلى الأبد ! حكى له أحدهم مرة عن شاعر كبير خضع لتحليل نفسى وعلاج .. وعندما انتهى العلاج لم يعد مرة أخرى إلى الشعر .. الحمد لله أنه لا يكتب الشعر ، لا يكتب على الإطلاق ، آخر شعاراته فى هذا الموضوع هو ليس عندنا ما يقال .

عندما جاءه طعام الغداء وجد نفسه يأكل بشهية المحكوم عليه بالإعدام .

* * *

مكان نظيف ، حسن الإضاءة اسم قصة للكاتب الغول أرنست هيمنجواى . يحب القصة جدًا ، ويعاود قراءتها كثيرًا . عن جرسون عجوز يبحث عن مكان يقضى فيه ليلته بعد أن ينتهى عمله . شرطه الوحيد أن يكون المكان نظيفا وحسن الإضاءة ، فهو لا ينام . خلال تفاصيل صغيرة عن الزمان والمكان يمسك العبقرى الغول بقلب الحياة الفارغ البارد المحايد ، ويعيد تقديمه فى واقعية أكثر من الواقع نفسه . كأنه صنع تمثالا خالدا للوحدة .

يكرر أمين الألفى كثيرا « مكان نظيف حسن الإضاءة » وهو يفكر فى المكان الذى يمكن أن يذهب إليه هو « وعفاف ال.. » لم يتوقف كثيرًا عند ما قاله الدكتور ألبير عن الحراسة والأمن ، فقد سيطر عليه تجاهها شعور بأنه يريد أن يقدم لها كل ما يمكن من لحظات سعيدة . وأن يعاملها بكل ما يمكن من رقة ، فقد مرت هذه الروح فى كل عذابات الجحيم . يريد أن يجد لها مكانًا يأخذها إليه . مكانًا نظيفًا حسن الإضاءة . هى كانت تريد أن تقابل بعض أصحاب الأسماء اللامعة .. كتابًا أو رسامين أو صحفيين . صنعت من الموعد احتفالاً وارتدت فستانًا على صدره نقوش فلسطينية أخاذة ، وأخفت – قدر المستطاع – جراح الروح والبدن . فى طريقهما بالتاكسى إلى وسط البلد ، شعر أمين الألفى أنه قديم جدًا ، وأنه كان يعرف القاهرة ويحبها .. زمان ... أما الآن فإن عليه أن يخفى عن عينيها وعن نفسه إحساسه بالغربة فى هذا المكان المتضخم المزدحم . علمته شيخوخته الزاحفة أن يحاذر حتى فى إبداء أندر وأجمل العواطف ، لكن معها فى هذا اليوم كان يريد أن يجيب على هذه السعادة، والفرح البرئ . أخشئ ما يخشاه أن يبدو مصطنعًا ، أو مجاملاً أو أنه يقوم بمهمة ما . هى فى نظره تستحق أن يقدم لها : شيئًا حقيقيًا ، صادقًا ، هى ليست فى حاجة إلى « تكريم » أو « دعم » أو تشجيع . يكفى جدا أن تحصل على شىء إنسانى حقيقى . ابتسامتها المشعة ، وشقاوتها الطفلية المفاجئة تؤكد له أن قلبها وروحها سليمان رغم كل ما مرت به .

لم يكن محل « نابولى » فى وسط البلد ، لا نظيفا ولا حسن الإضاءة ، إلا أنه كان المكان الوحيد المتاح ، الذى يلائم قدر المستطاع متطلبات هذا الخروج الملتبس مع عفاف . صار نابولى كما يسمع هو المكان الوحيد الذى يلتقى فيه الفنانون ومن يقال عنهم المثقفون المتحررون . بعض من كان يعرفهم زمان .

نماذج مستحدثة على أنماط قديمة ستجد هى القدر المتاح من الأسماء نصف المشهورة . كانت طلباتها أن تقعد « قعدة أصدقاء مثقفين » .. و ها هى تحصل على ما تريد . كلهم كانوا موجودين المعروف منهم ونصف المعروف وقد التفوا حول كاتب كبير . ثقيل الدم ولكنهم يطلقون عليه الكاتب الساخر . معارض لا يتعدى الحدود . جرئ لكنه مسنود ، واصل لكن يحب الاحتكاك بالجماهير ، بذئ ولكنه ليس فى بذاءة فلان ، فهو عصرى ومتحضر .

تعرف على أمين الألفى واحد من الزملاء القدامى ، ودعاه للجلوس معه هو وضيفته يبدو أنه مهتم بضيفته . ولأن أمين الألفى ليس عصريًا ولا متحضرًا فقد قبل دعوته ، لم يعرفه عليها . جلس على طرف المائدة ، وبدا أن عفاف قد حصلت على ما تريد .. فها هى تجلس على طاولة واحدة مع أربعة أو خمسة ممن تقرأ أسماءهم فى المجلات والجرائد يتحدثون عن فيلم جديد لم يسمع به ، وعن سياسة البلد ، وكيف تدار ، ثم ينقسمون ويتبادلون همسا – شخص يجلس على منضدة أخرى مع فتاة – وتنفجر ضحكة داعرة من الكاتب الساخر الكبير وعفاف صابرة تتابع ، وتسأله همسًا عن بعض الأسماء .

تأكد له بعد فترة ما كان يعرفه ويسمعه ، من أن الأحاديث التى تدور هنا ليست إلا ستارًا لعمليات وصفقات صغيرة ، يتم خلالها بلا هوادة ممارسة كل الرذائل الأخلاقية والإنسانية بعد دهانها بكلمات الفن والثقافة ، والبعث والاغتراب ، والاختلاف والتفرد . الطعن فى الظهر ، وقتل الناس بالكلمات وقتل الكلمات بالكذب والتصنع ، ممارسة يومية من يرغب فى المشاركة عليه أن يتعلم هذه الأصول أولاً . بعد ذلك لا يهم أى شىء آخر .

عندما دخل عليهم الأستاذ فاروق فؤاد أو « ف . ف » ! تصايح الجميع طربًا ، فهو بالتأكيد يحمل بعض النكات ، والشائعات عن الوزارة ، وهو أستاذ فى

أصول اللعبة ، ومدير بارع لهذه الجلسات . عفاف تسمع عنه كثيرًا ، تقرأ له أحاديثه مع المشاهير ومقالاته النارية . جاء ناحية أمين الألفى فقد كان يعرفه منذ آماد سحيقة قبل أن يصير « ف . ف » وقبل أن يصل أمين الألفى إلى ما هو فيه . فى سرعة وتدريب عال ولياقة اضطر أمين الألفى أن يقدم له ضيفته الفلسطينية . ما أن سمع « ف . ف » اسم عائلة عفاف وما يوحى به من سلطة وشهرة ونفوذ ، حتى استنفرت كل حواسه وبدأ العمل ، أصر على أن يغير الشراب الذى أمامها وسحب مقعدًا جديدًا لكى يجلس مجاورا لها . كان مدخله الطبيعى أن يحدث عفاف عن أمين الألفى ، وعن العلاقة القديمة بينهما ، وعن القيمة والقيم التى يمثلها ، وما هى إلا لحظات قليلة حتى كان قد أزاح أمين الألفى وقام بدلا منه بكل عمليات الشرح والوصل والتحليل استدار بمقعده كاملا ناحيتها بينما بدت هى ساعتها فرحة سعيدة تتأمل براعته .

إذا كان أمين الألفى يحسد نفسه على شىء فإنه يحسد نفسه على قدرته على استشعار أخطار مثل هذه المواقف ، ولكن فى أقصى تصوراته لم يكن يتوقع أن تتصاعد الأمور بهذه السرعة . بعد أن دار الكلام دورتين . ودار الشراب دورتين أحس أن عفاف تمد يدها لكى تمسك بيده . حسب الأمر عارضا ، فقد كان مشغولا بمتابعة حديث جانبى آخر عن حالات الشذوذ الجديدة فى الوسط .

الفيلم الدائر توقف . عندما أمسكت عفاف بيده مرة أخرى وأسقطت كوبها عن عمد وقامت واقفة . ظل « ف . ف » جالسا مع استدارة بسيطة إلى ناحية أخرى . توقف الفيلم لحظة . كانت متوترة محمرة الوجه ، كأن هناك أظافر وأنيابًا تنبت لها . وبذل أمين الألفى جهدًا هائلاً لكى يحاصر الموقف الفضيحة . ويترك الفيلم ليدور من جديد .

وهما واقفان على الباب ،تصلح من شأنها وتبتلع حبة من حقيبتها قالت : كم هو بارع ابن الـ .. لم أدرك عندما حدثنى عن العقد ، عن رقبتى .. ثم عن صدرى . بلهاء مازلت ؟ كنت أبتسم ، ثم مد يده على فخذى فى أقل من ربع ساعة . أرخص الش .. يحتاجون إلى وقت أطول تصور هذا الخـ .....

سارا فى الشوارع التى بدت ساكنة . كل ما يعرفه من اعتذارات سخيف وتافه ولا معنى له . كان يجب أن يدق رأسه وأن يسحقه فى الأرض كصرصار .

فى محاولات أخيرة لاستدراك السخافة الجارحة التى حدثت اقترح أن يسيرًا على النيل فى منطقة بعيدة أو أن يذهبا للعشاء فى الحسين . لكن صوتها جاءه بعد فترة بعيدًا متعبًا « أريد هذا جدًا ، ولكن قدمى لا تحملانى ، الآن أعود أفضل » .

تردد أمين الألفى قليلاً . لكنه حسم الأمر « بتاكسى » ليكملا فيه جنازة الطفل الرضيع الذى مات مباشرة وهو يولد . وانطلق التاكسى إلى الأطراف البعيدة للقاهرة الكبرى .

عندما أوصلها إلى غرفتها دخلت وأضاءت النور . فوجد أمامه مكانًا نظيفا حسن الإضاءة ، سريرها كان مليئا بعرائس الأطفال الملونة. قدمت له كوب ماء بارد ، أعطته كتابًا صغيرًا غلافه أسود وعنوانه « اعترافات القتلة » . قالت لا تقرأه الليلة يكفى ما حدث من كوابيس .

* * *

بين مشاعره الفوارة المرتبكة ، وأهوال الواقع الذى يحيط به . كان هناك ذهول يتسرب إلى روح أمين الألفى . ذهول يجعله غير قادر على اتخاذ أبسط القرارات . الأشياء قد تحدث وقد لا تحدث ، هو رغم ذلك دائم التوقع ، مهدد ،

وفى الانتظار . فى غرفته استلقى على السرير الإضافى الخالى بملابسه وراح يقلب فى الكتاب الصغير « اعترافات القتلة » هو مجموعة من شهادات واعترافات جنرالات وجنود إسرائيليين عما ارتكبوه من مذابح للأسرى والمدنيين المصريين فى سيناء . مذابح ومجازر حقيقية قبل أن يشيع استعمال لفظ المقابر الجماعية . توقف وأعاد القراءة حتى اكتشف أن الكتاب يضع هذه الشهادات كلها فى إطار مناقشة فكرة « طهارة السلاح اليهودى » . يناقش بجدية دينية متعصبة الفرق الدينى والإنسانى بين قتل اليهودى وقتل الأغيار - يعنى العرب - القتل الحلال والقتل الحرام . إذا رفعت السلم من الحفرة العميقة التى وقع فيها العربى وتركته لا يقدر على الصعود فهل تكون قتلته ؟ وأحدهم يقول : أحسن حالات العربى .. هى العربى ميتا . لم يكن فى الأمر جديد ، فقد عرف الناس من خلال مدارس ومراكز التطبيع عمق الهوة العنصرية القائمة .

كان أمين الألفى يؤكد لنفسه أن الجسد الممدد فى المنطقة كلها مريض بالسرطان . توقف عند صفحة محتشدة وقرأ : « الواقع وباعترافات جنرالات إسرائيل أنفسهم ، أن من بين الذين ذبحوا غيلة وغدرا مئات من المدنيين الذين لم يكونوا مجندين فى أى جيش ولا حتى رجال شرطة ، ليس لهم علاقة على الإطلاق بأى جهاز محارب وإنما كانوا مواطنين مصريين مدنيين تختلف أعمارهم . كانوا عمالا مصريين اختارت لهم الظروف أن يوجدوا فى سيناء للحصول على لقمة العيش فى تلك المناطق البعيدة عن بيوتهم ، حيث لم تكن هناك فى ذلك الوقت أية منشآت سياحية أو مدن كبيرة أو مشاريع زراعية واسعة . وإنما كانت هناك شركات محاجر فى وسط سيناء ، وبدايات عمل فى حقول النفط فى أبو رديس ورأس سدر ، وبضعة آلاف من السكان المدنيين فى العريش، وبضع مئات من شباب البدو من سيناء يعملون فى هذه الشركات وحولها . هؤلاء جميعا فاجأتهم الحرب ولم يكونوا يتوقعونها تمامًا مثلما

فوجئ ضحايا مذبحة كفر قاسم فى الخليل الفلسطينى ، وللسبب نفسه . لم تصدر لهم أية أوامر لا بالوجود هناك ولا بالتوقف عن العمل ولا بالانسحاب إلى بيوتهم . وحتى لو كانت هذه الأوامر قد صدرت فإن المصرى البسيط العادى الذى يحصل على رزقه بعمله اليومى الشاق يفضل فى أغلب أن ينتظر حتى لا يقال له فيما بعد : لقد تخلفت عن العمل ، أو حتى لا يقال له من إدارة شركته غرب القناة : أنك قد بددت « العهدة » (وهى على الأرجح فئوس ومجاريف) ثم توقع عليه الغرامة وقد ينهى عمله . هذه هى خبرة العمال المصريين فى مثل هذه المناطق وفى مثل هذا الوقت . لذلك ، كان من الطبيعى أن يبقى العمال والعاملون حيث هم وأن يتحرك بعضهم بين المواقع للاطمئنان على ما تركوه من « عدة » وعلى زملائهم أو حتى لاستئناف العمل ، وقع الكثيرون من هؤلاء العمال فى شباك القتلة الذين لا يفكرون أنهم لم يكونوا جنودا وأنهم كانوا يرتدون جلابيب ، وأنهم فوجئوا بإطلاق النار عليهم . إلى درجة أن القتلة الإسرائيليين يذكرون الآن أن بعضهم أطلق النار على سيارة نقل مكتظة بالعمال وأن ما لفت انتباهه أنهم ظلوا واقفين !! فلما اقتربوا من السيارة تبين أن الذى لم يسقط مضرجا بالدماء كان واقفا لأنه لم يكن هناك مكان ليسقط ، الجميع كان محشورا ، ويقول السفاح « آرييه بيرو » كان يوجد جنوب موقعنا محجر .. كلهم عمال تراحيل ، بعضهم من البدو وبعضهم من مصر . لا أعلم . قمنا بتقييد أيديهم والابتعاد بهم حيث المحجر ، وهناك قتلوهم . بل إنه يذكر « أن واحدًا منهم نجح فى الهرب من الطلقات القاتلة ولم يصب إلا فى قدميه وصدره ، ولكنه عاد بعد عدة ساعات وهو يسير على أربع . وبسرعة جدا اتضح أنه كان عطشانًا .. عاد ليطلب منى ماء .. أنا لست مسئولا عن غباء العدو ، وبالطبع لحق بسرعة بزملائه » .

* * *

أخرجه من صفحته أصوات أقدام تجرى وأنوار تضاء فى العنبر كله ، ونداءات غامضة آتية من قلب المستشفى .

وقف فى باب غرفته يستطلع الأمر. عرف أن ممدوح الشاب مدمن الهيروين قد فرّ من المستشفى . ليلة أمس . الليلة وجدوه قتيلاً فى خرابه فى أطراف « جبل الدراسة » .

الآن جاءوا يفتشون غرفته .

* * *

أيام أمين الألفى الأخيرة فى المصحة لم تعد وردية ، ما عاد قادرًا حتى أن يعيش فى الخيال بعيدًا عن الواقع . لا خيال ولا واقع يمكن أن يكون ورديًا مع هذه الرائحة التى تزكم أنفه دائمًا حتى عاد يحسبها صادرة من داخله .

يومًا بعد يوم .. يومًا جديدًا يبدأ وهو ما زال حائرًا لا يعرف ماذا يفعل بنفسه ؟ الشغالات تحت إشراف الممرضات ، يغسلن الغرف والطرقات فى جلبة عالية . رائحة الصابون والسوائل المطهرة ، لا تصرف الشياطين والأرواح الشريرة التى عادت تتقافز حوله كل صباح . شياطين روحه ، وشياطين الواقع المر التى تركب كتفيه . بعضها صغير ، وبعضها كبير باطش حاد الأظافر .

رغم ضوء النهار المتصاعد ، وصخب النساء وجلبة الآنية المعدنية فقد أخذ يتحرك فى غرفته وفى الطرقات المغمورة بالماء ، معتذرًا باحثًا لنفسه عن ركن أو « خن » يتوارى فيه من شياطينه ومما يحمله له يوم جديد . فى كل لحظة يتمنى أمين الألفى أن يبدأ الحياة من جديد .

ما يجده فى نفسه لا يصلح ، ما يحاذر منه مخيف .

اختفت منذ فترة الصور الناصعة بديعة الألوان التى كانت تزوره وأصبح ما يأتيه الآن معان مجردة غامضة ، تحط على صدره ثقيلة ، وتبقى جاثمة بلا إجابة . حتى لعبته التى ظل يكررها ، لعبة تنظيم وإعادة تنظيم الأشياء القليلة على المنضدة المبسوطة أمامه ، فقدت فاعليتها ولم تعد قادرة على أن تصرف ذهنه عن الجدار الصلب الذى يسير إليه .

عادى .. عادى ... يوم بعد يوم ، ويأتى يوم جديد . قبل اختراع كلمة « عادى » البنيئة ، التى يتقبل بها الناس كل شىء و أى شىء . كان الجميع وقد انطلقوا بجنون ،

يغتصبون كل ما حولهم ، ويتزاحمون للوقوف فوق أكتاف أقرب الناس إليهم . يراقبهم مشدوها ، يحسب أن الطوفان آت ... إلا أن السيرك الوحشى يستمر ولا طوفان وتبقى كلمة عادى مكتوبة فى الهواء حوله . وهو يبحث عن ركن ، عن « خن » .. تذكر فى شوق بلكونة شقته فى المنصورة . لم يكتفوا باغتصابها بل نسفوا البيت كله .

غرفة « عفاف ال.. » مغلقة لا يصدر منها صوت ، أما غرفة « ممدوح » فقد كانت مفتوحة الأبواب والنوافذ ، خالية وأثاثها مقلوب وفى فراغها عواء . الطرقات خالية مسدودة من اليمين ومن اليسار . عاد إلى غرفته ، أغلقها ، جلس على السرير الإضافى غريبا ينتظر حدوث شىء ما .

قبل العلاج وبعد العلاج ، الآن ، مازالت جلسات تعذيبه لنفسه تبدأ بشعور بالذنب والتقصير . عندما ينفرد به هذا الشعور يظل يتصاعد حتى يرى حياته مجموعة من الأخطاء البشعة . ويتحجر تحت قلبه شعور « بالخيانة » . خيانة النفس خيانة المعانى . خيانة مجردة يتنفسها مع الهواء ، فلا يعود قادرًا على أن يصالح نفسه على شىء .

قال أمين الألفى لنفسه : فليسمونه اكتئابًا أو انفصامًا أو انسحابًا ، وليعالجونه بأقراص تؤثر على فص المخ الأيمن أو الأيسر ، قد أعالجه بكئوس الخمر الأسود ، أو الحشيش الأزرق . لا فائدة . نهر الخيانة يسرى فى اللحظات ، ويسكن فيها . جثمان الخيانة البشع سيطر على الحياة . صرع العشق الذى ذبل ومات . ليل نهار محكوم على أمين الألفى بمعاشرة الخيانة ، أما من يعيش بينهم فهم خونة أيضا .. لكنهم متبجحون .

* * *

الجديد الطاغى فى هذه الأيام التى فقدت طعمها ولونها ، أنه صار يغلق عينيه فتحط عليه ظنون وفكر بلا صور ، جلاميد صخر تصدمه . وكأنه مجرم مقبوض عليه .. يعيد تمثيل جريمته .

ما أن أفلت قبضة يد أبيه الباطشة ، وكسر الحصار الذى كان يعيش فيه بين سيقان إخوته الكبار حتى رأى كل هذا البنيان الضخم والرجل الطاغية مجرد ديكور متداع لحياة محدودة فقيرة وتافهة . ركب حصان مراهقته وشبابه المبكر وانطلق خارجًا عن البيت ، وعندما يرجع إليه كان يجده مكانًا صغيرًا منسيًا غرب الأرض ، يراه مكانا مثيرا للشفقة والرثاء .

موظف محدود الدخل محدود الأحلام ، يعيش خيبة أمل ساكنة بعد أن فسد مشروع حياته المستقل ، وهرب منه أولاده سريعا . كل ليلة ينعس صامتا فى مقعده ، ثم يحمل نفسه صامتا أيضا إلى الفراش . قليلاً ما كان يتكلم ، وعندما يفعل فإن أمين الألفى كان ينصت إلى حكاياته المهشمة ويشرب ما فيها من مرارة وحسرات .

قطع الرجل كل ما يربطه بـ « حصماية بحرى » قريته التى جاء منها . لكى يقيم حياته مع عائلته الجديدة هنا فى القاهرة . باع القراريط القليلة التى بقيت له ، ونصيبه فى البيت وحتى النخلتين .

ولكى ينجح المشروع الجديد ويقف على رجليه ، كان عليه هو أن يدير ظهره للناس ولكل ما يربطه بالفلاحين . فى بيته الجديد المحاصر فى قلب مدينة لا ترحم .. كان أهله من الفلاحين يعاملون كمواطنين من الدرجة الثانية. ولم يكن من المستحب التحدث عنهم كثيرًا أو رواية ما يصل من أخبارهم أو حكاياتهم . قام البيت المدنى الجديد على مقادير محترمة من الأنانية ، وخلل أساسى فى الشعور بالآخرين .

يذكر حكاية إبراهيم أبو خليفة المأساوية كما يذكر أساطير الكتب . كان الرجل الكبير يعيد روايتها كثيرًا ، خاصة عندما دخل إلى مرض الموت . إبراهيم أبو خليفة صديق طفولته وصباه ، لم يترك القرية واشتغل هناك فى وظيفة بالسكة الحديد . إبراهيم أبو خليفة كان هو الوحيد الذى يتردد على البيت أحيانًا نادرة . لم يكن أحد يفرح بالزيارة سوى أمين الألفى صبيًا ، خاصة عندما يرى فى عيون الكبير لمعة حلم قديم .

الكارثة وقعت عندما اتهم إبراهيم أبو خليفة ظلما فى قضية اختلاس . لم يقف معه أحد . تخلى عنه الجميع .. حتى صديق العمر . الرجل الكبير أغلق عينيه وأذنيه وأغلق بابه .. ترك صديقه يسقط فى جب . ثلاث سنوات أمضاها فى السجن . بعدها لم يره أو يسمع عنه أحد .

أمين الألفى اقترب جدًا من الرجل الكبير وهو يعانى مرض الموت الطويل المعذب . يقول عن أولاده الكبار أنهم كموج البحر ، حملوه على ظهر أحلام بعيدة ، ثم ألقوا به على رمل شاطئ مهجور . آخر ما قاله الرجل الكبير كان عن إبراهيم أبو خليفة ، قال لابنه أمين الألفى متوهما كأنه يذهب وراء حلم :

– إبراهيم أبو خليفة بالباب . لا يريدونه أن يدخل .. جاء يرانى .. افتح له الباب .

*   *   *

الاقتراح العملى للحاجة زينب كان أن « يسوى » أمين الألفى المعاش ، ويخرج مبكرًا من خدمة الحكومة .. لن يكون هناك فارق فى المعاش سوى جنيهات ضئيلة لا تساوى عبء عودته إلى المدرسة ، ورجوعه إلى العمل فى هذه الظروف . وافق هو طبعًا وتولت هى وأعوانها الإجراءات .

أكدت له كثيرا أنه لابد أن يبدأ من جديد . ما المانع ؟

أى مشروع تجارى من مشاريعها المتعددة يستطيع هو أن يكون مديره المسئول الأمين . لن تجد خيرًا منه . تريده أن يقلب الصفحة ليبدأ صفحة جديدة ، في المنصورة ، أو جنب المنصورة حتى يستطيع أن .....

لم يسمع أكثر من هذا ، فقد كان مشغولاً بتأمل الدمار الرائع الذى يريدونه أن يبدأ منه . يرى ما وصلت إليه حياته ، وكيف تحولت أحلامه وأيامه فتاتا ممضوغا يكره أن يراه أحد .. الهزائم كلها ثقلية فى كفته ، وميزان العدل ثابت على خسارته .

فلسطين دائما تسد حلقه ، كأنه هو الذى باع والذى خان ، هو الذى صمد ومات مثل الشجر، هو الذى انفجر واستشهد . هو نفسه الذى عاد وكفر ، هو الذى تشرد وحوصر وقاتل وقتل .

هو الذى سكر وقامر وهرب ، حمل السلاح ، قتل الرفاق ، هو فى القدس صلى فى المسجد وكنيسة القيامة ، تربى فى الشوارع العتيقة . هنا فى مصر فى قلب أمين الألفى مكان القضية ، الشوق والقهر وقلة الحيلة . أحلامه وأيامه وزوجته ووجوده وأولاده جرى لهم ما جرى للقضية . الوطن صار قضية . وهو هو نفسه الذى صار بلا وطن ، بلا قضية بلا هوية . أيقظته أبلة الحاجة زينب من كابوس الاندماج الذى كان يجرى بينه وبين فلسطين ، صارخة : الله أكبر .. فى أتم صحة .

المذهل أن « مفتاح » كان فى صحبتها ، يدخل وراءها مخطوفا ، مأخوذا وقد ملأ عينيه قلق . هى أرادت أن يكون مفتاح معها اليوم .

أنهت قبل أن تصعد إليه أمور الحسابات . بارك الله في كل شئ . تبقى مبلغ بسيط يأخذه عند المغادرة . يمكن أن يرجعوا جميعًا الآن إلى المنصورة .

هناك ألف بيت وبيت .لكنها تترك الحرية له . قلبها يقول لها إنه لن يأتى الى المنصورة الآن .

قالت : قد تحب أن تقضى بضعة أيام وردية فى القاهرة .. أو ربما الإسكندرية .

أهم ما اكتسبه أمين الألفى هنا فى المصحة هو قدرته على ألا يسمع الكلام الذى لا يريد أن يسمعه .شهد ميلاد بلادته ، وقدرته على ألا يشعر أو ينفعل .. ميلاد قدرته على ألا « يحس » .. الشىء الذى لم يستطع أن يتعلمه ، رغم أنه فكر أن يتدرب عليه ، هو أن يضحك من حلقه ، كما يضحك أغلب الناس دون أن يشعروا بأدنى قدر من البهجة أو الفرح . صوتها الأنثوى الناضج يعيد ترتيب الأشياء بحثا عن وضعها الأمثل . كما يفعل هو مع أشيائه القليلة على المنضدة المبسوطة أمامه . مفتاح .. أين تذهب أنت فى كل هذا « الهيلمان » حاول مرات أن يتلكم فلم يستطع واكتفى لفترة بتقليب صفحات كتاب . عندما وجد لنفسه ثغرة قال : لابد أن عندك هنا أشياء أقرؤها عن « عز الدين المصرى » . لم يكن أمين الألفى يعرف من هو عز الدين المصرى .. أخبره مفتاح فى اضطراب بالغ بحكاية الفدائى الشهيد الذى فجر نفسه فى محل « البيتزا » الإسرائيلى فقتل ١٧ وجرح ٨٥ وصعد إلى السماء .. أخرج مفتاح من محفظته صورة صغيرة منشورة فى جريدة ، لشاب ناصع العينين جميل وسمح المحيا مكتوب تحتها « عز الدين المصرى » .

قال أمين الألفى إنه سيبحث عله يجد ما يقرأه عن الشهيد .

تحركت الحاجة زينب فعرف أن النهاية قد اقتربت . أراد – فقط – أن يطلب من مفتاح أن يذهب إلى البلكونة بنفسه ، ومعه علبتا « كرتون » أو ثلاث ، ويرتب فيها الأشياء.. الكتب والشرائط ، وأظرف الصور ، والخطابات . هو بنفسه

لا أحد غيره « كرتونتان » أو ثلاث على الأكثر ، وإن يحملها إلى أجزخانة الدكتور ظريف . قل للدكتور : لا تخف ليس فيها لا متفجرات ولا مخدرات . ولا شيء يثير الفضول .

يذكر « أمين الألفى » أن مفتاح أشار بأصابعه الرفيعة إلى عينيه وأشرق وجهه فى اعتزاز اختفى هو والحاجة من عينيه قبل أن يغيبا .

* * *

وكأنه يسير بالشبشب والبيجامة فى شوارع المنصورة ليلاً .. هكذا كان يشعر أمين الألفى ، وهو خارج وحده من المستشفى ، وحده مرتديًا بدلته الكاملة القديمة ، يحمل فى يده حقيبة جلدية من طراز عتيق . سار لبعض الوقت فى شوارع خضراء واسعة ونظيفة ، لكى يتأكد له عند كل ناصية ، وأمام كل تقاطع ، أنه غريب هنا ، وأنه لا ينتمى ولا يعرف هذا المكان . الآن لم يعد يمسك بدفة الزمان أحد . تأتى الأيام أو لا تأتى ، هو على أية حال فى الانتظار . هو ما بقى منه يتحرك ، لكنه لا يهم أحدًا .

عندما وصل عبر قاهرة لا يعرفها إلى موقف التاكسيات الجديد . وجد الجمهورية كلها مبسوطة أمامه . مظاهرة ضخمة تهتف بأسماء المدن . سباق يبدأ الآن ، ولا يعرف أحد أين أو متى ينتهى ؟ لشد ما تكون وجوه الناس غريبة وهم عازمون على السفر . غير وجوه الجالسين على المقاهى ، أو فى بيتهم . هنا هم قادرون على ارتكاب أى شىء . وجوه : حادة ، منفصلة ، مختلطة ، متناثرة . أصوات إنسانية وغير إنسانية . عربات متحفزة ، متقدمة ، متأخرة . أرصفة عالية بلا عدد ، زبالة وطعام مبذول ، وماء ، أغلفة ملونة . شحاذون فى الأرض . منقبات ، فاجرات ، فلاحات ، ورائحة جبن ولحم وطين وعرق ودخان .

استسلم قدر المستطاع لهذا الوجود الجديد . قال : مئات من « وابور الطحين » القديم هذا ، لا تصنع وطنا . هؤلاء ليسوا مواطنين ، كان قد اختار أن يسافر إلى طنطا . هى – كما يقولون – قلب الدلتا . المهم أنه لا يعرف فيها أحدًا إلا السيد البدوى .

الجحيم الأصلى بدأ عندما انطلقت العربة والكاسيت والركاب جميعا فى نفس الوقت فى قلب صندوق ضيق ، وسائق يقوده . يأكل يدخن ويتكلم ويبحث عن صيد جديد . أمين الألفى كان محشورًا فى المقعد الأوسط بعيدًا عن الشباك ، وبعد دقائق بدأت أعراض الاختناق

الحقيقى : عرق ، هلع ، وألم فى العين اليسرى وانتقاضات فى الساق ، ورغبة حارقة فى التبول . لم يشعر بحاله أحد . رغم أن الجميع أحياء . لكز الحاج المجاور وأفهمه أنه يريد النزول . عندما وصل الأمر للسائق توقف وشيعه الجميع بالامتعاض والاستغراب والفضول والتعجل . وعندما لامس الأرض .. دفع الأجرة فانطلقوا صاخبين .

مع نسيم الهواء وارتفاع ضغط الصوت عن طبلة الأذن ، استجمع نفسه . وأدرك أنه نزل بين كتلتين من المبانى المقامة على السريع . بقى على آخر ضوء ساعة أو ساعتان . أمامه عشر دقائق من السير الى الأمام أو إلى الخلف . لابد من مطعم أو مقهى .؟ استقبلته مع رائحة الكباب أغنية « دارت الأيام » لأم كلثوم.

وورد من البلاستيك الكثير ألوانه متكررة .

شرب ماء باردًا .. وانتظر نصيبه من اللحم . امتلأ بسرعة من الطعام الدسم . سار خطوات قليلة فى التراب حتى وجد نفسه مرة أخرى على السريع ، ولم يكن آخر ضوء قد انسحب بعد .

ركب كوبريًا من الكبارى الضخمة المعلقة الجديدة ، هو فوق قلب الدلتا الآن . مشى طويلاً على الرصيف الضيق حتى وصل الى أعلى نقطة للصعود . تحته كانت مخاضة ماء واسعة ، مشغولة بورد النيل، وأعشاب خضراء داكنة. أما حوله فى الأفق فقد كانت العمارات العالية المبنية بالطوب الأحمر وقد أعطت له ظهرها . تلفحه رياح السيارات المسرعة وتفاجئه بالسؤال المتكرر : أين تذهب الآن ؟

* * *

أرض قرية « حصماية بحرى » التي جاءت منها بذرة أمين الألفى أولى بأيامه الأخيرة وبلحمه .

جاء إليها وكانت القرية نفسها عزيز قوم ذل . هى تتمسك بكل شعارات وإدعاءات العصر ، وتدعى المواكبة والتقدم والتحضر ، ولكنها فى الحقيقة مكان مقبض شديد البؤس .

قلبها القديم ، الخمسة أو الستة شوارع وحاراتها التى يفضى بعضها إلى بعض ، فى تلاحم حيوى قديم . هذا القلب كان يعانى من ارتفاع فى منسوب مياه الصرف الصحى .

البيوت تغوص فى الأرض شيئا فشيئا . نوافذها الكبيرة التى كانت تفتح على أرض الشارع ، لم تعد تفتح غاصت فى الأرض . ليست هذه هى القرية أو ريف مصر ، خليط اجتماعى واقتصادى وبيئى غريب وفريد . عندما تسأل « أين القرية » ؟ يقول أحدهم : « النسوان بطلت تخبز .. والرجالة واقفة فى طابور العيش » . أما الشباب فيجلسون فى قهوة ، ثلاث غرز ، بشكل دائم وتبادلى ، البعض يسهر فى مدخل القرية عند المدافن أو بعد كشك السكة الحديد ، لأنهم لا يملكون حق الفرجة على « الفيديو » أو شراء تذكرة بانجو للجميع ، ولا شىء غير ذلك سوى الحركة السريعة للأخوة الإسلاميين بذقونهم وملابسهم الغريبة تتردد فى جمود حياة القرية مع مواقيت الصلوات الخمس .

فى ذهن - أمين الألفى - ابن المدينة وابن الموظفين صورة مختلطة عن القرية وعن حياة الريف من أول : الخيمة الزرقاء ، ومحلاها عيشة الفلاح .. إلى زياراته القديمة مع الرجل الكبير ، حيث كانا يعودان بنكت و طرائف عن عائلتهما ، لا تروى أمام الغرباء . فى الصورة أيضا دعابات الثورة والإصلاح ، وصورة

عبد الهادى بطل الأرض ، وقصص يوسف إدريس ، وخرافات الاتحاد الاشتراكى ، واقطاع الثورة الجديد هذا الذى امتص دم القرية ، وتركها تنزف حتى الآن .

هذا عن التاريخ . أما الجغرافيا التى خطا على ترابها بقدميه وأذهلته بشاعتها : فقد صارت ملتبسة هى الأخرى . بعد أن كان لها مدخل واحد ظليل يمتد على شاطئ ترعة ، صار لها ثلاثة مداخل رسمية وأكثر من ثلاثة « مدقات شعبية » ومنافذ خلفية للجريمة والتهريب . أخرجت - حصماية بحرى - أحشاءها فى شكل أحياء جديدة مبنية « بالمسلح » يطلق عليها البحرين ، السعودية ، أو الإمارات . وحتى اليونان « تيمنا » باسم البلد مصدر النقود التى بنى بها المهاجرون مستعمراتهم ، ودفعوا الرشاوى اللازمة لاستخراج رخص البناء وسط الحقول .

تصدر الأخوة الإسلاميون هذا البوار الذى فى الجسد وأقاموا على واحد من المداخل « جامعا جديدا » وإلى جواره صفا من دكاكين بيع : الطيور والألبان والبقالة ومواد البناء .

شبكة المعلومات والملاحظات والحقائق التى تجمعت عن القرية فى ذهن المفكر العربى السابق أمين الألفى - جعلته فى ذهول - ليس الظاهر الذى يراه هو المهم ما أذهله حقا الارتباك الذى فى نفوس الناس ، فى القيم والمعاملات والسلوك ، وما يجرى وراء الجدران من قهر وظلم وخوف وفقر .

أفق مكبوت . أحلام مستحيلة ، وزمن وبشر وإمكانية مهدرة يطلع عليهم فجر غائم وينزل عليهم غروب بالتراب . يستحيل هذا الواقع على الفهم ، وفقا للأفكار والتحاليل التى تعلمها من مفكرين عرب أمثاله . أفكاره عن التقدم والتحضر والإنسانية ليست سوى زواحف وحشرات تتحرك وسط علب من الصفيح القديم الصدئ . محبوسا هنا فى « حصماية بحرى » حبسا اختياريًا

عرف أن الفلاح المصرى الذى سمع عنه قد مات ، وأنه موجود هنا بين عينة غريبة من البشر لا يجمعها هدف أو طريق .

* * *

بعد أن خرج أمين الألفى من مصحة نابلس للأمراض العصبية عرف أنه خرج كما دخل . دخل حانقا وخرج بليدًا « سوّى » المعاش وخرج من الحكومة قبل أن تطرده المنصورة ، شادن والبيت والأولاد وكأنهم أقوام عبر عليهم من سنين ، لكن لماذا تكبل قدميه فلسطين ، يجر كرامة مهدرة وجرحًا لا يطيب . هام لوقت غير معلوم فى مدن لا يعرفها متنقلاً عبر الطرق السريعة ، ومواقف التاكسيات ، ومحطات السكة لحديد ، واللوكاندات غير السياحية ، ومقاهى الأقاليم والبارات الشرعية وغير الشرعية ، كأنه يبحث عن حل للقضية غير الكلمات .

صار يخاف من تأثير الخمر عليه . يخاف من الفضيحة . ومن قراءة الجرائد ومن الانفجار . يقرأ بصعوبة . الغليان فى رأسه لا يتوقف . يهيم فى الزمان والمكان . يخاطب « أقواما » فى رأسه ، كل القبائل العربية لا تقبله . تفرق دمه بين القبائل ، بين الحرب والسلام بين السماء والأرض . مصيره معلق بين اللحظات . طفل تائه بين رموز ، رموز تزداد ثقلا وغموضًا يسقط على أرض لا يعرفها . وسماء لا تسمح له بالدخول . أحيانا يستيقظ على أخبار من الأولاد انتقلوا ليعيشوا مع خالهم الذى اعتبرهم أيتامًا يحصل من ورائهم على ثواب وأجر عظيم . وأحيانا ينام وقد سمع أخبار فلسطين ، ويحلم بالعبيد المصارعين الذين مازالوا يلقونهم للأسود .

مازالت أسئلة حياته الغبية تطارده . هل هذه حياة ؟ لماذا الكذب حتى فى الخرائط ؟ لماذا تركبه فلسطين وتتلبس روحه ؟ توأم الهزيمة . وجه الكرامة لا تعكسه المرايا . يطارده مع الأسئلة عجز وضيق .. ويحرص على ألا يدخل فى

التفاصيل : لا عن مسار الوطن ولا عن فلسطين . فى التفاصيل تسكن الخديعة الكبرى والخيانة والكذب والكرامة التى تكشف المرايا غيابها .. أليس هناك أمل فى شبكة جديدة تجمع بين الناس فى عدل واتساق أكثر .

بعد أن يمشى طويلا يتخافت شعوره بالذنب ويحل محله إرهاق لذيذ فيقول : أنا على الأقل لم أكذب . لم أعد واقعا تحت التهديد . ولم أعد انتظر .

كل الناس شاهدوا أمين الألفى فى تلك الأيام شبحًا عابرًا ، طويلاً رث الثياب . يمشى لفترات طويلة ، مسرعا قلقا متنقلا فى مدن لا يعرفها . محدقا فى زمان قديم . صامتا يتحاشى أى قرب أو اتصال . أما هو فقد كان يشير أحيانًا بيديه ضائقا من كل شىء ، وأحيانًا يدمدم . كان يقول لنفسه : كيف يستطيع الناس أن يفكروا دائمًا أبدًا فى أنفسهم فقط . ألا يعيدهم هذا حيوانات . هم حتى لا يفكرون ، يأخذون فقط .

يذكر أنها كانت ليلة قمرية ، وأنه كان على شاطئ مهجور لمدينة ساحلية منسية ، هو الآخر كان عجوزًا منسيًا هده التعب . استولت على رأسه فكرة أن يعود إلى « حصماية بحرى » قرية الرجل الكبير مادامت العودة ممكنة . هو ليس لاجئا وهذه ليست إسرائيل .

حصماية أولى بلحمه وبأيامه الأخيرة .

ملأت الفكرة رأسه بسكينة ، راقب القمر مسرعًا فى السماء ، ودعا ربه فقط أن يجد فى القرية « إبراهيم أبو خليفة » وأن يكون مازال على قيد الحياة .

استجاب له ربه ، عثر على إبراهيم أبو خليفة وسط كل ذلك الركام .

* * *

في الوقت الراهن يعيش أمين الألفى مع إبراهيم أبو خليفة محتميا به ، فى الكشك الكبير الذى أقامه أبو خليفة وسط غابة زرعها من أشجار اللوف وأشجار البوهيميا أو ست الحسن .

تعرفه كل القرية ، بل كل الناحية . يتركونه فى حاله تجنبا لضيقه باللجاجة ، وأدبه ، والتزامه بما يلزم من حقوق وواجبات ، ووقوفه الصامد المتكرر ضد الحكومة . حتى الشباب و « الصيع » يتركونه فى حاله ويبتعدون عن الكشك وعن تجارة « اللوف » التى يرعاها ويراقبها بينما هى تدير نفسها .

عثر عليه أمين الألفى كأنهما لم يفترقا أبدًا . كأن السنين ، والمدن ، والخيانات ، والسجون ، والظلم ، والمستشفى والأولاد ، قصص تروى ومشاهد للتذكر . يقترب منه كثيرًا لم يكن يومًا بعيدًا .

أبو خليفة بعد كل ما حدث شيخ قوى شديد ، حر وحكيم ووحده مع الله . بعد أن خرج من السجن عاد إلى حصماية . اختار هذا الكشك ، مقررا بينه وبين نفسه أن هذا هو التعويض الوحيد الذى يرضاه من السكة الحديد بعد أن أدخلته السجن ظلما لثلاث سنوات .

أزالوا كشك أبو خليفة هذا وهدموه على رأسه ثلاث أو أربع مرات . فى كل مرة كان يعيد البناء من جديد لا شرطة ولا أمن استطاعت أن تبعده عن هذه البقعة أو تحركه من هذا المكان .

فى كل مرة كان يضيف لكشكه شيئًا جديدًا . يقوى مداخله وأساسه بأبواب خشبية قديمة ألقت بها القرية ، أو فلق نخل عفى يجده فى الجوار .

طقوس حياة أبو خليفة كانت قد اكتملت ارتبطت بتلك الأخشاب ، والأشجار ، وكيزان اللوف الخضراء ، التى تنمو وحدها ، وتجف تحت رعايته وعنايته ، ليخرج قلبها أبيض من غير سوء .

أما أزهار ست الحسن التى تبزغ وسط الخضرة كل عام ، بنفسجية حمراء مشغولة برقة ودلال ، فقد كانت تقول له لقد مضى عام . تنام ست الحسن ليلاً على أغصانها تؤنس وحدته .

بعد لقمة عيش بالملح فى الصباح يشرب قهوة مغلية ، ويمضى النهار مشغولا يرعى نباتات اللوف وست الحسن ، التى لا تحتاج لشىء ، فقط يديه واهتمامه .

ينظف الكشك ، ويعيد تنظيفه ، يتوضأ ويصلى ويستحم ويطبخ لهما طعامًا ساخنا فى المساء .

الكشك وشبر الأرض حوله ، كانا مكانا نظيفا كأنهما فى غير هذا العالم .

قال له أبو خليفة مرة ، وهما جالسان على الأرض ، وقد فرغت الحكايات :

– عندما أراك مرتاحا هنا ، تحب هذا الكشك ، وتركت الدنيا لتقيم معى .. ساعتها أقول لنفسى استطعت الآن أن أسترد منهم كرامتى .

فكر أمين الألفى وقال لنفسه :

– أنا أيضا أستطيع الآن أن أجلس مرتاحًا إلى جوارك على الأرض .

* * *

أمضى أمين الألفى أيامه الأخيرة فى كشك إبراهيم أبو خليفة . نزلت عليه فى تلك البقعة الساحرة سكينة لم يعرفها من قبل . الدنيا بعيدة لا يصله منها كذب ولا ضوضاء . هنا لم تعد الظنون تلدغه ، ولا تصله حتى أصداء فلسطين ، تحميه خضرة كثيفة ، تصنعها أوراق اللوف الكبيرة الخضراء ، وزهرة ست الحسن تتفتح كل صباح لتنام مع المساء . لحظات اليوم كله منسابة متجانسة ،

يفضى بعضها إلى البعض فى اتساق وبلا قلق . جلس على أرض ، وأسند روحه وارتاحت كأنها دخلت إلى ماء عذب . هنا عرف أخيرًا ، كيف يموت ، رأى أكثر من مرة تفاصيل النهاية والرحلة عبر البرزخ .

فى نهاية كل نهار ، كان يضع نفسه على لوح الخشب العريض لينام . يحدق فى سقف الكشك المائل القريب ، مسترجعا لحظات من يومه الهادئ تختفى ، واحدة بعد أخرى ، حتى يصل إلى آخر الصور : عيون قط تلمع وسط خضرة أوراق اللوف .

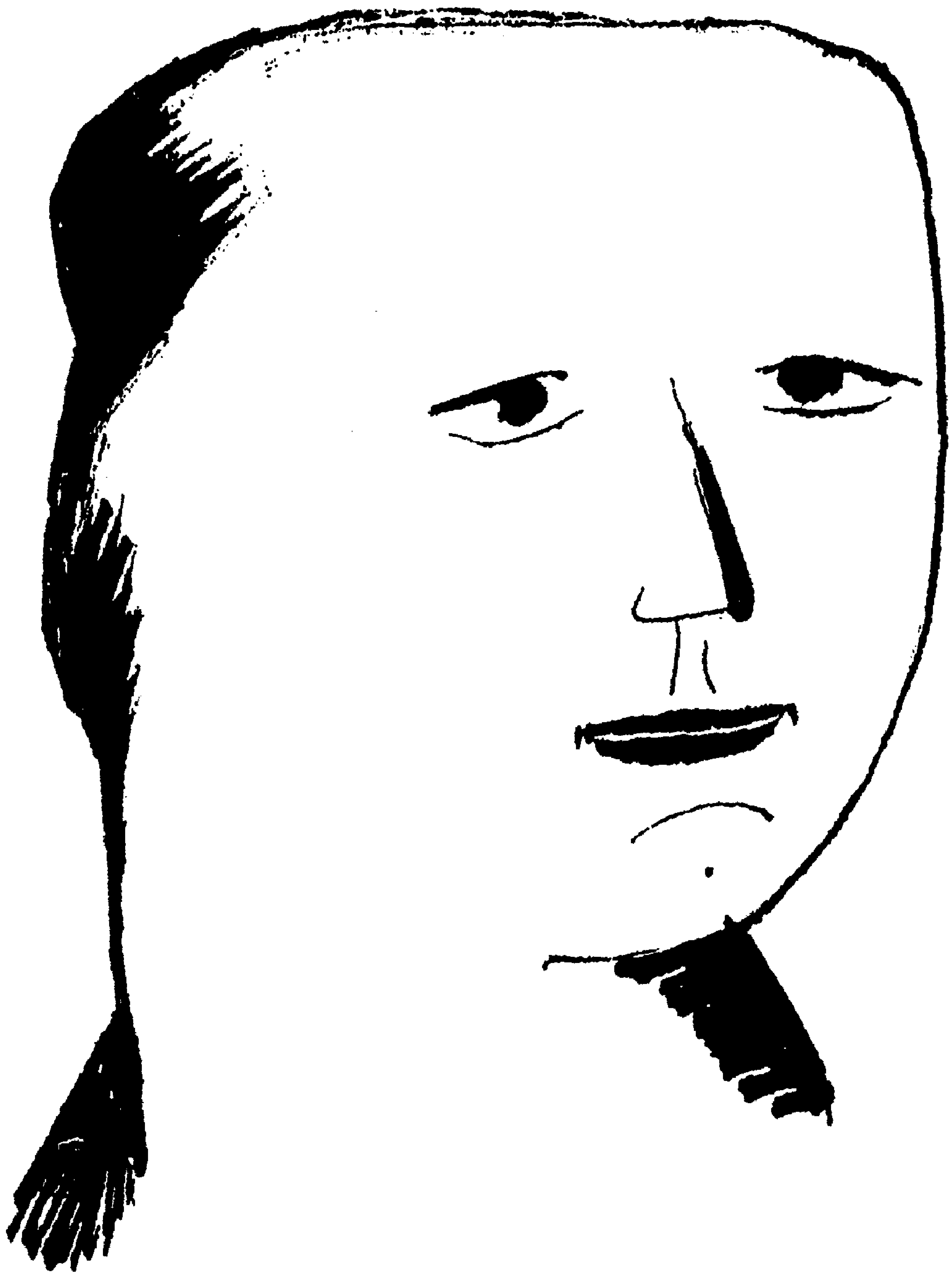
عبر باب النهاية والبرزخ يجد نفسه راقدًا ميتا فى هدوء ، حاضرًا غائبًا ، تحت شجرة السنديان . بدنه ضخم ، يرتدى ثيابا غريبة ملونة . قلبه طافح بالعشق ، وعيونه مغلقة . يرى السنديانة فوقه مهيبة تصل الأرض بالسماء .

حوله دنيا واسعة ، خالية . ليس إلى جواره أحد لم يكن حزينا . يراقب الأشياء وهى تنتهى ليس فى ضوضاء ، لكن فى سكينة .

تمت

« يناير ٢٠٠٢ »

أطفال بلا دموع



الفصل الأول

بصمات العيون

المنظر يأتى وحده ، وينصرف وحده ، أفشل فى كل مرة أريد أن أصرفه بإرادتى واختيارى ، كوبرى عتيق من حديد وخشب ، فى آخر رصيف المحطة من الناحية القبلية ، ذرات غبار متصاعد ، ظلال شجرة عجوز تقاوم ضوء النهار المتكسر ، أربعون عاما يأتى المكان إلى رأسي غامضا حارقا لا يكتمل ، للمحطة جانبان : ناحية مهجورة والأخرى مطروقة ، فيها شباك التذاكر ، ومظلة للانتظار . ودكة خشبية خضراء .. » وبلاط ملون قديم ، قضبان صدئة مكومة ، وفلنكات متآكلة ، معبد مهجور لقبائل منقرضة

يأتى المنظر وحده، وينصرف وحده ، بعد أن ينزع قلبى، ويترك فى مكانه دوامة هواء .

أرى وجهى فى مرآة قديمة ، ذقن نابتة وعينان مرعوبتان ، لا أستطيع أن أبقى طويلا فى غرفة البنسيون ، أصعد وأنزل درجات السلم المظلمة العريضة ، كلما ألمح المصعد المعطل ، قبل الدور الثالث ، أفكر أننى فيه ، أنا فى داخله محبوس ، يغطينى كما يغطى زجاجه وخشبه وحباله تراب ودلايات من خيوط عنكبوت .

أهرول فى الشوارع ، أطارد شرودى ، أصطدم بنهايات الشوارع ، تبتلعنى ، تلفظنى ، نهايات ، بلا نهايات .

أدخل مقهى ، مطعما ، دكان بقال ، أشترى زجاجة خمر ، قرش حشيش ، أهرب من لا أحد ، أصعد شوارع ، سلالم ، أنزل إلى حدائق جرداء ، أعود إلى غرفة البنسيون ، أرى وجهى فى المرآة القديمة ، ذقن نابت ، عينان مرعوبتان ، خوف قديم ، نفس قاحلة ، خاوية جرداء ، أصنام متهاوية ، طريق كباش متتالية حمقاء . أصبحت خارج الزمن ، ألست اليوم بلا إثبات ، خارج المكان أيضا ، هل أنا فى مصر ، فى القاهرة ، أم أننى فى الجامعة فى مدينة دلوك .

وراء هذه النوافذ والأبواب المغلقة كتلة حمقاء من البشر لا تعنيني ، ولا تخيفني ، أحتقرها ، أضيع لو عرفتها ، أحب أن أكون مثلها ولا أستطيع ، أهرب منها وأتلصص عليها ، أراها دميا مصنوعة من ذلك الحشو البترولي الخفيف ، تضرس أسناني لو لمسته أو كسرته .

* * *

ليلة غريبة ، مخيفة جدًا ، تذكرها مرعب ، كنت وحيدًا ، متى لم أكن وحيدًا ؟ ها هي تعود ولا أستطيع أن أصرفها ، قبل الواحدة والنصف بقليل ، كنت أنتظر عرض آخر الأنباء من إذاعة القاهرة . فجأة أحسست أنها قادمة ، الجدران تتحرك تجاهي خانقة . أزمتي القلبية الجديدة ، أهم هدايا رحلة الإعارة الأخيرة حقائبي وأشيائي تتناثر في الحجرة ، لا أستطيع أن أمسكها أو أعيدها إلى مكانها . باب غرفة البنسيون الزجاجي يشف عن ضوء غامض ، بعيد لا أستطيع أنا أن أخرج ، لن يدخل أحد ، لا صوت في المكان ، مع أنني أعرف أنهم جميعا هناك ، هي مؤامرة ناجحة ضدي ، سينطفئ النور . ويدخل شبح غامض ليقبض على كل شيء ، ليست نقودي هي المستهدفة ، لكن أنا شخصيا ، أنا وأجازتي الأخيرة في القاهرة ، لِمَ لمْ أنزل في فندق كبير ، حتى أستطيع أن أستدعي طبيبا ، شيء ما يشدني دائما إلى دائرة العجز والفقر والاحباط ، لا أعرف أن أتصرف حقا كالأغنياء ، أضأت جميع اللمبات في الغرفة ، أشعلت سيجارة ولم أدخنها ، صببت كأسا كبيرة من الويسكي ، أخرجت قميصًا جديدًا ، ارتديته فوق رائحة العرق القذر ، قميص من قمصان الهدايا التي لم تصل إلى مستحقيها ، انتعلت أي شيء في قدمي ، وجمعت بعض نقودي ، ومفاتيحي ، وجواز السفر ، وتركت نور الغرفة مضاء ، أراقب المصعد المعطل وأهرب منه كان تنفسي يسبقني وضربات قلبي أسمعها في أذني ، ليس هناك جديد أخافه لقد قال الدكتور هناك بلكنة أجنبية : ستأتي كثيرا ، تعلم أن تعيش معها ،

أستحلب هذه الحبة عند الضرورة ، ضع العلبة فى جيبك ، وفى مكتبك وإلى جوار الفراش .

اكتشفت أنا أننى أستطيع أن أستعمل تدريبات القلم والأوراق وقراءة القرآن ، أنا دكتور في الأدب العربى ، ولكن الكتابة .. الكتابة التى صارت بعيدة عنى ، صارت الأبحاث ، والرسائل والمحاضرات والمقالات ، شيئا آخر غير الكتابة التى أقصدها ، صارت حسابا ، وتكتيكا ، وتوظيف أوقات وأموال ، استثمارًا جديدًا أما الكتابة القديمة فقد كانت مهجورة ، مهجورة منذ سنين ، من يقدر الآن على الطهارة التى تتطلبها الكتابة ، طهارة تحتاج إلى وضوء ، وصلاة ، وجلباب أبيض نظيف ، وجسد مغسول وروح حرة هى تحتاج إلى قدرة ، واحتشاد ، ويقين .. أين كل هذا منى الآن ؟ ! أن أخط رموزًا سحرية على ورق أو على رمل أو على مآقى العيون .

لذلك جعلت من بعض أوراقى المتناثرة وصيتى ، بعض الأوراق المنتقاة ، وكراس قديم من كراريس وزارة المعارف . هى وصيتى ومفروض أن أضع فيها كل ما عندى من حكمة ، هى صوتى ، صوتى الذى أنكره عندما يخرج من حلقى معدنيا غريبا لا أعرفه . علاج نفسى وعصبى ووجودى . أحب أن أكتب فيها نقصى ، وضعفى ، وجرائمى التى أحاول أن أكتبها لكى أغفرها لنفسى . من غير هذه الأوراق يرحمنى ، ويعيننى على احتمال أزمتى القلبية الجديدة ..

وكل هذا الجنون .

* * *

فى شوارع وسط البلد لم يكن أحد يسير غيرى ، فكرت فى أن أبحث عن تليفون . أتصل بطبيب أو صديق أو أتصل بها هى ، زوجتى ، الأستاذة

الدكتورة سناء فرج ، ولكنها ليست في القاهرة ، والمعارف والأصدقاء يسقطون من ذهني كأنهم فقاعات هواء ، أريد أن أظل وحدى ، أصرع هذا الليل ، أو يصرعني ، ما أجمل ليل القاهرة الخالي ، شوارعها الساجرة ، وبيوتها ذات الطعم والرائحة .

في الشارع الفسيح ، تنفسي ينتظم ، يعود قلبي إلى اتزانه ووجوده العادي ، أرى ملابس العسكري الأبيض وسلاحه وهو نائم . عنده على الأقل شقة صغيرة أو غرفة ، وخمسة أولاد على الأقل . مرتبه لا يمكن أن يتجاوز المائة ، عند زوجته قطعة عزيزة من الذهب ، عند الأولاد ملابس جديدة ، وهم يجتمعون على أرز وطبيخ ولحم ، وهو في بيته يتجشأ ، ويرتدي سروالاً نظيفا .

صرت غريبا وحيدًا يا دكتور ، دكتور منير عبد الحميد فكار . أستاذ الأدب العربي في جامعة المطل بمدينة « دلوك » أنت لا شيء قطة ضالة تجري ليلاً في شوارع وسط القاهرة ساحبة في فمها كيسًا كبيرًا به نقود ، أجرى .. أجرى فلن تستطيع أن تدخل من تحت عقب الباب أو أن تدلف إلى غرفة العسكري حيث ينام الأولاد . في المقهى الصغير الذي وجدته مواربا في باب اللوق ، طلبت حلبة باللبن وشيشة وكرسي دخان ، كان المقهى نظيفا مفروشا بنشارة الخشب الخضراء ، كهل محطم وشاب مسطول وصوت نار ، وتمثيلية إذاعية دينية لا يسمعها أحد .

راقبني الجرسون بعد أن وضع الطلبات ، لعله يتذكرني أو يتفحصني ، ولعلني أذكره ، لكن ماذا يهم الآن ؟ شيء في ملامح الكهل الذي يقاوم النوم يذكرني بوجه أبي ، أعتقد أنني لن أراه هذه المرة ، قد يكون بصره الآن قد كف تمامًا فلا يراني ، بعث هذا الخاطر في نفسي بعض الارتياح ، كان مذاق الحلبة لاسعا والسكر فيها كثير .

عيناك علىّ ولا تراني ، كم أحب الآن أن أتنكر في زى جديد لماذا لم أخلع هذا القميص والبنطلون ، أرتدى عباءة من العباءات الجديدة التي في الشنطة البنية مثلاً ، لها سَيالة كبيرة ، وجيب عريض على الصدر ، وعلى حوافيها نقوش لامعة . أن ملمس قماشها الرخيص يبعث فىّ شعورًا بالراحة واللامبالاة أو الجلباب البلدى القديم ، هدية أم عصام مثلاً .

فركت أقدامى ، وراقبت أصابع قدمى العاريتين فى الصندل الجلدى ، منذ زمن لم أشعر بهذا الصمت يسرى فى كيانى ، كأن المطالب كفت وانتهى الصراع .

عندما جاء الجرسون يأخذ الأكواب ، ويغير حجر الدخان ، طلبت حلبة جديدة ، وعادت إلى ذهنى محطة القطار فى قريتى كفر شوق فى المنيا ، عادت تأخذ مكانها الرئيسى المعتاد فى خيالات الذهول ، الكوبرى دائما محور الصورة ، والشجرة العجوز تقاوم ضوء النهار المتكسر ، ورجب بائع الدوم والحلوى والجوافة ، عجوز حتى فى ذلك الوقت ، هو ما زال حيا فى الإسكندرية ، هكذا سمعت ، يبيع السودانى أمام الملاهى ، لابد أن أراه ، هو الذى حكى لى حكاية رقصة الديك ، هو الذى حكاها ، وأخرجها ، وصنع لها الديكور ، والموسيقى سمعتها منه ، وسألت أمى عنها وأبى ، وكانت الإجابات ، إضافات ، حتى الصمت والاستنكار والإنكار كانت تزيد القصة فى رأسى اشتعالا .

رجب صاحب قصة الديك ، ولكن أنا الذى سأكتبها أكتبها كما لا يعرف أحد أن يكتبها ، هى قصة لم أكتبها ، ولن أكتبها ، لأنكم لا تستاهلونها ، لو كتبتها لتغير وجه الأدب العربى المعاصر . من هو فوكنر ومن بروست وديستيوفسكى ، وماذا يقصد نجيب محفوظ ؟ ماذا يعرفون عن الجنون والفقر وحلم الثراء

والكنز ، ماذا يعرفون عن أساطير الصعيد والجبل ولياليه ورجاله ، وعن القرى المحنية منذ ملايين السنين وما يحدث فى داخلها بين الرجال والنساء ، وبين العيال وجدران الحظائر ، والحمير فى الظهر الأحمر ، والجاموس الأسود ذى الأرداف ، لن أكتبها ولو وضعوا الشمس فى يمينى ، لم لا تكف عن مطاردتى حتى فى هذا المقهى الخالى الأليف .

* * *

عيناك علىّ ولا ترانى ، ولكنها تترك فوقى بصمات العيون . دخل بعض الزبائن يشربون شايًا بالحليب ، ويأكلون فطيرًا طريًا ، ويسارعون إلى كرسى الدخان ، عافت نفسى الحلبة المليئة بالسكر والدخان نافذ الرائحة ، دفعت الحساب ، وخرجت أحمل فى رأسى ، وطنى الثانى ، أفكر فى جامعة المطل ، ومدينة دلوك .. ووطنى الثانى كله ، حيث أكل عيشى ورزقى ، ومنفاى الاختيارى الجميل ، الملئ بالنقود ، والزوايا الزجاجية ، ورائحة الرمل ، والنفط ، والرجال المعلبين المصبوبين فى جلابيب بيضاء نظيفة أحبائى وأشقائى ، ولكننى لا أشتاق إليهم ولا للمكان ، الشوق لكفر شوق وحدها ، قريتى المستحيلة ، التى لم يعد لها وجود ، أخاف أن أفكر فى ذلك المكان الذى أعيش فيه الآن ، كل الأشياء هناك تبدو غير حقيقية ، مؤقتة : بيتى الخالى . أو الملئ . الجامعة فى الظهر أو ليلاً ، الشوارع الخالية الواسعة النظيفة ، ملايين الريالات والدينارات ... والدولارات ... بلاد هى وطنى الثانى كما أقول دائما فى المحاضرات ، لكنها ليست بلادًا ، لا أعرف أن كانت لهم أغانى غير تلك التى تصرخ بها أجهزة التسجيل . كانت لهم أغانى بالقطع ، بالضرورة . بلاد درست و طمستها الرمال والنقود والنفط ، رصفوا فوق بلادهم طرقا طويلة وكبارى وعنجهية فارغة ، هل هناك حوارى وأزقة وكفور ، وفلاح على رأس غيط ، وعامل متحمس أخرق ، وعذراء على ترعة ، وشمس فى رأس غابة نخيل ، وشهداء ، وكنائس ، ووطن يبكى .

لو أن السيدة الدكتورة سناء فرج صمدت قليلاً معى – واحتملت ما سمته السجن الذى كنت أضعها فيه ، سجنى النازى المرعب الهواء معى هناك كان عذابًا « عذاب يا أخى » ، الحمد لله أننى كنت عذابًا لك يا جبانة ، امرأة لا تصلح لشىء ، لا لهذا ولا لذاك ، الحمد لله أننى انتهيت من هذا العذاب ، لم أكن معك سوى أعرج مكتئب سخيف ، مثلك لا يعرف الحياة أبدا ، كان يمكن أن يكون لنا يا مجنونة حياتان . ولكن ماذا تعرفين أنت عن الحياة . يا بنت الكوربة فى مصر الجديدة . يا بنت النادى ، البودرة ، والصور الملصقة فى الألبوم . أخذت ما يكفيك ، من القمصان الملونة والكريمات ، والأوهام التى تتناثر مع لعاب فمك ودموعك وأنت هائجة تصلين للحم كافر رعديد .. أخلص ، الرحمة .. طلقنى يا أخى .

قبل أن تنطق الأفراس الحمقاء ، والفهود والنمور ، والأوتوبيسات التى لا تصدق أنها ما تزال فارغة ، حاولت أن أهرب من كل هذا خلف شيش البنسيون الكبير ، الذى يخترقه ضوء صحى قاهرى صاخب ، لم أنم وظلت عيناى مفتوحتين مجهدتين وبهما التهاب خفيف .. سأستلقى حتى يدقوا الباب ، قرب الظهر لتنظيف الحجرة ، وسوف أرفض ، وأطلب إفطارًا ثقيلاً .

تركتكم جميعًا ، تخلصت منكم جميعًا ، وصرت الآن وحدى ، مرة أخرى وحدى باختيارى وإلى الأبد .

اجتزت وحدى مفازة جهنمية . عبرت وحدى ، وتركت أهلى قتلى وصرعى ومشوهين ، خرجت لأرض جرداء وحدى ، يتقافز أهلى فى صحوى وأحلامى ، جثثنا وأطرافًا ممزقة . أنا قاتل وقتيل ، شهيدكم والسفاح ، هم ندمى وحلمى ، دماؤهم فى فمى ، وطعم جوعهم فى خبزى .

لا تخشىَ شيئا ، سينقضى اليوم مثل غيره من أيام الأجازة الجميلة ، ثلاثة شهور ، مثل أى ثلاثة شهور ، فيها العام كله ، القبح كله .. واسمها أجازة . اتصالات تليفونية ، مواعيد فى مقاهى ، وبنوك ، وتغيير عمله ، ومكاتب ، وبقالون ، وسباكون وكمسارية ، وسماسرة ، وقوادون ، وأساتذة مثل الببغاوات يتفاصحون ، سيقول ذو الرأس الكبير والأصابع الممتدة فى الوجه « انتهى كل شىء ، لا أحد هنا ، ولا كلام .. خلاص . أبحث لنفسك عن لقمة فى مكان ما .. وأظنك تفعل .. ها - ها " .. ولكنهم يبكون فى آخر المساء .. يبكون لسبب أو لآخر . بعد زجاجات البيرة ، والأقداح .. وسجاير الحشيش المختلسة ، يبكون كما كانت تبكى زوجتى العزيزة ، فيعاودنى الاختناق وضيق الصدر ، وأريد أن أشترك فى جريمة اغتصاب أو أن ألقى بنفسى فى الجحيم . أجمل شىء فى هذا البنسيون هو ذلك الشيش الطويل يخترقه ضوء النهار . الحمد لله أنه مازال يعمل ، يفتح ويغلق ، للنهار ضوء خاص فى الغرفة . ضوء أحلامى وأيامى التى مرت ولن تعود . هناك فى مكان ما من الحقيبة السوداء ، فى كيس من البلاستيك عليه رسم غليون ودخان ترقد تلك الأوراق المفزعة التى أخفيها وأبحث عنها ، وصيتى ، وجرائمى المستورة والمعلنة ، أما النقود والشيكات والحجج والإيصالات والماكينة الحاسبة ، وكل الأرقام فهى هنا فى هذه الحقيبة الصغيرة الكبيرة المصفحة غالية الثمن . من أين أشتريتها لا أذكر ، ولكننى أتعامل معها باحترام . أنظر اليها بحب وحذر . أنا شىء . وهى شىء آخر .

* * *

لن يكون فى اليوم جديد ، بعد أن تنتهى ظلال الشمس على الجدران ، سيضيق صدرك من جديد . « أم عصام » فى الإسكندرية هى بحرى وخلاصى . لن يسأل عنى أحد ، ولن يتصل أحد . هكذا هم يتهيبون فى الأيام الأولى ، وسناء وتامر ولمياء مع خالهم فى مرسى مطروح ، خمسة عشر يوما أو شهرا على

الأقل على ألا أفسد عليهم الأجازة ، هكذا قال الصوت على التليفون أيام مع أم عصام . ولن يشعر بوجودك أو غيابك أحد .

أم عصام في ضياء لحمها الأبيض أغرق صبحي وليلي الفارغ هي وطبيبي النفسي أهم ما بقي لي هنا . بعد ساعة تعد الشقة والفراندة ، والمنقد ، والأفيون، والفيديو وكل شيء، حتى أم الخلول والفلفل الإسكندراني المقلي .. وتضيء نورا أحمر، وتدير أم كلثوم ، لا يهم الوقت فهي تحب الأيام الخالية معي ، وتقدر كرمي المحسوب، وأقدر امتنانها النهم الذي لا يشبع . فمها وأردافها وأثداؤها مترعة كأنها ترضعني غباء أبيض . سمينا كل شيء اسما : أعضاءها ، وأعضائي ، زوجتي ، وطليقها حتى لا يزعجنا أحد أو شيء بحضور مخصوص ، كما اتفقنا على تجنب ذكر الأولاد أو الحديث عنهم أو الحديث عن النقود .

لن يأتي عليَّ الغروب وحيدا ، ولن يسمع مني أحد لأيام . ستحل أم عصام أزمة وجودي ، ولن تزيد التكاليف كثيرا عن المعتاد ، فهي مازالت تحب الكبدة الإسكندراني والسمك ، وأفلام عبد الحليم حافظ القديمة ، وكئوس البراندي وأنفاس الحشيش ، وتشعل الفحم ، وتشعلني بفمها وبقطع الأفيون ، وتمسح لي زجاج نظارتي فيبدو فجر الإسكندرية وبحرها وكأن نورًا قد محا كل أيامي الكئيبة ، أضاجعها وأنام ، لأستيقظ فأجدها قد أعدت المائدة من جديد . سآخذ جلبابا وعباية وشبشبا وغيارات وأدويتي ، وورقتين أو ثلاثا لنفقات الرحلة ، سأفكر في شيء آخذه لها في الطريق ، شيء من رائحة البلاد التي كنت فيها ، شيء أحمر لامع فيه رائحة النقود ، سأقول لها أني تذكرتها وتقسم أنها تذكرتني وتنتهي المقدمات وأدفع بأصابعي في شعرها المصبوغ الناعم المنسدل .

المهم أن أترك هنا خبرا في البنسيون لكل من يسأل علي ، أنني خرجت ولا أحد يعرف متى أعود .

الفصل الثانى

رقصة الديك

الحمد لله أن أم عصام لا تعرف النقاش ، ولا تحب تقليب الكلمات الميتة ، ولا تعرف لوى أعناق المعانى أو الطعن بالكلمات .

غيرت البياضات وأزالت التراب من الفراندة الصغيرة التى تطل بزاوية على البحر المزدحم ، وأصبح الطريق إليها وإلى البحر والسماء مفتوحا بعد عدد من الكئوس والأنفاس . يفصلنى عن كل شىء زحام أشعر به فى أذنى ورأسى وكأنه صوت الطائرة لم يتوقف بعد ، ولن يتوقف أبدا .

هى وحدها تقوم بكل شىء ، فى بهجة سكندرية رائقة ، تجعلنى أنسى ترددى ولا مبالاتى ، لا تلامس القروح ، ولا تشدها النقاط المعتمة كأنها فرع نور ملون على بيت بعيد . أضحك لها حتى أكاد أنسى رعبى وخواء نفسى الثقيل .

تركتنى فى الفراندة وانصرفت لشأن من شئونها النسائية ، فأوشكت أن أغرق فى البحر البعيد .

لعنة الله على فرويد ، ويونج ، وأدلر ، وعلى كل علماء النفس وأطباء النفس ، على من أخترعوا الأمراض النفسية ومن زرعوها ، الإيدز أرحم من هذا الخواء ، الشذوذ الجنسى مزاج أو مرض ، أما هذا الخواء فقدر ملعون . سرطان يسكن الهواء الذى أتنفسه من فمى وأنفى وأذنى وعينى وكل مخارجى الأخرى ملعون هذا الخواء ، الفراغ الداخلى ، تنين بأظفار حمراء ، وأنياب حمراء ، عفريت الظهر ، وقاتل نساء فى المساء ، سراب خادع قاس ملعون . لن تعرفه حتى أصف لك حياتى ، حتى تعرفنى ، وتعرف كيف تتوالد لحظاتى من بعضها البعض ، وكيف ينتقل عقلى من شر فارغ إلى شر فارغ ، حتى تعرف كم من الجرائم ارتكبت دون أن يقبض علىّ أو أسيل دمًا . أنهار الأرض لا تغسل الندم والمرارة .

* * *

بعد حمام ساخن ، وقهوة ثقيلة وقبل أذان المغرب تركت أم عصام لكى أنزل وحدى إلى الرمل وأعود لها فى المساء .

إلى المنضدة القديمة فى الركن الذى يرى البحر كان أربعة من العجائز ، يراجعون أخبارًا صغيرة فى جريدة معهم ، ويناقشون بصوت عال بندًا قانونيًا ركيك الصياغة .

عندما تعثرت فى فنان الإسكندرية الكبير ، أخذنى فى أحضانه الواسعة ثم أبعدنى بذراعيه وكأنه يتأملنى ، ثم فتح فمه بكلمات كثيرة ، كبيرة ومتتالية ، وتلمظ وهو يرتب لقاء لن يحدث ، لمن أذهب ؟ وعمن أبحث ؟ عن هؤلاء الفقراء التعساء المحيطين ، فى مقاهيهم القذرة وغرفهم الضيقة .

أجلس فى مقعدى وحيدًا . هو نفس المنظر الذى يأتى ولا أعرف كيف أصرفه ، كوبرى المحطة ، رصيفها المطروق ورصيفها الخالى ، الشجرة العجوز يتخللها ضوء النهار المتكسر ، و « رجب » بائع الحلوى يحكى رقصة الديك ، فى الجبل كهف ، فى الكهف مغارة ، فى المغارة كنز لا أحد يفتح الكنز حتى يحرق بخورًا ، البخور لا يحمله أحد إلا إعرابى رحال قادم من المغرب ، يقف خارج القرية ، ولا يدخل ، يلقاه صاحب الحظ فيشترى منه البخور وإذا انتهى البخور والطامع فى الكنز لم يقنع بعد تغلق المغارة عليه ، ويبقى فى الكهف لعام كامل ، لا تخرجه سوى رقصة ديك يذبح فوق أحجار المدخل .

تصاحبت ليالى مع كاتب أغان يبحث عن الشهرة والمال فى تزويق الكلام ، تصاحبنا لكى نصنع رقصة الديك ، وكانت النتيجة فقط ، بعض زجاجات خمر فارغة ، وحروقا فى صالون منزله ، وأوراقا لا قيمة لها ، وعلاقة بينى وبينه محطمة ، بقيت أنا صاحب رقصة الديك ، أحملها فى رأسى وأتحدى بها المنحوس والمتعوس وخائب الرجاء .

أهم شيء أفعله في الأسكندرية هو أن أرى رجب ، فقد أقسم واحد من البلديات قابلته في وطني الثاني أنه شاهده ضريرا يبيع الفول السوداني أمام مدينة الملاهي بالأسكندرية ، وأن طفلاً صغيرًا بساق واحدة يقوده ويبيع معه ، أشك ، لا أحد يعرف رجب إلا أنا ، أنه هو خيالي الذي يأتي ولا أستطيع أن أصرفه ، ولكنني بالتأكيد سأذهب . إن لم يكن الليلة فغدا . لو كان هو ، فلن أخطئه ، ولو كان أعمى فلن يراني .

*   *   *

رجعت إليها مبكرًا ، أشعر بإرهاق وأنا لم أفعل شيئا ، درت في الشوارع ورجعت بالترام ، رائحة طعامها وما فعلته في نفسها أدخلوني إلى مباهجها دون عناء يذكر ، وراحت في الربع الأخير ، من الليل تحكي عن رحلة العمرة الأخيرة ، سألت عن حالي في نبرة تدفع إلى البكاء ، أزورها من خمسة أعوام ، وكل عام تزداد بهجة ، وتدخل على نفسها دائما تحسينات . تعطيني – منذ أن طلقت الدكتورة كل ما في الأنثى في السرير والمخدع والمضجع وفي كراسي الأنس ، – ماذا يبقى لك يا دكتورة يا بنت مصر الجديدة ، يا بنت المدرج وقاعة الدرس والاجتماع .

ورقة واحدة زائدة أخذتها الدكتورة في غفلة مني ، فقلبت كل شيء ضدي . ورقة واحدة لا أعرفها . فتشتها جيدًا ، وفحصتها وهي خارجة ، تحسستها وهي تغادرني ، كنت أتصورها خرجت عارية هي والأولاد ، لقد أخذت أنا كل شيء ، فرت ، جبانة . عارية . ولكن ها هي تحمل كل الأسلحة . هي وحدها سناء فرج ، صاحبة المؤامرة الكبرى ضدي ، ألم تعرفني هذه المرأة ، رجلا قادرا على إرضائها ، وشراء ملابسها الداخلية ، وطلاء أظافرها الشيطانية . ليتني قبضت على رقبتها وأنا أضاجعها فماتت ، كم مرة ماتت وانقطعت أنفاسها ، ثم فتحت عينيها ونظرت إليّ في خنوع ، قطة لها سبع أرواح .

حدثيني يا أم عصام عن رحلتك فى الدنيا وحدك . اجعلى التى لا تفهم تفهم . قولى من أى بئر تغرفين ، وكيف أنك تتجنبين الأحزان .

عندما سألتنى إن كنت قد رأيت الأولاد ، قلت لها : لا أريد ، انتظرت حتى جاء الفجر ، فدعت بجمع الشمل ، قلت لها إننى أريد أن آخذها غدًا الى مدينة الملاهى ، ففرحت فرحًا طفوليا ، وناولتنى جسدها من جديد .

*   *   *

أنا لست - بالتأكيد - شخصا واحدا - منذ سنوات طويلة لم أعد كذلك ، صار شعورا ملازما بعد انفصال الأولاد عنى ، ولكننى كنت ألحظه قبل ذلك ، شرخ فاغرفاه ، فى كل لحظة ، وزاوية ، ومعنى أستسلم له أحيانا يقطعنى كالسكين .

استيقظت شبه عار إلى جوار أم عصام ، لست أنا الدكتور منير المحاضر فى جامعة « دلوك » أنا ولست أنا ، عيناك على ولا ترانى ، أين أولادى ، وكتبى ، وتلاميذى ، أين أطروحتى ، وأوراقى ، ومقالاتى . وأفكارى الأدبية .

بعض تقلصات فى المعدة والأمعاء ، وحرقان يصعد على كل الصدر لحظات وتزول الأزمة . أعرف هذه الأعراض فى الأيام الأولى من الأجازة ، أعالجها بأقراص الحموضة مع مسكن خفيف ، أو لا أعالجها على الإطلاق ، إنها فقط تجعل المزاج متعكرًا .

النهار فى شقة أم عصام ليس ساحرًا أخاذا مثل الليل ، نقوش الأقمشة المفروشة على المقاعد ، والصور والأيات المعلقة كأنها رموز عصر احتشدت فى مخزن قبل أن تنشق للعرض . وهى قد تركتنى وحدى فى الشقة ، لكى تشترى طعاما إسكندرانيا أصيلاً ، بعد الطعام المعلب الذى كاد يذهب بما بقى فى من قوة . دللتنى بفنجان القهوة وما يلزمه .. وتركتنى- دون أن تدرى - لأصعب

لحظات النهار : كبد اليوم ، حيث من المفروض أن يعمل الناس ، وأن يكون لهم شيء حقيقى يفعلونه ، ويرتبطون به ، ويأخذون سبب وجودهم منه .

تركتنى وقد تخلى عنى حتى الخيال ، غير قادرا إلا على الحساب المتردد ، بين عشرات الألوف ، تصعد بسهولة إلى المائة ، ثم تطيح بخيالى مآس غامضة أو كوارث ، فأعود أشعر دون منطق أو مبرر بتلك السقطة التى تنزع القلب . سقوط كذلك الذى يحدث فى الأحلام ، وتذكر لوجوه غريبة لا تريد إلا الشر .

الرقم الحقيقى ، لنقودى ، لثروتى ، لا أعرفه أنا نفسى ، لا أحب أن أعرفه ، لقد أجبت عن عشرات الأسئلة السخيفة التى سألها متطفلون حمقى بعشرات الإجابات ، كلها لا تمت للحقيقة بصلة ، ثروتى صارت شيئا آخر مختلفا غيرى ، كائنا ليس لى به علاقة ، لا أحبه ، ولا أكرهه ، شجرة صبار غريبة مزروعة فى وسط حقل مصرى خصيب . نقودى هى التى تحصينى ، تتبعنى ، تثقلنى فى بعض الأحيان ، وأحيانا تجعلنى أطير فى الهواء ، قاسية ، مرعبة ، لها منطقها ولها قانون .

لو أن لى قرية أعود إليها لعدت . لكن « كفر شوق » لم يعد له وجود إلا فى خيالى ، تحولوا جميعا هناك إلى أفواه ، وأيد ممدودة جثث ملقاة ، كسالى ، لا يريدون أن يفعلوا شيئا ، بعضهم يتطاول ويتهمنى بالجنون فى وجهى ، وأكاد أعرف ما يقولونه عنى فى غيابى كيف أعيش وسطهم للحظات . تكرر ذهابى إليهم وهروبى . ما الذى يربطنى بهم حقا سوى ذلك الاسم ، ذلك الخيال . ورقصة الديك . لكننى أخذتها منهم ، إنها فى رأسى الآن . ورجب هو الآخر يعيش هنا على مقربة فى الإسكندرية .

كيف يأكل من لا يعمل ، لماذا لا يحل الفقير مشكلته ؟

* * *

عندما تخلصنا من الزحام ، واستقرت إلى جوارى فى التاكسى الكبير ، أحسست أن لا شىء مما حولى يعنينى ، الغروب على كورنيش الإسكندرية ساحر ، وقد زايلنى شعور الكدر الذى حاول أن يغزونى ، عندما اقتربنا لم تكن عيون الزحام تزعجنى ، بل على العكس كنت أحب أن تراني ، غطت أم عصام رأسها بتاج ينسدل على كتفيها وملأت نفسها باكسسوارات تصرف العين عن وجهها وملامحها . كانت تشع طيبة وتلهفا مفرحًا سعيدًا .

هدفى الأساسى من الزيارة لم أكن قد أعلنتها به ، على الرغم من أنها تعرف الحكاية ، ولطالما حكيت لها رقصة الديك ، ولكنها كانت دائما تنساها ، أو تتصنع أنها نسيتها لكى تسمعنى من جديد بعينها والحاجب . هى لا تريد أن تربط الخيوط أو النهايات ، لا تريد أن توحد النسيج بينى وبين رجب ، بينى وبين الكنز والكهف والمغارة . هى ترانى فى إطار آخر .

عند المدخل لم أجد أحدًا ، قلبت فى زحام المكان بحثا عنه ، لكننى لم أجد سوى عربة فول سودانى قصيرة ملفوفة بقماش وحبل ، مركونة إلى جوار الحائط كأنها تابوت صغير .

دخلنا وسط الأنوار الدوارة ، والحركة المحبوسة المنظمة ، لا شىء مقلوت سوى البشر : ألوانهم ، تزاحمهم ، صراخهم الأحمق وضحكهم المجنون ، التصقت أم عصام بى ، وهى تراقب ردود أفعالى . اخترنا أسهل دائرة قطعناها معا ، وضحكنا ، ونحن فى الهواء ، ونزلنا الأرض وقد قررنا أن نكتفى بالفرجة وبمراجيح الحياة .

فى المقهى الكبير الذى يطل على مدينة الملاهى كلها جلسنا ، الجرسونات الشياطين الذين يخدمون هنا يعرفون كل شىء من الوهلة الأولى ، فقد أغرقونا بطلبات لم نطلبها وزجاجات ماء باردة ، وأطباق صغيرة ، هل تبدو الإعارة

ظاهرة على وجهى إلى هذه الدرجة ؟ رغم ملابسى العادية ، وأم عصام ، قد تكون حلاقة شعرى أو نظارتى الثمينة ، أو شىء ما فى حركات يدى ، لا أظن أن الإعارة قد ظهرت فى لغتى بعد ، مع أننى كثيرا ما أضبط نفسى متلبسا . حكت لى أمام عصام عن متع رحلة العمرة الأخيرة ، وكيف أنها تنسى نفسها تمامًا هناك ، وترى الدنيا بعيدة كهذه الأنوار التى تدور مبتعدة وترى الأسكندرية وكأن لا وجود لها ، هناك تنسى شقتها تماما وتتمنى ألا ترجع إليها أبدًا ، كانت عيونها لامعة واسعة جميلة ، هى تنظر إلى من خلف كوب الليمون متساءلة : هل أصدقها ؟

لابد أنه يأتى متأخرًا ، لم يكن أبدًا نشيطا فى السعى للرزق .

عربة الفول السودانى هذه عربته بكل تأكيد ، صبرت ملايين السنين واقتربت اللحظات الحاسمة ، لو كان هو فلن اخطئه وإن كان أعمى فلن يرانى .

هذا هو ما ينقصنا الآن ، أن تصاب بلوثة ، وأن تجلس إلى جوار بائع فول سودانى على كورنيش الأسكندرية . أضحكت أم عصام وأنا أروى لها كيف ينطقون الأشياء هناك ، كنت أريد ألا يتوقف الحديث ، فكل الحركة حولى لم تكن كافية لكى تصرف قلق التوقع والانتظار ، الدوائر المضيئة الدوارة لا تصرف القلق بل تركزه فى دوامة مقتربة فى نهايتها نار حارقة ، وأنا أشد ملامح وجهى وأقاوم تقلصات أمعائى .

عندما استنفدت قدرتى على الصبر طلبت منها أن نقوم ، فلا مكان أجمل من شقتها وقد جاء الليل ، ابتسمت موافقة فى فهم وإشفاق . وجدته على المدخل ، هو بالتأكيد ، وصبى صغير مقطوع الساق يجلس إلى جواره ، هو الذى يجلس إلى جوار الصبى ، صبى أسود ممصوص فى الرابعة أو الخامسة عشرة ، ساقه خشبية ثقيلة ، يمدها إلى جواره ، أما رجب فلم يتحرك لا يبدو من وجهه

سوى أقل القليل ، رأسه ، ورقبته وذقنه تحت شال رمادى كبير ، على عينيه نظارة سوداء لا تعرف أين أخفى يديه ورجليه ، يرتدى بنطلونا كاكيًا ، وإلى جواره حذاء .

كنت واثقا أنه هو : رجب ، الديك ، رقصة الديك « كفر شوق » الكنز الكهف وأنا .

أطلت الوقوف ، أم عصام معلقة فى ذراعى ، بل يعرف صوتى لو تكلمت ، أما إذا تكلم هو فسوف أقطع الشك باليقين ، ولكنه لم يتكلم ، نائم ، أو ميت أو حجرى ، أو لا وجود له .

اشتريت بنصف جنيه سودانى رغم اعتراض أم عصام . ولم يتكلم أحد ، حتى الصبى لم ينظر إلىّ وهو يناولنى الكيس .

قالت أم عصام ، لا أحد يعلم ، مثله آلاف فى كل مكان ، أنت لم تر شيئا من وجهه لا أنفه ولا عيونه ، وأنت لم تكلمه ، لماذا تظن أنه هو .

كنت واثقا ، ولم أكن راغبا فى استمرار الحديث .

عندما وصلنا إلى الشقة كان طعامنا باردًا . ولم يكن للأشياء نفس المذاق ، أيقنت أن رحلتنا معًا قد انتهت . نامت مبكرة . واستيقظت أنا قبل الفجر ، وغادرت الشقة والأسكندرية بعد أن تركت لها أوراقا نقدية فى مكان نصف ظاهر .

سألت نفسي فى الطريق : هل كان يجب أن أترك لها أكثر ، ولكننى حسبتها وقلت هذا يكفى ، فهو أجرى عن العمل بالجامعة لمدة أسبوع .

ودخلت القاهرة – ظهرًا – منتصرًا ومهزومًا .

الفصل الثالث

حادث خلف الكلية

الانتصار والهزيمة معا ، متلازمان ، وقد عذبني وأقلقني ثم أراحني أن أفهم هذا . أنا لا أتحدث عن العدوان أو النكسة أو العبور ، ولكنني أتحدث عن حالي ومالي وعلاقتي مع الحياة .

عندما رقدت على السرير أراقب شيش البنسيون ،وضوء الظهر العالي يخترقه ، تأكد لي أنني أوغلت كثيرا في صحراء الوحدة ، وأنني ملاق مصرعي عطشا لا محالة . وإن كل أشيائي التي أمتلكها وأقتنيها سوف تطفو حولي وأنا وحدي أغرق في رمال ناعمة ، بينما كل من عرفت في حياتي من رجال أو نساء يتحلقون في حلقة بعيدة ، ويضحكون عليّ في أكمامهم .

صرفتهم جميعا وخلا ذهني من الأشباح ، ليست نقودي هي التي تفصلني عنكم ، ولكنه استياء .. وقرف منكم ، ومن حالكم وجهلكم ، وقلة حيلتكم ، وهوانكم على أنفسكم ، وهوانكم على الناس ، أصاحب الآن من هم أحسن منكم : الموت ، الجنس والجنون ، السندات ، والحصص ، والأسهم ، والشقق والأرض ، الودائع المغلقة ، حقائق الأرقام وأرقام الحقائق نقودي : الجن القابع في قمقم ، أخرجه وأدخله ، أضاجع به واقعكم المستباح .

لكن فوق قلبي دمعة ثابتة لا أفكر إلا بمنطق الأحزان حتى الجنس لم يعد يصفيني ، أو يرفع ما فوق صدري من أدران بل صار يزيد إحباطي وتحسري على الفحولة الذابلة ، لن أجد في الدنيا امرأة قادرة مثل أم عصام . بعد الجنس تهجم عليّ فكرة الارتخاء والعجز الجنسي ، تشغل ذهني قبل الطلاق وبعد الطلاق ، أفكر فيها وأخلصها بحسرة عامة ، وضيق متعال على الحياة ولكنها غالبًا ما تغلبني وتهيل على رأسي ترابًا .

قرأت القرآن كثيرًا في الغربة ، وصليت في وطني الثاني ، وحدي وفي الجوامع والشوارع في الفجر ، والعصر ، ووضعت في شقتي الخالية ،

بعد رحيل الأولاد ، سجادة صلاة مزركشة ، ومصحفًا كبيرًا على كرسى خشبى ، واقتنيت كتب أوراد وأدعية ، وغلفتها بأوراق خاصة ، وأخفيتها عن عقلى وعن الزوار ، وعلى الرغم من كل شىء فإن الدمعة الثابتة على قلبى لا تفارقنى ، ومنطق الأحزان لا ينجاب .

على الرغم من كل شىء فإننى كثيرا ما أشعر بأننى مشرك ، كافر فى قلبى ، مطرود من رحمة الله .

* * *

لقاء الأربعاء عند يحيى الكيال دائما لقاء كبير ، يضم أقطابا ومعلمين كبارًا فى كل شىء وفى كل حرفة ، وكل رذيلة ، تقال فيه آخر الشائعات ، والحقائق ، وكل الأفكار المدمرة ، والأحلام المحبطة ، فضائح الحاضرين والغائبين ، وأحزانهم ، وبلاهاتهم ودناءاتهم الصغيرة والكبيرة ، وغالبا ما ينتهى الليل ، بأن يتعرى واحد منهم ، أو يرقص ، يغرق فى بكاء .

كنت أحب أن أشهد هذه اللقاءات وإن لم أحسب عضوا ثابتا فيها ذلك لأننى نادرا ما كنت أجلس معهم على مائدة القمار كما أننى لم أعرف أبدا كيف أشترك ، أو أساهم فى الجلسات مساهمةٍ مادية مؤثرة .

صداقتى التاريخية القديمة ليحيى الكيال ، هى تأشيرة دخولى الوحيدة لهذا اللقاء ، وهى فى الحقيقة مقصدى من التردد عليه ، وإن كان نادرًا ما أستطيع أن أتبادل معه حديثا منفردا . أريد الليلة أن أكلمه ، وأن أسمع بعضا من حكمته البلهاء ، التى يصوغها صياغة متقنة ، فأحفظها عنه ، وأرددها لنفسى فى لحظات غربتى الفاجعة ، لذلك أخذت معى بعض أكياس الفاكهة ، وخمرة مصرية مما يشربون ، ورغبة فى أن أسكر وأراقب وجهه المستقر الراضى الذى يحملنى إلى زمن عذب قديم .

إنه يسخر منى ، ومن نقودى ، ومن رحلتى المجدبة فى الحياة ، لكنه فى النهاية يعطف ، ويفهم ، ويسمع إذا تكلمت .

غالبًا ما يكن مشغولا طوال السهرة بالقمار ، والقمار هو الرذيلة الوحيدة التى لم تجد لها مكانا فى نفسى الضعيفة ، لا أحب بناء قصور على رمال . أكره الرمال ، والقمار ، واقع مزيف ، مصنوع ورق أزازْ تخمشه أصابع قطط ، كلما تعلمت ألعابهم نسيتها ، تستغرقنى الوجوه والمشاعر ، تبدو قواعد اللعب وضربات الحظ كأنها نكت سخيفة متتالية .

قلت له : اترك الورق قليلاً ، ودعنا نتكلم .

ضحك وقال : قل .

لم أقل - طبعا - حتى انفض السامر ، وجلس هو بين أطباق وكئوس فارغة كأنه بدوى قديم يبحث فى تحويل النحاس إلى ذهب . قال لى : اذهب إلى وطنك الثانى ولا تعد ، لم يعد لك شىء هنا . أو أقول لك ما هو أحسن اختر لك وطنًا ثالثًا هناك سيتحقق حلمك ، وستجد نفسك الخائرة .

لا مبارزة وسيوفنا صدئة ، عندها يستوى المكسب والخسارة ولا يصبح لأى لعبة بريق . إنه كالحمار لا يعرف ما بى .

يقول كما يقول غيره ، ولا أجد دافعا لكى أرد عليه يقول : أنت تجمع النقود ، وأنا أعرف كيف أصرفها ، لا أقول كما يقول الناس : إنك قد تغيرت ، ولكنك كنت دائما هكذا ..

شنقت نفسى حيًا أمامه ، وهو لا يريد أن يرى سوى لسانى الطويل ، لا أحد يسأل عن تسرب الحياة قطرة بعد قطرة .

أوجاع الغربة كيف يعرفها هذا التيتل القابع فى مقعده من المساء إلى المساء ، يفتى فى كل شيء ، بالحق والباطل ، ويراقب الولد والبنت والشايب ، ويجرع كل أنواع الخمور ، فى يقظته المخمورة الكاذبة غياب عن حقائق الدنيا . يعيش بعيدا عن الموت المجانى تحت أثقال القهر ، وركام الفقر والإهانة ، وسقوط الأطفال تحت عجلات دوارة ، وانتفاخ البطن وسقوط الشعر من الجوع والجفاف .

استبدل الدنيا بغرفته هذه ، والمائدة والكأس وأطنان الكلام . أغلق بابه ونوافذه وما زال يتحدث عن الأرض والبشر والسماء .. وما زلت أنا أسمع .

بعد سنوات قليلة من الإعارة طلب منى قرضًا كبيرًا ، لكى يترك العمل الحكومى ، ويشترك مع صديق له فى مصنع صغير للملابس الجاهزة . ساعده القرض كثيرًا فى إنشاء المصنع ، وتولى صديقه العمل ، وهو يشرف فقط ويدير ، ويقدم الفتاوى والآراء ، هو الآخر لا يفعل شيئا ، هو الآخر – مثل كل الناس – زائد عن الحاجة ، وغير ضرورى ، ولا لزوم له ، صار العمل يدير نفسه ، ويأتى برزق وفير . بعد سنتين أو ثلاث رد القرض على أقساط ، وعرض أن يدفع فائدة . الحمد لله اننى لم أقبل ، وظل يحمل لى امتنانا خاصا ، وظللت أشعر بأن لى فى مشروع حياته نصيبا ، يكاد أن يكون هو الشخص الوحيد الذى دخل معى فى معاملة مالية وخرج سليما . كلهم يتخاذلون . ويتساقطون ، أو يكذبون ، أو يتهربون ، وبعضهم ينتهى به الأمر إلى أن يتهمنى فى ذمتى أو مقاصدى .

تركته قرب الفجر ، بعد أن خفت بريقه ، وقال كثيرا من الحكم عن الحياة والمال والجنس ، وجاملنى قائلاً إنه لو استطاع السفر لزارنى فى وطنى الثانى . إن أعماله – حقا – لا تتطلب منه الآن جهدا ولكنها تتطلب وجوده ، وجوده هنا ضرورى .. هكذا يعتقد هو .

نزلت ، وتركته لوجوده الغائم .. الذى يتصور هو أنه ضرورى . وقلت لنفسى هذا آخر لقاء أربعاء أحضره .. على الأقل هذا العام .

* * *

لأن هناك صحفيًا نشيطًا اشتهر اسمه منذ سنوات ، أخذ يكتب فى الجرائد والمجلات القومية وغير القومية فى الداخل والخارج ، فقد أضفت إلى اسمى لقب العائلة « فكار » فى الحقيقة لم أكن سعيدًا بذلك ، فهو اسم ثقيل فى سمعى وفى قلبى . كنت أتمنى أن يظل محبوسًا فى حسابات البنوك والعقود والحجج الرسمية ، ولكننى أضفته فى النهاية كما أضفت فى البداية حرف « الدال » . لكى يتأكد أننى شخص آخر غير ذلك الصحفى المناضل ذى الألف وجه .

ومع ذلك كان السؤال يتردد آلاف المرات ، من أشخاص أقابلهم صدفة فى غربتى الخاوية ، هل أنت منير عبد الحميد الذى قال ... هل أنت منير عبد الحميد الذى كتب .. وكنت غالبًا ما أجيب بغضب وضيق صدر . لعنة الله على الزمن الذى يتشابه فيه البقر . ما أجهلهم من دواب مطلوقة فى أرض مرعاها قليل .

كنت أحاول الخروج من شوارع جاردن سيتى ، قاصدا المنيرة ، لكى أصل سيرا إلى وسط البلد ، وألوذ بالبنسيون مكانى الوحيد .

أعرف هذه الشوارع ، ولكنها ليست هى ، الليل ثقيل ومخاوفى كثيرة ، ومع الظل ينحسر ويمتد ، يذهب عقلى كل مذهب ، البيوت القديمة لا أتعرف عليها ، ومعالم حبى القديم لا وجود لها .

هذه دار العلوم مكانها حديقة مغلقة .. وأكشاك معدنية ملون . أتحسس أوراقى فى جيبى ، وجواز السفر ، ويذهلنى الزمن الذى مر .

طوال عمرى أخاف من السير ليلاً دون بطاقة ، فهل يغنى جواز السفر عن البطاقة ، كان من المفروض أن أكون مدرسًا هنا وأستاذًا ، وصاحب كتب وأفكار .. ولكننى أقف بدلاً من ذلك أمام السور الحديدى ، أراقب المقاعد الخالية ، وزهورًا حمراء تحت نور مسرحى أصفر غريب ، حديقة مخططة مرسومة ، حلت مكان القلب ، مكان المبانى الخشبية الشامخة المنقوشة فوق عينى وروحى .

أى الأحلام قهرت ؟ و أى آمالى تجاوزت ، أكمل لحظات العمر كانت ألم وسعادة ذلك الحب القديم . من بعده راقبت كل المشاعر وتفتتت فى يدى كل اللحظات . كنت أيامها طالبًا فى آخر سنوات دار العلوم ، وكان الحب يبدو لى قديمًا خالدا وكأنه الحقيقة الأولى لم يكن لؤلؤ اليابان الصناعى قد اخترع بعد . كان هنا لؤلؤ حقيقى إلى جوارى فى تجارة عين شمس .. أراها صباحًا ، وظهرًا ، وأحيانًا قبل قدوم المساء .

أجتهد ، وأعرق ، لكى ألمس أصابعها صدفة ، أو كتفها تحت قماش الحرير ، كنت أكتب لها شعرًا فى خطابات . خطابات فيها أحكام وقضايا وتحديد مصير .

أين أوراقى هذه الآن ؟!

وهل تصبر هى الآن على قراءة مقالة واحدة من مقالاتى الأخيرة فى مجلة « الوطنى » أو دراساتى فى مجلة « الأفكار الحديثة » أو حتى « حارس الحدود » . مازلت أقول نفس الكلام ، ولكننى الآن أبحث فى غزل المعلقات وفى أغانى وأصوات القرن الرابع الهجرى ، ولا أتحدث عن عيونها ، أو ارتباط الكون بوجودها ، أو وجودها بنظام الكون .

داست هى كل شىء بكعب حذاء غال من جلد التمساح ، لم يكن عندى ما أدافع به عن نفسى أو أثبت به وجودى .

يا لحمق أيامى القديمة ، وحمقى ، كم ليلة سافرت من غرفتى العارية فى مصر القديمة ، إلى حديقة بيتها القصر فى قلب المعادى ، وكم ليلة رجعت سائرًا ، أفتل من عيونها ، وخيوط ثيابها ، وصوتها ، قصائدى الفاشلة ، التى سدت سقف حلقى ، وغيرت طعم حياتى فى فمى .

أيامها .. كانت أيام حزن الشاعر صلاح عبد الصبور ، حزنه الشفاف المستورد الأنيق وأيامها .. كانت : أحلام عبد الناصر التى صنع كل منا لنفسه منها ثيابًا .

تعطرت لها فى تلك الأيام برائحة كفر شوق ، قريتى ، بكل المنيا وكل الصعيد ، وتعطرت لى ، نعم تعطرت لى ، بسحر طبقتها الأخاذ ، أحبت الفلكلور ، وعلمتها كيف يكون الموال ، وكيف تسمع أغانى الصعيد ، كان هذا هو الخلاص الوحيد من صعوبة الواقع ، ومن العجز عن الاقتحام ، وعلمتنى أن أنظر فوق السود ، وأحلم بها فوق سرير مستدير ونافذة زجاجية عريضة تطل على بحر وشجر ، كنت فقيرًا رومنتيكيًا وكنت أعلم ذلك وأعلنه ، وأحبه ، وأرى كل شىء ممكنًا . أشياء كثيرة تقع وتحدث وتتحقق ، ورحلتى من مصر القديمة إلى المعادى تحمل هذا المعنى ، لا شىء يعوق خطواتى فى قلب البيوت أو بجوار النيل ، أشعار وقصص ومسارح تشغل الأحلام وتؤكد الوهم، وتمد جسرًا معلقا جميلاً بين كفر شوق التى تسكن تحت ملابسى الداخلية وبين بيتها القصر فى قلب المعادى .

فجأة اقتحمت مجموعة من الكلاب سور الحديقة ، وانتشرت كثيرة متقافزة فى كل ممراتها ، رقدت أنثى وتمرغت فوق الحشيش الأخضر ، بينما تحلق الذكور حولها فى تأهب ، قضى أحدهم حاجته فوق الزهور ، تركها ليجرى مبتعدًا وكأنه عرف مقصده . تحركت أنا الآخر مبتعدًا وأنا أستعيد فى

ذهنى بصعوبة ما حدث يومًا ما خلف الكلية . بعد أن انتهت الدراسة . كنت أنتظر التعيين كمعيد فى الكلية ، وكانت كل الأوراق قد اكتملت ، وأصبح تعيينى أمرًا مؤكدًا . كنت قابضا على يديها . كفاها فى قبضتى . كانت تتألم وتريد أن تتخلص . ولم أكن أعى تمامًا ما تقول : لم يحدث شىء .

كانت سنوات زمالة طيبة . من الأفضل ألا أحتفظ بأوراقها .. وهى ستجمع لى أوراقى ، تمت خطوبتها منذ أيام .. أيام .. وما حدث كان يجب أن يحدث . زاد ضغطى على يديها .. وأنا أحدق فى وجهها الذى بدا شمعيا أصفر ، ومن ورائها قرص الشمس يلهب رأسى وعينى . كنت أشم رائحة عرقى قوية نفاذة تملأ خياشيمى .. وأنا أحدق فى السلسلة الفضية السميكة التى تحيط برقبتها ، ظلت تتكلم وأنا أحدق فيها ، طعم مر جاف فى فمى .

عندما صرخت .. مجنون .. حيوان ، اندفعت نحوى عيون كثيرة وأحاطت بى . ورأيت أيدى كثيرة تمتد لكى تأخذها من أمامى ، واستمرت هى تتكلم وأصوات أخرى كثيرة تحملها بعيدا عنى . ولم يلتفت أحد ساعتها إلى وجودى .

* * *

كان علىّ أن أعد مقالاً جيدًا لكى أنشره فى صحف أو مجلات القاهرة أثناء أجازتى هنا . النشر فى أقل مجلات القاهرة شأنًا يساوى الكثير .. أنا فى العادة لا أتقاضى أجرى ، فهو لا يشترى جوربًا أو قيمصًا ، ولكن من ينشر هنا علم ، وصادق ، ومهم .. ولا أدرى لذلك سببا ..

لهذه المقالات التى أنشرها هنا فى القاهرة ، تأثير السحر هناك فى وطنى الثانى ، أجد أثرها فى مكاتب الجامعة ، وعند رؤساء تحرير المجلات الأدبية والثقافية الكثيرة التى تصدر هناك ، حيث يبدى بعضهم رغبته فى إعادة نشرها

عندهم بعد تعديلات طفيفة ، أجريها . وبعد النشر يأتى أجرى ، عشرة أضعاف الأجر المفترض فى القاهرة . كنت أرى المقال مطبوعًا هنا على ورق مصقول ، وقد روجع ، وخلا من الأخطاء ، وزين بالصور والرسوم . لكننى أشعر بأن النشر قد حقق غرضه بمجرد النشر . أرى الكلام باهتا مكدسًا ، كأنه لا يعنى أحدًا ، كما أفاجأ كل مرة بأن أحدًا لا يقرؤه ولا يحدثنى عنه .. ولا يهتم به .. كأنه قد نشر فى مقبرة لامعة .

كان الوقت صباحا ، وقد طلبت من عمال البنسيون أن ينكروا وجودى حتى بعد الظهر لكى أفرغ من أعداد المقال ، أقول إعداده لا كتابته . فأنا لم أعد أكتب ، خمسة أو ستة مراجع ، مع كراريس محاضراتى ، وأبدأ فى تركيب المقال ، أفكار من هنا ومن هناك ، أهتم جدًا بالبداية ثم الخاتمة .. أما باقى الكلام فهو « مضغ لبان » أو « كلام ساكت » كما يقول أهل السودان . هناك محاذير كثيرة للوصول إلى الكتابة الناجحة بمحانير تعلمتها ، وتعودت عليها ، اعتبارات جعلت من الكتابة شيئا آخر غير الكتابة التى كنا نعرفها . فليس مهما أن تقول شيئا جديدًا ، أو لامعا ، ولكن المهم أن تقول كلامًا فخم المظهر ، ليس فيه فكر عميق ، أو اقتراح بالتفكير ، المهم أن تسير المقالة دون أن يعترض عليها كبير هنا أو صغير هناك . صارت كتابة هذه المقالات حرفة مستقلة وصرت أتقنها : واحد من الأساتذة القلائل الذين تبدو مقالاتهم وكأنها فتح جديد أو إضافة ، بينما هى فى حقيقتها كلام ممضوغ رش على وجهه بعض السكر ، ولا يقول شيئا ، أعود بعد أن أفرغ من المقالة لكى أخفى الاقتباسات الطويلة ، وأنسب القصير منها إلى نفسى من باب التسهيل على القارئ ، وعدم التعقيد ، ثم أضع فى النهاية أسماء مراجعى الحقيقية وسط مراجع كبيرة أعرفها .. وان لم أكن قد استعملتها .

على الرغم من معرفتى للطريقة فإن كتابة المقالات مازالت بالنسبة لى عملا صعبا يرهقنى نفسيًا وعصبيًا .

مرة أخرى أغلقت شيش البنسيون لكى أبعد رماح النور عنى ، وأحتفظ فى رأسى بهذا الدوار الخفيف الذى يفصلنى عن الواقع ، ويجعلنى قادرًا على أن أخط بعض الجمل التى تتناغم وتعطينى وهما ضروريا قديما بأننى أطرح فكرى أو أبحث عن مستمع ، ودائما ما تستغرق المقالات منى وقتا أطول مما أقدر ، فتحت ظلها يسرح ذهنى ، وتقتحمنى كل المشاهد القديمة والذكريات .

أكبر عائق عن التركيز والإنجاز هو ذلك المنظر الذى يفرض نفسه بلااستئذان :

كفر شوق ، والكوبرى على المحطة من خشب وحديد والشجرة العجوز التى ينكسر عليها وتحتها ضوء النهار ، أصرفه من ذهنى فلا ينصرف . ويأخذنى ، أو يأخذ جزءًا مهما منى ، بعيدًا عن الكتب والمراجع ، وعن الكلمات التى أخطها ، يأخذنى لكى أبقى ولا أعرف كيف أعود . صبى فى الحادية عشرة والثانية عشرة والثالثة عشرة . ثلاث سنوات أمضيتها فوق هذه المحطة وتحتها مع رجب بائع الدوم والجوافة ، والأساطير ، والصور المعلقة وراءه ، عن أبو زيد ومارى جرجس ، وعنتر والخضر وليلى .. يفرش البضاعة بالنهار ، ويلمها وينام إلى جوارها بالليل .. تنزل من حوله ذرات الغبار التى ما زلت أشمها فى أنفى ، ثم تهدأ وتنبعث رائحة جديدة بعد أن يرش حوله الماء مرة فى الصباح وأخرى قبل العصر ، كان يجلس فى مواجهة ميدان كبير مترب ، تبدأ من بعده البلدة ، ولكنه كان يستقل بقطعة الأرض حوله يرشها بالماء ويحيطها بقماش الخيم جاعلاً الشجرة العجوز بينه وبين الشمس ، كنت أقيم إلى جواره أغلب النهار ولا أنصرف إلا ليلا خشية عقاب البيت ، الذى يقع بعيدًا فى الناحية الأخرى من البلد .

عندما أعود قبل آذان العشاء ، يسألني أهلى وأخوتى : هل مازال رجب يأكل دماغك . وأعود أسألهم عن حكاية الكهف والكنز والديك وهل حقا يأتى إلى البلد كل عام ذلك البدوى المغربى الرحال .

أجمع إجاباتهم المحفوظة المرتبة وأضيفها إلى حديث رجب ، الذى يأخذنى إلى قمة الجبل ، يدخلنى إلى عمق الكهف حيث الذهب والظلام والثعابين والمخاوف ، وأغضب عندما يقولون إنه مجنون وإنه يفسد عقول العيال ..

كل ليلة أعيد ترتيب الحكاية . رجب دائما يدخل عليها تفاصيل جديدة ، عن مكان الكهف ، وعن الأنواع الموجودة فى الكنز ، أحجار لم أسمع عنها من قبل ، وألوان لا أستطيع أن أتخيلها .. ولكنها غالية الثمن جدًا ولامعة براقة .

وعندما يتحدث عن البدوى المغربى الرحال ، وبخوره الذى يفتح الكنز ، وعن الأسرار التى يعرفها لفتحه وإغلاقه ، وعما يحدث بداخله .. لم أكن أعرف هل يتحدث عن ملاك أو شيطان ؟ هل يحبه أو يكرهه ولكننى أنا كنت أحبه ، وأتوقع قدومه ، عندما يطول غيابه فى الواقع أو فى الحكاية .

سيأتى الآن قبل أن تموت المرأة الطامعة الطماعة التى دخلت الكهف ، ولكنه لا يأتى ، بعد عام ولا يأتى . المرأة التى دخلت الكهف قد تحولت بالتأكيد إلى جمجمة ، وبعض عظام . عندما جاء بعد غياب طويل دخلت ابنتها بعود البخور تبحث عنها وعن الذهب لم تجد سوى رأس أمها الجمجمة ، والمنديل إلى جوارها والعقد الأصفر والخلخال ، ولم تر ذهبا ولا كل تلك الأحجار البراقة ، عندما خرجت البنت كانت عمياء مجنونة ، تحكى ما شاهدته ، ذاهلة عن أهلها ، تسير مسلوبة الإرادة خلف البدوى المغربى الرحال ، تردد بصوت منخفض

نداءه عن الكنز والبخور والديك والذهب كانت تقلد الديك ، الديك البلدى الملون الذى يوقظ الموتى ويحيى العظام وهى رميم .

الحجرة مازالت تتمتع بنور هادئ ، ورماح النور و ضوضاء القاهرة بعيدة . والمقال مازال يكتب نفسه ، منهج البحث التاريخى بين أحمد أمين ، والمستشرق آدم متز ، مقارنات محسوبة بين من يعلم ومن يشعر ويحس . أحمد أمين كان موضوع رسالتى للدكتوراه . أحبه ، وأعرفه وأخاف منه ، أتجنب جمله الكاشفة الخطيرة ، وألوذ بذلك الجزء العملى الواقعى من فكره . أعيش عليه . لو أنه كان حيا لرمانى بالحجارة كأننى امرأة زانية . لكنى أتحدث عنه بتبجيل واحترام متخفى مهيب .

لم يكن رجب يحكى لى قصة الديك وحدى ، كنت أنا المستمع الأول ، ولكن كان يأتى أحيانًا « صافى » صبى الميكانيكى ، الذى يعمل فى دكان العربات الوحيد ، الذى فتح مؤخرًا على الطريق السريع كان يأتى هاربًا إلينا من الأسطى والدكان ، ويسأل رجب أسئلة كثيرة متلاحقة ، ويستفسر كثيرًا عن الوقت ، واللون والمكان ، ويسأل متى صعد ، ومتى نزل ، ثم يستفيق من الحكاية فجأة ، مدركًا أنه تأخر على الأسطى والدكان ، فينصرف مسرعًا ، مؤكدا أنه سوف يعود بعد قليل . عندما يجمع رجب أشياءه ، ويستعد لقضاء الليل جنب بضاعته تحت رصيف المحطة كان يقول لى وهو يصرفنى : « اسمع » أو لا تسمع .. لقد ابتلع الكهف زوجتى ، وذهب ببصر ابنتى وعقلها ، أنت و « الصافى » تعرفون كل الحقيقة ، وكل التفاصيل ، يومًا ما سوف ترون الكهف ، وتصدقون رجب . سيكون هناك ذهب وأحجار لامعة وجماجم ، وستقوم البلد وتقعد بحثا عن ديك بلدى ملون ، يرقص مذبوحا فيخرجكم .

كانت المقالة قد اكتملت . عشرون فلوسكابا عندما تكتب على الماكينة أو تزيد ، أضفت اسمى كاملاً : د. منير عبد الحميد فكار ، وأضفت تحته : القاهرة ٨٨ .

* * *

يتكرر هذا اللقاء كل عام ، ولا أعرف أبدًا لماذا أذهب إليه ، ماذا أخذ منه : لقاء الزملاء ، أساتذة القسم فى القاهرة هنا . نعد له من أول الأجازة ، ويشترك الجميع فى دفع تكاليفه الظاهرية ، يتأجل مرات ، ويعاد ترتيبه مرات ، مرة تحضره الزوجات ، ومرة لا يحضرون .. يعقد مرة فى مكان عام ، ومرة فى بيت واسع من بيوت الأساتذة الذين أنهوا الإعارة واستقروا هنا .

ولكنه ظل دائما من أصعب أيام الأجازة وأثقلها على قلبى ، رغم أننى فى هذا اللقاء عضو قديم ، أكثر من عشر سنوات إعارة ، يعتبر الواحد منا خبيرًا ، مليئا ، ومرجعًا فى المشاكل ، ومطمعا خفيا لنساء ورجال باحثين عن عقد عمل ، أو علاقات ، أو بعض النقود ، أو على الأقل معلومات تساعد فى الوصول إلى أى من ذلك .

فى البداية كنت أحب العرض الذى أقدمه فى هذا اللقاء ، حضرته معى منذ سنوات ، زوجتى الدكتورة سناء فرج ، كنت أنسج حولها قبل اللقاء كل الخيوط .. وعندما كانت تخترق قواعدى ومنطقى ، كنت أضحك بصوت عال ، لكى أؤكد جنونها ، وعدم معرفتها بقواعد اللعبة والحياة .

لعلنى صرت أكره هذا اللقاء من الذكرى السخيفة التى كانت تعقبه دائما عندما تكون هى معى ، كانت تعود إلى البيت محبطة ، يائسة ، لا تريد أن تأتى إلى السرير ، ولا تريد أن تشرب ، تريد فقط أن تجلس أمامى لكى تحاكمنى ، وتقارن بين هذا وذاك ، بين المال ، والمشاعر ، وما حدث لنا وللبلد ، وما حدث

فى أخلاق فلان وفى سلوكه ، وكيف صار يتكلم هكذا .. وكأنها هى تريد أن تقف خارج كل شىء ، متعالية لا يعنيها شىء ، لا تريد أن تأتى لفراشى لكى ندفن توترنا معًا ، بعيدًا عن الوطن الأول ، والوطن الثانى .. بعيدًا عن مصير الأساتذة . ومستقبل الأولاد .. فأسهر وحدى ، أراجع حساباتى فى اجتهاد وتواضع وخوف ، مدركًا ما دفعت ، وما يجب أن أدفع حتى أصل فى النهاية إلى رقم محترم يبعث فى نفسى الأمان .

الليلة نلتقى ، « أساتذة القسم » تحت سفح الهرم ، رجالاً فقط ، هذا مجاملة لى ، مراعاة لظروفى ، الليلة على أنا أن أدفع الحساب كاملاً هكذا قرر الدكتور رئيس القسم فى هزار سخيف على التليفون .

ذهبت مبكرًا عن الموعد بساعة لكى أتفق مع الجرسون على العدد والطعام ، وعلى البيرة ، والنبيذ ، وعلى زجاجة الويسكى التى تقدم فى الوقت المناسب ، كانت النفقات مزعجة ! من يصدق أنك تنفق كل هذا على مائدة طعام فى القاهرة !

أخذت معى بعض الجرائد والمجلات التى وجدتها فى الطريق ، نادرًا ما أشترى صحفا فى القاهرة . قلبت الجرائد والمجلات باحثًا عما يمكن أن يتكلموا فيه ، وما يمكن أن يثيروا حوله نكتًا أو مناقشات صرت حقا بعيدًا عن هذا المكان ، أستغرب ما أقرأه وأقارنه دوما بأشياء قديمة . تستهوينى صفحات الجرائم والبخت . أكره المقالات والتحليلات والتعليقات ، والاستعراضية عند كتاب الأعمدة ، أبحث فى الجريدة عن حقيقة واحدة فلا أجدها .

تقاطر الجميع على المحل ، ولم يتخلف أحد ، وأختلطت وجوه جديدة جائعة ، مع ثوابت عريقة قاعدة ، ظل جرسون المحل يخدمهم جميعا ، وهم يتكلمون فى السياسة ، ويطلبون أنواعًا من الطعام والمزة ، وأنا أبتسم مؤكدًا

أننى أفهم ما يعنون ، وسأدفع ما يطلبون . كان علىّ أن أهتم أساسًا بذلك الكاهن الأبيض الكبير الذى أجلس نفسه على رأس المائدة .

عرفت بسرعة مطالبه ، وأسماء الأساتذة الذين يريدنى أن أتصل بهم ، وحددت مواعيد لكى أستلم منه الخطابات والأوراق التى يريد أن يبعث بها إلى هناك ، كما لفت نظرى لما تطلبه منى زوجته والأولاد بحق العشرة القديمة والعشم ، استأذنته قليلاً لكى ألتفت إلى الدكتور الصبى الجديد الذى أشيع عنه أنه مندوب المباحث أو المخابرات ، وأن مستقبله فوق ، فى رئاسة الجامعة ، أفاض الشاب بلا مناسبة فى تحليل الموقف السياسى . والعلاقات العربية ، وتترس خلف أقوال محفوظة خائبة عن العلاقات الطيبة ، والتبادل الحقيقى ، وعندما تكلم عن المشكلة الفلسطينية والتطبيع أحس الجميع بالخطر ، وانتقل الحديث إلى المرتبات والبدل وفروق العملة .

كنت أحب أن أرجع فى كلامى دائما إلى إذاعة لندن ، وكنت أجد دائما فيما سمعته فيها أمس شيئًا جديدًا يفاجئ الأيديولوجى والمتحمس وصاحب النظر القصير .

ولكننى رجعت فى تلك الليلة إلى مقال هام قرأته فورا فى جريدة معارضة عن التعليم ، وعندما أزاح الجرسون الأطباق وجاء بزجاجة الويسكى ، أطلقت ذلك الرأى الذى قاله كاتب المقال وأفضت فيه فبهت الذى كفر .

انسحب البعض شاكرًا ، وبقى البعض لكى يشرب ، وأخرون بقوا مجاملة ولكى يشهدوا نهايات اللقاء ، بعد ساعة جمعت أطراف الحديث ، وعدلت من سكر ، ودفعت الحساب ، وسكنت جميع الأطراف فى سيارات تحملهم إن لم يكن إلى بيت فإلى أقرب مكان .

وقال لى الدكتور « نظير » وهو يرافقني في السير قليلاً فى شارع الهرم حتى نجد تاكسيًا يقلنا معًا إلى قلب المدينة .

– ليلة رائعة يا دكتور .. ولكن لو كانت الدكتورة معنا لجاوزنا عنان السماء ، أين هى يا دكتور ؟ وأين الأولاد ؟ أجبته وأنا أكاد أطبق على رقبته .

– أكلتهم يا دكتور نظير ، أكلتهم . ألا ترى دماءهم على صدرى وأسنانى وفمى !

الفصل الرابع

قطة من الحى الأفرنجى

نعم ، فى أول السنة الثانية من الإعارة ، ماتت أمى ، وفى أجازة آخر نفس السنة تزوجت أنا الدكتورة سناء فرج . حصولى على أجازة بمناسبة الوفاة كان أول امتحان حقيقى لعلاقاتى ، فهمت كيف أعامل وأتعامل .

للعلاقات فى الوطن الثانى قواعد وقوانين تعلمتها ، فعلمتنى أن أكون واحدًا ، أو اثنين ، أو ثلاثة ، أو أربعة عندما تقتضى الظروف ، فهمت شكلاً جديدًا للعلاقة بين الوسائل والغايات ، وتدربت أن أضم صدرى على مشاعرى ، وأن أظهر للناس دائمًا بشكل ناجح جديد ، كنت فرحًا مبهورًا بالنقود التى أقبضها ، أحصيها ، أجمعها ، أضربها فى سعر التحويل ، فتبدو لى نقودًا مصرية هائلة ، تنقلنى إلى صعيد آخر ، وتضعنى فى ساحات لم أدخلها من قبل ، كان على قبل كل شىء أن أتماسك ، وأن لا أبدى فرحى أو انبهارى ، بل أدفنها تحت قشرة من التعالى والتبرم والضيق بأحوال الدنيا عموما .

كانت وفاة أمى ، وزواجى الذى تم بحساب تصورته دقيقا ، بدايات انطلاقى إلى مدارات الفراغ الذى أتنفسه ، فقدت تدريجيًا صلتى الحقيقة بالأشياء والمعانى . تم كل شىء قطرة قطرة ، وتسربت دمائى مع الشهور والسنوات ، شربتها الرمال التى تفصل وطنى الأول عن وطنى الثانى ، وتساوى ما أحبه مع ما أكرهه ، وخضعت الأمور لمقاييس جديدة ، صرت إناء أجوف يرتدى بدلة جديدة وقميصا أبيض .

بعض تقلصات فى أمعائى ، ورغبة شديدة فى إخراج بعض غازات بالتجشؤ أو غيره طعم موت فى فمى ، أشم رائحته ، وأرى روحى تخرج من

أنفى ، وتختبئ فى أقرب مكان كصرصار مرشوش بالبودرة .. لكن فى النهاية تتغير ملامح وجهى ، يصبح جلدى مشدودًا شمعيًا بلا روح ، يخاطبنى الناس فأسمع صوتهم صدى يرن فى داخلى الأجوف .

لم تقلب كل هذه المواجع الآن ؟ لم أنت خائف مضطرب اليوم ، وهذه البرودة والسخونة والسخرية المتتالية فى الأطراف ، والعرق ، وارتباك ضربات القلب والتنفس وزغللة العيون وتحديقها فى فراغ بلا تفاصيل أو حدود . لم يعد حولى تهديدًا خارجيًا أخشاه . صارت نقودى تدافع عن نفسها وعنى ، فمن أين يأتى هذا الفزع الذى يلازمنى ، ويسكن . بين اللحظات .

انتبهت إلى قامته الطويلة تسد الضوء الذى يتسرب إلى عبر زجاج غرفتى فى البنسيون الخالى ، قرب منتصف النهار . كنت أتوقع مجيئه منذ أول الأجازة ابن عمى الفلاح محمود السيد فكار ، هو ابن عمى ، فى نفس سنى ، أو أصغر قليلاً . لم يستمر فى التعليم ، دفع به أبوه إلى الأرض ، بينما أنزلنى أبى إلى تيار التعليم ما زال بيننا شىء خاص ، رغم مكائد البلد ، وصغائر أهلها معى . رغم جلبابه ، ويديه الكبيرتين ، والطاقية النظيفة التى لا يغير وضعها على رأسه ، فما زال بالنسبة لى حكيما متصلاً بشىء لا أملكه ، يصلنى بشىء لم أعد أستطيعه .

لنا يوم أو يومان معا فى كل أجازة صيف أقضيها فى القاهرة ، قديما كان حرًا قويًا ، قادرًا على اقتحام خصوصياتى ، بفهم لا يشترك معه فيه أحد . لكنه صار فى السنوات الأخيرة ، خاصة بعد أن طلقت زوجتى وتركت أولادى ، يستتر وراء عطف وإشفاق على حالى ، يخفى به فزعًا وخوفًا على حياته هو ومصيره .

بقيت راقدا فى فراشى ، بينما جلس هو إلى المنضدة التى أكتب عليها ، يقلب أوراقى وكتبى ، ويستجمع شجاعته لكى يفتح موضوعًا ما ، أراقبه وأنا

أسير اطمئنان إليه قديم ، وألفة اشتاق إليها ولا أحبها . فلاح هو ، وأنا لم أعد كذلك . تعقدت بى الطرق ، وتشابكت الدوائر وتفاصيل ما حدث بينى وبين أهلى ، وقريتى ، وبينه ، قشرة جرح غائر ، لا أعرف متى ولا من ينزعها .

هو وحده الذى أئتمنه على الشيك المحدد الذى أرسله شهريا إلى والدى . يصرفه ويصرف معاش الوالد الضئيل ، ويبقى الأمور سائرة إلى حد ما فى البيت الذى دمرته مشاحنات ، وبغضاء ، وأطماع لا سبيل إلى تحقيقها . أنا لم أعد أستطيع أن أتدخل أكثر من هذا فى شئون تلك الأسرة الكريمة . كلهم طمعوا فى وضعى الجديد الذى صرت إليه ، ولم يفكر فى شئونى أحد ، أخوة وأخوات أنشبوا أظافرهم فى لحمى ، وتصوروا أننى بئر بترول لا تنضب . هم وأولادهم صاروا ينظرون إلى نظرة لا رحم فيها ولا قربى . قدمت كل ما أستطيع : هدايا ، وعطايا ، وقروضا . لكن أحدًا لا يشبع ، ولا أحد يشكر صاروا يتكاثرون حولى بشكواهم . وقضاياهم ، واتهاماتهم لى ، حتى عافت نفسى وجوههم وصرت لا أريد أن أسمع شيئا عنهم . هو يستطيع أن يحسب كم أنفقت ، وكم مشروع خائب اشتركت معهم فيه ، مشاركة على بهائم ، وفى قطع أرض ، وأدوارا فوق بيوت ، عربات أجرة وملاكى ، وسوبر ماركت جديد على الطريق السريع ، ومشاريع وهمية غامضة .

ساهمت فى كل شىء وعقدت عشرات الجلسات العائلية للتفاهم للمشارطة وللصلح . أخذ أخى الكبير ما أراد ، ثم انفصل هو وعائلته وعاش فى أسيوط ، أما الصغير فقد اختفى هو الآخر فى هجرة غامضة إلى العراق ، لم يبق فى كفر شوق إلا أبى ، والبنات وأزواج البنات ، وأولاد وبنات يقولون لى .. خالى .. خالى .. كلهم يتصارعون على البيت القديم ، الذى يكاد ينهار فوق رأس الرجل العجوز الذى كاد بصره أن يكف .

لم يكن محمود ، حتى فى صبانا ، مشاركا فى جلسات رجب عند محطة القطار ، حيث الكوبرى ، والشجرة التى ينكسر تحتها وحولها ضوء النهار ، كان أبوه يشده بعيدًا ، ويمنعه من الاقتراب من هذا المكان ، وظل هذا أهم ما بينى وبينه . لا حلم له ، ولا أفق . ولا خيال بل طين وزراعة وعيال .

فتحت شيش الحجرة فغمرها ضوء باهر . خرجت أنا وهو إلى شرفة صغيرة نطل منها على وسط القاهرة .

أخذنا نراقب سيارات كثيرة تمر تحتنا ، ورجالاً نحسبهم نساء ، ونساء محجبات ، ونساء مثيرات لم نحلم بهن ، وأصواتا عالية تخترق ما كان يحكيه ، فيبتلع ريقه مرات ومرات ، ثم أسمعه يقول :

– عاوز دكتور مسالك بولية يكون معرفة .. وبس يا سيدى مش عاوز منك حاجة ثانية .

أخيرا عرفت الموضوع الذى كان يلف حوله ويدور ، و اطمأن قلبى .

* * *

موعدى مع الطبيب النفسى فى السابعة . كنت فى العيادة قبل الموعد بربع ساعة . كانت العيادة خالية إلا من التومرجى الذى انشغل بقراءة مجلة قديمة فى يده ، وأدار موسيقى خافته استقبلنى فى حياد زاد ارتباكى ورغبتى المستمرة فى الفرار ، أتردد عليه منذ خمس سنوات عقب الطلاق ، فبعد أن انتهت المعارك والمشاحنات ، استقرت الأمور على وضعها الأخير ، لاحظت تردد مجموعة من الكوابيس التى أخذت تزورنى فى صحوى ومنامى ، كنت أتصور أن سناء أخذت شيئا لم نتفق عليه ، لا أعرف ما هو بالضبط ، ولكنه شيء

غال ثمين كنت أخفيه فى مكان لا أذكره . تسيطر الصورة على خيالى ، وتتمكن منى المخاوف ، فأظل أقلب الغرفة التى أنا فيها . أخرج ما فى الحقائب ثم أدخله فى قلق واضطراب زائد ، ولا أعرف كيف أتوقف. كنت أضبط نفس منبطحًا على وجهى أنظر تحت السرير ، أو متسلقا لسلم خشبى لكى أبحث فوق المكتبة ، أو خلف الأوراق القديمة ، يملأ العرق جسدى فى الشتاء أو فى الصيف ، وأحس أن ساقى لا تحملانى ، فأستلقى على السرير ، ويغزونى نوم مضطرب متقطع .

عندما دخلت إلى الطبيب استقبلنى فى بشاشة محسوبة ، كأننى أحمل له أخبارًا سعيدة ، كلما رأيته أحسست أن أصابع ناعمة تلامس جلدى العارى ، وأن برودة تمس قلبى . أشعر بفرح وكأن شيئا خطيرا لا يمكن أن يقع لى وأنا هنا ، ثم تعاودنى رغبة فى الفرار ، ولكننى أتماسك فأنا لست مجنونا تمامًا بعد . لا بل عقلى يزن هذا الجالس أمامى وعشرة من أمثاله .

أعرف تلك البضاعة المغشوشة التى يتاجر فيها ، وذلك الكلام الفخارى الأجوف الذى يدق عليه بأصابعه ولسانه ، فيخرج أصواتًا لها وقع مخدر . كسيجارة حشيش فى الصباح . يزيح مقعده الى الخلف . وتكسو وجهه ثقة بالنفس هشة مزيفة ، ويحدثنى عن متاعب منتصف العمر ، وعن المراهقة المتأخرة ، ويبدى إعجابه بقدرتى على احتمال الغربة وكل المصائب التى جلبتها لى وللأسرة . ثم يحدثنى عن المقاييس العامة ، والمقاييس الشخصية ، وعن التكيف ، والعبء النفسى .

كانت وصفته الثابتة هى دواء مهدئ خفيف فى الصباح وفى المساء ، مع الامتناع عن تعاطى أى مشروبات أو مخدرات ، والالتزام برياضة ، أو مشى

يومى منظم . عندما كنا نتحدث عن زواجى أو طلاقى ، أو أجد رغبة فى الحديث عن الأولاد . كنت أشعر به وكأنه يريد أن يغير الموضوع ، كأنه يقول إن هذه مشاكل اجتماعية خارجة عن دائرة اختصاصى ، وأن علىّ أن أحل هذه المشاكل بنفسى فى إطار المبادئ العامة التى يحدثنى عنها .

أحاول أن أحدثه عن صورة الأولاد التى تطاردنى . تامر ولمياء وقد أمسكا بقميصى ، وهما يصرخان فى وجهى بلا صوت . كل ما فيهما طبيعى ما عدا عيونهما ، فهى من حجارة مليئة بدموع لا تنحدر . أمسك وجهيهما . أهز الوجه . لا أسمع لهما صوتا ولا الدموع تنهمر .

كان يسمع لى وعلى وجهه ابتسامة كريهة . فأتوقف عن الحديث وتستغرقنى الصورة المرعبة ، وأنا مازلت أسمع منه نفس الأغنية القديمة عن أن حياة الانسان كل متكامل ، وأنه يصنعها بمجموعة اختيارات . والاختيارات دائما سليمة ما دامت هى اختياراتك أنت المسالة فى التحمل والقدرة على التكيف . يزداد إحساسى بالأعباء ، وبأنه لا يفهم شيئا . وبأن ما يطاردنى قدر ملعون خاص بى وحدى . وبأن هذا الشاب الجالس أمامى لا يمكن أن يفهم فيما أقول .

أعود أقص عليه قصة النار التى أراها مشتعلة فى أطرافى ، وفى البطانية والمخدة الثقيلة التى أغطى بها وجهى عند النوم فيعود يحدثنى عن ضرورة الحركة والرياضة ، والاستعانة بذلك المهدئ الخفيف لم لا يصرخ فى وجهى أبدًا هذا الرجل ؟ لم لا يرفع سماعة التليفون لكى يبلغ عن مجرم مجنون هارب من وجه العدالة . إنه بدلاً من ذلك يبتسم فى وجهى ، ويضع يده على كتفى مؤيدًا مطمئنا . فأعود أشعر بأننى أسير بهدوء بين صفين من الكباش التى تحدق فى ، وأنا أحدق فيها بحثا عن اختلاف ما فى الوجه أو الملامح ، ومن خلالها تعود

عيون الأولاد مكررة مرصوصة بلا نهاية . ثم نغرق جميعا فى بحر من الخواء . أشعر بأصابعه الباردة ، تلامس جلدى العارى كأنها برص صغير .

على الرغم من أننى كنت أسمع صوتًا فى داخلى يقسم بأننى لن أعود ، إلاَّ أننى كنت أعرف أننى سأعود فى الموعد الذى ضربه لى قبل انتهاء الأجازة .

هنا أجرع كأس المرارة ، وأعرف أنها كأس . هنا لا ينتزع منى شيئا ، سوى بعض جنيهات ألقيها أمام التومرجى المحايد .

هنا لا ينتزع منى شيئا ، بل أحصل على الدعم والتأييد ، ومن أعلى سلطة : سلطة العقل ، والمخ ، والأعصاب ، سلطة الروح ، تنطلى لعبتى عليهم جميعا ، وأحصل على جائزة الشر العالمى ، الشر الحقيقى هو ألا تنال العقاب ، أن تقر بالجريمة وأنت تسمع عبارات التشجيع والتأييد . هنا قد صرت شيطانًا حقا ، شيطانا بارعا جميلا . ثم تستسلم بعد ذلك لما شئت من أحزان . صانعا لنفسك عذابك الخاص وتأنيب ضمير مستأنس طيب ، تتمتع به وأنت تأكل سندوتش زبده بالمربى فى الصباح . إنه يحدثنى عن المقاييس والاختبارات . لا تصفيق إلا لمن انتصر وأنا المنتصر الأخير .

* * *

تعادل حالتى الذهنية فى القاهرة أصبح أمرًا صعبا فى السنوات الأخيرة . حالة الحذر والانتباه واليقظة التى أعيشها هناك فى وطنى الثانى لا تلبث أن تتشقق ثم تتداعى منذ أن تهبط عجلات الطائرة أرض المطار .

ما أن استرد حقائبى وأوراقى بعد الجوازات والجمرك ، حتى أجدنى غارقا فى بطن حبلى بكل الاحتمالات : العاجز ، والقادر ، الممكن والميئس والمستحيل .

صوت شوارعي ، وضوء نهاري . أين أنت من مصر الآن أيها الجرذ المتلصص الحقير ؟ في أي شوارعها تضيع ، وبأي زقاق أو حارة في قلب كفر منها تلوذ ؟ أين أنت من تلك القرى المفتوحة على أرض الله ، حيث الآفاق أوسع من رحمته . أشجار حقولها البعيدة .. رحيمة .. رحيمة ، رحمة لا نهائية ، لا يعيش في ظلها شر أتوماتيكي ولا تسكن إلى جوارها شياطيني البارعة المصنوعة من الورق « الأزازْ » والبلاستيك المصنوع .

تعود إلى ذهني صورتي الأساسية ومنظري الوحيد ، محطة كفر شوق ، جانب منها مطروق والآخر أجرد مهجور ، الجانب المهجور فلنكات وقضبان ، كأنها معبد قديم لقبائل منقرضة ، وعلى الجانب الآخر شباك التذاكر ، والشجرة التي يتكسر عندها ، وتحتها ضوء النهار ، حيث يجلس رجب ، والصور ، والدوم ، وأنا وصافي الميكانيكي ، والكهف ، وحلم الذهب والأحجار الملونة البراقة ، والديك المذبوح يرقص والدماء حول رقبته وتحت قدميه ، وبخور نافذ الرائحة ، ومغربي بدوي رحال ، يسحب فتاة ضريرة وينادي على كل من له حلم ، أو أمل ، أو طموح .

يأتي هذا المنظر وحده ، ويتدفق مثل دمائي في العروق أما بيت سناء فرج في الكوربة في قلب مصر الجديدة ، فإنني أنا الذي أستدعيه . أستحضره كخطوة أولى على سلم الاختيارات والمقاييس في ذلك البيت كفت الأشياء عن الحدوث وحدها دون رسم أو تخطيط أو حساب . في ذلك البيت أحسب حسابي ، وأدقق كيف أختار وأخطو وأتقدم ، فوق سجاد مزركش نظيف ، وأركان خالية فيها قدور من نحاس أصفر ، تتدلى منها أوراق نباتات ظل خضراء لينة رقيعة كان أبو سناء – فرج بك – موظفا كبيرا على المعاش ، يسكن تحت أوراق نباتات الظل ، ساكنًا مستكينًا ، بعد أن امتصت مصر الجديدة حياته وحيويته ، كل ما فيه من إنسانية ، وهندسة معمارية . وأحلام ، وأعطته بدلاً من هذا كله

وظيفة حكومية كبيرة ، وزوجة وأبناء وبنات . سار وسط تقاطعات حياتهم المعقدة فى خطوط مستقيمة .

استقبلنى خاطبا لابنته ، وهو موافق قبل أن نتكلم . كل شىء قد تم الاتفاق عليه فى غرف أخرى قبل أن ألقاه ، بينى وبين الدكتورة سناء ، وبينى وبين أمها ، وبينها وبين نفسها ، وعليه هو قبل أن يموت أن يضع خاتم الأبوة فوق عقد زواج الدكتورة التى قاربت الثلاثين .

كراسى القطيفة صارت خالية حوله ، بعد أن نحل جسده ، وجسد الهانم زوجته من مرض السكر ، والقلق الدائم على الأدوية الناقصة والمعاش الثابت الذى تضاءل قيمته على الدوام ، والدكتورة سناء آخر الابناء تخطب ولا تتزوج . صارت حياتها تتردد بين حالات اكتئاب ، وبكاء حاد ، وبين سهر أحمق ، خارج البيت وعلاقات تفور مثل مياه غازية مغشوشة . ومكالمات تليفونية مغلوطة ، أو طويلة ، أو مبتورة بلا أسباب مفهومة .

تزوجتها هنا ، فى ظل تلك الأوراق المدلاة ، والمعلومات المتاحة « هى لك » ما دامت هى موافقة .. دكتورة هى فى إدارة الأعمال .. فماذا يمكن أن أقول . كان رجلاً طيبًا – رحمه الله – وكان طقم أسنانه لا يساعده على التحكم فى لعاب فمه .

طبعا ، لم تكن زوجتى بكرًا عندما دخلت بها ، كانت قد عرفت قبلى رجلاً أو اثنين أو ثلاثة على الأقل . وعندما أغلقت علينا غرفة ، عرفت أن أسرارًا وأوضاعًا جديدة ، تعلن عن نفسها عندما تغلق على الرجل والمرأة غرفة ، وأن هناك أشياء كثيرة تحت الجلد ، تتدفق بلا حساب ، كما يقذف الرجل فجأة ، وهو يشعر بأن تحته امرأة تصيح .

كانت سناء فرج قطة أفرنجية مدربة ، وكنت أحاول أن أكون نكرًا صعيديا .. لونى أسمر ، وعيونى مقتحمة ولى فحولة بادية ، وصوت يدغدغ جلدها الرقيق ،

ولا أذكر بالضبط ما قالته لى هى فى انتشائها الأول معى بعد أن تزوجنا ، لكننى أذكر أنها لامست أنفى وذقنى وفحولتى ، وهمست باسمى مرة أو مرتين ، ثم استكانت إلى طرف السرير .

* * *

اليوم يوم جمعة كان النهار ثقيلاً ، تمر ساعات الصباح والضحى ثقيلة كئيبة ، أتردد بين الشرفة والسرير ، أخرج بعض أوراقى ، وأتذكر أن لى أوراقًا هامة أخرى تركتها فى بيتى فى « دلوك » أتصفح جرائد الجمعة ، وأسمع فيما بين السطور نوعًا من الأنين ليس كصوت البشر ، أحاول أن أربط بين الوقائع والتفاصيل ، وأرى الأشياء متجاورة فى فوضى كأنها سقطت فجأة من طاقة كبيرة فتحت فى السماء ، أتخذ بينى وبين نفسى سمت المفكر الذى تقلقه هموم عامة ، فأتوقع كارثة ، وأرى اندفاعًا رهيبًا إلى هاوية . أبحث عن علامات الساعة فى أخبار الوطن ، أو الوطن الثانى ، ولكننى أرى الأشياء متماسكة تسير فى فوضاها الخاصة يحرسها ملاك الفقر ، وشيطان اللذة ، ورب المال والسلطان . والحمد لله أنه لم تعد لى جذور لا هنا ، ولا هناك .

صرت وطن نفسى ، أنا مالى وأرضى وعقارى . وكل ما عدا ذلك أحبار فوق أوراق ، وكلمات مضغومة فى فم أدرد عجوز شاخت بلادى وهى لم تعش صباها بعد . أما أنا فظاهرة كونية . قوتى فى وحدتى وفى تلك المسافة المستحيلة التى صارت تفصل بينى وبين الناس ، صرت أراهم كنقوش جدارية ذات بعد واحد أو بعدين . هم صفحة فى كتاب أقلبها وقتما أريد .

هم أولادى نعم ، ولكن هى قد أخذتهم ، غار الجمل بما حمل قطعت هى ما بينى وبينهم منذ البداية ، علمت لمياء أن ترانى بعيونها ، وكذلك فعل تامر عندما كبر ، وصار يعرف كيف يحدثنى باستهجان مستمد من مشاعرها نحوى ،

تلك القطة الأفرنجية التى لم تعد تصلح لا لهذا ولا لذلك ، كم يوم فسد وكم ليلة ضاعت وأحبطت عندما جعلتنى أشعر ، بأننى دونها ، تلك القطة الخبيثة التى لم تشبع أبدًا من المضاجعة . لم يفرح أولادى أبدًا بما أقدمه لهم ، لأنها كانت تستهجن دائمًا ما أحضره أو أشتريه . كانت تراه دائما أقل من مقامها العالى ، حطم تامر لعبة غالية ، فضربته ،فصاحت فى أمامهم جميعًا أننى جلف ، وأننى لا أستحق ما أعطانى الله من نعمة ، ربما كانت هذه هى ورقتها المخيفة التى أخذتها دون أن أعرف ، زرعت فى روحى هذه الكلمات الحمقاء : أنا جلف ، وأنا لا أستحق . وربت أولادى على هذا اليقين . ليس من الذوق أن تشعرنى أننى قليل الذوق ، أنا أعرف الذوق وأرى وأعلم فساد الذوق الذى يزحف على حواسنا جميعا .. الشكل والسمع والطعم والشم والملامسة ، أرى فساد الذوق يتصاعد كمياه الصرف الصحى ، ولكن ماذا أفعل . ماذا أفعل أنا حيال ذلك ؟ هل أصلح البلد أم أتمرد أم أنتحر ؟ أم أندب مثلها ومثل النساء . كلها أفعال حمقاء ينقصها التكيف والمواءمة ، تنقصها تلك المادة السحرية اللاصقة التى يفرزها الذكر الفحل القابض على مقدرات العصر .

هى لم تفهم ولن تفهم ، جاءت إلى حياتى تحمل أحكامًا ، وخرجت وهى تحمل نفس الأحكام ، بعد أن وضعت أنا عليها خاتمى وتوقيعى ، و شيعتها باللعنات .

بعد صلاة الجمعة أدرت رقم تليفون بيتهم فى الكوربة ، خاطبنى صوت متنطع غريب ، خادم أو قريب ، قال بعد أن عرف أننى الدكتور منير : أنه لا يعلم عنوانا فى مرسى مطروح ، وأنه ما زال لا يعرف متى يرجعون .

* * *

هذا الذى يسأل عن مرتبى هناك ، وكم أقبض وكم أدخر ، لا يعرف أننى أعمل هناك ، وأشقى بعشرة أرواح .

مرتبى لم يعد يعنى لى شيئًا ، فقد شققت طريقى فى مجال التأليف والترجمة والتوضيب والإعلان والنشر . صار دارى دكانى ، معارفى زبائنى ، ومن يحبوننى طريقًا لى .

صنعت حولى طبقة عازلة تحمينى من أصحاب المال والبلد ، وتضعنى فى وضع خاص كخبير قديم يعرف حلاً لكل المشاكل ، أنا طبيب نفسى هناك فى وطنى الثانى ، أدعو إلى التكيف والملاءمة ، وحرية الاختيار .

حتى سلماوى ، بائع القماش السابق فى محل القطاع العام ، والذى ضبط متلبسًا فى قضية رشوة ، وهرب تاركًا خلفه بناتًا خمسا وأمهم ، حتى سلماوى وجدت له حلاً ، لم تكن لديه أوراق ، وظل يعمل ويطرد ، ثم يعمل ويطرد ، ويختفى من الشرطة . حتى حصلت له على وظيفة بواب فى العمارة الجديدة التى تقام أمامى فى « دلوك » وجعلت منه سمير الليالى الفاغرة ، يحكى لى كم دبر هذا الشهر ، وكيف أنه سيحصل على أوراق مزيفة . كان يجيد صناعة الشاى ويكتب خطابات غريبة كأنه نسخها بالكربون للبنات الخمس وأمهن ، وتكتمل سعادته عندما كان يفتح علبة « بلوبيف » ويضع أمامه عددًا من الأرغفة البيضاء .

أصبح سلماوى صديق غربتى الوحيد منذ سنوات . يعرف المترددين على دارى ، وزوارى وتلاميذى ، يعرف متى يرتدى ثوب الخادم ، ومتى يخلعه ، ويرتدى زى الحارس أو الساقى أو النديم ، بيته وبناته فى المحلة الكبرى كان وهما كبيرًا يكاد أن يختفى منه أو يضيع فهم لا يعرفون له عنوانا ، هو فقط يعرف عنوانهم ، والأوراق النظيفة وهم آخر استنفد منه مرتين ما ادخره فى سنوات . فى مثل هذه القضايا . لا أتدخل ، ولا أبدى رأيا . ومع ذلك يبقى سلماوى صديقى .. وأنا صديقه .

أوصلنى حتى باب الطائرة . لم يعطنى خطابًا ، ولم يطلب منى أن أسأل عن أحد . ولكنه كان ملتاعًا يتلمس بعيونه وكل كيانه حقائبى وجسدى المسافر ، كان صورة غريبة لبلاغة عصرية خرساء ، أحسست بها وحملتها معى .

جلس إلى جوارى فى مقعد الطائرة ، شاب يشبه عدوية أو كتكوت . أمير من أمراء الهجرة الجديدة ، والأموال المستوردة . ما أن جلس فى المقعد حتى أخرج نقودًا خضراء كثيرة كان يخفيها بلا سبب فى أستك الشراب وتفحصنى بعين ذكية مستريبة .

بعد الإقلاع بقليل كان قد رفع الكلفة تمامًا ، وطلب منى أن أكتب له أوراقه لأن خطه عاجز ، ثم استطرد فى الحديث قائلاً : إنه يصاحب على هذه الطائرة ، ثلاثة نعوش لعمال من زملائه سقطت بهم سقالة . وقد اختاره البلديات لكى يقوم هو بهذه المهمة الكئيبة . ولكنها أجازة . أجازة على أية حال .. أليس كذلك .

فى زحمة الجوازات والجمرك تذكرته . استدرت خلفى فرأيت رأسه بين الرءوس ، وهربت فارًا ، قبل أن أعرف كيف سيتصرف فى نعوش أصحابه الثلاثة .

الفصل الخامس

الجرح والتشريح

كما يأتى المنظر وحده ، ينصرف وحده ، منظر كوبرى محطة « كفر شوق » القديم المصنوع من حديد وخشب .. يربط الجانب المطروق من المحطة بجانبها المهجور ، كذلك تتكرر دوامة الهواء الفارغة التى تسحب روحى من الداخل فأغرق فى فراغ ثقيل أسبح بقوة ضد تياره حتى أعود إلى أى شاطئ ، ملايين التفاصيل الصغيرة تتطاير مثل ذرات الغبار ، تحت الشجرة العجوز التى ينكسر حولها ضوء النهار ، لا تهدأ حتى يرش رجب الأرض المحيطة به بالماء ، فتنبعث رائحة خاصة تملأ روحى فتستقر التفاصيل .

تعلمت ، ودرست ، وتزوجت ، وسافرت ، فى سرير المرض ، والحب فى الحمام ، والطائرة والقطار ، يغزونى المنظر ويرحل معى حتى أحسب أنه فى عيونى أو هو مطبوع على قلبى ، لم أجد له أبدًا إجابة . أهرب منه طوال عمرى . كما كنت أهرب طوال النهار من البيت . أقضى العطلة الصيفية إلى جوار رجب فى هذا المكان ، إلى جواره كنت طفلا . وظل هو هناك من الأبد إلى الأبد . نائما ، أو ميتًا ، أو حجريًا . أو لا وجود له .

الأمر المؤكد الوحيد أنه لم يكن من أهل البلد ، كان غريبا ، جاء من الشمال ، جاء من عشر أو عشرات السنين ، كانت له زوجة وابنة بيضاء ، شعرها أصفر وعيونها ملونة ، لم أرهما أبدًا ، ولكن كأننى أعرفهم ، يقولون أنه كان صاحب صنعة ودكان ، وأنه كان نجارًا ، كذلك يقولون أنه كان صاحب بيت صغير فى أطراف القرية بناه بنفسه ، وأشعل فيه النار بنفسه فى سنوات بعيدة لم أعشها ، ولكنها حاضره فى ذهنى مليئة بالتفاصيل ، كأن النار مازالت تأكل أثاث البيت القليل ، ممسكة بعروق الخشب فى السقف . تقول أمى وهى تمسح وجهها

الطيب بيديها وتستعيذ بالله : الحمد لله أن الرجل مازال يعيش ، فهو قد رأى الجحيم بعينيه ، أى جحيم ، ماذا رأى ؟ هل هى زوجته ؟ هل نامت مع رجل غريب أم جنت وحلت شعرها وحاولت أن تخنق به ابنتها ؟ أمى كانت تزجرنى لا تكن لحوحًا ، واذهب إلى حال سبيلك .

فى ذلك الوقت كان رجب هو سبيلى الوحيد ، يسد على كل طريق ، يسكن معى فى بيتى وأحلامى . لم يكن أحد فى القرية أو فى الدنيا كلها ، يفهم أو يدرك مقدار اهتمامى برجب وحياته وقصته، كانت كل التفاصيل هامة حتى لون ملابس زوجته ، ولون عيون ابنته ، وكعوب أقدامها الناعمة ، لكنهم كانوا يمنعون عنى كل شىء ، لا أحد على الإطلاق يريد أن يتحدث فى هذا الموضوع ، وإذا تحدث فيه كبير أو صغير ، فإنهم جميعا يتحدثون وكأن فى الأمر عورة ، يجب أن تدارى ، أو جريمة يجب أن تدفن ، وعندما صرت أجلس ساعات طوالاً إلى جواره ، لم يكن يجيب أبدًا عن أى سؤال .

هو الذى يتكلم ويحكى ، فقط ما يشاء وقت أن يشاء . لو أراد رجب أن يكتب لصار أديبًا فريدًا ، وصاحب أسلوب مميز . لا أحد يربط الجمل ببعضها مثله ، ولا أحد يقدر على أن يدارى الموضوع الحقيقى بموضوع بديل يحل محله فى الظاهر فيخفى ملامحه ، ويزيده اشتعالاً فى الذهن ، وكانت حكاية الديك والكهف هى الموضوع الأساسى ، بل هى الموضوع الوحيد الذى صنع حوله آلاف التنويعات ، وملايين الصور والنغمات . كان يكاد يرسمه أو يغنيه . السنوات الثلاث التى صاحبته فيها جالسا إلى جواره طوال أيام الأجازة ، من الصباح إلى ما بعد العشاء ، كنا نسكت لساعات ، نحدق فى الكوبرى القديم ، أو الشجرة العجوز ، ونحدق فى الجبل البعيد ، حوله سماء داكنة غامضة ثم فجأة يلتقط خيطا وهميا ، ويواصل الحديث . يبدأ من أية نقطة ، ويتوقف فى قمة الأحداث ، تعلمت أن لا أسأله فهو لن يجيب ، فقط علىّ أن أنتظر حتى يصفو

ذهنه مرة أخرى ، وتنطفئ تلك النظرات الثابتة المحدقة من عينيه ، يعود يبتسم فى حكمة ودراية وكأنه يحرك كل خيوط الكون .

الأمر المؤكد هو أنه كان يجب أن أصدقه ، أن أؤمن إيمانًا كاملاً بصدق ما يقول ، لو أحس أنى أشك ، أو بدر منى ما ينم عن ذلك ، فإنه يتوقف ويغرق فى نوبات الصمت والتحديق الطويلة التى كثيرًا ما تصورتها ستدوم طوال الحياة ، ولكنه كان دائما يعود لكى تتكرر القصة وتستمر ، وعندما جاء صافى صبى الميكانيكى لكى ينضم إلينا ، ويسمع معى قصة الكهف ، والكنز ، والمغربى البدوى الرحال ، والبخور الذى يفتح الكنز ، فيدخل إليه من يشاء ، على أن يخرج قبل أن تنطفئ النار ، ويتلاشى دخان البخور . اذا لم يخرج زائر الكنز قبل ذلك ، فإن الكنز يغلق عليه ، ولا يفتح أبدًا حتى يرقص أمام فتحته ديك ملون مذبوح ، وعندما يفتح غالبا ما يكون زائر الكنز جمجمة وكومة من عظام ، وكان صافى يسأل رجب مرة ومرات ، ولكن .. هل كانت زوجتك التى دخلت إلى الكنز ؟

ماذا كان اسمها ؟ ولماذا تركتها تدخل ، وبعد ذلك .. ابنتك ؟ وكيف تركتها تسير وراء المغربى البدوى الرحال بعد أن فقدت بصرها عندما رأت جمجمة أمها وحولها عقدها الأصفر الكبير . كنت أحاول أن أوقف سيل الأسئلة التى تتدفق من صافى ، فهى لن تضيف شيئا ، فقط هى تعترض تيار الحكاية . كان رجب لا يغضب ، يرد فى اقتضاب عليه ، هى زوجتى ، وابنتى وملايين قبلهم ، وملايين بعدهم .

وعندما حدثت الكارثة ، وأكلت الماكينة الكبيرة ذات السلاح البتار رجل صافى ، اعتبر كل كبار البلد أن رجب هو المسئول ، هو الذى شغل ذهن الولد ، وجعله دائم الشرود والسرحان ، أن البلد قد رأت ما يكفيها من جنون رجب وكوراثه وتعاسته . الآن سوف تتخلص منه البلد – مرة واحدة وإلى الأبد .

كانوا أربعة أو خمسة ، يقلبون كل شيء ، ويمزقون الصور الملونة ويدوسون الجوافة والدوم ، والحلوى يخلطونها بالتراب ، يضعون هدوم رجب على رأسه ، ويدفعونه إلى القطار ، كنت أدور حولهم ملتاعا ، لا أستطيع أن أمد يدى إليه ، وصوتى لا يطوله ، كأنهم ينزعون كبدى أو جزءا من أمعائى ، وصار المكان كله بعد ذلك كأنه بئر سحيقة دفنت فيها يومى وغدى وأمسى وكل أحلامى .

انتزعنى من بئرى السحيقة ، خبطات لحوحة على زجاج غرفة البنسيون أنه الدكتور صدقى فراج . صديقى كما يقول ، وزميل زوجتى ، ورفيق رحلة الإعارة الطويلة ، شىء ما لا أحب فى ريح هذا الرجل ، دائما ما يأتى فى الوقت غير المناسب ، وهو يرى أكثر مما ينبغى ، يتكلم فيما لا يعنيه ، هو دائما يحمل لى أخبارا منها ، أو عنها ، أو عليها ، أحس بعيونه وهو غائب ، ويحضرنى صوته فى الصمت . تماما كما توقعت ، هو يقول إنه قابلها هى والأولاد فى مرسى مطروح . هى لا ترسل معه رسالة ، لكنه يرى أنها لا تريد أن تفتح أبواب الجحيم من جديد ، هى ترى أن بعدى عن الأولاد الآن هو فى صالح كل الأطراف .

* * *

تصاعدت دوامة الجنون بعد ميلاد تامر بثلاث سنوات ، بعد أن انتهت حفلة عيد ميلاده الثالث . استل كل منا سكينا وأخذ يأكل لحم الآخر فى الأطباق ، كنت قد أصبحت خبيرا فى استفزازها إذا أردت . بعض إشارات إلى أسرتها . وبعض كلمات عن ماضيها ، وعن عدم خبرتها بالحياة ، وأنها لا تستطيع أن تفهم . أحيانا أتركها ترغى وتزبد ، عندما أحس أن صمتى يغيظها ، وأحيانا أردد فى بطء وتعمد منلوجا محفوظا ومكررا . لو تكلمت لقطعت رأسها أو لسانها ودفنتها هنا فى الغربة ، غبية ، لا تعرف شيئا عن حقائق الحياة ، مدعية مبتورة الجذور ، لا تعرف إلا المرحاض الأفرنجى ، والاستلقاء عارية فى البانيو الفاخر ،

وتدليك فخذيها ويديها بكريم لـه رائحة . أما إنسانيتها ، أو قيمتها ، أو ضرورتها فقد ضمرت وشحبت تحت قمصانها النيلون الملونة .

وغالبا ما كانت تنتهى هذه المعارك نفس النهايات ، تنظر حولها باحثة عن شىء تحطمه ، متصورة أنها تحطمنى أنا أو تتخلص منى ، يتصاعد على فمها سباب كأنه رطان الأجانب ، فهى لم تكن تعرف كيف تتكلم وهى تتشاجر ، ولا وهى فى سرير الغرام ، تلقى على جسدها ثوبا يغطيها ثم تنطلق خارجة ، فأعرف أنها قصدت إلى بيت الدكتور صدقى فراج وزوجته ، وأظل أنتظر عودتهم فى زيارة ليلية هم الثلاثة ، لمياء ابنتى كانت قد تعودت على هذه المشاهد ، تحدق فينا صامتة ، تتراجع فى خطوات إلى الخلف ، تستند إلى مقعد أو جدار ، وكثيرا ما أجدها وقد بالت على نفسها رغم سنها التى تجاوزت السادسة . أما تامر فقد كان يبكى صارخا ويدق رأسه فى الارض أو فى المنضدة ، ثم يندفع إلى حجرة بعيدة ويغلقها على نفسه .

كرهتها فى تلك الأيام ، كما أكره « الكوسة بالباشمل » ، وهى تقدمها فخورة بطبيخ أمها البارد . كرهت أنانيتها وانتهازيتها . التى تستتر وراء معانى حمقاء . كانت فى الحقيقة تطمع فى كل قرش أكسبه ، ترانى خزانة زجاجية . تريد أن ترى القروش داخلى والدولارات .. كرهت كل تصرفاتى . وأنا ضقت بثقل وجودها المدمر .

عرفت تلافيف العقل وسراديبه ، وكيف أن السلوك والتصرفات قشور زائفة لملايين الرغبات والمطالب الصغيرة الدنيئة ، وأن الحب وهم ، والمعاشرة صراع ، وأن حكمتى الأساسية فى إننى أكشف هذه الأوضاع والادعاءات الزائفة . أقف عاريا داخل جلبابى الأبيض . الذى لم تعرف أبدا كيف تغسله . أقف عاريا ، معلنا ، أصلى ، وفصلى ورغباتى .

البيت بعد أن تخرج هى منه كدوامة تراب ، يصبح هادئا ، دقائق ويسكت بكاء الأولاد . يرفضون الطعام ، وينامون فى غرفتهم والنور مضاء ، هى تصر دائما على أن يغسل الأولاد وجوههم وأسنانهم قبل النوم ، وأنا لا يهمنى ذلك ، أحيانا كانت توقظهم ، وتدفعهم إلى الحمام ، عندما يتم الصلح ، وترجع إلى عش الزوجية العامر بالنفايات الثمينة والقبح الوفير .

أنظر حولى فأرى ملابسى ، وملابسها الداخلية ، لعب الأولاد وبقايا الطعام ، أسمع صوت جهاز التكييف العالى ، وأكياس الخبز ، والمعلبات ، أعرف أننى تزوجت كائنا من المطاط له ردف وأثداء ، أنها فى الحقيقة لا يمكن أن تكون أما أو زوجة ، إنها خطأ فى حسابى وحمل ثقيل .

أراقب غرف البيت المهجورة المضاءة . ليس فيه ركن كامل أو مكان حقيقى ، أشياء لها ، وأشياء ليست لى ، هى لم تعرفنى أبدا ، وأنا لم أعد أريد أن أعرفها ، فعلى الرغم من أنها تغسل وجهها وجسدها أثناء الليل وأطراف النهار ، فإن رائحة مؤامرتها ضدى فواحة كريهة كرائحة حيضها الشهرى الذى لا تعرف كيف تخفيه . يكون الأولاد قد ناموا قبل أن يدق جرس الصلح المتأخر على الباب ، أتركهم يقفون قليلا على الباب ، بينما أراقب أولادى وأطفئ النور فى غرفتهم ، أقول لهم وكأننى أغطيهم وأقرأ الفاتحة على رءوسهم ، أبوكم أنا ولا تشعرون بى ولا تعرفوننى . بينى وبينكم الجحيم الذى هو أمكم ، هى سناء فرج . هرة ساقطة ، لو أستطيع أن أستردكم منها ، من أحشائها ، ما أنتم إلا نتاج ليال من الحماقة واليأس ، أنتم إضافة حية لفشلى وأخطاء حياتى .

ويدق جرس الباب لكى تدخل هى ، ومعها هذا الشحط وزوجته ، أمد ساقى على المقعد ، وأعبث فى بطنى وشاربى ، أو أتشاغل بصنع كوب من الشاى ،

وتستجمع هى كل ما عندها من براعة ، لكى تعود تتحرك فوق آثار خطواتها الميتة فى بيتها الذى لم تعرف كيف تحافظ عليه .

وكما تتصاعد أرقام جدول الضرب ، نعيد القصة مئات المرات من البداية ، لا أرى تفاصيل جديدة ، أكرر بالعربية والإنجليزية بلغة المثقفين ولغة الحوارى : إننى هنا لهدف معين ، لن أسمح لشئ بأن يصرفنى عنه ، وأننا على ذلك اتفقنا وأنت ، وهى وهم جميعا يعرفون .

أشرب الشاى الذى أعددته لنفسى وأدخن سيجارة نادرة باشتهاء ، وأبدى ضيقى بالمداخلات العاطفية لحرم الدكتور . ونظرياته هو اللزجة الكاذبة ، وأتركها هى تجرع فشل مواقفها المصطنعة اللامجدية ، وتجمع ما تناثر من شظايا ما حطمته ، أبحث فى نفسى عن أية رغبة فيها ، أو شهوة إليها ، ثم أتذرع بأن عندى فى الصباح محاضرة مبكرة ، أو موعد هام .

من حرارة النهار ، فى وطنى الثانى ، وشمسه الحارقة فى الشوارع بعيدا عن تكييف البيوت والمكاتب والسيارات ، تعلمت أنه لا مكان لمثل هذه الترهات . وعلمت نفسى أن لا دخل لمشاكلى الشخصية فى البيت أو خلافه بالعمل ومقابلة الناس بوجه ناجح جديد ، لقد كان نابليون بونابرت يقود المعركة ، وزوجته تخونه ولكننا هنا لهدف معين وغاية واحدة ، ثم أن هذا هو الحل الوحيد . جاءت أخطر الأيام ، تصاعدت رائحة خلافتنا فى البلد ، ووصلت إلى الجامعة ، صرت أشمها فى غرف الأساتذة ، وألمسها فى حديث زبائنى الذين ينفعوننى بالخير ، أصبحت أعود صامتا إلى البيت فقد صرت أخشى الحديث معها فى أى شىء ، أصبح التكتيك أهم من الاستراتيجية ، فقد سقطت كل الأقنعة وكل القلاع ، وأصبحت حساباتي ومؤامراتى مهددة بالضياع ، من أجل عيون أم تامر وحمق

سلوكها معى ، إذا لم تستطع أن تجد لك زوجة صالحة ، فلا تصاحب مصيبة ، دعها تخرج من حياتك ، كما دخلت فى هدوء ، بلا جرح ولا تشريح .

هى التى بدأت الجرح والتشريح ، وحقا كان كيدهن عظيما ، فى القاهرة جعلتنى الدكتورة أدخل أقسام البوليس ، عندما دخلت قسم الدقى وجدتها فى كامل زينتها تجلس أمام الضابط ومعها محام سليط ، وبعض أقاربها الشبان .

الحمد لله أن الضابط كان شابا محنكا مدربا ، ممرورا من الواقع ومن الحياة ، لم يتردد فى الاعتراف بكل حقوقى ، أخذته لصفى بكلماتى المستقيمة ، ونبرتى الهادئة ، وعرف أهدافها الحقيقية ، وغرابة ما تدعيه ، رغم وقارها المتعالى الرزين ، عرف أنها زوجة ناشز ، وتعاطف معى كزوج مطعون مفترى عليه .

أصبح معى ، ضمن أوراقى ، إثبات رسمى بأنها ناشز ، وبأن ليس لها علىّ حقوق وأن ليس فى الأمر جريمة تخضع لعقاب . زوجتى : خطونا معا ، وهى فى يدى ، وحولنا راقصة وراقصون ، و هانحن نخرج من قسم الشرطة بعد أن حققوا معى فى تهديدها بالقتل وخطف الأولاد .

عرفت تلك الأيام كم تدور على الكازينوهات الجميلة المجاورة للنيل من مناقشات فذة فى القانون الوضعى وفى أصول الشريعة ، كم يدور فى تلك الأركان الهادئة من حوارات جارحة عن النفقة والمؤخر ، وحسابات الطلاق والعدة ، وكم يتواضع المغالون ليكسبوا أشياء ضئيلة ، وكم يلقى اليائس بكل شىء خلف ظهره .

كنت أريد أن أكسب كل شىء ، فليس عندى ما أخسره قلبى مات . وماتت كل مشاعرى نحوها . وهم من حولها يريدون الحصول على أى شىء .

ولكن جزار الوطن الجديد يخلى اللحم ، يضع أمامك قطعا ممتازة ، وعليك أن تختار ، قطع اللحم الغالية لها مذاق جميل وأنت لن تشهد القطع والتوضيب ، ثمنها غال ومعى النقود .

تسربت الوقائع والتفاصيل كما يتسرب الزبد فى الخبز الساخن ، حاصرت الأخبار قدر طاقتى ، ولكن جريدة صباحية نشرت خبرا صغيرا فى صفحة الحوادث مفاده "أن دكتورة تتهم زوجها الأستاذ الجامعى بتهديدها بتشويه وجهها وخطف أولادها الاثنين منه وانتهت المسألة فى قسم شرطة الدقى بأن كتب هو على نفسه تعهدا بعدم التعرض ووقع الطلاق ، وتسلمت الزوجة ولديها ، وتنازلت عن كل حقوقها قبله" .

لم يكن فى الخبر أسماء ، لكنه كان صياغة بليغة لما حدث ، كما لو أن الصحفى أراد أن يطبع لنا كارت زيارة نعلقه على صدورنا فى المحافل والمؤتمرات .

استدار القمر كثيرا واكتمل بعد ذلك ، طلع علىّ وأنا فى دلوك وحيدا سعيدا ، وقد تخلصت من كل شىء ، أسكت جهاز التكييف ، وأزلت السجاد الملون من الأرض ، واستمتعت بملمس البلاط والخشب تحت أقدامى العارية .

يقول بعض الأجلاف هنا فى القاهرة وهناك فى « دلوك » أننى بعت أولادى ، أنا فى الحقيقة اشتريتهم ، أى كابوس معى ومع سناء كانوا سيعيشون ، ليس كابوسا كهذا الذى تراه فى السينما ، أو تقرأ عنه فى الروايات ، ولكن أنيابا زرقاء وأجسادا ممزقة نغرس فيها عيونهم ورءوسهم كل يوم ، عندما أفكر فيما لو أن حياتنا استمرت معا ، أرى أطفالى شياطين عجفاء تمزق وجهها ووجوه الناس بالأظافر .

ولكنهم الآن بعيدون عنى على شاطئ ما . حولهم ماء بارد وشمس ولقمة طرية . وهم فى ظنى يمرحون . ذكراى لا تهم كثيرا فأنا كراس مغلق أو كتاب قديم ، وهى تغسل لهم وجوههم ومؤاخراتهم ، وتضع على أجسادهم ملابس رخيصة ملونة وتأخذهم فى جولات على الشاطئ ، يشربون المرطبات ويأكلون شيكولاتة كما يريدون .

أنهت هى إعارتها وعادت ، ولم يكن ما فى حسابها يساوى إيجار شقتنا المفروشة لمدة عام ، تنازلت عن الشقة وعن كل شئ كان كل تنازل يجعلها أكثر حرية وسعادة بنفسها ، وكان الأمر يبدو مضحكا مبكيا فى نفس الوقت ، وكنت أنا أراقب فقط . تشيح بيديها وتغطى وجهها ، وتدمدم بأصوات كأنها بكاء ، تركت حتى قطع الذهب والمجوهرات التى اشتريتها ، وأعطتنى مفتاح الصندوق ضاربة به كفى .

لكنها أخذت منى ورقة ، ورقة واحدة لم أعرفها ، ولن أعرفها ، ليتى تعلمت جيدا قواعد القمار ، لو كنت أعلم لراقبت وجهها وعيونها أكثر .

أهتم بى الكثيرون بعد رحيل زوجتى والأولاد ، وزارنى فى البيت أنواع مفيدة من البشر كانت تتحرج من المجئ والبيت بيت أسرة .

واكتملت فى أيامى ولياليى مباهج الغربة ومآسيها ، ودخلت فى مغامرات كئيبة مع نساء شعرهن أسود ميت مرصوص جيدا عند الكوافير ، يتحدثن عن الإيقاع وهن يقصدن الإيلاج ويتكلمن عن الشعر وهن يقصدن استعمال اللسان ، استلقى فى بيتى المحبون ، والمجانين ، والقوادون ، كاتبو التقارير ، والمرتزقة ، أقمت فى بيتى دورا حرا أمينا كأنه جزيرة من وطنى ، صنته من الخارج بحراسة وتقاليد حديدية ، ووقفت على الباب لا أقول محصلا .. ولكن مستفيدا على الدوام .

الشعر الذى يكتب فى وطنى الثانى ، والقصص والمقالات كانت تصب كلها عندى ، بصفتى صديقا للجميع ، وأستاذا متنورا للغة العربية ، كنت أرى فى هذه المواد يأسى وإحباطى ، وقلة حيلتى ، وهوانى على نفسى وعلى الناس ، يكتبون شعرا كأنهم يستمنون . يصارعون معارك وهمية لكى يرفعوا حجابا مرقوعا ويتكالبون على تغطية عورات وفروج داعرة ، ويتمسكون بإيقاع وهمى سخيف يقودهم إلى ضلال .

وكثيرا ما تكلمت كلاما غامضا عن الواقع ، ثم أتدارك نفسى لكى استثنى واقعهم ذا الظروف الخاصة ، هناك واقع مفترض بين الحلم والرأى والحقيقة .. واقع كاذب .. أكلمهم بحرص شديد عن التخلف والتحدى ، عن قدرة الفنان الشيطان على أن يقول ما لا يقصد و يقصد ما لا يقول .

طلب منى أغلب المحبين صورة معينة أبحث لهم عنها فى القاهرة ، لم أكن أعرفها ، ولكنهم وصفوها لى جيدا ، بوستر جديد لرسام إيطالى غفل ، صورة لفتى أجنبى يرتدى قبعة مستديرة ، ووجهه أيضا أحمر مستدير ، وعينه اليمنى واسعة محمرة تنزل منها دمعة ثابتة .

هم يحبون تعليق هذه الصورة فى بيوتهم ، فوق رءوسهم ، لكى يتطلعوا إليها هم وزوجاتهم وأولادهم ويتأملون فى تناسق ألوانها وتعبيراتها المؤثرة .

أعدهم بالبحث عنها ، وأقول لكننى أريد أن أحضر لكم من القاهرة صورا لأطفال بلا دموع ، لكن لا أحد يحفل بما أقوله ، أو يفهم ما أعنيه .

الفصل السادس

منحنى حياة رجل محترم

أسأل نفسى هل تنقضى أيام الأجازة هنا بسرعة ، أم أنها تمر بطيئة ثقيلة كأيام غربتى هناك فى وحدتى ، بعيدا عن هذا الضوء ، وهذه الشوارع ، وكل الشخوص الصاخبة ، والخيالات المقتحمة والمنسحبة ، أسأل نفسى ولا أعرف إجابة ، فقد صار للأيام طعم واحد غريب .

على أية حال ، صار لى إيقاعى الداخلى الخاص . كثيرا ما ضبطت نفسى لا أسمع ما يقوله محدثى . ذهنى شارد بعيدا عنه ، غارق فى تأملات الذهول . يحدث هذا – أكثر – فى القاهرة ، حيث ترتخى أوتار الأعصاب المشدودة ، قليلا ، ويحيطنى أمان الجالس فى مستنقع ضحل . كم تغيرت يا وطنى . أعجب العجب ، أننى مازلت راغبا فى ازدياد ، مازالت لك فى القلب أغان ، وأوتار لا يمسها إلا المطهرون من أهل أرضك ، لا تحركها إلا نسمة صيف ، أو سحاب خريف شارد . تداعبنى على أرضك أحلام صبى بكر ، وشباب ضاع منى هدرا ، فيجتمع فى قلبى أسى ، وتثقل عينى دموع . كأن مليكة النساء مرت من أمامى ، ولم أطل منها سوى حفيف الثياب .

عندما أخرج فى جولة للتسوق ، أو أسافر فى رحلة قصيرة لمعاينة قطعة أرض ، أو شقة جديدة فى صحبة صديق سمسار ، أو سمسار صديق ، أراقب الأشياء والناس حولى . كلهم يحسبون ، يجمعون ، ويضربون ، ويقع الخصم دائما على كل ما هو تلقائى ، أو طبيعى ، أو إنسانى .

أنا لست خارج هذه المملكة ، أنا فى قلبها ، محرك ، وطرف فى كل مسالكها القبيحة ومساربها ودهاليزها . إلا أننى أحمل حياة أخرى ، قابعة فى داخلى تحركها إشارة ، أو تعبير تلقائى فتتداعى كل المبانى الزائفة .

أعود أذكر قريتى شارعها الترابى ، أرض ميدان المحطة المرشوش بالماء تهفو نفسى لمنظر قبل الغروب فى شرفة بيتنا . فى يد أبى مسبحة سوداء وفى البيت رائحة خبز طازج ، وخضرة باذخة نقية تحيط بكل المكان .

إلا أننى ، الآن زائر هنا فقط ، ما أغرب أن تعود إلى البيت ، فتجده شيئا آخر ، نفس النوافذ والجدران ، لكن لم يعد شىء كما كان . حتى الهواء ، ولقاء الوجوه للوجوه .

عذبتنى لسنوات زيارتى ، لكفر شوق ، وللبيت القديم ، حتى كففت عن الزيارة ، واكتفيت بتتبع الصور والأخبار ، أشاهد بعيون من يحكى لى بيوت الطوب الأحمر تحاصر بيتنا وتمتد أمامه ، أرى تاريخ بيتى تغطيه الحشائش والإهمال . تتساقط من على جوانبه الأحجار ، لا تستطيع نقودى أو وسائلى أن تصل إليه ، تقطع كل ما بينى وبينه ولم يعد بالنسبة لى سوى حلم أو خيال .

كما صرت أحسب فوائد نقودى الثابتة ، التى يتولى حسابها وإداراتها غيرى ، صرت أرى تاريخ نزوحى وإعارتى ، وبعدى عن أرضى وناسى . لا أسأل عن رأس المال ولا عن الفائدة ، لكن يحيرنى سؤال ينفتح فجأة كبئر : ما كل هذا ؟ وإلى أين أسير ، من أى رصيد أسحب ، وإلى أى رصيد أضيف ، كيف تغير ذلك المعنى القديم للنقود كان أبى يقول : الدين هم بالليل ومذلة بالنهار . كنت أرى وجهه ، يكتسى حمرة داكنة ، وهو يزدرد ريقه عندما يجلس أمام الدوار الكبير ، منتهزا فرصة سانحة لكى يطلب قرضا من الشيخ عند دخول المدارس وفى العودة ، بعد أن يحصل على وعد بالقرض عندما يجئ الفرج ، كان يقول : هم بالليل ومذلة بالنهار .

لم أكن أفهم كيف تنتقل النقود من هذا إلى ذاك ، ولا من أى باب تدخل ، أو من أى الفتحات تخرج . كنت أعرف أنها لا تمكث فى بيتنا كثيرا أسمع أمى تقول أن الفلوس ركبها عفريت . لكننى أصلا كنت مشغولا بالكنز الموجود فى

الكهف الذى يحكى عنه رجب ، الذهب والأحجار الملونة ليست نقودا ورقية كتلك التى يقترضها من الشيخ أبى ، لا تتبخر كتلك التى فى يد أمى . هى قدرة غامضة تغير الناس . تغير شكلهم وملامحهم ولون بشرتهم وسيرهم بين الناس ، ترفع الصوت بالضحك والغناء وتجلب ألوانا من السعادة لا يمكن أن توصف . يسير الناس بقوتها على أرض من رخام وفوقهم أسقف من بللور . لا علاقة لها بالخبز وأطباق الطعام ، لكنها تغير عيون الناس وأسماءهم . تطيل قامتهم بين الأرض والسماء . قال لى رجب أن لها قوة المغناطيس ، وأخرج من جيبه قطعة من حديد ، جمع بها من أمامه عددا من المسامير الصغيرة ، رحت أنزعها من قطعة الحديد ، فتعود تلتصق بها رغما عنى .

فى الكهف يشد الذهب الرجال والنساء ، فتلتصق عيونهم به ، فلا يعرفون كيف يخرجون فى الوقت المناسب .

عندما ينتهى دخان البخور ، يغلق الكهف ، وتكف الألوان ويخفت البريق . يبدأ لون بنى داكن يكسو الجسد كله .

يتساقط اللحم ويجف بعضه فوق العظام . ويصرخ الطامع بصوت لا يسمعه أحد . وتولول النساء وتبكى بدموع لا تنحدر . هكذا يحكى لى رجب . يحكى الصورة التى لم يرها ، فأسمع فى صحوى وفى أحلامى صراخ من حولهم بريق الذهب . إلى عظام بنية وجماجم بيضاء ، عندما طرد رجب من القرية ، ظلت أصوات هؤلاء تحوم فى رأسى كغربان سوداء ، ولم أر حتى فى خيالى : كيف يمكن أن يخرج إنسان من الكهف حاملا ذهبا وأحجار ملونة .

أحيانا أحلم بالديك البلدى الملون يرقص مذبوحا حتى يقع غارقا فى دمه ، رافعا منقاره وعرفه الأحمر محدقا بعيون بلا جفون لكن لا أحد يخرج من الكهف ، وتظل أصواتهم من الداخل تطاردنى .

حاولت فى صباى وشبابى أن أكتب قصة لم أصل أبدا إلى شىء مقنع . كانت تخرج أحيانا كقصائد العامية ، وأحيانا أخرى رمزية ناقصة . لكنها لم تنقل أبدا روح ذلك الكابوس الحى الذى كنت أعيشه . عادت تراودنى القصة كثيرا ، وأنا هناك . فى صحراء وطنى الثانى . عندما دارت حوالى النقود ، ودرت حولها ، خاصة عندما رحلت زوجتى والأولاد وبقيت فى شقتى وحدى ، أعاشر خيالات وهمية ، أخفى نقودى وأوراق حسابى حتى عن نفسى ، وأراقب أنواعا غريبة من الأمراض والأوهام تتسلق حياتى وأيامى كأنها طحالب متوحشة .

* * *

بدا الأمر وكأنه مؤامرة خاصة صغيرة . كنت خاليا جافا وسط ضوضاء وصخب . وكان غبار الهزيمة فى ٦٧ ، ما زال يتصاعد حوالى ، فى كل الأزقة والأركان ، وحتى من أفواه الناس فى وسط الأنقاض ، بدأت عملى ، معيدا للغة العربية فى الكلية وقد تحولت إلى غابة عنيفة ، تدوس فيها سيارات الطلبة ، وتصرخ من حولها مكبرات الصوت . أجمع أوراقى ، وما بقى فى رأسى من أفكار وأتوارى فى ركن مقهى أنفض التراب عن جاكتتى القديمة أحاول أن أفهم ما يدور . لم يكن غرامى الذى تحطم على رأسى بقسوة سوى واحدة من اللكمات العنيفة المتتالية التى جعلتنى أدور حول نفسى عشرات المرات . نقودى قليلة إلى حد غير معقول ، تتسرب من يدى فى أول أيام الشهر . وأكمل أيامى بالكلام أو الاقتراض وكتابة كلمة هنا أو كلمة هناك كى أحصل على قروش مهينة ، تشعرنى بضآلة قدرى ولا جدوى كل شىء حولى .

إلتوت جميع الطرق وكأنها مواسير من الرصاص اللين ، ثقل يدى وفكرى . تقف أفعالى ، وأقوالى ، وآمالى على أطراف مثلث مستحيل يمزق ثيابى وما تحت الثياب .

كان زميل دراستى وصديقى فى ذلك الوقت عبد الله الجمال ، قد عين مدرسا فى ثانوية كبرى بالقاهرة . لأمر ما كان حاله أحسن من حالى ، ربما لأنه يعيش قرب عائلته فى القاهرة .

ربما لأنه كان واضحا محددا ، ملتزما كما يقول ، حاول ألا يجعل الضياع يتسرب إلى نخاع حياته ، بينما صرت أشعر أن روحى وصدرى وقلبى خواء كان يكتب قصصا جيدة ، لكنها ككل شىء حولى . لا جدوى منها ولا تضيف جديدا .

كان طابور النمل قد بدأ يزحف خارجا من مصر ، فى كل يوم أسمع عن زميل هاجر ، أو صديق خرج فى إعارة ، أو مجموعة قفزت على ظهر طائرة وتتتابنى نوبات طويلة من الغثيان أعالجها بالجوع أو بالنوم الطويل ، أو بالانغماس فى علاقات مع بغايا أشد فقرا منى . أيامى كانت دهاليز سوداء يفضى أحدهما إلى الآخر وتنتهى جميعا إلى حقيقتين : فقرى ، والكلمات الجوفاء صوتى يضيع فى مدرجات الكلية الواسعة المزدحمة ، والكلمات التى سهرت عمرى كله أرتبها وأقيم لها بناء وشكلا كانت تتناثر مع الغبار المتصاعد من أرجل الداخلين والخارجين . بحثت عن الأستاذ الذى كنت أريده ، فلم أجد سوى قرد يرتدى صديرى ، يلتقط بكفه السوداء قروشا صدئة من عرض الطريق . ظلت الكتابة فى الجرائد والمجلات عملية تعذيب وإهانة أتلقاها دائما من طواويس جوفاء منتفخة ، أو شبان رقعاء يتحدثون بعيونهم وأصابعهم . كان عبد الله الجمال وحده هو الذى يأتى ليزورنى فى غرفتى التى لم أعرف كيف أغيرها . غرفة مصر القديمة التى شغلتها وأنا طالب . كان يأتى حاملا بعض طعام طيب أو زجاجة خمر صغيرة ، وقصة له جديدة ، أو قصيدة شعر مهربة تسب الوضع والحال ومصر والعرب . أجلس فى المقعد الوحيد المتهالك ، أمضع مرارتى ، وأتلقى على رأسى مزيدا من الإهانات .

كان اقتراحه المتكرر هو أن نسافر ليوم وليلة نزور أهلى فى « كفر شوق » نشم بعض هواء نظيف ، نمضى ليلة ريفية ، نستعيد فيها أوهاما قديمة ، كان أهل البيت والقرية مازالوا يحتفون بالدكتور الصغير الذى صار مدرسا فى الجامعة ، يهيئون لنا غرفة نظيفة وطعاما كريما بقدر المستطاع ، لم أكن أستطيع أن أحمل لهم شيئا ، أو أساهم بشىء وهم ليسوا فى حال يسمح لهم بأى احتفال أو كرم ، كل ما هناك أننى امتنعت بعد تجارب قاسية ، أن اطلب نقودا لا من أبى ولا من أخى الكبير . كان الخير قد تسرب من الدار ، رغم أن أمى كانت موجودة إلا أن البنات وزوجة أخى كن يبقين نار الخلافات مشتعلة ، تحيل جو البيت إلى رماد كئيب .

ما حدث فى القاهرة كان قد أمتد إلى « كفر شوق » وإلى كل مكان . طوابير النمل تفر خارجة بعد أن نكشت أعشاشها ، وتصارعت بما فيه الكفاية على الفتات . كانت هناك أغان جديدة . وأقوال جديدة وطعم للحياة جديد . كأن الناس صاروا يسيرون على رءوسهم . عندما يأتى فلاح لكى يجلس معنا ، يرص الجوزة ، أو يساعد فى تقديم الطعام ، فإنه غالبا ما كان ينظر إلينا فى ارتياب ، لا يفهم حديثنا ولا يستسيغ صمتنا ، كأنه يقول لنا أنتم سبب البلاوى ، ماذا فعلتم بالبلد !

لم يكن فى صدرى متسع لهموم البلد التى اشتعلت كالحريق . فقد كان فقرى وإحباطى يخنقانى ، وأسلاك المصيدة التى وقعت فيها تدمى خياشيمى . أضيق بالخطب التى يلقيها على عبد الله الجمال وهو يذكرنى بأحمد أمين ، ودور المثقف والمفكر الحر .

هذا الحديث كان يطحن ما بقى فى نفسى من كرامة ، فأستحيل مع هذا الواقع الغريب إلى تراب مطحون ، لم أعد أستطيع أن أحتمل تصور مصير

مدرس اللغة العربية الفقير الشهيد المتواضع . أن أتحول إلى حمار مصرى طيب يمشى على مدق إلى جوار حائط ، يحمل أسفارا ، ويوصّل طلبات الثقافة العربية إلى منازل الطلبة الذين يسمعون الديسكو ويأكلون الهمبورجر ، ويلقون الفتات إلى الدرويش الذى يقف على الباب يردد النصوص والأشعار ، إلا أن أظافرى اللينة لم تكن تخمش إلا وجهى وصدرى ، ودمى النازف لا يتجمع حوله إلا الذباب .

صارحته وصارحت نفسى برغبتى الحارقة فى الرحيل ، ردد على مسامعى لأيام ما كان يتردد عن أن الخروج من الوطن تخل وخيانة . وأن الدور الحقيقى هنا . وأن الوقت ما زال مبكرا لبيع النفس والأفكار مقابل بعض الدولارات .

وفى ليلة غريبة ، أمضيناها فى "كفر شوق" سمعنا أن طائرات الأعداء ضربت حقول الصعيد المفتوحة ، طلبت منه أن يسكت ، وأن يصمت للأبد ، وأن يكف عن الكلام الأحمق والأوهام . قلت له أننى لن أنتظر الموت هنا ، موتى ، وموت البلد الذى أعرفه . فظل يؤكد لى أنه يريد الموت هنا . فى غنائية قديمة حدثنى عن النيل ، وعن الماء والعطاء ، ورغم أنه من حملة البلهارسيا وأمراض الكلى فقد كان يسند ظهره بيديه ويقول : الأشجار تموت واقفة . وضحكت حتى دمعت عيناى .

لم تستغرق مؤامراتى الصغيرة أكثر من شهور ، توقفت عن رؤيته وصرت أتهرب من لقائه . فى صحوة كأنها حلاوة الروح بدأت اتصالاتى هنا وهناك . هنا مع أستاذ كبير طيب ، مازال عنده فسحة فى الروح والوقت ، لكى يرى هموم جرذ صغير مثلى .. وهناك .. زميل لى يحاول أن يشق طريقه ويدعم موقفه . بعد شهور من الضنى والسعى والأقتراض والاستعداد ، والجرى فى المكاتب

والقنصليات وعلى أبواب الداخلية والسفارات . صارعت مواسير الرصاص اللين التى التفت حول رقبتى وصدرى ، وصرخت فى أحلامى مقاوما الغرق والاختناق صليت لربى كثيرا ، وكفرت بكل ما أحلم به من أحلام ، وشحنت كتبى وأوراقى لكى تدفن فى « كفر شوق » ، وأنا أنتظر الختم الأخير على الورقة الأخيرة . أصابتنى حمى عنيفة ، وأرتفعت درجة حرارتى . فأجلت سفرى لأيام ثلاثة ، أمضيتها فى هلوسة ، وسافرت وفى رأسى دوار ، لم أنظر بعدها خلفى فقد غرقت فى وطنى الثانى .

* * *

انقضت الأجازة ولم يبقى لى فى القاهرة إلا أقل من شهر ، الشهور الإفرنجية قصيرة ، أما الشهور العربية فهى طويلة لها هلال ، وبدر ومحاق وليال بلا قمر ، صرت لا أعرف كيف أحسب أيامى .

كنت قد انتهيت من دفع كل الأقساط المستحقة ، وأكملت ودائع جديدة دولارية وأغلقتها . وحللت مشاكل الشقة المفروشة وسحبت نقودى من الشركات المشبوهة . وانتهيت من ترتيبات طبع كتابين : أحدهما لمقالاتى المنشورة فى الخليج ، والآخر لقصص قديمة ، زينتها برسوم لرسام مشهور ، حجزت أسبوعا فى رأس البر . كى أكتب هناك قصة جديدة ، أضيفها للمجموعة ، موضوعها : الهجرة إلى بلاد النفط .

فى حياتى الآن ، لا شيء يحدث بلا قصد أو حساب ، هل أنا الذى أهرب من البراءة ، أم أنها هى ترانى فتستدير ، مؤمراتى الصغيرة تحولت إلى فساد معلن أتباهى به ، وطنى يقبل منى الرشوة ، ويقبض على متلبسا ، وأنا فى رأس البر لا أستطيع أن أكمل سطور القصة . عند اللسان والجربى أتجول بالليل

والنهار . أراقب نساء تحجبن وترهلن . وملابس غريبة وماء عكرا . أكوام زبالة تحيط بالفندق الغالى النظيف ، أطلب طعاما كثيرا ولا آكله . أشترى حلوى فأجدها بلا مذاق . أكتب سطورا حمقاء على أوراق فاخرة . وأسجل بصوتى بدايات القصة أو نهاياتها على شرائط جديدة ، ثم أمسحها وأكملها بأغان قديمة ، أسمعها فى تلذذ كأننى ألعق الجراح .

يسيطر علىّ فى الصباح غضب أحمق ، أتشاجر مع عمال الفندق أتهمهم بالتقصير والاستغلال ، أختلف مع بائع على قروش وأهدده باستدعاء الشرطة ، وفى الظهر أجلس على كازينو قديم . أفكر فى رؤية الحياة طبقا للمذاهب النقدية الجديدة ، وأرى أفكارى ، وحياتى تتحول إلى « مربعات ومستطيلات من هباء ».

أكتب سطورا جديدة فى القصة ، وفى قلب الكراس أخط تعليقات على الحياة ، ثم أطلب من الجرسون إعداد أكله شهية من السمك . أشترى الجرائد كلها ، وقبل أن تبللها رطوبة البحر ، أكون قد عرفت أن الكرة قد أصبحت هناك فى ملعب وطنى الثانى ، وأن الحوار العلمى غير الأيديولوجى يصيب البلد كلها بالصداع وأن هناك حمقى كثيرين يتعرضون للإفلاس لأنهم وضعوا نقودهم فى جيوب غيرهم ، وأن هناك جرائم بشعة ترتكب فى المدن الجديدة ، وأن هناك من يضعون الجثث المقطعة فى أكياس من البلاستيك تحت مقاعد القطارات .

وأنا فى الفندق الفاخر على الشاطئ القديم ، أداعب شيطان الفن ، وأتأمل طيور الخريف المبكر فى براءة ، أخفى نهمى لصدور السمان المحمرة ، كأننى سور متقن جميل يحيط بلا مكان ، عيونى تحت النظارة الطبية مازالت دقيقة لاذعة جميلة . تواقة نهمة ، بها شبق شيطانى لا يشبع .

صرت أكره ضعف الفقراء المنافقين ، أكرههم جميعا لاعقى أحذية ضباط الجيش والشرطة والأمن المركزى .

يقودنى تأملى – بعد كوب البيرة – إلى لا شىء . واقعى الذى أعيشه كاذب . ضربات بيانو واضحة مستقلة ينقصها السياق .

ضع رأسك بين كتفيك . تلفت حولك فى انتباه . لا تكن ذئبا مفترسا جريحا . أطلب طعامى على الشاطئ . يصيبنى بعد الظهر صداع شديد .

حاربت خواء حياتى ، وفى المساء جلست فى الشرفة وحيدا ، أدرت موسيقى نادرة ، وحاولت أن اكتب لأولادى خطابا . كتبت : تحياتى وأشواقى ، أبعث لكم حبى الفارغ الذى لا معنى له . رأسى شاب ولا أستطيع الحكم لكم أو عليكم . لكم حسابات ونقود كثيرة عندى ، وليست لى قدرة على العطاء ، لكم بعد موتى ميراث كبير ، اقتسموه جيدا بينكم ، للذكر مثل حظ الانثيين . أما أنا فحظى قد عرفته .

مزقت الورقة ، وألقيت الكراسة كلها فى البحر الراكن أمامى .

الفصل السابع

أكلت أولادها القطة

هبت على القاهرة عاصفة ترابية مفاجئة أكدت لى أن كل شىء لم يعد كما كان . حول العاشرة صباحا ، اهتزت الأبواب والنوافذ وتحطم زجاج بعيد ، اعتلت السماء صفرة ، لسعت الوجوه ذرات تراب ،فأسرعت خطوات الناس فى الشوارع ، واختفوا فى الدكاكين ومداخل العمارات ، وتوارت الشمس خلف غبار كثيف ، لم يأت يوم كهذا منذ سنوات . فلماذا يأتى الآن ، وأنا هنا فى أجازة .

تطاردنى شياطين الظهيرة ، ويحاصر حياتى قدر ملعون . أغلقت نوافذ الحجرة ، وانتظرت طويلا قبل أن أضيئ المصباح ، أطبق هذا الضوء الغريب على صدرى ، فأسرعت إلى علبة الدواء أستحلب واحدة تحت لسانى . هناك وقع بصرى مرة أخرى على وجهى فى المرآة . لاحظت أننى أتجنب الوقوف أمامها كثيرا ، عندما أقف فإننى أرى فى أعماق عيونى كائنات غريبة تتحرك فى عنف وتتصارع ، فأرتبك ، وأغلق عينى بسرعة ، وأكمل ما بدأت دون أن أرى وجهى كاملا فى المرآة .

هناك وجه جديد يتشكل كل يوم لا أستطيع أن أتعرف عليه بسهولة ، ويفاجئنى كل مرة شىء جديد . فى ذلك الضوء الغريب لمحت عيونى وكأنها دهاليز عميقة ، أزلت النظارة الطبية ودعكت وجهى ، فعادت إلى المرآة طوابير الكباش الحمقاء المتتالية ، وانتابنى دوار . أضأت مصابيح الغرفة وحاولت أن أتمسك بزمامى ومكانى . أكرر لنفسى أننى فى أجازة . وأن هذه أشيائى وحقائبى وأوراقى ، وأنه لم يبق سوى أيام فأجمع كل شىء وأعود إلى وطنى الثانى ، حيث لا شىء يفاجئنى لا دوار ولا غثيان ، حيث ينتصب جسدى وعقلى فى حذر وتملأ خياشيمى رائحة غريبة هى خليط بين رائحة النقود الجديدة والدماء والسمك ، رائحة تخترقنى فتعدل رأسى بين كتفى ، وتطلق فى جسدى

قوة ذئب مفترس . يعتريني هذا الضعف هنا في هذه المدينة التي يعتصرني لها شوق حارق ، وتتلقاني في شوارعها وضوء نهارها وليلها بحنان زائف . يخفي نصالا لامعة لا تجرح ولا تدمي .

وهذه عاصفة سوداء تحاصرني فيها وأنا وحدي في غرفة غريبة عالية السقف يدور بصري على الأشياء المتناثرة حولي ، فيرتد لي معلنا وحدتي وغربتي وخوفي ، كيف صرت وحيدا إلى هذا الحد ؟ الدنيا كلها خلف الباب وأنا لا أذهب . الناس كتلة حمقاء لا تعنيني ، عداؤها ليس خافيا . أدارت هي ظهرها لي نهائيا في إرادة غريبة عليها وشجاعة لا أفهمها . أي جرم ارتكبت ؟ هل كانت تظنني ذهبا فوجدتني نحاسا . أنا لم أخدعها . كنت أحب أن أقف عاريا تحت جلبابي الأبيض ، أعلن أصلي وفصلي ، ولا أداري أفعالي أو نواياي . لم أتعلم أن أدهن وجهي، أو أن أقبض النقود في تأفف وضجر لكي أنثرها حولي في تفاهات وترهات . لم تفهم هي أبدا . لم يكن هذا بخلا . ولكنها كانت علاقة غريبة جديدة أدمنتها مع تلك النقود لم تكن سبيلا لتحقيق أشياء صغيرة تؤكل وتشرب وتلقى في المجاري . كانت النقود بالنسبة لي روحا جديدة ، ودماء تجري محل الدماء التي فسدت وجفت ، وحولت الدنيا إلى خرم إبرة ضيق ، منذ أن تراكمت النقود في البنك وأصبح لي ولها وللأولاد ودائع دولارية مغلقة ، بدا كأنها تذهب في طريق وأنا في طريق آخر ، زواجي الذي تصورته سيصبح شركة تنمو وتكبر . تحول إلى محكمة منصوبة لي ليلا ونهارا . اعترضت على المشاريع الصغيرة التي دخلت فيها مع أهلي في كفر شوق . تسخر مني ومنهم . وتصنع من كل مشكلة صغيرة كارثة ، تؤكد لا جدوى تفكيري ، وجري وراء الأوهام . كانت تتناول مرتبها في بساطة وتلقي به في حقيبة يدها ، وتظل تنفقه حتى يتبخر . تشتري عشرات اللعب للأولاد ، أشياء لا أحبها ولا أفهمها ،

ولا أتصور أنها غالية إلى هذا الحد . منعتها منعا باتا من أن تشترى لى ملابس . فقد كان كل شيء تشتريه كارثة ، كأنها ألقت النقود فى البالوعة . لم أكن أستطيع أن أرتدى تلك الأشكال الغريبة التى تشتريها . يكفى ما كان يحدث فى داخلى ، وفى وجههى ، لم أكن أحتمل تغييرا آخر . كنت أريد أن أتمسك ببدلتى وقميصى ورباط عنقى . ألا يكفى أن يكون المرء نظيفا ، تراقبنى وأنا أرتدى ملابسى فتغطى وجهها بجريدة ، أو تغادر الغرفة وتصفق الباب وتحتفظ على وجهها بتعبير جامد من القرف والتعالى . تحملت كرامتى من غبائها الكثير . لكننى كنت أشعر أنها ليست صادقة وأنها تريد بطريقة غامضة أن تستدرجنى إلى أرض لا أعرفها ، هناك تجردنى من ثيابى ونقودى وتركب على أكتافى . وتقودنى فى أسفار وطائرات وبلاد فيها ينفق الناس النقود بطريقة عادية كى يعيشوا ويستمتعوا. أضحكتنى « يعيشوا ويستمتعوا » هذه أضحكتنى ولم أفهم لها معنى .

كانت هناك دائرة ضرورية محكمة ومقنعة علينا أن ندور فيها . أن نجمع هنا هذه النقود . وأن نصبر وأن نترك النقود فى تراكمها البديع تصنع لنا سنوات جديدة تأتى بعد أن نعود .

وهى الأخرى لم تكن تفهم « بعد أن نعود » . كانت تشعرنى دائما أننا يجب أن نعود غدا ، الوقت الطيب بالنسبة لها هو الوقت الذى ننسى فيه أننا رحلنا . والأولاد تلك التحف الهشة الغالية . التى يجب أن نسرع ونعود بها لتضعها فى حضن بيتها الغالى العزيز بمصر الجديدة . ليس من حقى أن ألمسهم ، أو أداعبهم ، أو أقول أمامهم ما أريد . صرت بالنسبة لهم غريبا لا مكان لى . لا فى واقعها ولا فى أحلامها . تمضى نهارها فى الجامعة . وعندما تعود تغلق على

نفسها غرفة مع الأولاد أو تأخذهم لتزور صدقى فراج وزوجته . وتحتفظ دائما بشعور مؤقت كأنها فى نزهة سخيفة ولابد أن تعود . كنت أريد أن أعيش حياتى فى رضا واطمئنان .

حلت الشركة قبل أن تنعقد . بعد أقل من سنتين كان علىّ أن أحتفظ فى داخلى بمؤامرتين ، مؤمراتى الخاصة التى أوازن بها أمورى هناك فى وطنى الثانى ، ومؤامرتى البيتية التى أحتفظ بها فى غرفتى وتحت سريرى ، كى أخفى عنها مشاريعى الحقيقية وما أفكر فيه وما يشغلنى . لم يكن هذا فى البداية يزعجنى . بل كان يتحدانى ويؤجج مواهبى ، كنت أستمتع بأن أعيش دائما على حذر وفى خطر .

دخل إلى غرفة نومى إهمال متعمد ، وقذارة متزايدة ، المرآة التى تحطمت لم تكن تريد أن تصلحها ، هى تصر على شراء غرفة جديدة ، وأنا أريد هذه الغرفة ، وأريدها نظيفة ، ولا أرى ضرورة لتغييرها ما دمنا نحن هنا .

كنت أراقب نفسى فى المرآة المكسورة . وأنا أرتدى ثيابى المألوفة على عجل ، ويتأكد لى أننى فقدت مواهب جسدية كثيرة ، وأن منظرى بملابسى الداخلية صار مضحكا ، فأسارع لإخفاء كل شىء . آخر ما ألمحه بريق جديد فى عيونى لا أعرفه .

يخدمنى فى هذا البنسيون عاملان ، أنور وخليل ، يتبادلان الورديات بالليل والنهار ، أنور لا يشبع ، يتطلع إلى الأشياء ويتصيد بحركاته النقود طوال الوقت . أما خليل فقد كان ضعيفا جدا وفقيرا جدا . وكان يستحى من التمحك طلبا للنقود . عرفت أنه يعول تسعة أولاد ، وأنه قد استسلم لنوع قاهر من الفقر ،

وأنـه لـم يعد يرفـع يده للاعتـراض أو المقاومـة ، ولكنى فى ورديتـه كنـت أجـد ما أطلبه بسرعة . كما كنت أشعر أن الحجرة دائما نظيفة .

* * *

أصبح للقاهرة ساعة مسحورة تهدأ فيها أثناء النهار . ساعة غير معروفة تتوقف على اليوم ، وعلى موقعه من الشهر ، وعلى حركة السياحة العربية والغربية . تفرز فى الشوارع رخات من الناس . ثم لا تلبث أن تبتلعهم . تخلو الشوارع الجانبية إلا من القطط التى تتسلق صناديق الزبالة المعدنية الكبيرة ، أو باعة مشبوهين ، أو نضورجية يتلفتون حولهم فى ارتياب .

كنت أقطع الشوارع الجانبية هذه فى طريقى إلى ميدان الأوبرا القديم ، لكى أبحث هناك عن صور الأطفال الملونة ذات الدموع الثابتة . شىء ما يضحكنى فى هذه الصور ، وفى تمسك الأحباء هناك بها . هذا ذوقهم وفهمهم للفن وللمشاعر . قطعة صغيرة من الأحزان الملونة . تلوكها فى فمك ، محدثا نوعا من المصمصة هى خليط من الإشفاق والاستغراب والاستمتاع ، لأن هذا يحدث بعيدا عنك . ثم مراقبة فخمة متعمدة لتنسيق الألوان . وتراكمها فوق بعضها . هذا هو الذوق الذى زحف على أيامنا ولصق التافه بالقبيح ، ووضع الجمال كله فى بطن راقصة ، وشعر قواد ، وغنج صبى العوالم ، صارت دمعة الطفل الثابتة هذه رمزا للهموم والأحزان .. أفكر فى هذا ولا يحزننى ولا يقلقنى ، ولكننى أشعر بأننى فارغ .. فارغ حتى القاع .. وأن ليس عندى ما يقال .

تترجم حقائق الحياة وعلاقاتها وبديهياتها إلى عمليات حسابية صغيرة . تجرى فى ذهنى بشكل تلقائى ، تضئ أرقاما ولمبات حمراء وعلامات ضرب وقسمة حتى تهدأ إلى رقم أعرفه وأستريح إليه ، بعدها لا أجد نفسى أناقش أو أتلفت حولى .

لست أدرى لماذا لم أتقن لعب القمار معهم . قد يكون السبب الحقيقى أننى أحترم النقود ، أننى أحترم الحظ . وأعتبره جزءا من الديانة ، ومن الأيمان ، ومن علاقة الإنسان مع ربه . ورضاه الداخلى عنه . لا شك أن الله راض عنى . وأول دليل على رضاه ، أنه خلصنى من تلك الزوجة التى كانت تريد أن تسحبنى إلى قاع هذه المدينة العقيم .

فى أعقاب العاصفة الترابية كانت قاهرتى خالية تماما . كلها لى ، أذرع شوارعها فلا أرى وجها أعرفه . كأننى نزلت مدينة جديدة . أو حيا من أحياء مدن وطنى الثانى التى لا طعم لها . دكاكين متراصة غير متناسقة ، لا تاريخ لها ، تضئ لمبات كهرباء ملونة بالنهار ، وتعرض بضائع ملونة متباينة لا تثير إلا الحمقى .

من أول الأجازة كنت أعرف أن صديقى عبد الله الجمال قد مات . سرطان فى الرئة ، ثم عمليات فى الرئة ، ثم نهايات محتومة بعد شهور كان قد أرسل فى طلب قرض مالى ، أرسلته دون تردد كثير ، عندما فاجأتنى قبضية مفاجئة من عمل كنت أحسب نقوده ماتت . لم أحصل منه على رد . لكننى عرفت أنه ذهب فى طريق اللاعودة . أصبح الموت مثل النقود حقيقة جديدة بالنسبة لى حقيقة محددة ، واقعية ، لا أوهام كثيرة حولها .سمعت أنه كتب قصصا جديدة عن الأنهار وعن الأشجار ، وعن البيوت الجديدة فى الحقول . وأنه استقال من عمله وطاف فى الريف وعاش سنوات موته الأخير لا يأكل ، وقال لى أحد محبيه أنه فى الشهور الأخيرة كان يرقص من الألم . وصدرت له قبل النهاية مجموعة قصص لم يقرأها أحد .

عندما طلبت من الدكتورة سناء فرج أن تتحجب ، أو تغطى رأسها ، قالت إنها لن تغير جلدها من أجل مال قارون . لم يكن هذا أمرا ضروريا ولكنه كاشف

عن المقاصد والنوايا . الجميع يفعلون ذلك حولنا لأسباب مختلفة . لم أكن أحسب أن هذا ضرورى فى البداية ولكن عنادها وأصوات الزملاء حولى جعلونى أفاتحها فى الموضوع لم ترد علىّ وتجاهلتنى ، بل تشاغلت بتصفيف شعرها واختيار أنواع المكياج . فى الأماكن الضرورية كانت تغطى رأسها ، ثم لا تلبث أن تخلع ما على رأسها وتلقى به مبدية ما تشاء من تبرم وضيق لا أسمعه لم تكن متبرجة بل على العكس كانت تميل إلى نوع من الوقار الإنجليزى القديم ، وللحق كانت تبدو فيه كاملة ووقورة .

تختار أصوافا غالية ، وأقمشة داكنة تبدى بياض بشرتها وأرستقراطيتها المهيضة . ربما كان هذا يستفزنى أكثر ، فتبدو لى أكثر فأكثر غريبة متفردة خارجة عن السياق .

كنت أريدها معى ، فى مشروعى ، طرفا فى المؤامرة . كانت تغيب فى قراءة كتب تستعيرها من المكتبة ، كتب أدب وتاريخ . ترفض أن تعمل فى ترجمة المقالات الصغيرة التى تنهال علينا ،تتضاعف أجورها يوما بعد يوم . تنشغل بالمحاضرات ، وبمناقشات مشاكل الطالبات حتى تصدع رأسى بقضايا اجتماعية لا حل لها ، تحملها فى رأسها ، وتتحامق فى البحث عن حلول لا تؤدى إلا إلى كوارث . أمنعها بالغضب والخناق من أن تتدخل فى شئون الأسر الكبيرة التى تفرض على البنات أوضاعا غريبة .

ما أغرب ما يدور بين الرجل والمرأة فى غرفة مغلقة ، وما أبشع الغرفة عندما تكون غريبة تحيطها أرض خلاء وصحراء وغربة تسكن فى العظام . ما أغرب الخلوة عندما تسيل من حولها شكوك وحذر ومخاوف ، تمتد بينهما مسافات مستحيلة . يصبح الكلام فتات أحلام ورغبات محطمة ، عناق فاتر ، وقبلات مكررة ومعاشرة كأنها إثم قديم .

بعد شهور طويلة من النقاش اللامجدى عن الحجاب وغطاء الرأس جاء ثلاثة من الزملاء ، لقاء تآمرى دبرته أنا ، واحتلوا صالة البيت . بعد أن قدمت لهم الشاى فى براءة فتحوا الموضوع ، أخذت موقف المراقب فى نذالة وتركتها تواجه منطقهم المتصاعد . تركتها تبارزهم بسيفها الخشب . حدثتهم برطان طويل عن الحرية ، وعن الشكل . والعقيدة . وروح الدين . تركتهم يحاولون إقناعها وانشغلت بإعداد بعض الأوراق التى علىّ أن أقدمها غدا . كان حديثهم مكررا ، مؤدبا وكانت هى تتراجع باستمرار أو تلوذ بالصمت .

كنت غارقا فى أوراقى عندما لمحتها تخرج من غرفتها فجأة وقد ارتدت قميص نومها وحملت طفليها وهى تقول عن أذنكم أريد أن أنام انتبهت لهم فجأة . واعتذرت لذقونهم عنها ، وداريت ارتباكى بعصبيتها وغربتها عن هذا المكان . أحسست أنها شجاعة جريئة ولكننى تأكدت أنها ستكون مصدر خطر بالغ .

من بوتيكات الأزبكية ، اشتريت صور الأطفال ذوى الدموع الثابتة . جمعتهم فى أسطوانة بقروش قليلة . وأنا أشعر فى روحى بخواء غريب . كنت أشترى من هنا كتبا عزيزة نادرة . لكنهم لا يبيعون الآن إلا مآسى هذا الحاضر . وأنا أبحث عنها وأشتريها كى أحملها إلى أحبائى فى وطنى الثانى .

اشتريت أيضا مصحفا مكسوا بالذهب . وكتبا غالية للحديث وانتهزت هدوء الشوارع لكى أفرغ من كل المشتريات .. شلت جلدية ، شرائط مصحف مرتل ، وعدد من الأحذية . ومشغولات نحاسية متنوعة .

حملت أغراضى الكثيرة وأخذت طريقى إلى غرفة البنسيون .

* * *

فى الغرفة تناثرت حولى الأشياء والأغراض ، فتحت النوافذ فعاد مساء القاهرة الصافى يدخل إلىّ فى نسمات رقيقة مفاجئة . وأطل من الشرفة الواسعة

قمر مسرع وحيد . هذا مساء أخير سأذكره . أحمله معى أيضا ويثقلنى ، أعباء عاطفية جديدة .

عندما أخذت أولادها كانت تبدو فرحة منتصرة . هل ما زالت كذلك . بعد المعارك فى « دلوك » والمناظر فى قسم الشرطة . والأوراق والتنازلات . كنت أراها نمرة تحمى أولادها . وكنت أقول لنفسى : اليوم لها . دعها ترضعهم وتعيش معهم ، ويعيشون معها . لكننى الآن أراها .. قطة أكلت أولادها خافت عليهم من حيوان ظنته مفترسا فأكلتهم . أخفتهم فى بطنها .

ماذا تستطيع أن تقدم لهم سوى خواء حياتها وأفكارها ، وترددها فى داخل خرم الإبرة الضيق ، فقرها وغرورها الفارغ وتعففها المتعمد العسير .. أكلتهم خوفا عليهم .

لم لمْ تتركهم معى .. أحبهم .. وأحبها وأحب أن أعيش معهم ولكن ليس فى خرم الإبرة هذا .. لم لم تتركنا نعيش فى كفر شوق نعود هناك وتكون لنا حياتان ونستعيد رجب ، وكهف الذهب . وأحلام البريق .

أى كلمات عجفاء أرضعتها للأولاد ، فصاروا غرباء عنى . ليسوا لها ، وليسوا لى . أولاد أرض أخرى . ووطن ثان ، أولاد أحلامهم شوهاء . ومخاوفهم فى قلب أحضان الأم والأب ، أيتام فى القلب . يسكنون قبور الأحلام ، أشتريت وحدتى ، ولم أدفع شيئا .. هزيمة هذه أم نصر .

قدم لى قبل أن ينصرف ،خليل خادم البنسيون الفقير دورقا جميلا من الليمون الطازج ، ولم ينتظر بقشيشا أو مقابلا . جلست فى الشرفة ، تحت القمر ، أستعيد وجه زوجتى وأولادى . وأجرع مع الليمون البارد مرارة لا مثيل لها .

الفصل الثامن

إعارة إلى الأبد

تقدم الليل وخبت أصوات الشارع الذى أراقبه من شرفة البنسيون ، مكانى الضيق الوحيد ، يغطيه تراب ناعم يلمع تحت ضوء القمر الذى يفر بين العمارات .

ليلة عاطفية ثقيلة ، مليئة بالصمت المبتور ، واللحظات الضيقة ، تحجرت الدموع في الحلق ، وامتلأت النفس بالمخاوف ، ورعب الغياب إلى الأبد .

أغادر غدا عند الظهر ، وكم غادرت ! لكننى هذه المرة مشروخ ، خائف ، منقسم ، أعيش مشاعر القتل الذى لم أرتكبه .

تحضرنى فى الليل أشباح أولادى الذين لم ألمسهم ، وأبى الأعمى الذى لم أره فى كفر شوق ولن يرانى ، يثقل وطنى أفكارى ، وطنى الذى غدرت به وغدر بى .

انتهت شهور الأجازة ، كأنها سيجارة قديمة بلا مذاق ، ليس أمامى إلا أن ألقى بها ، وأسحق ذكراها ، ليس لى ليل آخر هنا ، ولا صباح ، لم أر الحقول ، لم ألمس سوى أم عصام ، حتى صوت أولادى لم أسمعه .

تراكم خوف ، وضعف ، وكبرياء فارغة فصنعت خواء أيامى هذه ، خواء عشته فى قلبى ، وسكن بين ليلى ونهارى ، خواء أجرد بارد مفروش بالنقود .

لم أصرف فى هذه الرحلة نصف ما قدرت . الدولارات فى جيبى صحيحة ، ونقود مصرية كثيرة ، وهم جميعا هنا يشتكون من الفقر والغلاء .

دفعت إيجار البنسيون ، وأجزلت – قدر استطاعتى – العطاء لخليل عامل البنسيون ، الذى أمسك بذراعى واستحلفنى أن أجد له مخرجا من هنا إن استطعت ، وسألنى مرات إن كنت أحتاج لشىء آخر قبل أن ينصرف .

كان دورق الليمون البارد الذى وضعه أمامى ، شيئا حلمت به ، فى مذاقه شىء خاص لم أجده فى أى مكان ، يستقر فى الحلق ، ويصعد إلى العينين والدماغ ، لا أعرف كيف صنعه هكذا على مذاقى ، دون أن أطلبه ، أو أصفه ، الحمد لله ، أننى حصلت على هديتى هذه فى اليوم الأخير ، هل أستطيع أن أحمل بقاياه معى ؟ وبعضا من ضوء هذا القمر ؟ له لون من الفضة هنا ، وليس له لون هناك ، أريد أن أحمل معى أكياسا صغيرة ، من عصير الليمون .. وضوء القمر .

النور الخافت فى غرفتى ، التى لن يزورنى فيها أحد ، يسقط على أشلاء وشظايا من ملابسى وأغراضى . وأنا فى الشرفة أراقب سقوط قطع الليل الداكن ، أدخل بين الحين والآخر ، ولا أفعل شيئا سوى أن أنظر إلى وجهى فى المرآة القديمة ، فأرى عيونى ، وذقنى النابت الذى يحتاج إلى حلاقة ، نرحل جميعا فى ليل داكن ، نهاية بلا نهاية ، وشخص لا أتعرف عليه ، أعود مسرعا إلى الشرفة أبحث عن روحى فى فراغ الشارع .

يأخذنى ظلام مبلل رطب ، وقد استقر غبار اليوم ، وصفت السماء صفاء باهرا بعد اختفاء القمر .

أشاهد أمامى كوبرى محطة كفر شوق القديم المصنوع من الحديد والخشب ، والشجرة العجوز وقد احتوت كل الأضواء المتكسرة ، صارت ليلا ونهارا ، سامقة غامضة لها عيون صفراء ، شجرة محطة كفر شوق مزروعة أمامى فى قلب شارع الأسفلت ، ليس تحتها تراب ، تحتها يمشى رجب طويلا ، يرتدى « بنطلون كاكى » ويمسك فى يده حذاء ضخما ، ورأسه ملفوف بشال ،

عيونه تختفى تحت نظارة سوداء ، يسير أمامه فى الشارع ديك بلدى ملون كبير . أسمع صوت مخالبه الصفراء ذات الأظافر على الأسفلت ، ورجب يخطو خلفه بأقدام حافية لا صوت لها . كأنهما - هو والديك - صاحبا البلد يتجولان فيها بعد اختفاء القمر .

بينهما فى نهاية الشارع مسافة ثابتة ، فى يدى ساعة تشير إلى انتهاء الليل ، الديك يهتز فى خطواته أنيقا واثقا ، ورجب خلفه يزداد ضعفا وهرما ، يسقط الحذاء من يده فردة ، فردة ، وتزحف أقدامه العارية على الأسفلت محدثة صوتا كأنه الفحيح .

عند إشارة المرور توقف الديك متلفتا حوله ، فاردًا ألوان جناحيه ، وتساقط رجب كى يبتلعه الأسفلت ، كأنه بناء من طوب أخضر تحول إلى تراب ، قبل أن أرى ضوء الفجر أقتحم الأفق مغربى بدوى رحال ، يحمل أكياسا وأحمالا ملونة ، مسح بكفه على أسفلت الشارع ، فانطلقت منه أشجار ودخان وبخار ، رأيت الديك يرقص مذبوحا وقد غمرت إشارات المرور دماؤه ، حدقت فى غبشة الشارع ، فراعنى أن أرى أشلاء أطفال ، حسبتهم لحمى .

* * *

مربعات زجاج الغرفة نصفها ليل ونصفها نهار . صمت بالغ فى صالة البنسيون لكن ضوضاء رحيلى فى رأسى تزحم الحجرة ولا تجعلنى أنام .

رقدت على السرير أودع مصر ، وأتحفز لوطنى الثانى ، حيث يجب أن يكون رأسى بين كتفى ، وعيناى فى وسط رأسى .

فى كل الرحلات السابقة كان يملؤنى شعور بأن شيئا ما يمكن أن يحدث فيمنع سفرى أو يؤجله ، لكننى هذه المرة أشعر أن قدرا مقدورا يدفعنى خارج البلد ، شىء ما ينادينى هناك ، خطوات أرانى أقطعها وأنا راقد على سريرى قرب الفجر ، أسير إلى أرض مسحورة أو رمال ناعمة أغرق فيها وحدى .

ذاهب لكى أعمل فى صف طويل من العبيد المقيدين من رقابهم وأرجلهم ، محكوم عليهم فى جرائم لم يرتكبوها ، لا يحق لهم أن ينظروا حولهم ، جرائمهم فى قلوبهم ، علقت على صدورهم أوراق ، هى الهوية ، وختم كختم اللحم الخارج من المذبح أو الداخل إليه .

فى قلبى فكرت فى نقودى التى كسبتها آلاف تغطى حارة ، أو تفرش محطة كفر شوق ، أفكها وأدور بها فى حزام حول الأرض ، وتنفسى ضيق ، وعيناى متحجرتان بالدموع ، وخوف بارد يسرى فى أطرافى .

أفشل فى الوصول إلى معنى لهذه النقود ، صار تفكيرى فيها يقودنى إلى الموت والنهاية ، لكنها هى تدفع النهاية ، نقودى هى التى تدفعنى إلى تحدى النهاية ، كأننى اتصلت بالشيطان ، عقدت حلفا سريا معه ، تحالفنا لكى نشهد معا لحظات البشاعة ، نعيش الجرح والتشريح . ولا نرى الدماء . نشعر بها تسيل تحت قمصان بيضاء ونظيفة ، وبدل لامعة ، ونجمع الأشلاء فى حقائب جلدية أنيقة ، أما العدل القديم ، والحق والنبات الأخضر ، والطفل الصغير ، فقد صاروا نكتا سوداء ، تجعلنا نبرز أسناننا بيضاء لامعة ، ونمسح جباهنا بورق ملون له رائحة ، نستعذب حكايات التشوه ، انفصلت أنا ونقودى عن خراب الوجود ، صار فيلما مرعبا لا يعنينى ، مادة خام للحديث تفصل بين لحظات المتعة الصغيرة .

أرانى وأنا راقد فى سريرى فى زى الرسمى : البدلة لامعة ورباط العنق أنيق . ألقى محاضرة فصيحة ، كلمات كبيرة عن الثقافة والتاريخ والأدب ، أرانى أتكلم عن المستقبل والعرب ، وأنظر إلى أقدامى فأراها غارقة فى كذب فواح الرائحة بشع المنظر ، لكن من ينظر إلى الأقدام ، تسريحة الشعيرات التى تخفى الصلعة أهم من الكبرياء والمعنى ، فهى ورباط العنق الغالى ، تفتح أبواب المكاتب ، وتنهى بسرعة كثيرا من المناقشات : بشرط أن تأخذ سمت الجدية والنجاح ، وأن تقابل الحمقى بوجه مبتسم .

عندما خططت مؤامرتى الصغيرة لكى أرحل ، وأنقذ نفسى من خرم الإبرة ، لم أكن أعرف أننى أرحل فى بحار بعيدة ، كان الشاطىء يبدو لى أخضرًا قريبا ، فيه ماء وخصب ، ودفء وفير ، سرت إليه وحدى حتى ضاع منى وغاب ، صار سرابا يتلوه سراب ، تعاقبت سنوات الإعارة علىّ ، وشيء ما يشدنى من عيونى ، يسلبنى نفسى وأحلامى ، وأولادى ، ويحيلنى إلى مومياء ذهبية أنيقة ، ترحل وتأتى دون إستقبال أو وداع ، أنهار الأرض لا تغسل ندمى ، ومرارة الحلق لا يغسلها الحليب ، أعود إليهم فلا أجدهم ، أذهب مرة أخرى ابحث عنهم ، أعود شخصا آخر ، صوت الخلاط ، والتكييف والماكينة والطائرة ، غناء بلا قلب ولا رائحة ولا حنين ، صوت بلا فحوى ، ونقود بلا رنين .

حبات الأزمة القلبية أستحلبها فى الظلام ، أخشى حدوث تقلصات الأمعاء فأتجول فى الحجرة ، أتحسس الأشياء التى يجب أن أضعها فى الحقيبة ، ملابس الأولاد الجديدة التى لم أسلمها أو أرسلها لهم ، ذاب قلبى وأنا أشتريها لهم ، وددت أن أعرف مقاسهم جيدا وذوقهم ، تمنيت أن ترضى المجنونة مرة واحدة عما أختار ، هاقلبى يذوب وأنا أحشو الملابس مرة أخرى فى أوراقها الشفافة التى لم تفتح .

لا فرار الليلة من تلك الظلال التى تزدحم فى الفجر على جدران الحجرة ، ولا فرار من ذرات غبار محطة كفر الشوق ، تسد حلقى ولا تريد أن تنجاب ، كأنها تريد أن تدفننى حيا .

بحثت فى ضوء الفجر عن حقيبة الأوراق ، كيس البلاستيك والغليون المرسوم عليه والدخان ، وأوراق القصة القديمة ، والوصية التى لم أكتبها ولن أكتبها أبدا . أطفال بلا دموع ، اسم كأى اسم ، ستضحك هى كثيرا لو قرأت ما فى هذا الكيس هى أخذت منى ورقة واحدة لم أعرفها . أنا أعيد لها قصة أولادى الذين لم ألمسهم . ورقة واحدة هى حلمى بأن أكون .. هى التى

حرمتني من أن أكون إنسانا ، أخذت إنسانيتي وذهبت مع الأولاد تستحم على الشاطيء وتركتني وحدى لغبار الطريق . أذهب . وأعود . أذهب . وأعود . صوت طائرة فى أذنى . أحسب ما دفعت . وما يجب أن أدفع .. ما كسبت وما لم أكسب . وما أزال راقدا تحت أثقال القهر وركام الفقر والإهانة .

عبرت المفازات الجهنمية وحدى ، بعد الغرام لم يبق فى القلب سوى ندم مر ، إلتوت كل الطرق ، مواسير رصاص لين ، سكن الشيطان بين اللحظات مؤامرة الرحلة ، شركة الزواج ، حسبة الطلاق ، أكوام النقود ، والودائع .. كل الحسابات الغريبة لا يمكن أن تمنع طلوع هذا الفجر ، يدخل علىّ وحيدا ممدا على السرير فى غرفة البنسيون ، ليس حولى سوى حقائبى المفتوحة ، وملابسى المستعملة وأغراضى .

* * *

دخل ابن عمي محمود يحمل معه أربعة سندوتشات فول وطعمية ، وورقة صغيرة ، بها مخلل .

لو استطعت لمنعته من الدخول .

أنا الآن أريد أن أكون وحدى تماما . أطارد الظلال والغبار ، وأنتهى من وضع الأوراق فى أماكنها .

ولكنه ، محمود ، يعرف كيف يجلس ، وكيف يتكلم ويحكى دون أن أسأله .

محمود ابن عمي ، عيناه علىّ ولا يرانى .

كيف تبقى علاقة كهذه بين هذا الفلاح ، وبينى أنا الدكتور منير عبد الحميد فكار أستاذ الأدب العربى فى جامعة « المطل » بمدينة « دلوك » .

أسرع محمود يتحدث عن المكسب والخسارة ، وعن شركات الأموال ، واللصوص ، ومصائب الذين وضعوا نقودهم فى جيوب غيرهم ، وأهل البلد الذين يمسكون فى ذيله لكى يرى لهم حلا وبقيت أسمعه وأنا وحدى : أحسب حسابى ، ليس لى نقود ضائعة ، نقودى قوية ، واختيارى سليم ، وأنا والحمد لله فى خير حال .

سألت نفسى ، وهو معى ، ماذا يكسب الإنسان لو ربح الدنيا وخسر نفسه : فقد أكد الطبيب المتخصص الذى أرسلته إليه ، أنه مصاب بسرطان المثانة وأن الجراحة ضرورية ، وهو مازال يفكر .

ضحك وهو يفك ورقة المخلل قائلا ليس لنا ولا لك فى هذا يا دكتور حل ولا اختيار .

حاولت أن أنشغل عن حديثه بحلاقة الذقن ، وترتيب الحقيبة الكبيرة ، وإخفاء ما لا أريده أن يراه : لكنه كان يرى كل شىء ، ويضع يده فى كل شىء . جلست أكتب له عددا من الشيكات التى يصرفها لأبى وأنا أرى النهار يتقدم .

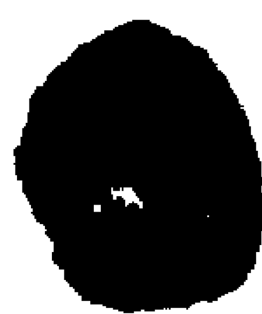
سبحت ذبابات الصباح فى فراغ الغرفة ، وهو مازال يطن بلا توقف ، وسألت نفسى هل يعيش ليصرف كل هذه الشيكات ، وماذا نفعل لو خر راقدا ، أو سقط صريعا .

أصر مرة أخرى على أن يركب معى التاكسى ، بل دفع هو النقود عند باب المطار .

وأنا أساعده فى نقل الحقيبة الكبيرة ، انفتحت وتبعثر ما فيها على الأرض . لو أننى أغلقتها بنفسى لما انفتحت وبان منها كل شىء .

« يوليو ١٩٨٩ »

قمر على المستنقع





P



مقدمة

هذه الرواية مأخوذة من الأوراق الشخصية للدكتورة « سناء فرج » أستاذة الجامعة السابقة ، وطليقة الدكتور « منير فكار » أستاذ اللغة العربية المعار فى جامعات الخليج ، وقد سبق للدكتور أن حكى حكايتهما معًا تحت عنوان « أطفال بلا دموع »

الحمد لله ذهب ، أغلق هانى قبطان باب الشقة خلفه ، وذهب ، أسرعت إلى غرفة النوم الكبيرة ، وأغلقت - أنا الأخرى - الباب على نفسى . وحدى ، أتكلم وحدى بلا صوت ، كأننى أكتب بحبر أبيض على ورق أبيض ، صوتى فى أذنى ، يصعد إلى عقلى وينزل إلى قلبى .. وهناك يبيت .

أفرح عندما يحيطنى فراغ ، كأننى أسبح فى قطيفة ناعمة أو حرير ، سامحنى يا رب ، اغفر لى كل هذا البطر بالنعم التى تكاد تغرقنى ، واغفر لى - لو سمحت - عدم قدرتى على احتمال مزيد من هذا العذاب .

ذهب هانى قبطان - الآن - بعد أن أنزلنا أنا وتامر ولمياء وداده نجية فى الشقة المفروشة ، وذهب هو إلى فندقه القديم . سناء فرج .. الدكتورة سناء فرج وأولادها ، فى شقة مفروشة فاخرة فى مرسى مطروح ، أكرر اسمى وأكرر المكان ، أريد أن أنسى الكون والمكان ، وأريد أن أذكره .

هانى قبطان .. عشيقى ، رفيقى ، خطيبى ، وأنا .. هه ، أقترب من الخمسين . يريد فارسى الجميل أن أتزوجه على زوجته ، أم هانية وتيسير ، يريدنى زوجة ثانية ، محظية بيضاء ، مخدعًا إضافيًا ، وفراشًا « استبن » ، عادى ، لا شىء جديد ، إلى هذا وصلنا .

أجازة صيف باذخة مسروقة ، عشرة أيام فى وسطها عيد ميلادى ، مناسبة سعيدة لسلخ الشاة بعد ذبحها ، خلاص ، خطوة وأصبح فى الخمسين ، السادسة والأربعين ، البحر أمامى والزبالة خلفى .

شبابيك غرفة النوم الكبيرة تفتح على ظهر المبنى وتطل على مناور عمارات وخرابات وحشية ، يتصاعد منها دخان حرائق قمامه . من النافذة الصغيرة أرى وسط الدخان ، أطرافا صناعية من الجبس وأكوامًا من القطن والشاش ، بقايا مستشفى ملاصق ، تصدر عن الحرائق الصغيرة رائحة فذة .

أغلقت كل نوافذى ، وأحكمت فوقها الستائر ، صرت فى عتمة النهار ، خلعت كل ملابسى ووقفت عارية أمام المرآة .

*　　*　　*

مازلت أحب جسدى رغم السنين ، مازلت أحب جسدى الحر الجميل ، فى هذه المرآة خافتة الضياء وجهى ساكن ، وجهى حقيقى ثابت ، أتعرف على ملامحى ، أنفى مازال عريضًا ، رجوليًا بعض الشىء ، جبهتى واسعة ، أتعرف من جديد على تفاصيل جسدى علنى أجد نفسى ، أقترب منها وأبتعد .

حقيقتى تبدو لى دائمًا غامضة ومستحيلة ، تجسيد فاتن للزمان والمكان ، أيام وليال من لحم ، بطن وصدر ، وعروق زرقاء هنا .. وهناك .. طاقات نور ، وتجاويف ظلام ، أطل على جنتى التى تنقلب إلى جحيم ، راضية عن نفسى ، أحب هذا الجسد رغم كل شىء .

صوت داده نجية ينادينى وأنا عارية أمام الرآة ، أقفز بسرعة إلى الباب أغلقه بالمفتاح ، لا أريد أن يقتحمنى أحد ، لا نجية ولا الأولاد .

هى تحب أن ترجع إلىّ فى الصغيرة والكبيرة ، رغم أنها تعرف أننى فارغة ، لا رأى عندى ولا حكمة ، هى تعرف كم أنا مسكينة ، عند نجية مرآة ساحرة غير كل المرايا .. لا أشاهد فيها جسدى فقط ، ولكننى أشاهد فيها بلا ضوء خراب حياتى ، تنعكس فيها علاقتى الموءودة مع أولادى ، هم أولاد معى . أولاد

لها . لا أب لهم ولا وطن ولا أرض ، أمهم أيضا حاضرة غائبة ، أولاد داده نجية ، رغم أوجاع الحمل والولادة ، رغم أننى أدفع كل تكاليف الحياة .

لا أريد أحدًا الآن ، أريد أن أبقى وحدى مع جسدى العارى ، مع وجهى الذى أزلت عنه كل الرتوش والماكياج بالكريم الأبيض الذى تسكننى رائحته .

أريدها غرفة تضاف إلى عشرات الغرف التى تحركت فيها عارية حرة . كل هذا الأثاث المزعج ، وهذه النظافة النص نص ، عشرة أيام سأعيشها هنا ، عادى ، مستحيل ، تراب معلق فوق الستائر ، ورطوبة عفنة رغم رائحة البحر القريب .

غثيان ورغبة كاذبة فى القئ ، تسبق دائما دخولى إلى الذاكرة ، هلع ، سخونة فى بطنى ، فى أسفل بطنى ، هلع يتصاعد ، وطعم حموضة .

*　　*　　*

عشرة أيام هنا فى مرسى مطروح ، لو أستطيع أن أعيشها وحدى حرة ، أحدق فى جسدى ، فى نفسى ، أسمع صوتى الذى تغير ألف مرة ، إيقاعه متغير مرة يأتى من بعيد ومرة يخمش وجهى ، ويصيبنى بالصمم .

صوتى هو ذاكرتى ، نبرة بين الحكمة والسخرية ، الحمد لله ، لا أحمل حقدا ولا مرارة ، حدث كل ما حدث ومازلت أنا سناء فرج على قدمى وحيدة عارية على شاطىء جديد .

رغم كل تلك السنوات مازلت أحمل فرحا وخوفا غامضا من اقتراب عيد ميلادى ١٥ أغسطس .. فى رأسى شلال طفولتى ، وعذاب مراهقتى ، ووحدتى وحبى الأبدى الذى ضاع منى قبل أن أمسكه .

عشرة أيام هنا ، مع الرجل الذى يريدنى ولا أريده ، يقول يحبنى ولا أقدر أن أصدقه ، صرت أعرف وجوه الحب المختلفة ووجوه الكذب ، ليس لنا لحظة

طازجة بكر ، أين أذهب من ذكريات الماضى .. ومطبات الحاضر ومخاوف المستقبل ، المستقبل ! من هذه الجميلة المغرورة التى تتحدث عن المستقبل ؟

هانى قبطان يريدنى زوجة ثانية له ، هذا هو الفتات الذى بقى لى . ليلة فى فراشى ، وليلة عندها ، بيننا أكاذيب صادقة ، وصدق كاذب ، أولادى ، وأولاد آخرون له ، ارتبك العالم كله ، لم يبق بيننا سوى مقاعد خالية ، وشقق جديدة ، وصالات استقبال ، أنوار مضاءة فى غرف خالية ، أنواع جديدة من الشراب ، والطعام والثياب ، حطام مشاعر وحياة بلا أحلام .

امرأة مطلقة وحيدة أمام العالم كله ، فى السابعة والأربعين ، عادتى الشهرية ، وجنسى وجنونى ، هلع يظهر ويسيطر ويختفى ، يمكن أن ألقى بوجودى كله فى سلة المهملات ، لولا ذلك الصوت الذى يتردد فى عقلى وتكاد تنطقه شفتاى ، أعيد شريطا بنفس السرعة أو أتركه يجرى بسرعة مختلفة ، صارت هذه لعبتى المفضلة .. عادى عادى وأحيانا مستحيل .

من أصابع زوجى منير فكار عرفت أنه قد دخل منطقة الجنون ، أصابعه التى تمتد نحوى ، يمسكنى بها ، يقبض على لحمى ، فى أى جزء من جسدى ، عنف أخرس ، يتركنى – فقط – عندما أصرخ ، أرى – رغم الظلام – فى عيونه بريقا ، وكان انتصارى العظيم أننى حصلت على الطلاق .

*   *   *

عدت أتأكد أن نوافذ الغرفة مغلقة وعاد الهلع يذرع بطنى وصدرى ، ألمح شبح جسدى العارى فى المرآة أحسبه شخصا آخر ، أدخل إلى السرير ثم أقوم بلا سبب .

فى داخلى موات ، وكسل ، اعتراض ورفض ، غباء وحمق ، لكننى أقابل الناس بوجه آخر ، نشاط دائم شديد ، يفزعنى نشاطى أحيانًا وأشعر أننى على وشك الجنون .

تعلمت أن أضحك من حنجرتى ، من أحبالى الصوتية بصوت عال ، أبتسم من عضلات وجهى ، أترك وجهى يتحرك ، أدق الأرض بكعب حذائى وقلبى ثقيل .

لا أريد أن يعرف أحد ، فشلى ، وضعفى ووحدتى الحارقة ، لا أحد يستحق أن يعرف ، بعد الطلاق عزمت أن أصنع طريقًا ، أن أدعى نجاحًا واقعيًا ، ماديًا كاذبًا .

لم يعد لى أحد أستطيع أن أعرى أمامه فشلى أو حاجتى .. أو حتى وجودى البسيط .

سترت عرى جسدى وحاولت أن أنام .. وعيونى ساخنة مفتوحة ، فى النوم قد تنسكب الدموع .

لو أغلقت عينى ، أرى أشياء غريبة ، أشكالاً هندسية ، دوائر ومربعات تتصارع وتقتحم جسدى ، تدور حول رأسى ، أدخل فى خيوط كأنها خيوط فنجان القهوة الذى ظلت نجية تقرأ لى فيه سنوات ، كسرت فناجين القهوة ، وتوقفت عن شربها بأمر الطبيب .

خطوط فنجان القهوة تسكن تحت جفونى كلما أغلقتها للنوم ، تأخذنى فى دروب ومسالك ثم تتركنى عارية فى بقعة مضيئة كأنها قلب المسرح ، هلعى سقوط مفاجئ أو عرى مفاجئ وسط الزحام ، سنوات وهذه اللحظات تفاجئنى فأقوم مفزوعة ، وتستحيل العودة إلى النوم بدون الحبة المهدئة .

الآن أنا أحسن كثيرًا منذ أن دخل هانى إلى حياتى ، حبتى المهدئة ، يعطينى كل شىء ماعدا حقيقة نفسه ، ربما هو هكذا بلا حقيقة ، فارغ مثلى ،

قشرة لامعة ، ونقود كثيرة ، وجهه أملس رطب ، نشاطه الجنسى يثيرنى ، لا يشبع ، يريدنى فى أوقات غريبة ، وإذا استحال ذلك يتحول إلى طفل حرون غاضب ، تعلمت أن أتعامل مع هذه اللحظات ، أن أفتح طاقة يخرج منها بخار صدره فيتبعنى طفلاً مطيعًا هادئًا ، فى تلك اللحظات - فقط - كان يداعب روحى ما يشبه الحب له ، وعندما يغادرنى ذاهبًا إلى زوجته كنت أكره نفسى أكثر من كراهيتى له ، أكره قامته الرفيعة الطويلة القابلة للكسر ، وظهره المنحنى ورائحة العطر الرجالى التى يدارى بها اللقاء . يعود بعد يوم أو أيام ، تظهر من جديد ابتسامته على وجهه الأملس والرطب ، يحاصرنى بثرثرته ومشاريعه وسهراته وخروجاته ، ويهمس عن ليال جنسية مجنونة فأسلم له وقتى بلا شعور .

* * *

النوم بحرى الخاص ، واحتى الدافئة الظليلة ، نادرًا ما أنام ، وإذا ما نمت أستيقظ رائقة متوردة سعيدة ، كأننى اغتسلت فى حليب وعسل ، تعود لى بشاشة روحى ، كأن نسائم صيف لامست وجهى وصدرى وأعادتنى صبية واثقة محبة محبوبة بلا حدود .

تحملنى ساعات النوم إلى حبيبى ، إلى عزيز شفيق ، غرامى ، ساكن جسدى ، كأننى خلقت له ، فى عالم خلق لنا نحن الاثنين فقط ، رغم الأيام والسنين لم تبهت ذكراه أبدا ، أتحدث عن عزيز شفيق وإليه ، بصوت خاص قديم ، لم أعد أستطيعه ، صوت لم أعد أجده ، أتحدث بلا كلمات فقد كان يفهم عنى كل شىء ، معه لم أكن فى حاجة إلى كلمات ، كل الكلمات تولد عنده ، فى لحظات الحب كان يغرقنى فى الكلمات ، أمد رقبتى إليه كى أتنفس وأضع يدى على فمه وشاربه حتى يسكت .

عرفته وأنا فى السنة النهائية فى كلية التجارة ، تخرج هو قبلى بسنتين من كلية الفنون ، اجتاحنى كعاصفة غير متوقعه من الرقة ، والحب ، والحرية ، والقدرة على الفهم ، كان مسيحيا ، وحسبنى أنا الأخرى مسيحية ، قال لى : ليس فيك شيء غريب عنى ، حتى اسمى يمكن أن يكون مسيحيا ، كان يناديني باسمى كاملا .. سناء فرج .. كأنه يعطينى حقى . فى بيتهم يوم الأحد فقط نظام مخصوص ، وكان لبيتنا بقية طقوس من يوم الجمعة ، صباح الأحد يذهب مع أمه إلى الكنيسة ، ويمضى معها أغلب اليوم ، يوم الجمعة كان يمضيه معنا – فى البيت – لا يمل الحديث مع أبى المريض ، يداعبه ويلاعبه ، ويتحدث مع أخى المهاجر الأول أحاديث لا تنتهى عن أحوال البلد والسياسة ، قليلاً ما أمضينا الليل معًا ، ليلاً أو نهارًا لم يكن فى حياتى شيء غيره ، زمن آخر غير هذا الزمان وبلد آخر غير هذا الذى أراه . أعشقه ، فى الطريق وفى الأركان وفى ضوء النهار ، فى عربات الترام الخالية ، وفى مسارات المترو الطويلة كنت ألتصق به ، وحتى عندما اعترض كمسارى المترو وصاح غاضبا على تبادلنا قبلة سريعة ، عاد وضحك معنا وهو يدفعنا للنزول كى نواصل ما بدأناه فى الشارع الهادئ الجميل ، حدث لى هذا فعلاً فى زمن سحيق . نائمة على ظهرى أحاول أن أستدعى عطره المستحيل .

*　　*　　*

أصابع زوجى منير فكار المجنونة ، وعيونه المراقبة ، تنتهك جسدى ووجودى ، وتمتد إلى ما تحت أظافرى ، ماذا يريد منى هذا « الوطواط » الأحمق المخيف ، يتقلب فوق طاسة ساخنة ، ينقض فوقى ، يكرهنى ، يريدنى ، يريد أن يلعب بى ، وأن يأكلنى وأن يضعنى فوق الدولاب أيضا ، نقود النفط كانت قد بدأت تسرى فى عروقه بدلا من الدم ، كل ما بيننا صار جحيما فى جحيم ، حتى المدينة التى نعيش فيها ديكور فيلم لم يبدأ تصويره بعد ، أنفاس البشر

عندما يظهرون – إذا ظهروا – غليظة وعدائية ، وكل البضائع فقدت ما كان لها من بريق ، شرنقتي التي أغزلها وحدى تسحق أمام عيني وهي لا تزال لينة يدوسها بأقدامه العارية الغليظة ، أو بضحكاته التي تسخر منى ، ودائمًا .. دائمًا أصابعه المجنونة الخرساء ، أغلق عينيّ وأسلم روحي لظلام في قلب ظلام .

ماذا فعلت لكي يسلمني قدرى ، وبلدى ، وأهلى لهذا المصير ؟ لماذا تخلى عني الجميع وتركوني مع كلب الفلوس هذا المسعور .. حولي – أيضا – أولادي ، لمياء وتامر ، أمد يدى فلا أمسكهم ! أراهم ، يسأل قلبي : من هؤلاء ؟ ملامحهم متناثرة حولي ، أجمعها ودائما تضيع منى ، أسقط في غثيان وشعور قاتل بالذنب .

قررت بيني وبين نفسي ، بعيدًا عنه أن أنزل مصر أجازة عشرة أيام ، وأخذت موافقة رئيسي في الجامعة ، وانتهى الأمر ، عندما شعر وتأكد ضرب باب الشقة بقدمه وقال : وحدك كده يا مجنونة .. بلا كلام ولا سلام ، كأنك سايبة لا جوز ولا عيال .. اخص عليكي وعلى تربيتك .

ارتفع كل شيء وانخفض عشرات المرات ، قلبي وجسدي وشعري في يديه ، والأكواب والأطباق وأجهزة الكهرباء ، والأولاد في الأركان ، بأظافري مزقت وجهه ، وكل ثيابي ، وأمضيت عشرة أيام في العناية المركزة .

نجية وتامر في الصالة الآن في عراك صاخب ، صوته يزعجني ، يذكرني بصوت أبيه ، آثار أصابعه خالدة كأنها حروق في قلبي وكبدى ومصراني الغليظ ، تامر يندفع إلى باب حجرتي ونجية تمنعه عني وتقول : خلاص .. خلاص ماما نامت .

بيني وبين هذه المرأة علاقة غريبة ، أعيش في ظلها وأحتمي في وجودها عند اللزوم .

* * *

نعم علمنى حبيبى وروحى عزيز شفيق فى أول الدنيا ، علمنى فى الحب ملامسة العالم برفق ، جسدى ، جسده ، والأشياء ، حتى أوراق الشجر ، والظلط اللامع المستدير .

آثار الملامسة فى روحى مازالت ، كمال لا يتم وشعور لا يكتمل ، صدرى الناعم وجسدك الذى لا يلين ، بينهما روحى لا تهدأ ولا تستقر ، أعطيك .. أم آخذ منك ؟! يا حيرتى ، يا حبى ، يا سماء ما بعدها سماء ، أنت لا تغيب ، أفق الحيرة والشرود ، كأنك نداء دائم للحب أو الصلاة .

كيف كان وجهك يملأ كفى ، وأنا أشرب منك كلمات نشيد الإنشاد ، تقرأ لى ، كلمات كثيرة تحمل رائحتك .

يومها كنت شاحبا يسكن عينيك خوف غريب ، قتلتنى سيرًا على الأقدام ، كنت صامتًا ، حاضرًا كنار فى الأحشاء ، أقبض على يدك فجأة لكى أتاكد أنك موجود وأنك لم تذهب بعد ، حكم الإعدام مازال معلقا لم يصدر بعد .

إلى متى سأظل أذكر هذا الوجه ؟ . أرعاه وأدلل ذكراه ، وأستدعى لفتاته وملامحه ، فى المطعم القديم ، وأنت تلعب بلباب الخبز كطفل عنيد يستدعى العقاب قلت : مستحيل أنا أموت هنا ، كلنا نموت جماعة ، مجانًا ، بلا ثمن ولا قضية ، قلت إننى يمامة كاملة لا تهاجر ، وإننى قررت البقاء هنا وحدى لأننى أقوى منك ، أنا أقوى منك !

للكذب ، يا حبيبى ، ألف وجه وألف سلاح ، تركتنى لكى أقابل وجوه الكذب البشعة وأتلقى فى جسدى كل الطعنات .

لكل شيء نهاية ، وكان لابد لهذا اليوم الكئيب أن ينتهى نهاية كئيبة ، تركنى تحت بيت أبى فى مصر الجديدة ، صعدت الدرجات أسحب جثتى ، حيث أبى

العجوز المقعد ، تتحرك فيه – فقط – عيونه المؤنبة اللوامة ، تحيطه نباتات الظل الكثيرة التى أكرهها ، لو أصب عليها مبيدًا فأجدها فى الصباح ميتة ، ماتت أمى وأنت يا أبى لم ترعها واعتنيت – فقط – بنباتاتك البذيئة .

عندما ألقيت بنفسى كنت كمن سقط على « خص » مصنوع من أعواد الذرة الجافة .. وحدى جريحة على الأرض أنادى ولا يسمعنى أحد .

* * *

أنا نائمة وقلبى مستيقظ ، الخروج من النوم إلى اليقظة أصبح الآن عسيرًا ، يستغرق وقتا طويلا ويقتضى تحايلاً بارعًا وملاعبة طويلة ، أتحسس بيدى عمرى الذى أراه فى رقبتى وصدرى ، وأعود لكى أتعامل مع كل تلك الأثقال المرة التى تصعد إلى بطنى وأراها تسرى مع الدم .

أصبح النوم مثل الإغماء ، مخاطبة مجهدة لشخص غير موجود أو سقوط فى بئر بلا قرار ، ألعن النوم واليقظة ويوم ولدتنى أمى ، وحيدة حتى النخاع ، وضائقة بكل شىء .

فى فراغ سريرى الخالى ، أتأكد أننى مت ورجعت إلى الدنيا مرة ومرات ، ليس بعثا جديدًا ، لكن من هناك ردنى إلى الدنيا ، وجدت طريقا مسدودا فرجعت إلى ضيقى وإحباطى وكراكيبى المحطمة ، عادى .. مستحيل ذلك التوقيت الدقيق الذى تقتحم فيه داده نجية مقبرتى المطرزة ، جن أو عفريت ، وأحيانا ماء بارد أرطب به جروحى ، أحيانا أتصور أنها تسمع كلامى الداخلى وأنا نائمة .

الآن أصبحت نجية – صديقتى – تعرف كيف تتقدم وكيف تتأخر ، كيف تظهر فى يومى وكيف تختفى ، أحسدها على وجودها المكتمل الذى رضى بها

ورضيت به ، يدها على رقبتى وأكتافى توقظنى فى حنان حقيقى صامت ، أفتح عيونى على عيونها ، تمسح جسدى فى محبة ، ورائحة اشتهاء ، أدير لها ظهرى ، فتضغط عليه فى حسم وقوة :

- قومى .. قومى الباشا وصل .

أسمع صوت هانى قبطان عاليًا فى الصالة ، يمرح مرحًا صاخبًا مفتعلاً مع لمياء وتامر ، أشد جسدى فى السرير استعداد للقيام ، أقول : أمامى مساء مشحون ، وليلة صاخبة .

* * *

خرجت إلى صالة شقتنا المفروشة ، وأنا أرتدى « روب » أزرق فاخرًا اشتراه لى هانى ، الأثاث كما توقعته - فقط - أكثر قذارة ، نظيف على السطح فقط ، يحمل آثار ورائحة نوع معين من الناس ، كأنهم مازالوا يسكنون معنا فى الشقة ، يحدقون فينا من المرايا والأركان ، أثارهم مازالت على مساند المقاعد .

هانى - أيضًا - قائم كما توقعته - فقط - أكثر إشراقًا وصخبًا ، يرتدى قميصًا ملونا - أنا التى اخترته مفتوحًا حتى قرب البطن ، شعر صدره الناحل يثير الاشمئزاز ، يحاول أن يشترى المرح من لمياء وتامر ، كأنه ينفخ فى رماد ، ينظران له فى ريبة ، وتخوف ، أما « نجية » فتتحرك خلالنا جميعًا فى مهارة ، علب « البيتسا » وزجاجات « الكولا » متناثرة فى الشقة تزيد من فوضاها الغريبة .

بحثت لنفسى عن مقعد ، ألقيت بجسدى المتثاقل عليه ، أراقبهم وكأننى أدور فى فلك آخر غيرهم .

من بعيد أرى زرقة بحر مطروح الخاصة تسرق عيني وروحي كأنها ماض قديم لن ألمسه فأتمنى أن أكون في أية بقعة مع البحر وحيدة بعيدًا عن هنا .

أصبحت الآن أدخن كثيرًا ، خاصة عندما أكون جائعة كأنني أنتقم من نفسي ، وبالذات في وجود هاني الذي لا يكف عن محاولة منعي عن التدخين ، وضعت علبة سجائري ، و « الولاعة » ، و « الطقطوقة » الصغيرة التي أصحبها معي في كل مكان إلى جواري ، ورحت أراقبهم من خلال الدخان ، أتظاهر باستقرار خارجي زائف ، وقوة شكلية ، تخفيان ما أشعر به من فراغ وغباء وعدم قدرة على ربط الأشياء في سياق واحد ، كأنني أعيش أجزاء أو شظايا من عالم قد انفجر .

كهلة أنا ، مجهدة ، كبيرة ، تغير العالم حولي جدًا ، كما تغير إدراكي له ، الثابت الوحيد – الآن – هو البحر حاجتي له ، واستحالة أن أدركه .

* * *

كنت ذات ضفيرتين طويلتين مشدودتين خلف ظهري ، في عنف وإتقان ، تسرحهما لي « جازية » خادمتنا الفلاحة العفية التي تضمني إليها في قوة حتى أضحك وأبكي ، وينفطر الدمع من عيني ، أعود أشاكسها حتى تمسك بي من جديد ، ويمتلئ أنفي برائحتها النفاذة التي لا أعرف من أين تنبعث ، أدفن رأسي في صدرها الكبير المربوط بقطع غريبة قوية من الأقمشة التي تصنع لها أمي منها « سوتيان » غريبًا تسميه هي « العنتري » ، أضع يدي الصغيرة عندها فتتأوه ، ونتمرغ معًا على الأرض حتى يمتلئ أنفي برائحتها التي مازالت تبعث في رأسي دوارا .

* * *

دخنت ثلاث سجائر ، وضقت بسلوك تامر العنيف مع أخته ، ومع هانى ، كأنه ينتقم من كل شيء : الأثاث ، والطعام ، والشراب ، والناس ، نظرات هانى تستعطفنى لكى أضع نهاية للحظات بلا معنى ، يرجونى أن نقوم حتى ندرك غروب الشمس على الشاطئ ، أتحرك – أنا – فى بطء متعمد وعناد .

أعدت لى نجية الحمام ، هناك استمتعت بالماء الوفير ، واستمتعت – من جديد – بالباب المغلق بينى وبينهم ، عدت إلى الغرفة لكى أختار ملابسى ، « نجية » معى تغرق جسدى بماء « الكولونيا » الخفيف الذى أحبه ، تتملق جسدى الوافر بعينيها ويديها ، وتؤكد لى أن صبغة الشعر أحسن هذه المرة ، فلا أثر لتلك الألوان الغريبة عند الجذور .

من خلال الباب المغلق كنت أضع – أنا وهانى – برامج متنوعة لنا وللأولاد ، محاولين فى خبث مكشوف أن نضمن أوقاتا للخلوات والنزهات المنفردة ، لم يكن هناك داع للخبث فقد كان الأولاد مرحبين بهذا كأنهم يريدون التخلص منى ومن هانى ، « نجية » كانت تشعر بهم ، هم يريدون فقط حسابًا مفتوحًا ، ووقتا مفتوحًا – قدر الإمكان – وألا يحاسبهم أحد ، وهذا – فى الحقيقة – كل ما أستطيع أن أقدمه لهم ، « نجية » وحدها هى التى تبقى لنا مظهر الأسرة التى نحاول أن نكون .

أعرف أن البنطلون الضيق والبلوزة الواسعة يثيران هانى ، ويجعلانه يدخل معى فى صراع بعينيه النهمتين ، يصغرنى هو بعامين ، مازال يحاول أن يثبت – دائما – فحولته ، وبأنه قادر على الجنس فى أى وقت .. يبدو لى مضحكا عندما يتقافز محاولا إثارتى وإثارة نفسه .

اختفت « نجية » للحظات وعادت ، وهى تحمل لى شراب اللوز ، بعد أن أضافت إليه قطرات من زيت خاص حضره لنا عطار قديم فى الحسين .. كانت تبتسم لى مشجعة كأننى أخطو إلى المقصلة .

* * *

اندلع فى الخارج احتفال الغروب فى الأرض والسماء ، امتلأت الشوارع الجانبية وشارع الكورنيش الرئيسى بالدراجات الملونة ، وعربات مرسى مطروح التى تجرها حمير متعبة وأولاد أشقياء . وعلى الأرصفة زحام من الأولاد والبنات صخبهم له وزن وثقل . اخترقنا الشارع لكى نصل إلى السيارة الفاخرة التى استأجرها هانى فور وصوله كان يحب أن يبهرنى بمثل هذه المفاجآت ، التى استقبلها – أنا – بلا مبالاة وتجاهل يغيظ . كثيرًا ما نلعب معًا هذه الألاعيب ، وكأنها هى كل العلاقة التى تربطنا .

كانت السيارة حقا جميلة ومريحة وسرعان ما أصبحنا خارج المدينة ودخلنا إلى سكون بدأ يحتوينى . كان هو – على ما يبدو – يستعد لصياغة جديدة لمعانيه المكررة . عن الحب ، وإحساسه بأنه يستطيع معى أن يبدأ حياة جديدة ، وأنه قادر على أن يمسح عن قلبى وروحى ما ران عليهما من أثقال . هو لا يشكو من زوجته ، فهى – للأسف طيبة ووفية ، واحتملت معه الكثير . كما أنها أم ممتازة . لكن بينهما .. لم يعد هناك شىء « أنا أقصد السرير ، ولكن كل شىء ... اللحظات بينهما صارت فارغة ، لا شىء يحركنى .. ليس هناك أفق للحياة » .

ثم يتبع ذلك بوصلة – لا أستطيع أن أقاومها – فى مدحى ، ووصف مفاتنى : جسدى وروحى ، وما يقدمه وجودى له من سعادة وحرية وأمل فى الحياة .

يطرب قلبى ، ولكننى لا أصدقه .

* * *

بلغنى خبر وفاة حبيبى عزيز في باريس بالسرطان ، وأنا فى فترة النقاهة الصعبة ، بعد حصولى على الطلاق من منير فكار ، أمضيت أياما فارغة رهيبة ، ظلت لحظاتى معه تطاردنى ، لم أكن أقاومها كنت أستلقى ساكنة وأستقبل ذكراها فى كل جسدى وروحى ، أعيشها مرة أخرى ، وأنا مغمضة العينين أو محدقة لا أرى ، أتذكر أحاديثى معه ، وأتلفت حولى ، وأنا أسمع نبرة صوته ، أكاد أشعر بكلماتى تخرج منى من جديد .

كل شىء معك له طعم ومعنى ، حتى العمال الذين يحفرون الشارع ، حتى وابور الظلط . ومقابر المجاورين ، أنت لى محور العالم ، أقصد - بالضبط - محوره ، حولك تتجمع الأشياء وتدور . تحضير طبق الفول لك فى الأتيليه القديم ، وتسخين العيش على وابور الجاز ، تمسك يدى وتعلمنى أن أفعل ذلك فى اتقان ، ابتسامة عينيك التى تسحر قلبى ، تأخذنى دون أن تمد يدك ، فقدتك ، تركتنى وهاجرت لكننى كنت أعرف أنك موجود ، أنك تعلم ، وترى وتفكر ، لا يهم أن أسمع منك أو عنك كنت موجودًا فى هذا الكون ، تتنفس ، وتلمس الأشياء بيديك أما موتك ، وذلك السرطان الذى افترس كبدك فقد كانا بئرًا من الظلام والظلم لم أعرف كيف أعيشهما أبدًا ، من يومها وأنا أشعر أننى جسد فقط أما روحى فقد أغلقوا عليها فى تابوت خشبى وشيعوها إلى حيث رحلت .

أجلسنى إلى جواره فى السرير - بعد أن أنهكنا الحب - وأخذ يترجم لى قصيدة عنوانها « ورقة الشجر المجنونة » ، بحثت عنها فى أوراقى القديمة ، فلم أجد لها أثرًا ، كل ما أذكره منها ، ذلك الحوار المؤلم بين الرياح ، وبين ورقة شجر ساقطة : نصف حية ، نصف ميتة .

* * *

امتد بنا الطريق وكأنه بلا نهاية ، لم يكن جمال البحر ولا احتفال السماء بالغروب بقادرين على أن ينتزعانى من الاكتئاب الدورى الذى ينتابنى ، فأكاد أشعر بثقل كل شىء على قلبى .

المدن الجديدة التى ندخل إليها ونخرج منها مكررة تذكرنى بمدن الخليج الخالية من الطابع ، ومن الناس ، شوارع فاخرة ، ومبان فاخرة بلا بشر ، كانت أشجار التين المهيبة الجملية تكاد تتلاشى لتحل محلها أشجار « الفيكس » الضخمة ، أوراقها كأنها مصنوعة من البلاستك ، تنتشر فى كل مكان ، ثقيلة الظل وخالية من الروح ، تبدو فى الظلام الذى بدأ يزحف ، وكأنها أشباح لكائنات غريبة لا تمت لنا بصلة ، أشجار مكررة أوراقها ثقيلة ضخمة ، كأنها حيوانات تفتح فمها لتبتلع الهواء .

سكت هانى بعد أن تعب من الحديث المنفرد ، تعلم أن يتركنى لهذه النوبات ، كنت أحب منه هذا وأشكره عليه ، لم أدخله إلى تفاصيل حياتى القديمة ، وهو لم يبد اهتمامًا زائدًا بها ، هو يتمسك بأقواله العامة عن أننا نستطيع أن نبدأ معا حياة جديدة ، يكرر لى هذا فى طمع طفلى وسذاجة حتى أكاد أصدقه ، فأترك نفسى أشاركه مشاريعه وخططه التى أعرف أنها لن تحدث ، لم تكن خبرته لا بالسوق ولا بالنساء تعنى شيئا بالنسبة لى ، من البداية قررنا أن نلعب على المكشوف ، فأنا قد دفعت كل فواتيرى ، وسددت ديونى وأكثر للحياة وللناس جمعيا ، لا أخشى شيئا ، ولا أريد شيئا ، لا أحمل له فى قلبى شرًا ، ولا أحاول خداعه .. لكننى لا أحمل له شيئا آخر ، أعرف قدراته وما يستطيع أن يعطى ، ولا أنتظر منه أكثر ، سنسير دائما فى خطين متوازيين ، ولن نلتقى سوى ذلك اللقاء العابر السريع ، أما هو فلم يكن يكف أبدًا عن تلك المحاولة الخائبة لكى يعصر من لحظاتنا معًا رحيقا ليس فيها .

لم أكن حتى أريد أن أمتحن امتحانًا حقيقيا عروضه المتكررة للزواج ، فأنا أعرف أنه سوف يهرب فى النهاية ، أو أن الزواج سيكون تجربة أخرى بذيئة أضيفها إلى رصيدى من خيبات الأمل ، كنت راضية بوحدتى وسط هذا الزحام ، بل وممتلئة أحيانًا باستقلالى الصلب الذى حصلت عليه بالدم والجروح .

وقف هانى عند فندق فاخر جديد على الطريق ، عاد يقول إنه لن يسمح بأن تضيع ليلتنا الأولى هنا فى هذا المزاج القاتم .. « وكل شىء حولنا يدعو للفرح والاحتفال » .

كانت حديقة الفندق جديدة هى الأخرى منسقة بالمسطرة ، البار الذى قادنى إليه كان باردًا ، خاليا تمامًا ، أما المشروب الذى طلبته ، فقد كان لاسعا .. وكنت أحبه .

* * *

اتخذت قرارى ليلا ، وفى الصباح كنت صلبة ومصممة لم يكن قد مضى سوى ستة شهور على حصولى على الطلاق من منير فكار ، كأننى ولدت من جديد ، رغم الإجهاد والمتاعب المادية الجديدة ، التى واجهتها ، بعد أن أخذ كل شىء تقريبا ، كل شىء إلا أننى أتنفس ليلاً ، وفى الصباح رجعت أقرأ ، وأسمع الموسيقى التى كان يسخر منها دائمًا .

كان قرارى أن أستقيل من الجامعة ، أن أقطع كل الخيوط التى تربطنى بهذا الماضى المرعب الذى أمضيته معه ، ومع أصدقائه والدوائر التى كانت تحيط بنا ، كانوا قد تحولوا جميعًا ، بعد الفضيحة ، وقسم البوليس ، وما نشرته الجرائد إلى عيون شامتة ، وأيد تمتد لكى تنبش فى أخص خصوصياتى . كنت أشعر بهم يتهامسون حولى فى طنين لا يسكت .. ماذا ترك فيها ، وماذا ترك لها ،

حتى عيون الأستاذة الزملاء تغيرت وهى تصافح وجهى فى الصباح ، لم يعرفوا كيف يخفون نظراتهم لى كمطلقة سهلة ، كأنهم كانوا يتقلبون معى ليلاً فى الفراش .

معى تامر ولمياء وحساب ضئيل فى البنك ، وشقة صغيرة انتزعتها من أنياب الأسد ، من هذا الكهف وبتصميم لبؤة جريحة كان علىّ أن أبدأ وحيدة ، وكانت خطوتى الأولى أن أنهى من حياتى ذلك الكابوس الذى اسمه حياتى الجامعية ، الذين ذهبوا مثلنا فى إعارات كانوا قد تحولوا إلى كائنات غريبة « أسماك قرش » مفترسة ، لا تعرف زمالة ولا صداقة ، علمتهم سنوات الغربة كيف يفترسون لحم إخوانهم حيًا ، وكيف يصعدون على أكتاف أقرب الناس إليهم ، أما من لم يذهبوا فقد خنقهم الفقر والهزال ، وأصبحوا يحدقون فى الملابس والسيارات التى عاد بها الآخرون فى بلاهة وتلمظ ، كأن كل شىء فى ذلك الكيان الذى كان قد انفجر فى لحظة واحدة وتحول إلى أشلاء بلا منطق ولا سياق ، بعد أن انتهيت من محنتى مع منير لم يكن من الممكن أن أحتمل هذا المكان للحظة واحدة ، انتقل الأساتذة الزملاء – الرجال قبل النساء – من هذه الكلية إلى تلك ، حاملين الأخبار والشائعات عن منير وسناء فى همس مدو وضحكات يتندر بها الطلبة والفراشون .

لم يسألنى عميد الكلية الطيب أسئلة كثيرة ، كاد يضمنى بعينيه ، وهو يقبل منى الورقة التى تحمل استقالتى .

وأنا أشق زحام الطلبة بعربتى الصغيرة مسرعة نحو كوبرى الجامعة كنت كأننى أهرب من غابة حمقاء .

* * *

من خلال زجاج « البار » كنت أرى البحر ، مهيبا ممتدًا بلا نهاية فى الظلام ، البحر أعظم شىء فى حياتى ، مطلق ووحيد ، أعشقه ، وأحسه يقتحمنى ، وأقتحمه فى ندية كاملة مستحيلة ، النظر إليه يجعلنى راغبة فى البحث عن مكان جديد ، عن نقطة جديدة أبدأ منها ، نقطة قريبة لكنها غامضة ، تقع هناك فى ذلك المجهول ، هناك سأجد ما أبحث عنه ، سأجد ما ضاع منى .

كان هانى – بعد عدد من الكئوس – قد أخذ راحته ، وزال التوتر الذى يصاحب حديثه وابتساماته المغتصبة ، عاد شخصا طبيعيا بلا افتعال ، مشتاقا فى الحقيقة إلى امرأة حرة تحبه ، تقبل عيوبه وضعفه كما تفرح بما يقدمه من إمكانيات مادية واسعة ، امرأة تقبله كما هو ، وترضى غروره .

كنت أشعر غالبًا أن زوجته تجلده ، وأنه يخاف منها ، ولكنه يدارى ذلك دائما أمامى ، ولا يستطيع الاعتراف به أو الحديث عنه ، كان يحدثنى عنها فى كلمات وصور مكررة محفوظة ، كنت قد التقيت بها عدة مرات فى حفلات وزيارات لبعض الأجانب الذين يتعامل معهم ووجدتها امرأة عادية ، جميلة ولكنها مفتعلة بعض الشىء ، لها أظافر حادة ، تحسن إخفاءها تحت ستار من الأدب المصنوع .

عرفت أن المشكلة فى هانى نفسه أنه ليس ذلك الرجل الذى يعطى امرأة مبررًا لوجودها فلا تعود تسأل أو تخاف ، أو تفتقد شيئًا ، يطلب الحرية ولا يستطيع أن يصنعها أو يهبها ، كنت – عادة – أقول لنفسى .. إنه رجل من صفحة واحدة ، عادى ، تنزلق معه اللحظات والأيام ، ولم يكن فى حياتى – الآن – ما يمنعنى من أن أمضى معه ، وكان من حقه ، ومن حقى أن نعرف كيف نستمتع معًا .

طلب منى أن نمضى الليلة - أو جزءًا منها - فى فندقه ، وأخذ يؤكد لى كيف أنه أعد كل شيء ، وأنه رتب أموره مع الإدارة حتى لا يزعجنا أحد ، وأن السهرة فى شرفته ستكون خرافية .

* * *

كانت أيامى الأولى مع زوجى منير فكار مرعبة ، لم نكن أطفالا ، وكان يعرف عن علاقتى الممتدة مع عزيز ، وعن هجرته بعد أن كنا على وشك الزواج ، ومع ذلك فقد أصر بشكل غريب على أن يجعل من مسألة أنه ليس الرجل الأول فى حياتى موضوعا تحتيًا ، موجودًا دائمًا يرجع إليه - غالبًا دون تصريح مباشر - وأحيانًا بأكثر الصور فجاجة وبذاءة .

حاولت بكل ما أملك من حيل أن أكسبه ، وأن أشعره أنه « رجلى » ، ولكن يبدو أن الأمر لم يكن متعلقا بى أو بجسدى أو تاريخى . الأمر كان متعلقا به هو ، وبفهمه لى ولعلاقتى معه ، أراد أن يعرف منى تفاصيل التفاصيل ، وعندما رفضت ، أخذ هو يصنع قصصا فى خياله ، ويصدقها ، ويحاسبنى عليها .

ظل يفاجئنى فى أصعب اللحظات بقوله : أنت لا تريدينني ، أنت لا تحبيننى ، أنت تفكرين فيه ، ساعتها يكون كل جسدى معه .

عرفت على يديه ، ومنذ البداية لعنة الجنس الردئ ، الجنس الذى يتحول إلى صراع أبكم ، وينتهى بإرهاق للجسد وفراغ فى الروح .

وبعد أن دب الحمل للمرة الأولى فى جسدى ، وأخذت أشعر بذلك الكمال ، والقوة التى يبعثها جنين يتحرك شعرت بأننى استطعت أن أضمد له تلك الجروح الغائرة فى روحه ، إلا أنه كان دائما يوقظها ، ويعود « ينكش » فيها ،

حتى اقتنعت أنه يستعذبها ، وكأنه حيوان يحب طعم دماء جروحه ، فتركته يفعل وأسدلت بينى وبين نفسى - على كل هذا الموضوع - ستار سميكا ، ويبدو أن هذا زاد من جنونه .

* * *

النسوة الخارقات اللاتى نسمع عنهن فى هذه الأيام ، تلك التى تقتل زوجها وتمزقه وتضعه فى أكياس بلاستيك تحت مقاعد القطار ، وتلك التى تدفن أولادها تحت فراش عشيقها .

لا أدرى ما الذى دفع بصورهن إلى ذهنى ، وأنا جالسة مع هانى قبطان فى ذلك البار الأنيق ، أخذت أتحدث معه عن هذه الحوادث باستفاضة ، وكان هو مصرًا على أن هذه الأمور كلها ترجع إلى الجنس ، إلى ضعف الرجل أو فقره ، أو الزحام ، وأخذ يردد ما يقوله الأطباء النفسيون فى الصحف .

ظلت صورهن تختلط أمامى ، مع لحظات من حياتى مع منير ، ومع غيره من الرجال الذين عرفتهم بعده ، وحتى مع لحظاتى مع هانى ذلك المهذب الوديع الذى يجلس أمامى .

شىء ما تغير فى ذلك الكون الذى أعيشه ، شىء عنيف فاجر يتسلق كل ما أملك من حنان وحب وعواطف وإنسانية ، يخنق كل شىء ويحوله إلى مطاو وسكاكين .

يبدو أنه الشراب ، أو البحر المستحيل الذى غرق بعيدًا عنى فى الظلام ، أو ذلك المكان الأنيق الخالى من البشر ، يبدو أنه كل هذا مع شعور حارق بالوحدة هو ما دفع دموعا خرساء إلى عينى ، مع أننى لم أتعود أن أبكى أمام أحد .

فى طريق العودة – الممتد الطويل – طلبت من هانى أن يتركنى الليلة ، فأنا لم أعد صالحة لأى شىء .

* * *

استيقظت فى سرير مزدوج مزعج على حرارة شمس متسرعة ، وأصوات نهار متأخر غريب ، افتقد سريرى القابع فى آخر – كهفى – شقتى الصغيرة بمدينة نصر ، « نجية » حاولت أن تعد لى فراشى ، وأن تحيطنى فى محبة بأشيائى التى تعودت عليها ، إلا أن غربة السرير والغرفة ظلت صادمة .

لم يكن الأولاد قد استيقظوا بعد ، تصلنى حركة « نجية » فى الصالة والمطبخ ، وأنا أفيق على وجودها الذى تعودت عليه .

لابد أننى بكيت كثيرا قبل أن أنام ، فقد كانت الأثقال التى تعودتها فوق قلبى قد خفت أو غسلت بماء وفير ، حمدت الله لأننى لم أدخل ليلة أمس إلى ليل « هانى » أو فراشه ، فقد أصبحت الآن أحتاج إلى نهار كامل لكى أستجمع نفسى بعد مثل تلك الليالى ، نهار كامل على الأقل ، لكى أعيد وضع القاطرة على القضبان ، لابد أنه الآن غاضب منى ومجروح ، سيظهر هذا اليوم بالتأكيد ، سيخترع طريقة ما يعاقبنى بها عقابا خفيفا ويظهر لى كم ضيعت .

فتحت نوافذى ، وأنا لا أزال وحدى ، لكى أرى شريط البحر المحبوس ، والمبانى والأعمدة المربكة ، أطل على حديقة المستشفى القريبة الخربة المليئة بنفايات طبية ملقاة بلا رحمة ، حرائق الأمس كانت لا تزال تنفث رائحتها الفذة ، أغلقت النافذة – إلا قليلا – وقررت أن آخذ الأولاد وأهرب إلى بحر ، خالٍ بعيد ، وشاطىء بكر أبيض ، أعرف أنه مازال موجودًا فى أطراف مطروح ، الأولاد يحبونه بعض الوقت ، وأنا أحبه إلى الأبد .

فى جسدى وروحى هذا الصباح شوق لبهجة قديمة ، للشمس على جسدى ، وصمت أمام بحر غامر مفتوح ، أسكنه ويسكننى ، شوق لوحدة من نوع آخر ، غير تلك التى أعانيها وسط الزحام ومع الناس ، وحدة خاصة أشعر فيها - أحيانا - بالشبع والارتواء .

سآخذهم إلى هناك . « نجية » فقط معنا ، لنمض اليوم كله وحدنا ، أيام نادرة تحتاج إلى حظ وتوفيق ومزاج رائق ، نادرًا ما تجتمع ، أيام مسروقة ، أظل فى مثل تلك الأيام خائفة من أن يحدث شىء .

اليوم لن أخاف ، سأضم أولادى إلى روحى ، وأقبلهم فى وحدتى وصمتى ، سأعود أحملهم جنب قلبى فأنا أحبهم ، أحبهم وأخاف عليهم .

فتحت الباب وأخذت أنادى على « نجية » بصوت مبتهج .

* * *

بعد سنوات خمس أو أكثر من السكن وحيدة فى عمارة جديدة من عمارات مدينة نصر ، يصبح المكان مألوفًا وخطرًا فى نفس الوقت ، يقترب السكان من بعضهم ، ويتطلعون داخل الشقق ، يتلصصون على الداخل والخارج ، وحتى على أصوات غرف النوم ، امرأة وحيدة « بدون » رجل رسمى ، مع أولادها - فقط - تصبح طعاما شهيا للعيون ، وميدانا للاختبارات المتنوعة ، والمطامع المفاجئة ، خاصة عندما تكون جافة مع نساء العمارة ، وعازفة عن سهرات « القزقزة » والتليفزيون ، والنميمة .

لأننى أسكن فى الدور الأول فقد دخلت فى معارك صغيرة مع البواب وعائلته ، استعملت فيها الذكاء والحرص والكرم المحسوب حتى وصلت إلى

صيغة مريحة ، محتفظة ببعض التقاليد الطبقية القديمة ، ومتجنبة ذلك التعدى والاختلاط الفج الحديث الذى يحدث بين البوابين والبهوات ، ورفع الكلفة الذى يتبدى فى الخطاب اليومى والجلسات التى تحدث بين الهوانم وبين زوجة البواب وبناته ، فضول النساء الذى يغذيه الغبار والفراغ ، وتنقله الشغالات والمكوجية وسماسرة الشقق المفروشة ، هى البضاعة التى يتاجر فيها البواب لكى يقدم شبكة من العلاقات والمشاكل تعود عليه دائما بالربح وتأكيد المكانة ، حظى كان غريبا – فى البداية – مع الشغالات اللائى جئن عن طريق السمسار : طامعات في وضعي ، وأولادى ، وكونى عائدة من الإعارة ، كان علىّ أن أمارس أنواعا من الصلف والقسوة جديدة على نفسى ، لم أدفع لواحدة منهن أجرة الشهر ، بعد أن سرقت ما يوازى مرتب سنة ، وسلمت « بغى » أخرى إلى شرطة الآداب بعد بعد أن كادت تلحق بالبيت فضيحة كبرى ، وتكررت المآسى ، حتى فضلت أن يعمل عندى رجل ، يأتى ليوم أو يومين فى الأسبوع ، كان الاختيار مرهقا ، خاصة مع الأولاد ، الذين لم أفلح فى زرع أى نوع من النظام فى سلوكهم اليومى ، فى غرفهم ، وفى استعمالهم للأطباق والأكواب ، وصالة البيت .

لسبب ما تأخرت يومها فى الذهاب إلى عملى الجديد ، كنت على باب العمارة حوالى الحادية عشرة صباحا ، هناك رأيتها « محطوطة » على دكة البواب ، هى نفسها « نجية الفنجرى » ، كنت قد رأيتها مرات من قبل ، فى المدخل ، وأمام العمارة ، كان وجهها الأسمر الطيب الذكى وكيانها القديم ، يلفتان نظرى ، كانت غريبة على هذا العالم الجديد الذى يطحن الجميع ويصبهم فى قوالب متشابهة ، أكثر ما يلفت النظر فيها صوتها المنخفض ، وإيقاع حركتها الهادئ الذى يؤكده جسدها « التخين » شبه المستدير ، نوبية نظيفة كأنها تربت فى قصر أو فى

بلادهم البعيدة ، لم يجرحنى أبدًا تلصصها على شأن من شئونى أو فضولها ، كنت أراها أحيانا تتحدث فى ود مع « لمياء » .

يومها كانت "محطوطة" على دكة البواب ، كأنها بنيان منهار ، أطلال ، تضع بين قدميها كيس بلاستيك أسود كبير ، وتخفى وجهها الباكى بقماش أسود خفيف .

وقفت معها وعرفت الحكاية ، كانت تعمل فى « ڤيلا » من « الڤيلات » الفاخرة فى أعلى العمارة ، عند ممثلة درجة ثالثة ، متزوجة من تاجر قطع غيار يزورها أحيانا ، اتهمتها الممثلة بسرقة مجوهرات ، وبعد الضرب والإهانة والبوليس ثبت أن الزوج قد استرد بعض عطاياه ، استغرقت المحنة ثلاثة أيام ، أمضتها « نجية » بين القسم والشقة والنيابة ، وعندما جاء الزوج وأخرجها مما هى فيه طلب منها العفو وأن تبقى مع زوجته ، إلا أن « نجية » رفضت وخرجت وهى لا تعرف لها مكانا وجلست تغسل صدرها بالبكاء على دكة البواب .

أخذت « نجية » إلى صدرى ، إلى بيتى ، ومن يومها لم نفترق ، وجدتها ، فى مصادفة غريبة استعدت بها كثيرًا من حياتى الماضية ، من رائحة أسرتى قبل أن يفسد كل شىء ، وفى تعامل متحضر غير محسوب ، تقاربنا بلا خبث ولا طمع .

أخلاق الجوارى المنسوجة مع الطمع والخبث كانت أبعد ما تكون عن أخلاق « نجية » ، لقد خلقت هذه المرأة لكى تعطى .. لى ، وللأولاد ، للمكان الذى تتحرك فيه ، هى لا تعرف – أيضا – صمت الخدم ، الذى عرفته عن قرب ، وكرهته ، الصمت الذى يخفى مؤامرة ، وحسدًا ، وطمعًا ، فيما تملك أنت أو تنفق ، ذلك الصمت الذى يشعرك دائمًا بأنك مهدد ومراقب ، وأن هناك مفاجأة خبيثة فى انتظارك ، هذا الصمت كان عند « نجية » رضا وحنانًا ، مع « نجية » لم أعد

أخشى المفاجآت ، أسلمت لها أولادى ، أغلب مفاتيحى ، وحاولت معها أن أصلح ما أفسده الدهر فى حياتها .. وفى حياتى .

* * *

استطعنا أن نصل مبكرين إلى تلك البقعة التى أحبها على الشاطئ الأبيض خارج المدينة ، حاول تامر أن يعترض على ذلك المكان المنعزل ، ولكننا أغريناه بالسباحة الممتعة ، وبأنه يستطيع أن يمضى السهرة فى أكبر « مدينة ملاهى » .

حاولت أن أقلل من التدخين ، وأن أحافظ على جو البهجة والرحلة ، « لمياء » كانت جميلة جدا فى « المايوه » الجديد ، أخذت معى كتابى ، و « كاسيت » تامر ذا السماعات وثلاثة أشرطة أحبها « لموزار » و « سبيليوس » ، ورتبت مع نجية طعامًا وشرابًا نظيفًا صنعناه فى البيت .

راقبت لمياء وجسدها الوردى الرائع ، عاد لى نوع فريد من الارتباط بها ، وبأيامها وهى تحبو وتتعلم المشى والكلام ، حاولت أن أصرف عينى عما فى وجهها وعينيها من مشاكل ، ومن إدانة موجهة للعالم ولى شخصيًا ، حاولت أن أطعمها اليوم مع الشمس والهواء ، حنانًا غير مشروط ومحبة تتجاهل كل ما حدث فى حياتنا معًا ، كان فيها كثير من براءة أمها القديمة ، واندفاعها السهل للفرح بالحياة .. وتامر ''رجلى الصغير'' ما أجمله اليوم هو الآخر ، رغم عفريت المراهقة والغضب الذى يركبه ، ورغم جبهة منير فكار المقطبة التى يحملها ، وأنفه الأفطس الكبير .

بعدنا كل البعد عن الشواطئ المزدحمة ، وأصبحنا - تقريبًا - وحدنا ، مع ثلاث أو أربع عائلات متناثرة نكاد لا نسمع لهم صوتا ، وعلى الرغم من المدينة الجديدة التى تقيمها إحدى النقابات لأعضائها ، والتى توقف

– الحمد لله – بناؤها ، لفساد مالى ما ، قرأت عنه ولم أعد أذكره ، على الرغم من المبانى القبيحة نصف المنتهية التى تناثرت حولها الأحجار والأخشاب ، إلا أن المكان احتفظ بخصوصية استعصت على "البهدلة" والانتهاك ، بقعة خاصة ، أملكها ، وأحظى ببحرى الكبير الذى أقتحمه ويقتحمنى ، أعرف هنا الآن جيدًا ماذا يمكن أن يعطى المكان للإنسان .. وماذا يمكن أن يلقى على صدره وروحه وعينيه .

أدرت ظهرى لكل شىء ، وتركت عيون « نجية » الصافية الواسعة الحنون ترعى « تامر » و « لمياء » فى استقرار ومحبة لا أعرف من أين أتت بهما ، وضعت موسيقى « سبيليوس » فى أذنى – هو رجل أحب البحر مثلى ، حاول أن يصنع من صوته ونوره وجنونه موسيقى ، كان منير فكار يسخر منى – دائما – عندما أرفع صوت موسيقاه صباحا فى البيت كى أطرد كآبة غربتى معه فى الخليج ، كان يضحك فى فجاجة ، ويصرخ ، « يادى سى بيليوس .. لدرجة سبيليوس » فأشعر أنه يطعننى بشىء ما فى رقبتى .

أبى المهندس القديم – الذى حاول أن يكون فنانا – علمنى أن أحب الكلمات ، وأن أكره تشوهها وفسادها ، وخالى حسين كان يحفظ الشعر ، ويجعلنى أردد أبياتا خلفه ، عندما رجعنا وعشنا وحدنا أنا والأولاد حاولت أن أنزع من لسانهما ما علق به من ألفاظ خليجية ، وألفاظ تعلماها من الشغالات ، ولكن سرعان ما حلت محلها ألفاظ العصر الجديد ، التى تفسد النطق ، والمعنى ، والتعبير ، كلمات هى والأغانى ، وإعلانات التليفزيون مؤامرة على روح « الكلام » ، ثم جاءت المدرسة الفرنسية – التى لم أجد لهما غيرها – لكى تقضى على البقية من ذلك النبات الحلو الذى كنت أريد أن أراه ينمو على ألسنتهما .

تناولت كتابى الذى أحمله معى منذ شهور « رحلة جبلية .. رحلة صعبة » للشاعرة الفلسطينية « فدوى طوقان » أتعبنى هذا الكتاب جدًا ، بعت له كل

أوقات فراغى ، عشقت المرأة ، وعشقت تعبيرها عن رحلة حياتها عبر قهرها الشخصى وقهر الوطن ، أقرأ كأننى أعيش معها ، كم أريد أن أعرف تلك الشاعرة العجوز ، وأن أضمها إلى صدرى ، وأجعلها تهدأ هناك ، وتستكين ، فدوى التى عاشت أهوالاً ، وهى تحمل فى يدها وعينيها عقدًا من الياسمين أهداه لها حبيبها القديم الذى صادفته فى مطلع الصبا ، رحلتى .. ورحلتها . رحلتها جبلية .. ورحلتى فى أحشاء الرجال ، وغربة الخليج ، ومدن الملح والأسمنت ، ورائحة العصر ، وفساد البشر . أغلقت عينى فى الشمس ، وقبضت على حفنة من الرمل النظيف الساخن .

* * *

للبوم إلى جوار البحر حيل مكررة لا تفقد - بالنسبة لى أبدًا - جمالها ، مفاجآت جميلة متكررة ، على الرغم من أننى لم أخلع ملابسى متجاهلة إلحاح «نجية » و « لمياء » ، إلا أننى كشفت ساقى للبحر ، وشعرت بالشمس فى صدرى وجسدى كله .

أغلقت الكتاب على قصيدة شعر تتكون فى رحم شاعرتى ، ونزعت «سبيليوس » ، وبحره عن أذنى ورحت أطارد أوهام المطلق الذى لاح فى حياتى ، وعذبنى دائمًا وراءه ، المطلق المجنون المستحيل ، الذى شدنى من شعرى الذى كان طويلاً وقصصته ، سحبنى على وجهى ، وعلى ظهرى ، بحثا عن الحب المطلق ، الجمال المطلق ، الرجل المطلق الذى لم يكن لى أبدًا ، أحببت - فى الخارج دائمًا - كمالاً لا يوصف ، وأحببت - فى داخلى - قدرة خارقة لا توجد أبدًا ، قدرة على أن أتغير أن أكون ما أريد ، أردت - دائمًا - أن أهب الأعزاء قلبى ، وحياتى ، ولكنهم كانوا - غالبًا - يريدون شيئا آخر ، كثيرًا ما رأيت بذور الآخرين تنمو ، أما بذورى أنا التى كنت أزرعها فى ظل روحى فى حدائقى

الخلفية فقد ظلت حتى الآن عاقرًا ، جافة ، لا تنمو ولا تخضر حتى بحرى الكبير لا يعرف ولا يرد على سؤالى الجارح : متى مت ، متى ماتت روحى ، وأمى ، ووطنى ، متى رحلت عنى الطهارة والبراءة ، ولم يعد لى سوى كهولة ، وعفن زاحف .

* * *

قبل ٦٧ وصلت أنا وعزيز إلى قمة المأساة ، كان هو بدأ يغرق فى الشرب ، يشرب خمرًا فى الصباح ، ويحمل الزجاجة - غالبًا - معه ، ترك الرسم ، واحترف التصوير الفوتوغرافى لكى يضمن عيشه وعلاج أمه التى لم يكن لها غيره ، طرق العمل الثابت تبدو أمامه مسدودة ، ما يجده من أعمال رسم أو توضيب فى الجرائد أو المجلات يجلب عليه - فقط - مشاكل و «خناقات» ، بدأ يفقد حتى الأصدقاء الذين يتهمونه بأنه أصبح مدمنا ومهملا ومقصرا فى حق نفسه ، وفى حق القضية ! وهو بدأ يسخر ويلعن كل شىء وبدأت مرارة غامرة تشكل سحابة يتحرك فيها .

ليلاً عندما نلتقى فى الأتيليه القديم الواقع فى أطراف الدقى ، والذى أصبح يدفع إيجاره بصعوبة شديدة ، كان يفرش الصور الفوتوغرافية الكبيرة والصغيرة التى يمضى النهار فى تصويرها وتكبيرها وتصغيرها ، يفرشها أمامه على الأرض ثم يسكب عليها بعضا من خمره ، ويشعل فيها النار .. يكرر كل ليلة : « لم يعد هذا البلد يحتملنى ، وأنا لم أعد أحتمله » ، تحولت مرارته رغبة فى التدمير ، وطالتنى حالات غضبه . يقول : « أنا أفسدت حياتك .. لن أقدر هنا أن أكون شيئا ، منذ سنوات ، وأنا لا أعمل ، لا أتعلم لا أعيش ، أسير تخلف وجهل ، عفن أحسه يضرب فى أطرافى ، بدأ يشعر بالاضطهاد ، وبأن فى كل مكان مؤامرة ضده ، يقول لى اذهبى وتزوجى ضابطا ، أو طبيبا ، ليس لى سوى

كوب الخمر .. تزوجى من يحضر لك الأطقم والملابس من غزة ، اسمعى لقد أضعت حياتك مع رسام فاشل ، ومصور فوتوغرافى درجة ثالثة ..

عندما يفيق كان يعتذر ويبكى ، ويأخذنى إلى بيتهم القديم فى شبرا لكى نمضى اليوم إلى جوار فراش أمه التى تحتضر ، كانت المرأة تشيح بوجهها عنى ، وتمسك بيد وحيدها وكأنها تتشبث بالصليب .

ماتت أمه قبل الحرب بأيام ، وعندما أفاق من موتها الذى هد ما بقى منه ، دخلت عليه أحزان الهزيمة وهو جثة هامدة ، بأقدام عارية وفوق أشواك حادة مشينا أنا وهو خلال القاهرة المنكسرة طولاً وعرضًا لأسابيع وشهور ، لم يعد يأكل ، ولم أعد أدرى هل يشرب الخمر أما أنها هى التى تشربه ، شبح يتسند على ذراعى ، وحيدًا محطمًا أتركه ليلاً فى الأتيليه القذر .

أحد أقاربه ، تاجر فى الأسكندرية ، استطاع أخيرًا أن يدبر له أوراقًا ، وأن يضعه على مركب مسافر إلى فرنسا ، ميتًا حقق حلم السفر إلى باريس ، ماتت روحه وقتلنى معه ، بعد أن سافر أصابنى مرض فى الدماغ أمضيت شهورًا فى غرفتى المظلمة ، حسبت – وحسب الأطباء – أننى فقدت البصر .

* * *

ها هى طيور البحر تنقش السماء المفتوحة الواسعة ، لا يصل إلى هذه البقعة سوى الطيور القوية المغامرة ، أما تلك الطيور الجديدة الصغيرة السوداء المحرومة ، فهى تطير هناك قرب الشواطىء المزدحمة القذرة عند أطراف المدن .

أحب هذه الطيور البيضاء القوية التى تطير عاليًا ، ثم تختفى عند الأفق فى تشكيلات – دائمًا – جديدة ، إنها تطابق حلمى أو هى تصنعه .

كانت « نجية » قد غلبها – بعد الطعام – نعاس .. أسندت ظهرها إلى مقعد مجاور لى وأراحت جسدها الأسمر السمين على الرمل الأبيض ، اختفى تامر مع لمياء فى جولات بعيدة فى الماء وعلى الشاطىء وبدا أن الزمن سوف يعطينى غروبا هادئا مهيبا ، ساعات قليلة من ذلك المطلق الذى حلمت به ، مع احمرار الشمس وتشكيلات الطيور البعيدة ، بدت لى حياتى وكأنها أوراق متناثرة تتوق إلى الترتيب ، كأن لحظاتى تريد أن تنسجم وتدخل فى سياق ، لم يعد التذكر يدمى أو يجرح لكنه ينساب من ذهنى إلى البعيد كتلك الطيور .

إنها عودتى الأخيرة مع منير فكار ، أريد الطلاق منه كما لم أرغب فى شىء آخر فى حياتى من قبل ، هو كان قد بلغ القمة فى الدور الذى يقوم به هناك ، وفى محاولات الكتابة والانتشار فى كل المجلات هنا وهناك ، كل كتاباته كانت مكررة وسخيفة ، يكتب كلامًا كأنه مضغ اللبان ، يكتب بسهولة شديدة ، أسمع الكلام « يطرقع » فى أذنى ولا يعنى شيئًا ، علاقته بالمال تحولت إلى شىء لم أعد أفهمه أحيانًا – فى الليل – أشعر به يدمدم فى الغرفة أو فى الصالة يدمدم دمدمات أحسبها صلاة لحساباته فى البنوك أو لودائعه الأجنبية .

بعد مغامرات جنسية جارحة لى وله ، امتنعنا – تقريبًا – عن أى اتصال ، كنت قد قررت ألا أرتدى الحجاب إلا للضرورة ، وكان هو قد بدأ يدخل فى أدوار من التعالى والارتباك ، يتهمنى بالكفر ، وبأننى لا أصلى ، ولا أعلم أولادى دينهم كما يجب ثم يعود ليتهمنى بالتبذير ، وبأن لى مشروعى الخاص ، وأننى أتآمر عليه ، وأضر بمشروعه الذى من أجله يتحمل هذه الغربة ، وهذا الكرب « هل تحسبيننى مستمتعا هنا .. أريد أن أضمن لكم حياة محترمة .. « محترمة فقط » ، « أنت لم تعرفى الفقر ، بنت الكوربة فى مصر الجديدة لا تفكر إلا فى الكريمات .. والملابس الداخلية الناعمة » .

أشد ما يثيره كان صمتى ، وعزلتى التى فرضتها على نفسى ، عملى فى التدريس كان يستغرق أربعة أيام ، وبعدها لم أكن أغادر غرفتى - تقريبا - حتى الأولاد تركتهم للشغالات اللآتى كان يغيرهن باستمرار بعد أن يتهمهن - دائما - بالسرقة ، تركت البيت - تماما - ليتحول إلى شقة تشبه سكن الطلبة أو المهاجرين ، امتنعت عن التدخل فى أى شىء لأننا كنا نختلف على كل شىء ، حالة الأولاد كانت تقتلنى ، وعيونهم تدعونى ، ولكن ظل منير الثقيل كان يغطى على كل شىء ، ولا يترك لى حلاً إلا الطلاق أو الانتحار .

نزلنا جميعا إلى القاهرة ، وكان مفهوما بيننا أننا قد اتفقنا على الطلاق ، لم أكن أريد شيئا سوى أن يترك لى الأولاد ، فى الغالب كان يبدو موافقا على كل شىء إلا هذه النقطة ، كأنه تاجر يفاصل فى الثمن ، يريد أن يأخذ « تامر » وآخذ أنا « لمياء » ، وسرعان ما يغير رأيه ، ويعود ليقول افعلى ما تشائين .. أما الطلاق فلا .

رغم أنه كان يملك أكثر من شقة فاخرة فى القاهرة ، إلا أنه حشرنا جميعا فى شقة حقيرة فى المهندسين استأجرها نكاية فى ، تركنى أنا و « تامر » و « لمياء » فى الشقة أسابيع ، يدخل ويخرج ، لا يتكلم ، ويغيب عنا ليالى ، ليعود ويقول إنها أشغال عاجلة ، كان مرتبكا ، ضائعا ، يفتش فى أوراقى ، ويتلصص على خروجى ودخولى وتليفوناتى وحتى أحاديثى القليلة مع الأولاد ، ويصرخ « لابد أن أعرف ما تدبرينه » أما أنا فلم أكن أستجيب ، ضائعة حتى آخر رمق ، لا أستطيع أن أرى الأولاد إلا وهما نائمين بعد أن تهدهما الحيرة ، والقلق والإهمال ، نوافذ الشقة كانت - دائما - مفتوحة ، وأنوارها - دائما - مضاءة ، تنبعث منا جميعا رائحة الموتى .

بعد أن تصورت أن الزمن قد تجمد وأننى سوف أعيش هكذا إلى الأبد ، وقف أمامى - فجأة - فى جلبابه الأبيض القذر ، مد رقبته إلى الأمام كما تفعل

سلحفاة عجوز قال : « غدا فى العاشرة صباحا ، يحضر المأذون وتخرجين من حياتى إلى الأبد .." .. أدخل رأسه داخل جلبابه ، واختفى ، لا أذكر كيف مضت بى الليلة ، ولكننى أذكر طعم ملح دموعى وأنا أعجن « تامر » فى « لمياء » وأضمهما معا إلى صدرى .

جاء إليه – فى الشقة – أصدقاؤه ليلاً ، طلب منى أن أخرج لمقابلتهم ، وقال : هم أصدقاؤك أيضا .. ويسألون عنك ، دفنت نفسى فى نفسى داخل غرفة الأولاد ، واحتميت بمتاريس الظلام والصمت .

ضوء العاشرة صباحا ، والذباب الصيفى الكثيف ، والأطباق القذرة الباقية من سهرة الرجال ، كانت كلها فى استقبال المأذون عندما وصل ، أنهى الرجل مهمته فى بطء شديد ، حسبت الوقت قرنا من الزمان ، منظر دفتره الكبير – على المنضدة – وسط الأطباق القذرة التى لم يرفعها أحد كأنه صورة سريالية ، يدى كانت مرتعشة ، وأنا أكرر التوقيع .

لم أشعر « بتامر » و « لمياء » ، وهما يوقظان « نجية » ويطالبان بما بقى من طعام ، توسدت لمياء فخذى وتمددت على الرمال ، وأخذت أداعب شعرها المبلل الطويل ، وانشغلت « نجية » بجمع الأشياء إستعدادًا للرحيل .

* * *

« الحمد لله » ! كلمتى السحرية ، أقولها عندما تهدأ نفسى ، وإذا رددتها هدأت نفسى ، ينتظم شىء ما فى علاقتى بالوجود ، أعرف حدودى ، أشعر بعطايا اللحظة الفريدة التى لا تتكرر .

ابنتى « لمياء » هادئة ، رأسها على فخدى ، وجهها ساكن جميل ، يلمع من الشمس وملح البحر ، نادرًا ما تستكين إلى جوارى ، ونادرًا ما لا أتوتر وهى معى .

الحمد لله تهبط الشمس اليوم ببطء شديد ، فى سماء صافية منقوشة – فقط – بتلك الطيور الراحلة إلى بعيد ، يقترب اليوم من نهايته فى هدوء بلا حوادث ولا مفاجآت .

* * *

تلك ساعات غامضة مؤثرة فى النهار ، مثل أيامى بعد أن رحل « عزيز » إلى فرنسا ، كل البلد كان صريعا ، ولست أنا وحدى ، لم يعرف الأطباء سببا لذلك الصداع الرهيب ، والعمى المؤقت الذى أصابنى ، لم يكن موجودا معى فى بيت مصر الجديدة سوى أمى المريضة ، وأبى الذى ضرب الشلل نصف جسده ، أما أختى الصغرى « نورا » فقد كانت تستعد للزواج من تاجر خليجى ، خطفها من الجامعة ، بعد أن سحره منظرها شبه الأجنبى (اتخذت قرارها بسرعة غريبة ، وقررت أن تترك الجامعة ، وتتركنا ، وتترك البلد إلى حياة لا تعرف عنها شيئا ، سوى أن بها كميات هائلة من النقود) ، كانت « نورا » ترعانى فى أوقات فراغها ، تصحبنى مرة إلى الطبيب ، أو تستدعيه لى ، وتمضى معى ساعات قبل أن تنام تحدثنى عما اشترته أو سوف تشتريه ، لم تكن تخفى سرورها بأن عزيز قد رحل ، وانتهت حياتى معه ، أما أبى فقد كان يراقب العالم حوله فى ذهول ، ولا يكف طوال النهار عن مطاردة الخادم الصغير الذى خصصناه لرعايته بطلباته التى تلخصت فى طلب الطعام والماء والعناية بنبتات الظل التى كادت تتوحش وتخنق كل من فى الشقة الواسعة .

الصمت والوحدة كانا هما – فيما يبدو – العلاج الوحيد لى ، بدأت نوبات الصداع تتباعد ، والنظر يعود إلى عينى اللتين أضعهما أغلب النهار تحت كمادات شاى دافئ ومحاليل أخرى ، أيام ممتدة ، يختلط فيها الليل بالنهار ، تصلنى أصوات العمارة والشارع القريب ، وكأنها قادمة من عالم آخر ، بالطبع لم

أكن قادرة على القراءة أو التفكير ، ولكن كان هناك تصميم غريب على أن أعود للحياة ، أن أنزل – مرة أخرى – للشوارع التى دمرتها الهزيمة ، وأفرغها غياب الحبيب الذى كان ، أفتح الراديو ، وأغلقه ، على أصوات خشنة متصنعة وكاذبة ، وأغان يختلط فيها النواح بالخلاعة ، أصوات ندابات بغايا تحاصرنى ، أغلق « الراديو » ولا أفتحه لأيام ، أشعر أننى حيوان جريح اعتزل كل شىء فى مكان بعيد ليسترد عافيته ، وهو وحده يستطيع أن يعالج مرضه وجروحه .

كنت قد عينت منذ شهور معيدة إدارة أعمال فى كلية التجارة ، ولم تتح لى الفرصة لكى أمارس عملى .

دخلت فى أجازات مرضية متتالية ، أستاذى الدكتور « السحار » كان الوحيد الذى يسأل عنى ، يرسل لى – أحيانا – ابنه وأحياناً تلميذاً من تلاميذه يسأل عنى وكأنهم يزورون ميتًا أو مجنونًا ، عندما زارنى هو بنفسه مرة فى الصباح أمسك برأسى بين يديه فى أبوة غامرة وقال وهو يودعنى "يمكنك أن تجعلى من فترة النقاهة هذه ، ميلادًا جديدًا ، أنا فى الجامعة يا سناء .. أنتظرك" ، كان الرجل – يرحمه الله – آخر الأساتذة الكبار الذين صادفتهم فى الجامعة ، كان هو الذى سهل سفرى بعد عام إلى لندن فى بعثة استمرت عامين ، حصلت فيها على اللقب الذى لا أدرى ماذا أفعل به الآن : دكتورة سناء فرج .

أهم ما ساعدنى على الشفاء ، رغم الدمار الداخلى والخارجى هو أننى أصبحت قادرة على أن أرى علاقتى « بعزيز » على أنها شىء خاص حدث لى أنا وحدى وانتهى ، أعطانى ذلك الرجل الجميل الذى دخل حياتى وخرج منها معنى وجودى ، عرفت معه معنى أن أكون امرأة ، وأن أكون مصرية ، فى فترة النقاهة تلك ترسبت فى روحى المتعبة كل تلك المعانى بلا زيف ولا ادعاء ، عرفت معه أن المرأة شىء آخر غير الماكياج والثياب ، غير الجسد والجنس والحمل والولادة ،

شيء متصل بالأرض والطبيعة ، شيء لا يعطيه لك أحد ولا يقدر أن يسلبه منك أحد ، وعندما كنا نتكلم أنا وهو في السياسة ، وأحوال البلد كانت الحوادث والشائعات تتساقط كأوراق الشجر ، ويصل هو إلى لب الأشياء في كلمات بسيطة طبيعية ، فأرى أمامى صعوبة الواقع وقسوة ، وضرورة التمسك ببرعم أخضر صغير ينبت فى قلب الناس والوطن ، لم يكن الحديث معه مكابرة أو تفاصحا ، ولكن حلم ببصيص فهم أو قدرة على تحول وتغير .

كيف هان عليه أن يدمر كل شيء ؟ بالشراب المتصل أولاً ، ثم بالرحيل ، فى أيامه الأخيرة معى كان ينظر إلىّ ولا يرانى ، كان مشدودًا من عيونه إلى مصير غامض ، بدأ يقرأ فى كتب عن تناسخ الأرواح ، ويحدثنى عن العودة المتجددة للوجود ، ويقول سوف نلتقى – حتمًا – فى وجود آخر ستكونين أنت .. يمامة أما أنا فسوف أكون حبات رمل فى صحراء .

يقول لى خطأ حياتك الفادح أنك لم تدرسى الفلسفة أو الفن ، مالك أنت ومال التجارة وإدارة الأعمال ، أنت لا تستطعين إدارة حياتك ، لم يكن يعرف أى قدرات تولدها الوحدة ، والألم والتصميم على الدفاع عن النفس والبقاء .

* * *

من يرانا فى طريق العودة من الشاطىء يحسبنا أسرة سعيدة غاب عنها راعيها – أو سبقها – ليعد لها بيتا وطعامًا ، « لمياء » تمسك بذراعى وتحدثنى بلا انقطاع عن زميلات لها ومشتريات ترغب فيها ، ووقائع نصفها حقيقة ونصفها خيال ، استمع لها وأشرب ملامحها المليئة بالحيوية والاندفاع ، أما تامر فقد ركب على نفس « نجية » التى كانت تعرف كيف تروضه ، وتسمع له ، وكأنها مستمتعة ومستغرقة فى كل ما يفعل أو يقول .

انتهى الرأى إلى أن يذهبوا إلى الشقة لتغيير الهدوم ، والاستعداد للسهرة فى مدينة الملاهى . حاولت « لمياء » دون إصرار أن تمد صحبتنا الخاصة بأن تبقى معى ، لكنها لم تقاوم إغراء « تامر » بليلة فى المدينة الصاخبة .

تركتهم عند ناصية قريبة إلى البيت ، ودخلت وحدى وسط زحام أول الليل فى مدينة تتصنع البهجة ، كنت أحاول أن أتذكر الطريق إلى مقهى مطعم قديم ، يقع فى شارع جانبى ، كان يملكه يونانى عجوز وزوجته .

لماذا تكسو المدن نفسها - دائما - بقناع أو ماكياج يخفى حقيقتها ، الشوارع الكبيرة ، والمبانى الضخمة السخيفة تتصدر كل شىء ، كاتمة على أنفاس الشوارع الجانبية الحنونة التى تتكون من بيوت قديمة جميلة لها طعم ورائحة تكاد تنطق بالقصص والحكايات .

رحت أطارد الليل الهابط خلال تلك الشوارع الجانبية بحثا عن ذلك المقهى المطعم الأخضر القديم ، الذى أكلنا فيه ليلة سمكًا وشربنا زجاجة نبيذ ، عندما كان « عزيز » يشربنى أنا ، ويسقينى كل الوجود معه .

تصافح وجهى أشجار عجوز مائلة على تراب الشوارع الناعم ، امتلأت نهايات الشوارع « بغرز » الشاى والدخان ، وعربات الساندوتشات المضيئة ، وعربات النقل الصغيرة والكبيرة الراكنة ، ولكنها جميعًا ، لم تقدر على خنق « روح المدينة » التى كنت أحبها ، أذكر سجاجيدها الصوف الملونة ، وأسواقها البدوية عند أطراف الصحراء ، فأحسب الدنيا - كانت - قافلة عروس تستعد للسفر ، الموجود أطلال - فقط - لكنها كثيفة الرائحة .

عندما وجدت ما أبحث عنه ، أدركت فعلاً أن كل شىء قد اندثر ، لم يعد هناك وجود لليونانى العجوز ولا زوجته ، والمقهى المطعم الأخضر القديم تحول إلى

« كافيتريا » قذرة ، تلمع على مفارشها البلاستيك ، انعكاسات أضواء لمبات « النيون » ، تفحصنى المعلم الجديد صاحب المكان بارتياب ، يكاد يسألنى : وحدك ؟ اخترت منضدة مجاورة للنافذة المغلقة ، عندما جاء الجرسون يمسح المفرش .. تذكرته ، كان الدهر قد أكل عليه وشرب ، كنت أريد أن أتذوق كوبا باردًا من « البيرة » ، لكننى عرفت أنهم لا يقدمونها إلا فى فنادق السياحة ، فطلبت أى شىء بارد ، ورحت أشربه فى قلق واستغراب .

* * *

كانت النقاهة الحقيقية هى تلك الشهور التى مرت بعد أن رجعت إلى الجامعة ، البلد كله والجامعة على الخصوص كانتا فى حالة لا توصف ، كأن كل شىء قد اقتلع من جذوره وألقى فى وسط الطريق ، خطوات الناس مرتبكة وعيونهم زائغة ، وحتى أصواتها وانفعالاتهم لا يتحكمون فيها ، كنت وحدى الخارجة من نقاهتى كأننى جديدة ، لا شىء بعد القاع المظلم الذى سقطت فيه ، كنت أعتنى بأن أسمع ، بأن أفتح عينى وصدرى وعقلى ، كأننى غريق يأخذ أول نفس من هواء ، ساعدنى الدكتور « السحار » كانت له غرفة نصف مظلمة يبقيها - دائما - مغلقة ، يجلس فيها أغلب الوقت وحيدًا ، يراجع أوراقه ، أو يطلق سحابات من دخان « البايب » القديم الذى لا يغيره ، يحاول أن يبقى نفسه منفصلاً عن الضوضاء والصراعات ، يعرف الآخرون قدره ، ويخافون منه ، فتزداد وحدته وعزته وعزلته وعذابه بما يراه يحدث فى البلد وفى الجامعة لا يستطيع حياله شيئا ، ولا يستطيع أن يقبله ، استعمل آخر ما له من نفوذ فى أن يدفعنى ويمكننى من الحصول على البعثة ، لسبب لا أفهمه ، لم أكن أشطر المعيدين المتقدمين ولا أكثرهم نشاطًا ، ربما لأننى كنت أقلهم نفاقا له ، وأكثرهم عزلة عن الانغماس فيما يحدث ، هناك شىء من الكبرياء والتعالى

جمعنا معا ، فى تلك الغرفة نصف المظلمة ، المليئة بالكتب القديمة .. كنا نتبادل حزنا حقيقيا .

ماتت أمى فى صمت وسط نباتات الظل التى رباها أبى لكى تخنقنا جميعا ، أغرب ما فى وفاتها أن أبى لم يذرف دمعة واحدة ، كأن ما يحدث لا يعنيه ، أما أخى الكبير « أمين فرج » الطبيب المهاجر إلى كندا فإنه لم يحضر ، واكتفى بمكالمة تليفونية قصيرة ، و « نورا » أختى التى كانت لا تزال عروسًا حضرت إلى القاهرة مع زوجها الخليجى ، وأقامت ليالى فى فندق كبير ، اعتقادًا منها أنها بعد وفاة أمى قد تستطيع الاستيلاء – هى وزوجها – على الشقة القديمة ، كنت أرى أسرتى تتحول إلى تراب يتساقط من كفى ، أبى وحده – مع خادمه الصغير – يكافح الشلل فى قوة ، وينطق كلماته الآمرة فى صعوبة ، هو الآخر يكاد يتحول إلى نبات ، أما أنا فقد كنت أراقب كل هذا فى لامبالاة وحسرة .

تدبير احتياجاتى المادية للسفر وخلافه كانت أول صفعة أتلقاها على وجهى ، ترددت « نورا » وهى تقدم لى مساعدة مادية على سبيل القرض ، لمحت فى أحاديثها وخطاباتها أنها تخاف أن تصبح هذه « عادة » أما أخى الكبير المهاجر فى كندا فقد اعتذر بوضوح لأنه كان قد اشترى بيتا ريفيا جديدا خارج المدينة .

صرت وحدى – فعلاً للمرة الأولى – بلا عائلة ، بلا حبيب .. وبلا وطن ، ركبت الطائرة ، ولم يكن أحد فى وداعى .

* * *

فى لندن عرفت أن « عزيز » كان عنده حق عندما قال إن أكبر أخطائى هو دراستى هذه لإدارة الأعمال وعلوم التجارة ، وجدتها سجونًا صغيرة صنعتها

لنفسى ، الاكتشاف الأوروبى كان مذهلاً ، وجميلاً ، لا أدرى لماذا يبدو الآن خافتا .. وبعيدا .. كأنه حلم لم يحدث ، حاولت أن أملأ حياتى هناك كما فعل توفيق الحكيم وطه حسين بالفن والمسرح والموسيقى ، لكن قلبى كان فارغًا وروحى مثقوبة ، كنت مشدودة إلى ما تركته ورائى ، متعلقة بالوطن الذى حاق به الدمار ، أتقلب فى غربتى ولا أجد من أراسله ، كتبت مرات لأستاذى الدكتور « السحار » ، ولكننى قرأت بعد فترة أنه – هو الآخر – مات فى حادث سيارة .

كان « عزيز » قريبا على مرمى حجر فى باريس ، ولكننا كنا قد دفنا ما بيننا معًا ، ولم يكن هناك معنى ولا جدوى من نبش القبور ، عرفت من بعض الزملاء أنه يلاقى بعض النجاح كرسام تجارى ، وأنه يكتب – أحيانًا – فى صحف المعارضة التى تصدر هناك .

العائلات المصرية هناك كانت امتدادًا جديدًا لما تركته ورائى ، الارتباك و «اللخبطة» والأسرة المدمرة ، والعلاقات العنيفة الغاضبة ، كانت تواجهنى فى كل البيوت ، حالتى كامرأة وحيدة ، غير مرتبطة بأية علاقة واضحة ، كانت تدمر علاقاتى مع الرجال الناضجين الذين غالبًا ما يكونون متزوجين من نساء غيورات ، أما اللهفة على الجنس ، وفهم الحرية على أنها رفع للخصوصية ، فقد كانا يقضيان من البداية على أية علاقات مع الزملاء الشباب ، حتى اكتفيت فى علاقتى بهم بسلام .. سلام .. أحمد نور دارس الزراعة الأسمر الطويل هو وحده الذى اقترب منى ، كان صامتًا وقورًا ، يعيش فى مدينة بعيدة عن لندن ، وينزل إلى لندن فى عطلة نهاية الأسبوع ، أمضينا معا عدة أجازات ، وعرفت أنه من الإخوان المسلمين ، بدا لى عادلاً ومعقولاً ، يفكر ويستطيع تقدير الأمور ، يمتد ظل إنسانى وافر حوله فى تسامح يغرى بالتأمل ، عندما اقتربنا أكثر ، وزرته وزارنى لعدة شهور ، أحسست أنه يكره استقلالى ، يحب أن يتظاهر بأنه يعطينى

للحرية ، ويكره أن آلختهما ، لم يكن غريبا أن أكتشف بسرعة ، تحت تسامحه اللفظي دكتاتورًا صغيرًا وعنيفًا ، لختفي من أيامي بسرعة ، وعدت أكتفي بالوحدة مع دروس الإدارة والاقتصاد ، أو صداقات عابرة - في العطلات - مع بعض السمر الأجانب ، أو الإنجليز الذين لا طعم لهم .

في العام الثاني - على الخصوص - عادت علاقتي مع الشعر والكلمات ، كنت أبحث عن دواوين الشعر الجديدة التي تصدر بغزارة هناك ، في البداية لم أكن أفهم شيئا ، لكنني كنت أعاود القراءة ، حتى أعثر على النغم الذي ينتظم الكلمات ، ثم أعاود القراءة حتى توافيني الصورة الفريدة التي تختفي خلف الكلمة والجملة والشطرات ، أحببت « ديلان توماس » شاعر (ويلز) الذي كان اسمه يتردد كثيرًا في ذلك الوقت ، قصائده تبعث القرى الجبلية الغارقة في الضباب والبرد والفقر حية دافئة ، تسخر من دم الإنجليز الأزرق البارد ، كنت أضم كتبه في أغلفة من ورق ملون ، وأسمع أشرطة مسجلة عليها أشعاره وهو يقرؤها وقد تحشرج صوته الرجولي المخمور بصدق طاغ ومحبة غامرة للناس ، تجاربي مع صوته وأشعاره مترسبة في ذهني كأنها علاقة جسدية أشعر بها في كل كياني .

* * *

أحسست عيون الجرسون القديم تراقبني من الركن المظلم الذي يقبع فيه ، ارتفعت أصوات الزبائن الجدد بضوضاء فجة ، أكدت لي زوال كل ما كان في المكان من تاريخ قديم ، لم يبق منه سوى المفارش البلاستيك القذرة ، ولمبات « النيون » .

وضعت نفسي في عربة « تاكسي » ووصفت للسائق عنوان الشقة المفروشة ، بدون « نجية » ولا الأولاد بدا المكان عاريًا ومزعجًا أكثر من اللازم ،

دخنت عددًا من السجائر ، كأننى أعوض ما فاتنى خلال النهار ، بعد لحظات دق جرس الباب وحمل لى البواب « بوكيه » ورد أحمر وأبيض ، مع ظرف مغلق صغير ، تلصص البواب على الصالة وهو ينتظر البقشيش ، كانت كلمات هانى مكتوبة بخط منمق : « لك الورد .... يا قمر ، ولى الوحدة ، حبى .. هانى » من أين يأتى هذا الصوت المعدنى ذو الرنين ، داعبت بيدى الأزهار والورود التى تعانى من الحر والإهمال ، فقد تركها عند البواب من أول النهار ، امتلأ قلبى بأسى ثقيل ، تحدث معى الأشياء ، بعد فوات الأوان ، أتذكر الكلمات التى يجب أن تقال بعد أن أغادر المكان، أشعر بالفرح بعد انقضاء اللحظة ، فتشت فى قلبى عن نبظة حب ، نبضة فرح ، فلم أجد إلا فراغا لاهثا وخوفا من مجهول ، تذكرنى وروده المسكينة بالحب الممضوغ الذى نلوكه معا ، بذلك الإعياء الذى أشعر به بدلا من اللهفة على اللقاء .

جلست فى مقعدى ، أواصل التدخين ، وأنا أراقب الليل الثقيل يسكن الشقة ، تضيئه أحيانًا أنوار عربات عابرة أو إعلانات متحركة قادمة من ناحية البحر .

بعد أن استقرت « نجية » معنا لشهور ، ضرب القاهرة قيظ خانق شديد ، عندما ينقطع التيار الكهربائى – أيضًا – وتتعطل أجهزة التكييف فى غرفة نومى وغرفة الأولاد ، تتحول الشقة إلى فرن حقيقى ، ويستحيل النوم أو حتى محاولة البقاء فى الفراش .

أفتح نوافذ غرفة الأولاد ، وأخرج أنا ونجية إلى الشرفة الصغيرة نجلس وحدنا فى الظلام ، حكت لى نجية بصوت رتيب خال من الانفعال حكاية زواجها ، ورحلة القهر التى مرت بها ، لم أكن أرى فى الظلام سوى بياض عينيها اللامع يبرق فى كتلة من سواد .

عرفت « نجية » زوجها « أنور الإسكندراني » في قصر جماعة أجانب ، خدمت عندهم طويلاً ، أبوها كان سائقا لسيارة الخواجة ، أما « أنور الإسكندراني » فكان الطباخ الأول ، جميلاً جداً كان ، ونزيها في ملبسه وكل تصرفاته .. « وأنا كنت سنيورة سمراء » ، حقيقي ، قد لا تصدقين ، نحن النوبيين لا نتزوج من أغراب ، لكنني لم أستطع مقاومة حبي « لأنور » ، ماتت أمي ، ورفض أبي بكل الطرق أن يسمح بالزواج ، كنت أحلم ليلاً ونهارًا بأن أتزوج وأسافر مع أنور إلى الإسكندرية ، حيث أهله أصحاب محلات البقالة ، كنت أصدق كل ما يقول مثل ما يصدقني « تامر » الآن أو « لمياء » نزل في قلبي مكان الأهل ، والأرض ، والدين ، لم يعد لي أحد سواه قاطعني أبي وإخوتي الذين لم أكن أراهم أصلاً .

في يوم جمعة غادرنا « القصر » تاركين حسابنا حتى لا يشعر أبي ، وتزوجنا في فرح إسكندراني يوم الخميس الذي يليه . كانت « نجية » تقوم لتأتي ببعض الماء البارد ، وتلقي نظرة على الأولاد ، أشرب ، وتشرب بعدي ، وترش رأسها بالماء ويستمر صوتها وكأنه يصدر من داخلها .

« ليس هناك أفظع من خيانة الروح والنفوس ، لم تمض أسابيع حتى كان أهل أنور جميعًا – رجالاً ونساء – ينهشون في لحمي حيًا ، لم يوفر لنا مكانًا خاصة فعشنا وسطهم ، كنت مستعدة لأن أحتمل أي شيء – وأنت تعرفين – لو شعرت للحظة واحدة أنه إلى جانبي ، تركني عند أول ناصية ، وانضم إليهم ، يأتي كل ليلة مسطولاً ، أسمعه يضحك مع أهل حارة « دم الغزال » كلهم ، ومع أهله الساهرين في الصالة ، ثم يدخل إلى غرفتي ويسب لوني وبرودي ، ويلعن حظه الذي يشبه وجهي ، لم أعرف سببًا لتحوله السريع سوى هؤلاء النساء اللاتي يزحمن البيت متباهيات أمامه بلحمهن الأبيض ، بعد أن كنت أحلم بأن أكون سيدة في غرفة أو شقة صغيرة أصبحت جارية أخدم جمعًا من النسوة

الغجر ، ربنا لا يحكم على أحد بالقهر مع الفقر وقلة الحيلة ، لم يكن يريد أن يطلقنى ، هن لا يردن ذلك ، كان يأتى إلى فراشى ويفعل ما يشاء ، دون كلمة ، دون صوت ، دون حياة ، وعندما قلت له أننى حامل ، أعطانى ظهره وقال : نزليه !

وحدى خلف قلعة « قايتباى » .. الله وحده يشهد وموج البحر ، أجهضت نفسى بنفسى ، حملنى الرجال غارقة فى دمى إلى بيته فى حارة « دم الغزال » .

أول ما وقفت على قدمى غادرت البيت والإسكندرية ولا أعرف حتى اليوم إن كان قد طلقنى أم أننى مازلت على ذمته .

لم تكن « نجية » تبكى أبدًا أو تنفعل وهى تحكى لى حكايتها مرات ومرات ، مضيفة تفاصيل حارقة جديدة تكشف عن وحدة رهيبة فى الروح ، كانت تحكى فى نبرة باردة كأن ما حدث ، حدث لشخص آخر أو كأنه من طبيعة الأشياء .

دق جرس الباب – مرة أخرى – لو كان « هانى » فإنى سأذهب معه – الليلة – حتى إلى الجحيم .

* * *

هل لأن الشمس تخللت جسدى طوال النهار وهواء البحر ؟ أم لأن روحى عصرتها أيادى الماضى القريب والبعيد ، تحرك فى داخلى غضب وشبق ورغبة غامضة فى الانتقام من شىء ما ، أو من نفسى .

هو هانى قبطان – بالتأكيد – من يدق الباب الآن .. جاء يحصل على ما منعته عنه بالأمس ، فتحت له ، وعلى وجهى قناع من الترحيب والاعتذار البارد ، مد ذراعية يريد أن يحتوينى فى حرارة محيرة ، لم أضىء النور واكتفيت بأنوار الشارع والإعلانات التى تغمر الشقة للحظات لا أستطيع معها أن أتبين قبحها المنفر .

وهو يلامس وجهى وفمى فى تقرب متسرع قال إنه التقى بالأولاد فى طريقهم إلى مدينة الملاهى وصحبهم إلى هناك ، عرف منهم أننى شاردة أتجول ، بحث عنى حتى كاد ييأس ، لكنه الآن ، وقد وجدنى ، لن يتركنى .

أوقفت حديثه بقبلة سريعة ، وتركته حائرًا تحت الأضواء المتغيرة ، أحب أن أبقية فى انتظار مفاجأة ما .. الانتظار والتوقع يجعلانه فى أحسن حالاته ، لم أعتن بحمامى كما تعودت ، يبدو أننى أنا الأخرى فى عجلة من أمرى ، نثرت على جسدى قطرات من العطر النفاذ الذى يحبه ويهديه لى دائما ، وارتديت فستانًا صيفيًا واسعًا ، مازال باقيا فى جسدى بعض من حرارة الشمس وهواء البحر .

لمحته من باب غرفتى يشعل سيجارة حشيش نفاذة الرائحة يهدىء بها تلهفه الصبيانى الذى لا يعرف كيف يخفيه .

هناك « سكك » فى علاقتنا لو توقف عندها عقلى لانتهت الليلة بخناقة ، أو اختلاف صامت أمر من السم الزعاف ، منها حالة « السُطل » والبلادة التى يدخل إليها بعد سيجارتين أو ثلاث من تلك العلبة التى لا تفرغ أبدًا ، يحيله هذا الدخان عندما يبتلعه وحده إلى كائن غريب ، لا أعرف كيف أصل إليه .

لن أتركه الليلة يدخن كثيرًا ، أو يشرب كثيرًا ، أريد الليلة صحبة إنسانية بعض الشىء ، حميمة بعض الشىء ، هل يستطيع هانى قبطان .. تلك القامة الطويلة المعقوفة التى أرى انعكاسها الداكن فى مرآتى ... أن تمنحنى أى شىء ... أى شىء .

لست عجوزًا بعد أيها الرعديد ، لست عجوزًا مازلت راغبة فى الحب الحقيقى ، قادرة على عمله وصياغته .

*   *   *

دبرت في البيت بسهولة رحلة أسوان حتى أكون مع عزيز فقط ، نساف أكثر من عشرين فتى وفتاة من الفنون ، والتجارة لكننى لا أرى غيره فقط ولا أفكر إلا فيه .

كل القطارات والقرى ، والنخيل ، والآثار ، والمعابد ، ليست سوى جزء من لقائنا المندفع فى تيار أقوى من النيل ، وجهه وجسده سيكونان لى وحدى وأنا سوف أعطيه نفسى .

استطاع عزيز أن يرتب لنا رحلة مستقلة ، نذهب فيها وحدنا إلى أستاذ وصديقه الرسام الذى يعيش فى قرية من قرى النوبة القريبة .

كانت القرية شبه خالية ، ناعمة ممتدة فى اتساع إلى جوار نيل لم أر – أبدا – مثله ، واسع وصاف وصامت كأنه يسمع كل حديث الكون ، البيت يفتح مباشرة على النيل ، والأرض رملية طرية تنطبع فوقها أقدامى – وأقدام عزيز – العارية فى جولات لا تنتهى .

صديقه الرسام كأنه أحد الرهبان ، مشغول جدًا ، وطيب جدًا ، حتى لا تكاد تشعر بوجوده ، أعطانا حجرتنا الواسعة المستقلة المفروشة فرشا نوبيا بسيطًا ، أجمل ما فيها الفراغ والاتساع والنظافة ، وألوان « الخوص » الصفراء والحمراء التى تلمع فى النهار وفى الليل .

الرجل كأنه اختفى ، عندما نريده نبحث عنه ، لتدخين سيجارة أو تبادل بعض الكلمات ، النهار والليل لنا ، نمشى ونقرأ ، أو نغلق على أنفسنا باب الحجرة ، نعيش داخلها كل الدهشة والاكتشاف ، وتلك اللذة المصفاة التى تمتد من أطراف الأنامل إلى داخل الأحشاء .

لم أعط نفسى كاملة لعزيز إلا فى هذه الغرفة التى يتسلل إليها ضوء النهار ، فلا يجرح ولا يعتدى ، يحيطنى داخلها ذلك الصمت المقدس الذى أشربه مع كلمات عزيز التى يحدثنى بها على كل جسدى .

عزيز يرسم « اسكتشات » بالرصاص لصخور ونخيل ، يستغرق فيها فأحبه أكثر ، أرى خطوطه وأشكاله تكشف لى أسرارًا خاصة بى لايعرفها أحد غيرى ، يضع ورقته أمامى ، وينظر إلىَّ فى تساؤل ، ألقى بنفسى مرة أخرى عليه ، وأطوق رقبته ، كل رسائله تصلنى ، يمسك بيدى يعلمنى الرسم ، أقف معه على النيل فى الفجر ، أتعلم استقبال السكون والضوء والهواء بعيونى ، وكل كيانى .

جسدى كله يتفتح فى خصوبة وقوة ، حريتى حقيقتى معه ، يداى تنالان ما تشتهيانه ، أطراف أصابعى اكتشفت هناك أنها من نقطى الحساسة ، يأخذ كفى بين يديه كطائر صغير ، يخاطبنى خلال أناملى ، أغلق عينى ، يختلط على الوجود .

ذات صباح - قبل أن نسافر - استيقظت لأجد أنه قد وضع « طشت » كبيرًا فى نهاية الغرفة تحت بقعة ضوء ، وجاء بماء ساخن ، وأوقفنى هناك ، وغسل لى جسدى كله بالماء والصابون تحت ضوء الصباح الناعم .

* * *

فى لحظات كنا عند الفندق القديم ، كان له « شاليه » قرب نهاية الفندق منعزل ومستقل ، فى الداخل كان كل شىء معدا ، كمسرح صغير ، يتصدره فراش واسع مغر ، ولوازم السهرة موزعة فى الغرفة ، اعتنى هو بتجهيزها مع جرسون الفندق .

خلع ملابسه ووضع نفسه فى جلباب واسع ملون ، واستراح فى مقعد وثير ، مع كأس مترعة من « الويسكى » الفاخر .

كان علىَّ أن أختار من أين نبدأ . صعبة دائما لحظات البداية هذه معه ، لا شىء يخرج منى أو منه فى تلقائيه .

تعلمت أشياء كثيرة فى الحياة ، تعلمت كثيرًا من المسارب والطرق الملتوية ، لكننى مازلت أجد صعوبة بالغة ، أو استحالة فى استعمال البشر ، فى أن أرتب تعاملى معهم على أساس المقصد والغرض ، والمنفعة والربح ، خذ وهات .

لو أستطيع هذا مع هانى ، لكان كل شىء عمليا ومنطقيًا ولذيذا ، هو فى حاجة إلىَّ لأيام أو ساعات يكسر فيها ملل حياته الزوجية ، وجفاف زوجته ، وتعوده عليها وهو يوفر لى رفقة طيبة ، وفراشا ممتعا – أحيانا – لإمرأة على مشارف الخمس........

هل حقا مضى كل ذلك العمر .. ولا شىء يزرع المعنى ، هلع بلا قرار فى قلبى ، يصرفنى عن هانى الذى كأننى أنسى وجوده للحظات .

فى البداية كان مشروع الزواج – المزعوم – لعبة مسلية ، دخلت فيها وأنا عارفة .. وراضية ، أدخل معه فى التفاصيل ، وفى ترتيب شئون حياتنا المشتركة ، وحياة الأولاد ، واحتمالات الحياة فى أوروبا ، أو فى أى مكان بعيد اختاره ، مشاريعه هو العملية مرتبطة بى ، وبترتيب حياة مريحة ناعمة لى .

يريد أن يعوضنى عما فات .. عما حدث لى .. تستفزنى نغمة العطف والإشفاق ، أؤكد له أننى حصلت على ما أستحق ، وأننى لا أشعر بالمرارة ، يضحك عندما أردد أننى لا أقبل تعويضات من أى نوع .

مللت هذا الموضوع ، أراه هشا ، زائفا ، ولن يكون . شيء ما في أطراف عينيه يؤكد لي أن ما نفعله ليس سوى علاقة عابرة ، تأخذ ما تأخذ ، ثم تسقط تحت عجلات حياته المتصاعدة السالكة طريقا آخر غير طريقي ، حاولت أن أعيده إلى أرضي وأرضه ، إلى هذه الغرفة وهذا الفراش ، ولكن كؤوسه وسجائره المتصلة كانت تحاصره في دور لا يستطيع أن يلعبه بإتقان كاف .

غيرت الموسيقى الخفيفة التي كانت تصاحبنا من أول السهرة ، فتحت بعض الهواء في الغرفة ، وطلبت له ولي طعاما ساخنا دسما .

ونحن ننتقل إلى الفراش كان يردد بمعان مختلفة أنه لايريد معي - أنا بالذات - علاقة عابرة ، أنا بالذات لا أصلح لعلاقة عابرة ، قالها بالعربية ، والإنجليزية ، والفرنسية .

وهو يضمني .. أخذ يردد : أحبك .. أحبك ، عندئذ انقسمت روحي نصفين .

* * *

أخيرًا كفت أوضاعي المالية عن أن تضبح مزعجة ، نصف مرتبي الذي أقبضه بالدولار يضعني - الآن - في أمان مؤقت بالنسبة لمطالب الحياة ، لا يحق لي أن أشكو وأنا أرى ما حولي .

النقود التي مع هاني ومع من هم أغنى منه ليست نقودًا ، هي تيار فاسد ومفسد ، لم أرغب فيه أبدًا ، بل أكرهه .

منير كان يقول لي دائمًا : « أنت تحبين أن تصرفي النقود ، ولا تعرفين كيف تكسبينها » ، وهاني يقول : « أنت المرأة الوحيدة التي لا تغريها النقود » .

الهلع المجسم كان في السنوات التي أعقبت الطلاق ، كنت أعيش على الفتات الذي استخلصته من منير ، والنفقة القانونية الشحيحة .. بقيت بعد

استقالتى من الجامعة خالية بلا عمل ، مع خوف الفقر ، وخوف الغد ، ووحدة امرأة لفظتها طواحين الهواء يصبح العالم مكانًا عدائيًا بشعًا ، ما يقرب من عامين عشت وحيدة فى كهفى - شقتى فى مدينة نصر - لا يطرق بابى سوى من يطالبنى بنقود ، أو يتلصص ، أو يلقى علىَّ نظرات أو كلمات الرفض والاحتقار ، كان علىَّ أنا - دائما - أن أرفع أكوام الزبالة .. أن أحملها على رأسى حتى أظل أنا وأولادى وبيتى فى نظافة كما نستحق ، أخذت هذا الحق لنفسى من بذاءة تجربتى مع منير ، لم يكن فى الحياة أى هامش صغير لشىء آخر غير الدفاع عن الوجود .

احتاج الوقت إلى قوة هائلة ، لا أدرى من أين جاءت .

أشعر براحة غامرة . أكاد أقول سعادة عندما يبلغ اليوم نهايته ، أضع لمياء وتامر فى الفراش ، أعود إلى صالة الشقة وحيدة ، أجد على منضدة السفرة قماشا لفستان جديد كنت قد اشتريته ، وأوراق التفصيل والمقص ، أتابع ضرباتى غير المدربة بالمقص اللامع ، وأرى ألوان القماش تتناثر أمامى بلا شكل ولا معنى .

أحمل وحدتى إلى فراشى ومعى قطع متناثرة بلا شكل ولا معنى من ماضىَّ البعيد والقريب .

*   *   *

الحمد لله على الانفتاح وشركات الاستثمار ، والمكاتب ، والبنوك الأجنبية ، لولاها لما وجدت مثل هذه الوظيفة فى مكتب « الحارونى » للاستيراد والتصدير ، أو كان علىَّ أن أحشر نفسى فى أحد المكاتب الحكومية القذرة المزدحمة ، أو ألقى بنفسى فى شركة قطاع عام خاسرة تبعث ، الحزن والكآبة ، هنا مكاتب نظيفة ، وأجهزة تكييف تعمل - وعلى الأقل - بعض الاحترام لنظام عمل .

من حسن حظى أن « فايز الحارونى » الرأسمالى المصرى العجوز ، كان حاضرا بنفسه فى يوم المقابلة ، واختارنى من بين عشرة من المتقدمين ، قال وهو يرحب بى فى طاقم مكتبه الخاص : ليس لأنك دكتورة .. ولكن لأنك تحترمين العمل وتحبينه .

فى الحقيقة كانت ثقة « الحارونى » فىَّ ، وإعجابه الواضح بتصرفى « الدوغرى » المختلف عن المحجبات جسدًا وروحًا ، أو غيرهن .. ثقته هذه هى التى ضمنت لى البقاء والترقى ، فى المكتب كان يعتمد علىَّ فى تلقى خطاباته و « فاكساته » والتليفونات المهمة التى تصل إليه طوال اليوم من الخارج ، والتى لا يحتمل الرد عليها أو البت فيها أى تردد أو تأخير ، كنت حاضرة بالنسبة له دائما ، فقد كنت أحب الرجل ، مذهولة بنشاطه ، وهو فوق الثمانين ، كأنه معجزة متحركة ، أو أثر من الآثار التى تبعث الفخر فى المصريين .

عندما توطدت علاقتنا ، كان يشكو لى من أولاده « أشباه الرجال » أفسدهم مال أبيهم قبل أن يصبحوا رجالاً ، لا فى الحياة ولا فى العمل ولا حتى مع زوجاتهم .

كان العمل إلى جواره متعة . رغم الملايين التى يتحرك فيها ، فإنه كان مقتصدًا مدبرًا يحب حياته ، ويومه وعمله ويحيط نفسه بأشياء صغيرة يحبها ولا يغيرها .

دقائق من العمل معه ، أو حتى مجرد الحديث الذكى العابر ، تعوضنى عن سخافة التعامل طوال النهار مع الزميلات من النساء العاملات معنا . كسولات مهملات يتقن دائما إلى « النم » ، والكلام الخارج ، عندما أضبط « راقية » – التى تجلس على المكتب المقابل – تنظر إلىَّ ، أرى وكأنها تخرج لسانها لى

وتقول « لقد استمتعت مع زوجي ليلة أمس » .. و « سعاد » تنتهز فرصة أي خلوة بيننا لتذكرني بقدرتها على أن تقدمني إلى شباب « صالحين لكل الأغراض » .

أما ناجي زميلنا الشاب ، فقد كان يحيطني برعايته في وله ، تبدو فيه تعقيدات أحاسيسه المختلطة تجاهي ، أشعر بها في انبثاقات عاطفية أو شهامة رجولية شابة .

عالم المكتب كان بعيدًا عن واقع البلد ، والشارع ، كأننا في جزيرة نلعب لعبة «أتاري » مسلية ، و « الحاروني » يبدو دائما نظيف اليد عادلاً ، لكن لابد أن عزيز حبيبي كان سيسميه « الرأسمالي المستغل .. سارق الأحلام » ، أظن أن هذا لم يعد مهما الآن ، كلنا نسرق أحلام بعض ، أو على الأصح لم تعد لنا أحلام ، المهم أنني أملك مفتاح درج مليء بالأسرار ، وأنني أرى من خلال هذا المكتب - وهذا الرجل - عالمًا غريبًا لا علاقة لي به ، في هذا المكتب قابلت هاني قبطان .

* * *

عندما أنزل إلى القاهرة في أجازة أنا ومنير فكار كان يظل يرتب لسهرة تجمعنا معا عند صديقه القديم « الجمال » العازب الأبدي وصاحب الحكايات والأساطير في مجالات النساء والكارت وصداقة المشاهير والنجوم ، منير كان يفتخر بصداقته دائما ويقول إنه الصديق الحقيقي الوحيد ، ولكن عندما أراهما معا كنت أشعر أن « الجمال » يحتقر منير ، وينظر إليه على أنه « دودة » و « كلب فلوس » .. أشعر أنه يراه من باب العشرة القديمة .. وهي مرة أو مرتان في العام على أية حال .

فرض عليه منير فى هذه الليلة زميلنا فى الإعارة الدكتور عبدالصبور أستاذ الفلسفة الذى تحول بعد دقائق إلى « فرجة » لكل الحاضرين بعد أن شرب وأكل بيديه ونظارته ، وكل جسده وملابسه ، كان يريد أن يفعل كل شىء فى نفس الوقت ، يأكل ويشرب ويتكلم ، منظر مألوف للعائدين فى أجازة من الإعارة ، ودائمًا ما ينتهى نهاية مأساوية . بعد أن فرغ الحاضرون من التندر به « والتريقة » عليه انصرفوا عنه . شعرت بأننى مسئولة عنه بشكل ما ، فقد جاء معنا ، ولا أحد يعرفه ، انتقلت إلى جواره أحاول أن أرده إلى صوابه ، أو أصرفه إلى حديث آخر ، وليتنى ما فعلت !

أمسك الدكتور عبد الصبور بيدى وانخرط فى بكاء مفاجىء ، أخذته إلى غرفة مجاورة وأجلسته على مقعد فى الهواء حتى أعد له فنجان قهوة ، عندما عدت كان بكاؤه قد تحول إلى نشيج مكتوم يداريه - دون جدوى - بكلتا يديه .

قال إنه نزل فى هذه الأجازة بناء على طلب زوجته ، عندما حضرت عرفت أن ابنى الأكبر - ثلاث وعشرون سنة -- يطالبنى ويطالب أمه بنصيبه الشرعى فى الميراث ، يريد أن يعرف ما عندنا - بالضبط - ويأخذ نصيبه الشرعى فيه ، عندما واجهته تطاول علىَّ وقال .. إن لم يحصل على ما يريد سيجعل حياتنا جحيما .. سيهدم البيت على من فيه ، هو فى السنة النهائية فى كلية الطب ، ابنى الكبير ، يريد أن يبدأ حياته بعيدًا عنا ، هذا حقه ، ألم أذهب أنا إلى هناك « علشان » الأولاد ومستقبلهم ، هذا مستقبلهم ، قاطع أمه ، وخاصمنى ، صار يرسل إلىَّ خطابات تهديد ، يهددنى بالذبح .. أو بحرق الشقة ، أمه تخاف أن تبقى وحدها معه .

أخذ الدكتور عبد الصبور يردد : « ابنى .. يا مدام .. ابنى يا دكتورة » فى لوعة وألم وكأنه حيوان ذبيح ، ظللت واقفة إلى جواره .. أتسند ، أنا الأخرى

عليه ، حتى هدأ النشيج وراح يدمدم بأشياء لا أسمعها ، ثم دخل فى إغفاءة وتعالى صوت تنفسه .

انتابنى فزع وغثيان شديدان ، وظلت الرغبة فى القيء تلازمنى طوال الليل ، عندما لاحظ منير ما أنا فيه قال : « لازم حامل » فأفرغت ما فى جوفى بالفعل .

ظلت حكاية الدكتور عبد الصبور وابنه تطاردنى وكأنها الفزع الأكبر ، تظهر وتختفى فى مجملها وتفصيلاتها ، تدخل فى تركيب يومى ، وتطاردنى مع أولادى أو فى فراشى .

« عرفت بعد عام أن الدكتور مات بأزمة قلبية مفاجئة ، وأن ابنه خرج من كلية الطب ليدخل مصحة عقلية » .

* * *

بعد أن فرغنا – أنا وهانى – من جنس متعمد ممدود ، أعطانى ظهره وراح فى إغفاءة ، عدت إلى مراقبة الغرفة فى ضوئها الشاحب . استيقظ فى الظلام عقلى ، كأننى عشت هذه اللحظة من قبل بنفس هذه الأشياء ، والمشاعر ، والتفاصيل ، فى جسدى خدر وإرهاق ، وفى ذهنى يقظة كاملة ووعى حارق ، كرهت نفسى وما أنا فيه ، لماذا دائما أريد أن أتعلق برقبة رجل .

شعرت بالذنب والتقصير ، وعدمت الفرح ، لماذا لم يعطنى القرب منك ما أبحث عنه من راحة أو فرح حتى ولو للحظة واحدة ، هل هو الجنس ؟ هل صرت عجوزا ضعيفة .. باردة .. عاجزة عن إرضاء رجل أو حتى إرضاء نفسى .

كدت أختنق وأنا أراقب تنفسه الذى بدأ ينتظم ، أكاد أقسم أننى عشت هذه اللحظات من قبل ، وحتى لا يتجمد زمنى ويثبت هذا الشعور إلى الأبد ، نفضت الغطاء عن جسدى العارى واندفعت أقف تحت الماء .

بدلاً من أن أغنى تحت الماء المنهمر الوفير رحت أسأل نفسي : هل فعل الحب اعتداء أم امتلاك .. أم بحث عن مطلق مستحيل ؟

* * *

فى الخارج كانت مدينة « مطروح » امرأة راقدة فى فراش منكوش بعد حب لا يشبع ولا يروى ، منتهكة وغاضبة ، « الكورنيش » وحده مضىء ولامع ، وباقى الشوارع فظيعة قذرة مليئة بالحفر والمطبات .

كنت قد أيقظت « هانى » بعد أن مكثت وحدى أكثر من ساعة ، شربت كأسا وحدى ، ودخنت سيجارة من سجائره وحدى ، نظرت من النافذة ، حدقت فى ظلام الحديقة وسكون الفندق كلما تحرك فى الفراش أحسبه استيقظ يبدو أنه يحلم، قلق وغير مرتاح هو الآخر .

أيقظته ، وضعته تحت الماء ، طلبت منه أن يتحرك بسرعة قبل أن يكشف ضوء النهار ليلتنا المسروقة .

لم يعد عندنا ما يقال ، فى جسدى إرهاق ، وفى عقلى غباء مصمت بليد ، لا أدرى لماذا ترك الكورنيش واخترق الشوارع الجانبية ، قال يريد أن يطيل بقاءنا معًا ، ضحكت .. أدار « الراديو » على برنامج غنائى قديم ، استمعت إليه وأنا صامتة ، لم أعد أعرف من أنا ، اختلط علىَّ الزمان والمكان .

عندما توقف أمام مدخل العمارة ، كان شبه نائم ، حذرته من طريق العودة ، وضغطت على يده ، طلبت منه أن يتصل آخر النهار ، مدخل العمارة رخامى ، خال ، مضىء .

لا أدرى لماذا أصبحت الآن أخاف من مداخل العمارات ، أشعر أنها مكان صالح لارتكاب جريمة ما ، مكان يستدعى فضيحة ما ، زمان وأنا طفلة كنت أتعلم الرقص فى مدخل عمارتنا بمصر الجديدة ، استمعت إلى صدى خطواتى على الرخام .

انتظرت أن ينفتح باب شقة ، أو تطل عيون متلصصة ، دخلت الشقة ، كما يدخل الأزواج السكارى فى رسوم الكاريكاتير ، كانت نجية قد أضاءت نورًا جانبيا خافتا .

جلست نائمة فى مقعد كبير ، أعدت أمامها - لى - صينية مغطاة : كوب عصير برتقال ، وعلبة زبادى ، وفنجان من القهوة السوداء .

جلست أمامها حائرة ، كأن شيئا لا أعرف ما هو قد فقد منى ، تراكم علىّ الإرهاق الجسدى والضيق ، وأحسست أننى كومة من الغسيل القذر ، ماذا أفعل بنفسى ، ولماذا يجب أن أربط نفسى برجل ، أتعلق فى رقبته ، أبحث عن معنى لأيامى عنده ، « نجية » هذه لم تعرف أى رجل بعد أن هربت من زوجها ، « لم أعد أشتهيهم ، ولا أطيق رائحتهم » لو لم تكن هذه المرأة الموجودة فى حياتى لمزقت ملابسى واقترفت الجنون ، هل أصبحت هى محور العالم ، كما كان عزيز « لها ذلك الحضور الإنسانى » حتى وهى جالسة هكذا كومة سوداء ، نصف نائمة .

* * *

مات عبد الناصر فى منتصف رحلتى الإنجليزية ، أقمنا له نحن المصريين هناك مأتما فى كل بيت ، وفى كل ليلة ، تضاعف إحساسى بالوحدة والغربة ، لم أكن من عشاق الرجل المتعصبين ، ولكننى كنت أحب كبرياءه ، ونظافته ، وحضوره الطاغى الذى يربط الوطن والناس فى حركة لها معنى .

عندما مات شعرت بأن حبالاً قوية كانت تربطنى بالبلد تقطعت ، خاصة بعد العواصف التى هبت ، وغيرت من كل شىء ، تغيرت كل اتجاهات الريح .

مصر التى عدت إليها لم تعد مصر التى غادرتها ، أشياء غريب وقوية انطلقت من الحوارى والشوارع والبيوت ، لكى تمسح كل شىء ، وتغير كل شىء ، ذلك القرار الجماعى الذى اتخذته الأمة كلها بأن تهجر البلد ، وتهاجر ، وتذهب إلى بلاد النفط تبحث عن المال ، أو عن الحل ، أو تلقى بنفسها فى بحار الضياع ، بعيدًا عن الفقر والزحام والتراب ، بعيدًا عن المأساة ، عن العشيقة التى خانت والحبيبة التى تحولت إلى بغى .

عندما عدت وجدت أبى قد استعاد بعضها من عافيته فيما يشبه المعجزة ، صار بإمكانه أن يخطو داخل المنزل وحده ، وأن يحرك يده اليمنى التى كان الشلل قد ضربها ، عاد يروى بنفسه نباتات الظل التى أكرهها ، يحصل لها على أنواع جديدة من السماد ، كأنه يحقنها بالهرمونات صارت نباتاته تخنقنى عندما أدخل إلى الشقة ، وتخيفنى عندما أراها تتحرك ليلاً تحت أضواء الطريق .

حدث له هو أيضا شىء غريب ، أخذ يتابع الأخبار فى الجريدة ، المال والاقتصاد ، ويدرس أسعار الإسترلينى ، والدولار ، بشغف واهتمام كأنه من كبار المستثمرين .

عندما تأتى « نورا » أختى وزوجها التاجر الخليجى كان يبدو فى أحسن حالاته ، لا يكف عن السؤال عن الأحوال المادية ، وتقديم الاستشارات المالية المضحكة .

حلت شهوته الغريبة للمال حتى بمجرد الحديث عنه محل كل ما كان فى نفسه من اهتمامات بالفنون أو بالعمارة أو أبيات الشعر القديمة ، ما حدث له كان يؤلمنى ويزعجنى كأننى أراقب إنسانا يتحول إلى قرد .

قابلت زوجى المرعب منير فكار فى يوم من تلك الأيام الغريبة التى كان السادات يقوم فيها بصدمة من صدماته الكهربائية : طرد خبراء ، أو حملة اعتقالات ، أو خطبة من خطبة العصماء المضحكة ، لم أعد أذكر .. قابلته فى الجامعة ، كان قد جاء فى أجازة من الإعارة ، أخذ يقلد السادات وأضحكنى كثيرًا حتى دمعت عيناى ، أغلق باب الغرفة ، وأخذ يقلد صوته ، وحركاته ، ويسمعنا بعض الأبيات التى قالها « نجم » ويغنيها الشيخ إمام ، يومها خرجنا معًا ، وحدثنى عن نفسه كم كنت حمقاء وغبية عندما دخلت بقدمىّ إلى هذا المستنقع .

استبدلت بحار حريتى بمستنقع الطين هذا ، لم أخرج منه إلا بعد عشر سنوات ، أحمل على كتفى أولادى ، وقلبا لم يعد يصلح لشىء ، بعد شهور من التفكير والمطاردة ، والحسابات المشتركة ، واستقطار حب مصنوع مجهد .

استسلمت ، أخذته من يده لكى يقابل أبى ، رغم أن هذا لم يعد ضروريًا ، فقد كنا قد اتخذنا القرار ، أبى كان قد دخل إلى حالته الاستثمارية الانفتاحية ، وقاس الدكتور منير بكل المقاييس الجديدة ، وأبدى حماسًا غير عادى له ، لحد أننى خشيت أن يمسك به ويزوجنى له قبل أن يذهب أو أن يطلب منه أن يبحث له عن عقد عمل .

أبى .. أبى .. منذ طفولتى ، وأنا أحبك وأكرهك فى نفس الوقت ، أحببت آفاق الحلم الذى زرعته فى نفسى ، كرهت ضعفك الذى - دائماً - ما تحسن إخفاءه تحت قرارات تبدو جريئة وديكتاتورية ، كرهت أنانيتك ، واستعمالك لنا ، أمى وأنا وأخواتى ، كأننا عوامل مساعدة أو أشياء فى المحيط الذى تتحرك فيه ، أظن أن عدم ثقتى فى نفسى وخوفى المزمن واكتئابى المتردد كلها بذور زرعها

شعورى – الدائم – بالخوف من تقلبات مزاجك ، وحياتك الباردة الخالية من التحقيق .

* * *

تركت « نجية » تنام فى الصالة ، ودخلت إلى غرفتى .. فتحت النافذتين ، أخذت أراقب الليل ينحسر تاركا فى الشارع بقايا أضواء وأصواتًا متناثرة هنا وهناك .

لم يعد النوم ممكنا ، سأمضى يومى التالى فى السرير مدعية التعب متصنعة الصداع والإرهاق ، بينما حقيقة الأمر أن الليلة تركتنى خالية من أى قطرة من الحماس أو الرغبة فى الحياة .. أعرف تلك الأيام ، وتلك الدوائر المفرغة من الأفكار السوداء التى تفضى الواحدة منها إلى الأخرى ، صانعة حصارًا جهنميا حول أركان الكون الأربعة ، ليصبح الوجود أضيق من خرم الإبرة ، أعرف تلك الأيام ، وأترقب قدومها كأنها اللذة الوحيدة الحارقة التى بقيت لى .

رقدت فى سريرى المرتب أراقب . بعيون مقروحة ، الشفق الأحمر يختلط بأنواع «الفلورسنت» فيسد على النوافذ .

* * *

أعتقد أن كل غرائزى ، وأحاسيسى الجنسية ، تفتحت على يد خادمتنا الطويلة العفية السمراء « جارية » .. تتناول جسدى الصغير بيديها كأننى عروس من الكاوتش ، عندما أحاول أن أصيح وأصرخ من اللذة أو الألم ، لست أدرى ، تضع يدها على فمى ،. وتقول : « عضى .. ولا تصرخى » ، وكنت أفعل حتى تصرخ هى فتدفعنى وتضربنى ، ثم تعاود الكرة مرة أخرى ، تختلط – فى عمرى كله .. لسبب لا أدريه – لذتى بألم وندم لا أعرف كيف أصرفه .

بينى وبين « جازية » دائما فضيحة دفينة . تعاملنى أمام أمى وأخواتى على أننى سيدتها الصغيرة ، وتخصنى بمعاملة أكثر رسمية من الجميع ، وعندما نختلى فى الغرفة ، ودائما أمام المرآة الكبيرة ، تخلع عنى ملابسى ، وتتجرد هى من ملابسها الداخلية القذرة ذات الرائحة النفاذة ، وتحدثنى فى صوت يشبه الفحيح عن المرأة والرجل ، وعن المناطق التى يجب أن « تقرص هكذا » ، والتى يجب أن « تعض هكذا » ضبطتنا أمى يوما أمام المرآة الكبيرة ، جازية تشرح لى كيف أغطى صدرى النابت الصغير بشعرى الذى أحل ضفائره ، وأترك « عريسى » يدلكه لى هكذا .. صرخت « جازية » ، وبكت لساعات طويلة عندما ضربتها أمى بالشبشب ، أخذت تردد أنها كانت تعلمنى كيف أمشط شعرى الخشن إلى الإمام ، أما أنا فأغلقت على نفسى غرفتى وبقيت لأيام مرعوبة خائفة مما فعلته ، ومما فهمته ، ومما لم أفهمه .

بعد أسبوع أو أكثر طردت أمى « جازية » لأسباب مختلفة ، وقع ظلم ماحق على لذتى المؤلمة ، ولم يبق إلا أثر خالد لفضيحة مدفونة .

* * *

نجية لم تستيقظ مبكرة بالقصد ، لكى تترك فرصة « للمياء » لتأتى إلى فراشى وتحاول مداعبتى وتدليلى ، هى تعرف أن حضن ابنتى ينعشنى ويغذينى .

هى الدواء الوحيد لتلك الليالى التى أصبحت حتى « نجية » تعرف كم صارت بالنسبة لى محبطة وخالية من السعادة .

عندما جاءت لمياء أخيرًا وألقت بنفسها إلى جوارى تصنع ضوضاء وتلقى بالأسئلة كأنها طلقات الرصاص ، لماذا النوافذ مفتوحة هكذا ، لماذا السرير مرتب ، لماذا عيناى حمراوان ؟ .

ألم أنم دقيقة واحدة ؟ أين ذهبت ؟ وماذا فعلت ؟ متى عدت ليلا .. وأين ذهبت أنا وهانى ؟

وأنا مجهدة مخنوقة كان علىَّ أن أجيب عن كل هذه الأسئلة ، ألا أكذب ، ألا أقول كل الصدق ، أن أحافظ أمامها على صورة متوهمة لأم عملية مشغولة ، نصف جادة ، لا تدعى الفضيلة ، ولا تعلن الانحلال ، تدور فى دوائر مرتبكة من أحكام أخلاقية مزيفة وخانقة ، من عينيها ، ونظرات المكر والإشفاق المختلطة بالفضول الجارف ، كنت أشعر أنها فى حاجة إلى مصارحة ومكاشفة مستحيلة ، هى بالقطع تعرف كل شىء .

حاولت أن آخذها فى حضنى ، وأن أدفعها مرة أخرى إلى النوم بعد أن أغلقنا النوافذ لمنع ضوء النهار اللاسع والضوضاء ، والذباب اللزج .

* * *

أين اختفت عائلتى ، وأصحابى ، وبلدى ، وكل ما كنت أحلم به ؟ . هل ابتلعنا حوت عملاق ، ونحن نعيش – الآن جميعًا – فى بطنه نضرب فى بحر الظلمات ؟ أخى أمين الطبيب – صديقى – الذى كان يتحدث معى أنا وعزيز عن طب الريف ، وخدمة الفقراء ، وتبسيط العلاج ، والمصاريف ، وعلاج البلهارسيا ، وفقر الدم .. متى وكيف أنسحب ؟ كيف أخذ الجنسية الكندية ، وأنجب أولادًا شقرًا لا يتحدثون العربية ؟ يطلبنى على التليفون مرة كل عام ، يسأل عن أحوالى فى خطاب نصفه استفسارات وطلبات ، أختى الصغيرة نورا ربيتها وحميتها – ابنتى تكاد – تصغرنى بأكثر من خمس سنوات ، كيف ضاعت ؟ خطفها ذلك الغول وصنع من بقاياها كائنا آخر أكاد لا أعرفه ، لا أصدق أنها « نورا » أختى ، لا فى الملابس ، ولا فى الصوت أو الماكياج ، ناهيك عن الأخلاق ، والسلوك المزيف الكاذب المدعى حتى النخاع ، بالنسبة لى صارت مثل « مصاصة القصب »

امرأة مسحوقة أمام رجل غبى غنى يتاجر فيها ، ويكسب من ورائها ، ويمكن أن يبيعها غدًا لأعلى سعر ، متى حدث لها كل هذا ؟ ولماذا حدث ؟

حدثت لى أشياء كثيرة، ولكن كأن شيئا لم يحدث ، خالية فارغة وحيدة ، كأننى أرقد عند حافة العالم بلا أرض ولا جذور .

أفظع ما حدث حدث « لعزة البارودى » صديقتى ، صديقة الصبا والشباب ، والحب البكر ، وليالى السهر والقمر والأحلام ، رأيتها فى « سوبر ماركت » فى الخليج كومة من السواد منقبة حتى أطراف أصابعها ، عرفتها من صوتها - الذى هو عورة بمعنى من المعانى التى يطبقون بها على أنفاسنا - عندما خلعت النقاب ، وجلسنا قلقتين على مقعدين متقابلين فى مدخل شقتها ، كانت خائفة من قدوم زوجها الذى لا يمكن أن يسمح لأمثالى بدخول بيته ، هو مسئول عن عمل إسلامى كبير وخطير ، كان وجهها أصفر شاحبا سحبت منه الحياة ، تهدلت الملامح ، ولمعت عيناها ببريق كالجنون ، لم أع من كلماتها سوى كلمات الجحيم ، والحريق ، والعذاب ، بحثت فى كيانها أو كلامها عن ضحكة أو ابتسامة أو نسمة حب أو ود قديم ، لم أجد شيئا ، كل شىء حولها أسود محترق ، كأنها تعيش فى دار خشبية تفحمت فى حريق قديم ، حملت جثتها على قلبى ، وسكن معها سؤال صار لا يفارقنى : هل أنا كافرة ، هل سأسكن إلى الأبد فى قاع الجحيم ؟ صرت أخاف من دينهم هذا الذى يخلقونه كأننى أخاف من مرض عقلى ووبائى ليس له علاج .

صار الناس حولى جزرًا مستقلة ، أشلاء عالم - كان - وانفجر ، تحولت فيه اللغة إلى عواء والمشاعر إلى شهوات عاجزة حمقاء .. وأنا وحيدة صريعة غبائى وقلة حيلتى ، وتمردى الذى أراه ، وقد شارفت الخمسـ..... يتحول إلى ذرات تراب .

كل هذا الإحباط والسواد يتراكم علىَّ ، لأننى لم أعرف أن أنام جيدًا مع رجل نصف سكران .. لا أحبه ولا يحبنى .

حاولت أن أسكت هذا الصوت ، وهذه الأفكار ، ولكننى كنت كمن يسبح فى مستنقع لزج من الغباء ، تمسكت أكثر بحضن ابنتى التى نامت ، هى ملاذى الوحيد ، وضوء النهار الغازى يهزم مرة أخرى ظلام الغرفة المصنوع .

* * *

هل أظل إلى الأبد أجلد نفسى لأننى تزوجت منير فكار ، السنوات العشر التى أمضيتها زوجة له ، أنام فى فراشه ، يتناول جسدى وقت يشاء ، ويطلق علىَّ ما يشاء من أسماء وصفات أراها الآن بعد مرور ما يقرب من عشر سنوات أخرى على الطلاق ، كأنها سنوات أمضيتها فى قاع الجحيم فى بيت دعارة ، تخصص فى جلد وإذلال النساء ، صمد جسدى ، ولكن كيف صمدت روحى ، وكيف التأم ما أصابها من جروح ؟ هذه معجزتى ، ومعدنى الصلب الذى - أحيانا - أفخر به .

وجدت نفسى وحيدة فقيرة بعد أن عدت من إنجلترا ، فقيرة فعلاً ليس لى سوى مرتب الجامعة الذى يضيع نصفه تقريبًا فى المواصلات بين مصر الجديدة والجامعة ، مع الفقر الذى عرفت كيف أتعامل معه كان هناك الخواء ، أسمع الريح تصفر فى داخلى .. بعد محنة عزيز لم يكن سهلاً أن يدخل أحد إلى قلبى وحياتى وجسدى ، أراقب الرجال عن بعد . أعقد مقارنات دون أن أدرى ، أغلق حتى الأبواب التى تبدو مفتوحة ، مع حالة اليأس المبكر هذه ، كان هناك ذلك الذى يحدث حولى « المولد كله قد انفض » ، ذهب كلٌ إلى حال سبيله ، الموجودون على الساحة حولى فئران مذعورة هربت من سفينة غارقة ، تجرى فى كل اتجاه وراء أشياء أهمها النقود ، والبضائع المستوردة ، وكل ما هو

ساقط مبتذل من الفنون ، والأغاني ، والأفكار ، ينتابني دوار مستمر فأخرج في جولات سير طويلة على الأقدام ، أسير خلال الأحياء العشوائية الجديدة ، غالبًا ما أضل الطريق وأنا مستغرقة في مراقبة الوجوه التي اكتسبت فجأة جهامة وقسوة لا يعرف أحد مصدرها ، هل ترجع إلى الفقر المتصاعد ؟ أم إلى تفكك كل الروابط ، وسقوط كل القيم ، رائحة الأتوبيسات العامة لاتطاق ، والمعاملة في « الميكروباصات » غير إنسانية ، وسائقو التاكسي نهمون وبلا ضوابط أو أخلاق ، أما السيرعلى الأقدام فهو محفوف بالمخاطر .. من كل هذه الثغرات دخل منير فكار إلى حياتي وتربع على عرش الأطلال والخرائب ، حسبت نفسي من « الشطار » وحسبت أموري بدقة بدت لي مقنعة ، تبادلنا ما تصورنا أنه « صراحة » فإذا به ، من ناحيته ، خبث مزمن قديم ، ومن ناحيتي سذاجه وانزلاق إلى مستنقع الأنانية ، في لياليَّ الأولى معه لم أشعر كيف أفقد بسرعة كل ما في نفسي من طهارة وبراءة ، أفقد اهتمامي بكل شيء خارج ذاتي ، يتصاعد المشروع الذي بدأنا نصنعه معا ، الاستمرار في الإعارة بأي ثمن هو لب المشروع المؤامرة ، أنا جزء ضروري مكمل ، وضمان أكيد لزيادة العائد .

لم يكن منير يتورع عن أن يستغل أي شيء ويستعمله لكي يقنعني ويقنع نفسه ، الزواج ، ثم السفر ، ثم الصمود هناك ، استعمل كل شيء ، أفكاره اليسارية القديمة ، ومحاولاته مع الكتابة ، وفن القصة ، والتفرغ في النهاية لحياة البحث في التراث والكتابة ، حتى قصة « رقصة الديك » التي كان يحاول كتابتها أحيانا كقصة ، وأحيانًا قصيدة أو مسرحية ، ويسميها « كنزي الفني » .. لم تكن في الحقيقة سوى صفحة مزيفة من تاريخ حياته ، اصطنع لها تفاصيل ، وأخفى تفاصيل ، لكي يداري الحقيقة الوحيدة التي سيطرت على روحه وحياته ، لن يسد فراغ هذه الروح ، ولن يسكت هذا العواء الداخلي إلا بالنقود والأشياء الثمينة الغالية التي صار يعبدها من دون الله .

تـركت أرضـى ، ووقـفت مـعـه علـى أرضـه فـغـرقت حـتى شـعـر رأسـى فـى مستنقع الغباء والأنانية والنفط .

* * *

ألقى « تامر » بنفسه فوقنا فى السرير ، لم يسأل أسئلة أخته ، ولكنه أخذ يهزنى ، ويدير وجهى ناحيته لكى أسمع تفاصيل ما حدث فى مدينة الملاهى ، لم ينقذنى سوى صوت « نجية » الذى أخذ يدعوهما للشاى والإفطار ، ودفعتنى أنا دفعا لحمام ساخن جديد ، خرجت من الحمام ، وأنا أشعر أننى كيس رمل فارغ ، أدور فى الغرفة التى أعادت نجية ترتيبها ، أنقل الأشياء من موضعها ، وأعيد وضعها فيها من جديد ، أقلب الملابس القليلة التى صحبتها معى ، أتأملها ، ثم ألقى بها فى غضب .

أخيرًا امتدت يدى المرتعشة إليها ، أخرجت علبة الحبوب المهدئة ، أخذت حبة لكى أنام ، وأنا أسقط فى البرزخ بين الحياة والموت ، شعرت بـ « نجية » تضع على جسدى المسجى باردًا فاقدًا للحياة ملاءة خفيفة ، لامست جبهتى وكتفى وقالت هامسة :

يا حبيبتى .. يا أختى .. حمد الله على السلامة .

* * *

ملعون النوم بالحبوب المهدئة ، كان الرأس وحده وسطح العقل ينام ، بينما تغلى العروق ويفور الدم مختلطًا بالذكريات والصور كلها تلدغ وتضرب فى الأحشاء .

تنهدم الخطوط التى صنعتها - بصعوبة - لنفسى أحدد بها جسدى ووجودى ، أنفرط أنا فى مكانى : جسد بلا شكل ، وجه بلا ملامح ، كومة من غسيل قذر ، أقاوم قوى مجهولة لكى أكون ، يقود الوعى إلى غباء محض ، وتسقط الأفكار أجنة مجهضة ، تسكن هزيمة مريرة فى الروح ، تنهار سدود الزمن ، فيجتاح ماض كثيف ثقيل لحظتى وحاضرى والآن ، دافعا بى كجثمان نافق إلى حافة الكون وأطراف الوجود . ملعون ذلك النوم المصنوع ، ملعون ذلك اليوم الذى - كأننى - أدخله من نهايته ، أتقلب وحدى فى الفراش الحار كأنى محمومة ، أصوات الخارج - الشقة والشارع وصوت البحر البعيد - ليست حقيقية ، أغلق عيونى فتندلع الصور ، تزحم الغرفة التى تخترقها - وتخترقنى - رماح النور ، تتصاعد بسرعة ، صانعة ضحى غريبًا وظهيرة أغرب ، أمضيهما أتقلب فى فراشى ، يتساقط داخل رأسى مزيد من الصداع .

* * *

غل حار يتصاعد فى جسدى ، لا تقدر امرأة أن تنسى أن نساء الأرض - كلهن - خلقن طاهرات وأبكارًا ، وأن الحسن كان رياضًا خلابة ، وأن الحب كان أخضر مرويًا كحقل برسيم فى ندى الفجر ، لكن كل شىء يمر بى مثل الأيام ، مرت بى الأيام ، مرت بصدرى وبطنى وجسدى ، من يوقظنى .. من يوقظ الأحلام ؟

عزيز - حبيبى - يقف هناك فى « الموت » على شاطئه الغامض يناديني ، ينادى روحى وجسدى والمستحيل ، أمد له - وأنا راقدة - رأسى ورقبتى وصدرى ، ألم يخترق الكتف ، أريد أن أسكن على بقعة معينة فى صدره ، أريد أن أضع رأسى على وسادتى اللينة ، أن يزورنى نعاس إلى جواره فى النور ، أسمعه يقول لى : « ادخلنى يا حبيبى إلى جنتك ، هناك أرى حبى مترعا مرويا كحقل برسيم أخضر » .

أدخل أنا وعزيز إلى كنيسة قديمة خالية فى وسط البلد ، مظلمة رطبة فى عز النهار ، شموع كثيفة تبعث نورًا حانيا ، ينعكس على صلبان وصينية من فضة قديمة ، جسدى ينتفض من البرودة المفاجئة ، والرائحة الكثيفة والخشوع ، أجلس صامتة إلى جواره ، أتطلع إلى بقع الضوء النافذة خلال الزجاج الملون ، يضم كتفى إليه ، يسكن رأسى عند بقعة معينة من صدره .

لكن كل ما فى روحى الآن هش غريب ، أنظر إلى فراغ الغرفة بعيون متعبة غائمة متعبة ، خائفة من لا شىء ، أحب ، أبوح ، لا أقدر ، أصرخ ، لايخرج الصوت ، لا أسمعه ، أعاود الصراخ ، أسمع الصوت فى بطنى ، « مد حبيبى يده من كوة الباب أنَّت عليه أحشائى » .

* * *

طعم ملح فى فمى ، خيوط عنكبوت حولى ، الشقة ليست شقتى ، البلد ليس بلدى ، الرجل منير – زوجى – يشغل الهواء الذى أتنفسه . يتحدث ، أسمع صوته ولا أعى ما يقول ، تزداد وحدتى عندما يتكلم ، يعيش عالما لا أصدقه ، أعيش ولا أصدق أننى موجودة فيه .

فى الصباح أجد نفسى فى شقة الغربة وحيدة ، وحدة فى قلب وحدة فى محيط من غربة وغباء ، الهلع يسكن قلبى والسؤال الأبدى يتصاعد : ماذا أفعل هنا ؟ ومن هؤلاء ؟

أشعر به فوق جسدى كأنه كان يضربنى ليلاً ، آثار الجنس معه أصبحت لا تطاق ، أعرف أنه يستعد لليلة فى الفراش مبكرًا ، عندما ألمحه يتناول خلسة

حبوبه المنشطة ، يعد الشاى المتأخر بنفسه ، عيونه تخعلع عنى ثيابى فى الضوء .

اليوم - ككل يوم - فارغ بيننا ، ردودى عليه ، تأتى متأخرة ، كأننى فى مكان آخر ، أستجمع قواى خائفة ، أتمنى أن يحدث شىء جديد ، لكنها حركات كل ليلة ، لمسات كل ليلة ، كلمات كل ليلة ، وأخيرًا ذلك العنف المؤلم المتصاعد الذى يتركنى أغرق فى مستنقع لزج ، وحيدة أنام كما أستيقظ وحيدة ، تعلمت البقاء وحدى طويلاً ، جالسة فى الحمام لا أفعل شيئا ، أضمن هناك ألا يخترقنى ، ألا يتناول جسدى وهو يمضغ الطعام ، يهزمنى مجددًا كلمانتقارب ، أو نتكلم ، وضوح مقاصده وأغراضه وحركاته لا يجعله إنسانًا ، ماكينة بشعة للأكل والجنس وجمع النقود ، يزيحنى من طريقه كى لايتأخر دقيقة واحدة ، أسأل نفسى كيف يرانى ولا أجد جدوى من السؤال .

كل الأقنعة سقطت ، عاريًا تحت جلبابة الأبيض ، لا يهمه إن كان قذرًا أو نظيفًا ، يغلق على نفسه حجرة المكتب ، يأخذ معه طبقا من الحلوى الرخيصة التى يحبها ، وكوبًا من الشاى الغامق ، أسمعه يخاطب نفسه بصوت عالٍ كأنه يحفظ نصوصًا ، يغيب ساعة أو ساعتين ، يخرج منتصرًا يحمل كومة أوراق ، يلقى بها أمامى ، يقول : خمسمائة دولار ياهانم .. مقال رهيب عن التصوف الإسلامى ، طبعًا لن تقرئيه ، أحاول أن أقرأ ، تجرى عيونى على ما جمع من مقتطفات قديمة ، جواهر فى كوم زبالة ، كذاب مغرور بلا صدق ، ولا مشاعر ، نفس الكلام المضوغ بلا أفق ، بلا حلم ، بلا مغامرة ، أرى فى الأوراق - التى يكتبها بخط واضح سليط - فراغ نفسه ، ودناءة مشروعه الأجوف الذى جرنى إليه ، مقال كل يوم أو يومين من نفس النوع ، لهذه المجلة أو تلك النشرة ، تصدرها حكومات أو جامعات ، أوراق لامعة غالية ، وثائق تعلن خيانة

الفكر ، واحتراف الكذب والإدعاء ، كتابة هدفها إبقاء الحال على ما هو عليه ، كتابة تعلن انتحار المستقبل ، وهو يغرف منها النقود ويقول إنه يكدح ، وإنه يكتب ، تاجر غشاش ، وأنا زوجته ، صرت أخشى فضيحة ما ، كما يحدث فى الكوابيس ، أن أضبط وأنا أسرق من محل ، أو أضبط عارية فى طريق ، نقودى التى أقبضها من الجامعة أول كل شهر ، كأنها مزيفة ، لا أحب رائحتها ، أضعها أمامه فى الغرفة يأخذها يعدها ، يعيد ترتيبها ، فى الغد تختفى ، أنا غارقة تمامًا فى المستنقع ولا جدوى من المقاومة .

تشدنى - وأنا هناك - صور بلادى ، أسمع فى قلبى نشيجا ولا دموع ، أصوم ، أصلى أبحث داخلى عن بقايا طهارة قديمة ، لا أجد سوى دمار ، أسمع فى صدرى دمدمات تحدثنى عن أشياء بشعة تجتاح ناسى وبلادى ، أنا المجرمة المسئولة ، لا ، أنا «تابع» لست الفاعل الأصلى ، مجرمة بالتبعية .. بالزواج بذلك الرباط غير المقدس ، هل كل النساء هكذا .. حتى فى الجرم والذنب تابعات ، أكره نفسى ، جسدى ، عادتى الشهرية ، صدرى ذلك المنتفخ بلا حب ولا حنان .

فى ليلة نادرة خرجنا معًا ، منير والأولاد وأنا والزملاء ، أربعة أو خمسة كلهم منير أو يكادون ، وزوجات ممتلئات ، منفوخات ، فاغرات الفم من التخمة والبلادة ، أولاد كثيرون كأنهم قرود فى جبلاية ، معنا طعام كثير وشراب كثير ، نسير فى طريق مظلم ، وسط ليل وصحراء إلى بقعة نائية غريبة على بحر ساكن أسود لا تتحرك فيه موجة ولا نسمة هواء .

هناك أخذوا جميعًا يحتفلون فى صخب بفكاكهم المؤقت من الأسر الذى يعيشون فيه ، احتفلوا بدس الطعام والصراخ ، وأشرطة الكاسيت المصرية الجديدة ، تركت أولادى وزوجى ورائى ، سحبت جسدى المهزوم وروحى المطعونة ، سرت وحدى فى صحراء وحدتى ، وحدى أمام البحر الأسود الساكن -

وجها لوجه – فى السماء نصف قمر مخنوق يسقط ببطء فى المستنقع الذى يمتد أمامى بلا نهاية ، القمر المخنوق الغارق يطاردنى مثل الكابوس ، يلتف الضوء المريض والشاحب على عنقى يمنعنى من التنفس أو البكاء .

بعد أن رجعنا ناموا جميعًا ، وبقيت وحدى أرى القمر المخنوق يطبق على صدرى ، وأنا أبلل « موكيت » الغرفة القذر بدموعى .

* * *

لا تفعل فىَّ الحبة المهدئة هذه الأفعال عادة . كأننى امرأة مغتصبة منتهكة ، كل جزء فى جسدى يتألم ، ربما لأننى أخذتها بعد شراب ، أو بعد جنس أثارنى ولم يشبعنى ، ربما لأننى صرت عجوزا بلا أمل ولا رغبة فى الحياة .

النهار يقترب من نصفه ، أسمع صوت التليفزيون عاليا يذيع فيلما قديما ، صمت الأولاد أمامه مقلق كأنهم – هم أيضا – يغرقون فى نفس الفراغ الذى يبعث فى قلبى الهلع ، كأنهم يحدقون فى حياتى ، عيونهم – التى لا أراها – جامدة بلا رحمة ، لا تعرف الصفح ولا الدموع .

دخلت نجية على أطراف أصابعها إلى غرفتى المغلقة ، غيرت هواء الغرفة ووضعت إلى جوارى كوب ماء بارد ، بللت ريقى ، أحسست أننى عشت هذه اللحظة من قبل ، نفس الضوء ، نفس الوقت ، نفس المكان ، ونفس هذا الكائن القريب البعيد الذى أعرفه ولا أعرفه ، سقطت مرة أخرى فى هلوسة أراها تحدث أمامى .

نجية تحكى لى ونحن وحدنا جالستان على صخرة قرب الهرم عن الممثلة الصغيرة التى عملت عندها قبلى بسنوات ، تصفها وكأنها ابنتها – تولت كل شىء فى حياتها – كما تفعل معى وأكثر .. « حلمت أن أعيش أخدمها إلى الأبد ،

أحميها وأرعاها فى الغابات التى كانت فيها ، تزوجت فجأة من رجل مسئول كبير فى الحكومة ، مخابرات أو شغلانة غريبة كده ، شغله غريب ، وضيوفه أغرب ، تجار أو مهربون ، بعد أسابيع عرفت أن الرجل يبيع زوجته ، كرهنى عندما عرفت ، بعد شهرين كانت بتشم ، طردنى الرجل وهددنى ، بكت هى وأنا أذهب وأنا كنت أبكى عليها بدل الدموع دمًا » .

انتفض جسدى ، سمعت صوتى ينادى على لمياء ابنتى بلا مناسبة بصوت ملتاع يحول بينى وبينها جيوش من البشر ، تسير فى جنازة بلانعش ، يحيطون بها ويمنعونها من الوصول إلىَّ ، نصف جسدها عار تسيل منه الدماء .

عندما صرخت أنادى عليها ، جاء جميعهم إلى السرير ، الصداع يفلق رأسى وهم يرتبون كيف سيكون احتفالهم غدا بعيد ميلادى ، أسلمت رأسى مرة أخرى للوسادة حزينة مقهورة ، طعم الملح فى فمى ، وخيوط عنكبوت تلامس وجهى .

* * *

ظلت الترتيبات تجرى فوق رأسى ، وأنا أقاوم أن أصرخ فيهم ، أطلب الصمت ، أطلب الحرية ، أطلب أن أتنفس ، انتابنى ذعر من أننى لن أنام ، وأن هذه الهلوسة ستستمر وتتصاعد ، امتدت يدى المرتعشة - مرة أخرى - إلى الحقيبة ودسست فى فمى حبة مهدئة جديدة .

كان ذلك فى عيد ميلاد تامر الثالث أوالرابع ، استقر كيانى كله على قرار رغبتى فى الطلاق أصبح العداء ظاهرًا بعد أن كنت أحاول أن أداريه ، تولدت قوة غاضبة حتى أصبح يخاف منى حقا ، ويقول إننى قد جننت ، أصبحت أنا الأخرى أخافه ، فقد كان يدبر لى أمرًا ، فجأة سقط مريضًا ، ربما من طعام ملوث أو توتر عصبى زائد أو من الإفراط فى تناول الحبوب المنشطة ، أخذ

يستعطفنى ويطلب منى أن أنقذه ، لا يريد أن يذهب إلى أى مستشفى ، يصرخ ويتلوى من الألم ، يطلب منى أن أمرضه ، أن أبقى ساهرة إلى جواره ، الموت يطل علىَّ من رائحه فمه ، يقول : اقتلينى أنت هنا أحسن ، فى المستشفى سيضعوننى فى ثلاجة وبعدها يرسلوننى إلى مصر فى صندوق ، تحول وهو مريض إلى طفل أحمق مذعور ، يبكى وينادى على أمه ، وأقاربه ، وأنا إلى جوار سريره انتابتنى نوبة غضب فمزقت بعض الأوراق النقدية الكبيرة التى كانت إلى جواره وألقيتها فى الزبالة ، أخذ ينظر إلىَّ فى ذهول ، عيونه المريضة تحدق فىَّ كأننى جنى أو شيطان ، ارتفعت درجة حرارته وتصبب عرقا ، كان أضعف من أن يتشاجر فنام ، بعد أن أفاق أخذ يردد : كافرة ، كافرة .

* * *

سقط الدكتور عبد الصبور فى الطريق ميتا ، بعد أن أطبقت عليه محنة ابنه الذى طلب نصيبه فى ميراث الرجل ، مات بأزمة قلبية بعد أن ظلت خيالات ابنه تطارده ليلاً وتمسك به نهارًا ، لم يعد يتكلم فى شىء ، اشتكى طلبته فى الجامعة من أنه يدخل المحاضرة ويظل صامتا يحدق فى الفراغ ، أشيع أن الجامعة سوف تنهى عقده ، لكن الحالة كانت تتدهور بسرعة أكثر ، يرفض أن يركب السيارة ، يذهب إلى الجامعة ويعود سيرًا على الأقدام فى حرارة الشوارع القاتلة ، طوال الطريق كان يحدث نفسه ، قبضت عليه الشرطة مرة ، وحمله بعض المصريين مغمى عليه إلى بيته ، فى الثالثة سقط ميتا فى الطريق فى عز الظهر ، كنت مع زوجته وهم ينقلون جثمانه المجمد من الثلاجة ليضعوه فى صندوق ، سمعتهم يدقون المسامير فى الخشب على أرض المستشفى .

أشباح الأولاد تبتعد عنى ، وهم مازالوا معى على السرير ، أصواتهم - أيضا - تبتعد ، وأسقط فى نوم كأنه الإغماء .

* * *

رأيت أن حبى كان وهما ، رأيت أن عزيز لم يكن له وجود ، رأيت أننى أسير فى فراغ ، أغرق فى البحر الأسود مع القمر المخنوق .

عزيز يقف فى نهاية شارع خال ، كبير الحجم ، جميلاً كما لم أره من قبل ، عيونه تناديني ، أسير منومة إليه ، أجده تمثالاً ، لمسته فانهدم ، جلست جنب أطلاله أبكى .

منير زوجى يقف معى على سلم قسم شرطة ، الحديد فى يدى ، الصحفيون والمصورون يلتقطون لنا الصور ، هو يضحك ويلوح بيديه منتصرًا ، العساكر يسحبون لمياء وتامر ، بعيدًا .

الغرفة التى كنت فيها مع هانى لها جدار من زجاج ، عيون وأنوف ملتصقة بالزجاج ، من سماعة الموسيقى تخرج أصوات تصفيق وصراخ ، أجرى فى الغرفة عارية ، أحاول أن أسد الأصوات ، وأدفع العيون ، هانى يجلس فى مقعده ، يشرب خمره وسجائره ، يدفع رأسه إلى الخلف ويضحك ، يشير إلىَّ بإصبعه ويضحك ، أنا لا أجد شيئا أستر به جسدى ، أسير على أرض خشنة ساخنة ، أرض محروثة بها بقايا جذور ، وأحجار وقطع زجاج مكسور ، أقدامى حافية دامية ، أنبش وسط ركام الأرض عن بذور كنت قد ألقيتها ، لا أجد شيئا ، أصابعى أيضا دامية . فوق رأسى طيور مسرعة سوداء تنقض قرب رأسى وتهمس « بلهاء ... غبية بلهاء » .

بللت شفتى من كوب الماء الذى لم يعد باردًا ، أصغيت فلم أسمع لأحد صوتا ، كانت الشقة خالية .

* * *

عندما استعدت وعيى ، غادرت الفراش بسرعة خوفا من كل ما حدث فى ذلك الكابوس الممتد ، الوقت حوالى الخامسة عصرًا ، فى الصمت وفى الجو كله

مؤامرة ضدى ، ذهب الصداع وخلف مكانه حزنًا وإرهاقًا وغباء ، فى الصالة تعاليق وأوراق ملونة وبالونات ، ورقة صغيرة من لمياء تقول :

ذهبنا مع هانى جميعا نشترى أشياء ... وأشياء .. كل سنة وأنت طيبة يا جميلة ..

وحدى تحت التعاليق والأوراق الملونة جلست أنتظر الغروب .. وأدخن .

*   *   *

عادوا محملين بالهدايا ، وكنت أنا قد اتخذت قرارى ، استعدت خطوط جسدى الخارجية ، وقدرتى على الحركة بنشاط متعمد ، والضحك بصوت عال من الحلق ، علب صغيرة ، وعلب كبيرة ، أشياء خاصة وأشياء للحفلة ، « نجية » فى وسطهم قلقة سعيدة لأننى استعدت لياقتى وشخصى الصلب المتماسك ، « هانى » يقف بعيدًا ، يراقبهم وينتظر ردود أفعالى ، يعاودنى منظره فى الفراش ، يتصبب عرقا رغم التكييف ، يريد أن يصل إلىّ فلا يستطيع ، حتى الكلمات تتساقط من فمه نصف السكران ، يلمع فى عينيه نهم عاجز ، أدفع كل شىء جانبا وأستقبله – كما أفعل دائما أمام الأولاد – فى ود ومعزة كأنه أحد أفراد العائلة .

بعد أن وضعت علىّ أبسط ملابسى وأكثرها حرية ، شعرت أننى اندمجت تمامًا فى الدور الذى ألعبه ، ممثلة قديرة تؤدى دورًا أتقنته لعشرات الليالى ، نادرا ما يواتينى هذا الشعور كأننى ألعب ، يتقاطر على روحى شعور بالخفة والسعادة ، قلت أننى ذاهبة أبحث عن « كوافير » ، وأننى أريد أن أكون وحدى لبعض الوقت ، من حق امرأة مثلى تحتفل بعيد ميلادها أن تكون وحدها لبعض الوقت ، همست لـ « نجية » بأن توافينى بعد ساعتين فى « الكازينو » القريب

وحدها ، ووضعت في وداعى « لهانى » ما يترك لقاء الليلة محتملا ، أما « تامر » و « لمياء » ، فطلبت منهما أن يفرغا من الترتيبات مبكرا ، وألا ينتظرانى ، وأن يضعها هداياهما تحت المخدة لكى أفتحها بعد أن ينتصف الليل ، أريد أن أتولى أنا القيادة ، ما أسهل أن تدور العجلة ، وتنزلق الأشياء عندما أمسك بعجلة القيادة ، أن أكون فوق اللحظة لا تحتها .

* * *

دخلت مسرعة إلى زحام الكورنيش ، لابد أن منظرى كان مضحكا وأنا أمشى بهمة ونشاط قاصدة إلى لا مكان ، وسط جموع المتلكئين الذين يتركون أجسادهم يدفعها لهم الآخرون ، طوال حياتى أكره هذا التنطع ، غالبا ما أضبط نفسى أسير بسرعة أو أتحرك بسرعة أزيد من اللازم .

قطعت مسافة كبيرة حتى خف الزحام من حولى ، ابتعدت عن الهلاوس والمخاوف التى كانت تسكننى طوال النهار ، تنتظم مع الخطوات الثابتة خطط للعمل والقراءة ووهم قديم بممارسة كتابة ما ، لم تعد شعرًا أو أدبا ، شىء ما قريب من الاعتراف أو التفكير على الورق ، مازال نبض الحلم قائما ، يحمل معه شعورا بالتحقق يجعل الدم يسرى فى العروق ، تحقق لا أدرى من حرمنى منه ، من نفانى خارج ذاتى الحقيقية التى تاهت تحت ركام الأحداث والوقائع ، هل صارت مضحكة - هى الأخرى - تلك الرغبة فى الكتابة ؟ عذبنى طوال عمرى ذلك الفن المقبور ، أذكر تلك الأوراق المتناثرة والكراسات القديمة ، أقلب فيها أحيانا ، ثم أخشاها وأخفيها ، أقول :

ما فيها يهمنى وحدى ، ربما لو عشت مع عزيز كنت قرأت له سطورا منها .

أقول : اتركى الأمر كما هو ، ولا تفتحى بوابات الجنون لمن يمكن أن أتكلم الآن ؟ من يسمعنى ؟ من حقا ؟ كيف خلا العالم حولى إلى هذا الحد ؟ كل هذه

الدوائر المغلقة التي يسير فيها البشر من الميلاد إلى الموت دون وصل أو تواصل ، جزر مغلقة منعزلة فى بحار من الزحام والضوضاء والطمع ، يلتقى الناس مصادفة ، ويفترقون حتما ، ولا يتبادلون سوى المنافع والفواتير العاجلة والمؤجلة ، الحديث بينهم لم يعد ودا وتواصلا ، أجهزة إرسال فقط ، الجمل ناقصة نصفها: « كده ، تقريبًا .. ويعنى » كنت أحب الكلمات الواضحة الناصعة ، أراها مكتوبة أو منطوقة ، وأحب حركتها الداخلية وهى تصل إلى معنى يقدمه إنسان إلى آخر كأنه هدية أو إشارة حب ، الآن أسمع الحديث حولى : صرخات استغاثة ، أو خبطات على أبواب مغلقة ، إنهم حولى جميعا يذيعون على موجة لا أستطيع التقاطها ، أتمنى أحيانا لو أننى صماء ، لم يعد هناك ما يسمع .

وقفت أمام فندق كبير ، جزيرة هو الآخر ، أو مدينة صغيرة معزولة ، لا علاقة له بما حوله ، به محلات وسينما ومدينة ملاه ، طوابقه كثيرة جدًا تختفى فى السماء ، الحراس ، الجرسونات فى زيهم الموحد ، وحركاتهم المصطنعة كأنهم مستوردون من بلد آخر ، أكاد لا أذكر لهم ملامح ، سألت أحدهم عن مكان « الكوافير » فأشار بيده إلى نهاية الممر ، حيث تحتشد كمية هائلة من نباتات الظل ، اقتحمت « الوكر » الغريب المكيف الهواء اخترت شابا بدا لى محايدا ، وأقل إزعاجا من الآخرين آخر ما أريده الآن هو أحاديث الصالونات اللزجة ، كسوت وجهى بقناع صامت بارد ، وقلت فى حسم : غسيل وتسريح فقط .. من فضلك بسرعة .

*   *   *

وجدت نجية تجلس وحدها على منضدة قريبة من البحر ، كأنها أثر فرعونى قديم ، صامتة هادئة ، أمامها كوب شاى تشرب منه على مهل ، جلست

وبقينا صامتتين ، نحن - معا - صنعنا هذه العلاقة التى لا علاقة لها بأى شىء حولنا ، معها يصبح للصمت معنى مريح ، لمحت شعرى المغسول ، ودارت بعينيها فى وجهى ، وكأنها عرفت ما أفكر فيه ، وما اتخذت من قرارات بشأن الليلة ، ما بيننا من فهم أمر نادر ، لا يراودنى أدنى إحساس بأننى أجلس مع دادة أو خادمة ، تضحك وتقول : « علمينى القراية والكتابة ، وأنا أدير بلد بحالها » ، تفهم وتعرف أنها تفهم ، دون غرور ولا فخر ، بطريقة ما انتفى من حياتها الغرض والقصد واستغلال البشر ، كأنها « مطلق » إنسان ، مطلق محبة ، أو بحر لا نهائى جميل ، هى فى نفس سنى تقريبًا . تصغرنى بعام واحد ، كأن الجنس فى حياتها والرجال ذكرى قديمة ، أو وهم لم يوجد قط ، طعنة واحدة دامية ، وتعلمت ، أغلقت كل الأبواب والنوافذ ، عادت عذراء ، بكرا ، راهبة بلا كنيسة أو دير ، كائن متكامل ، ذكر وأنثى فى نفس الوقت ، لكنها أنثى ، امرأة جميلة مازالت ، رغم الملابس والجسد المستدير ، والوجه الخالى من كل شىء إلا نضارة الروح المرتاحة الطيبة ، أعشق هذه المرأة ، وأحمد الله على أنها فى حياتى .

لم أحب أبدا الطريقة التى تتحدث بها النساء عن تجاربهن الجنسية ، ومع « نجية » لم أكن فى حاجة أصلا للحديث ، كأنها تفهم وتعرف ، تقف فى مكان ما بين الغفران والتشجيع ، لا تحب هانى حقا ولا ترتاح كثيرًا إليه ، تتركنى أفعل ما أشاء ، كأننى ابنتها ، « العاقل الرشيد » ، هذا ما يحيرنى أكثر ، لماذا مازلت أنا أبحث عن رجل ؟ لماذا أريد أن أتعلق فى رقبة رجل ؟ ليس السؤال فى الجنس نفسه - رغم أنه جميل - ما لا أفهمه هو ذلك الشعور بأن الوجود دون رجل وجود ناقص ، فراغ ما يجب أن يملأه أحد ، كأننى لا يمكن أن أفهم وحدى ، لا يمكن أن أكل وأشرب وحدى ، كأن الدنيا كلها متوقفة على ذلك الرجل المختار الذى أمارس وجودى الناقص معه .

نادرًا ما أتحدث معها عن علاقتى مع عزيز ، عرفت منى تفاصيل التفاصيل فى علاقتى مع زوجى منير ، كلما أردت أن أتخلص من غصة حكيتها لها ، الليلة حدثتها عن عزيز وعنى طويلا ، وأنا أنظر إلى البحر الساكن من ورائها ، كانت صامتة ذلك الصمت الذى يدفع إلى مزيد من البوح ، فتحضر الذكرى صافية بلا شوائب ، كنت كأننى أرثى حصانا عربيا أصيلا لاح فى أفق حياتى ورحل ، مكسورًا وحيدًا ، الرجل الذى أشبعنى وأحبنى وعلمنى ، وقبل الذروة التى أردنا أن نبلغها معا تحول إلى طفل صغير حائر جائع ، حاولت أن أعطيه صدرى أن أضمه إلىَّ ، لكنه « تحول وعبر » تركنى مبذولة ، عطشى إلى الأبد ، تنعق فى سمائى الغربان ، لم أكن أبكيه أو أبكى على نفسى ، فقط أتعجب كيف يخطر حتى فى أحلامى أو كوابيسى أنه لم يوجد ، أو أنه كان وهما بينما أنا لا أعيش إلا بما خلفه لى من جراح .

شربت مع « نجية » شايا جميلا طويلا ، لم أشربه من سنين ، ثم قلت لها فجأة : أسهر الليلة مع « هانى » ، ولن أتأخر كثيرا .. خذى « تاكسى » إلى البيت » ..

قالت : لا .. بل أسير .

* * *

أخذت « تاكسى » بسرعة إلى فندق « هانى » القديم ، اقتحمت الممرات الهادئة إلى حيث يقع الشالية المنعزل البعيد ، التوقيت كان ملائما ، كان قد دخل قبلى بدقائق ، يخلع ملابسه ويستعد للحمام ، المرأة التى دخلت الآن لم تكن هى المرأة التى كانت هنا بالأمس ، المكان هو الآخر كان مختلفا ، لم يعد مسرحا صغيرًا وزعت فيه الإضاءة لغرض فاحش ، لكنه كان بيتى ، مكان بحثت

عنه وها أنذا أخيرًا أجده ، تحركت بخفة عارية القدمين ، دفعت به إلى الحمام ، و « دعكت » له ظهره ، وجدت له غيارًا نظيفًا ، وقلت : إياك أن تشرب وحدك الليلة ، سنشرب قليلا معًا ، كأننا « ناس متحضرون » ، أطفأت الأنوار ، بعد أن أعددت له مقعدا ، ولنا كأسين ، وأشعلت شمعة ، ناديت عليه بعد أن وضعت على جسدى جلبابا من جلابيبه الملونة ، وجاء .. رطبا نديا تفوح منه رائحة هادئة نظيفة ، كان صامتا مأخوذا بما يجرى حوله ، الليلة كان له أنف جميل ، وذقن مستديرة ناعمة ، عيناه فى ضوء الشمعة كانتا تحيطانى بقدر نادر من المحبة ، والنداء والتشجيع ، لم يكن صامتا ، ولكن أنا التى كنت أتكلم ، حدثته عن « الكوافير » الذى ذهبت إليه ، وعن « نجية » ، وعن المشوار الطويل الذى سرته على الكورنيش فى الطريق إليه ، هل كان يسمع حقا ، أم أننى توهمت ذلك ؟

عندما اقتربت ساعاتنا معا على الانتهاء ، قال وهو يضمنى إليه من جديد :

لم أشعر أبدًا كما شعرت الليلة بأن هناك امرأة تريدنى بكل هذه الحرارة ،

فقلت : يا أحمقى العزيز هل تظن أنك – وحدك – تريد .

* * *

نمت الليلة نوما هادئا ، كأننى أرض عطشى نزلها ماء وفير ، ضممت هدايا تامر ولمياء كطفلة تحتضن حذاء العيد ، حاولت ألا أذكر الأرقام أو عدد السنين وقلت :

العمر الحقيقى هو ما تشعرين به ، وضحكت من كل صناع الأكاذيب الجميلة ، ورحت فى نوم عميق ، فى العادة لا تكون أحلامى طويلة ، ولاتفصيلية كهذا الحلم الذى شغل ليلتى هذه بأكملها ، كنا فى قاعة كبيرة ، وهناك احتفال راقص وصاخب بشىء ما لا أعرفه ، عدد الحاضرين كبير ، وإن كان أغلبهم

بلا ملامح ، بين الحين والآخر ألمح وجها كأننى أعرفه ، وعندما أتقدم نحوه أكتشف أننى مخطئة ، فى الحضور أيضا عدد من المشاهير ، لمحت عبد الحليم حافظ ، وأنيس منصور الذى وقفت أتحدث معه فى شىء من كتاباته ، كان يبدو ساحرا ، يتكلم كأنه يغنى ، وتمنيت أن أعرفه عن قرب ، تمنيت لو أننى أملك القدرة التى أجعله بها يحبنى ، ويصحبنى معه فى رحلاته ، لم يكن يلتفت إلى محاولاتى ، يتجاهلها ويشرح باستفاضة نظرية فلسفية لا أعرفها ، وفجأة ظهر إلى جواره زوجى منير فكار فى جلبابه نصف النظيف نصف القذر ، أخذ يهمس فى أذنه بكلمات لا أسمعها ، لكن بالتأكيد كلمات بذيئة عنى ، كان منير يستولى منى على أنيس منصور شيئا فشيئا ، فوجدت نفسى أصيح وسط الحفل : هذا الرجل طلقنى ، طلقنى من مدة طويلة ، هو ليس زوجى ، كان يبدو على أنيس منصور أنه لا يصدقنى ، ينظر إلىَّ كما لو كنت خدعته أو غررت به .

استيقظت من نومى ، قلت :

لابد أن أحكى هذا الحلم بالتفصيل « لنجية » وعاودت النوم الممتع من جديد .

*　　*　　*

انطبع هذا اليوم فى ذاكرتى ، لأننى استيقظت ممتلئة ، طبيعية ، يخامرنى شعور بالتحقق ، وبأن كل شىء على ما يرام ، رغم أنهم يتحدثون كثيرًا عن أحزان عيد الميلاد ، والكآبة التى تجتاح النساء أمثالى عندما يجدن أنفسهن مجبرات على تذكر كم بلغن من العمر و كنت أضحك بلا سبب مع لمياء وتامر ، وهما معى فى السرير ، و « نجية » تدخل وتخرج صاخبة على غير العادة ، قالت وهى تعد الحمام : « وجهك يا أختى زى الورد النهارده » فطبعت قبلة على جبهتها

السمراء العريضة ، بعد الحمام تناولنا – جميعا – إفطارًا عائليا بهيجا لم يقطعه سوى جرس الباب الذى دق مبكرا يعلن قدوم « هانى » يستأذن فى مرح فى أن ينضم إلى الاحتفال العائلى ، لم يغير قدومه من الأمر شيئا ، كان وجهه مرتاحا هو الآخر ، زال – إلى حد كبير – ما يشعر به من توتر ، وما يبعثه وجوده – معنا – من تصنع متبادل ، تحولت الشقة المفروشة السخيفة إلى مكان أكثر إنسانية ، لا أدرى هل يرجع هذا إلى الأوراق الطفلية الملونة والتعاليق والبالونات ، أم إلى تلك الحرارة الإنسانية التى بعثها فى المكان هؤلاء « الغجر السعداء » ، كأننى كنت أشاهد لوحة ملونة لفنان يعرف معانى الألوان والخطوط لكل واحد مشروع وخطة لليوم ، ولهم – ماعدا نجية وأنا – طلبات ورغبات ، وعدتهم بأن أنفذها جميعا ، لأننى أعرف أن فى اليوم فى النهاية أربعا وعشرين ساعة فقط ، ولكن يبدو أنه كان يوما أطول من المعتاد .

* * *

وأنا راقدة فى فراشى أقرأ بعد يوم طويل وشاق ، دخلت « نجية » ملتاعة لتقول إن « تامر » سخن ، وأنه يهذى ، وجسده كله ينتفض ، بعد لحظات كان الولد يفرغ ما فى جوفه ، ويتصبب عرقا باردا ، ارتبكت خطواتنا ، وتصادمنا ، استدعت « لمياء » « هانى» الذى « لف » تامر فى بطانية ، وسرنا جميعا إلى المستشفى القريب ، هناك تأكدت أن الولد سيضيع ، وأننى أقع فى يد عدد من الأطباء الصغار ، الهواة ، نصف نائمين .. يتضاربون فى الأقوال ولا يقدمون ولا يؤخرون ، أخذت « تامر » منهم ، ولم أعد أدرى كيف يمكن أن أطير ، أضمه إلى صدرى وأنا أشعر به كتلة من نار حارقة تكوى فؤادى ، فى عناد مجنون قررت أن أركب أول أتوبيس إلى القاهرة ، لم أسمع لأحد ، ولم أستشر أحدا ، حاول « هانى » كل شىء : أن نعود إلى المستشفى ونطلب طبيبًا كبيرًا ،

أن نبحث عن مستشفى آخر ، أن ننتظر طائرة آخر النهار .. أن .. وأن .. لكننى مندفعة أحمله ، لا أشعر له بثقل وأدفعهم جميعا إلى محطة الأتوبيس .. حصلنا على أربعة مقاعد بصعوبة ، وهانى يكرر : السفر خطر على الولد ، يا مجنونة خطر ، كلمة خطر دفعتنى إلى البكاء ، لم أسمع ما قاله هانى بعد ذلك من أنه سيلحق بنا ، وأنه .. وأنه .. أصلحت نجية من وضع رأس تامر على فخذى ، وراحت تغرق جبهته بثلج وماء بارد لا أدرى من أين أتت به ، هل أغفيت ؟ أم أننى كنت حقا أطير ، نام هو ، أم أن الحمى هدأت لتهاجمه من جديد ، كل ما كنته هباء ، لا وجود إلا لهذا الجسد الساخن المضغوط معى فى مقعد الأتوبيس الضيق ، صحراء طويلة ، وعدم ، أخذت أحدق فى وجهه ، أراقب عينية وتنفسه ، عاودنى البكاء الحارق عندما انحشر الأتوبيس وهو يدخل إلى القاهرة وسط مرور شارع الهرم الكثيف ..

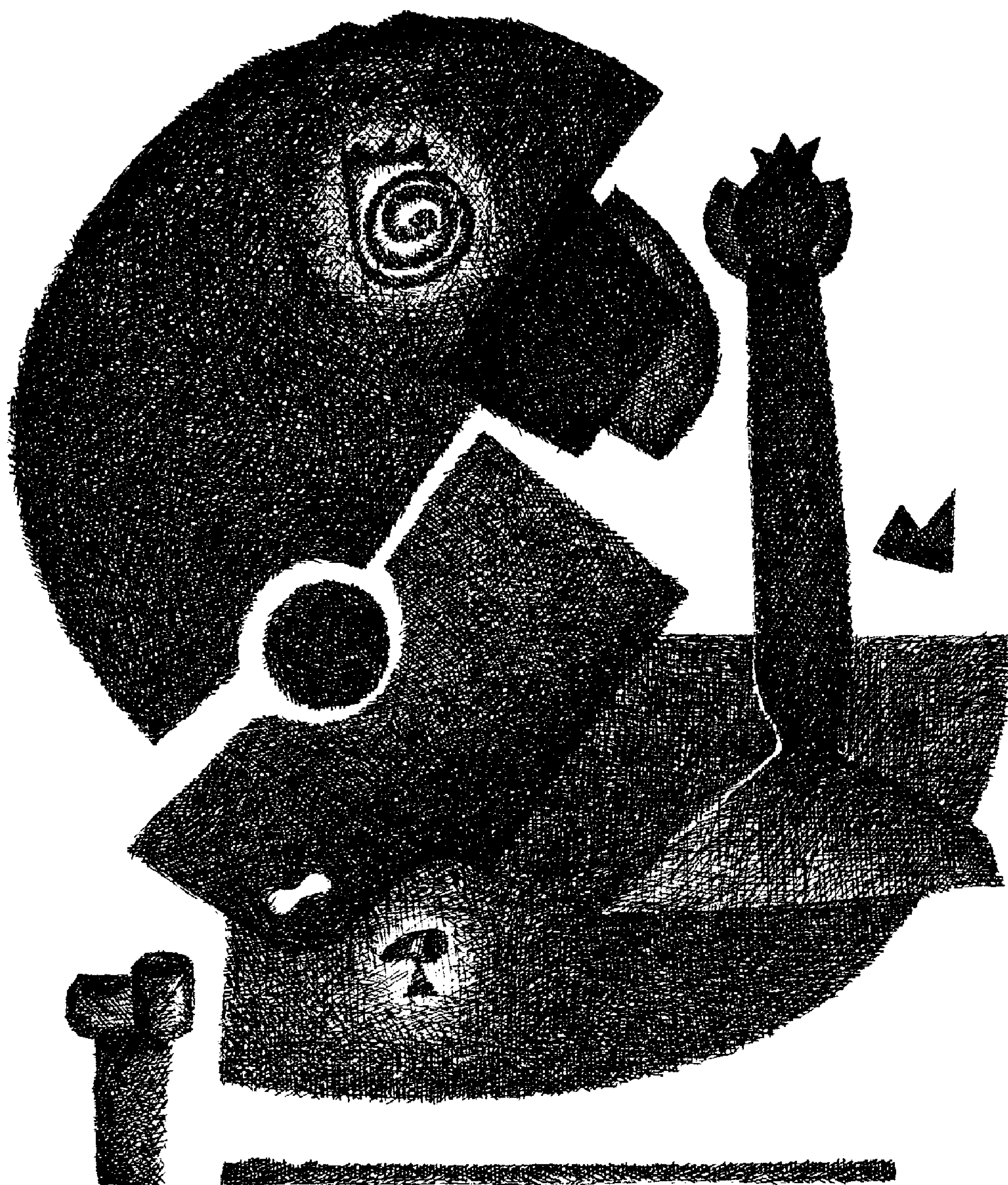
* * *

تعليق نهائى لابد منه

انا الدكتورة سناء فرج ، وهذه
بعض من أوراقى الشخصية فعلا
لا أعرف كيف وصلت ليد من
نشرها ، ولا لماذا رتبها هذا
الترتيب ، هى بعض أوراق تروى
جانبا تافها من جوانب حياتى
المملة ، بعضها له ، معنى
والبعض الآخر « مجرد رغى » .
المهم أننى عثرت على ورقة
صغيرة أخرى لا أدرى كيف
لم يلتفت إليها ناشر هذه الأوراق
أمامكم ، ورقة صغيرة مكتوبة
بخطى الذى « يشبه نكش الفراخ »
مكتوب فيها : ثلاث مرات :
« اصنع لنفسك فُلكا من خشب
فها أنا آتى .. وبعدى الطوفان » .

« أكتوبر ١٩٩٥ »

عيون البنفسج



مقدمة

« تـامر فكـار شاعـر مصـرى مـن مـواليـد ١٩٧٥ بالسنة النهائية بكلية الآداب قسم فلسفة .

ولد فى الخليج ، ابن منير فكار أستاذ الجامعة السابق (روايـة أطفـال بـلا دمـوع) والسـيـدة سنـاء فـرج (رواية قمر على المستنقع) .

هـذه بـعـض مـن اعـتـرافـاتـه وصـور مـن حيـاتـه ، أضاف إليها الكاتب أشياء قليلة من عنده » .

خرجت مسرعا صباح الجمعة قبل الصلاة حتى لا تحاصرنى فى شقتى أحزان الوحدة الخانقة . شوارعى القديمة فى القاهرة فى فصل الخريف بها لمحة من جمال لم يقتله بعد تلوث البيئة . أهرب إليه لكنه يراوغنى وتنتهى الشوارع دائما إلى غبار جاسم .

لو أن لى من العمر ألف سنة لما تحركت ثقيلا هكذا ، فاقدا للحماس ، هل هى آثار الليلة الماضية ، والكيوف المختلطة والدخان الذى لا ينقطع ، أم هو الثقل المعتاد والإرهاق الذى لا مبرر له الذى أشعر به كثيرا فوق قلبى .

جسدى الآن لا حدود له ، لا خطوط خارجية تفصل بينى وبين الناس ، لا ملامح ولا هوية . فى أية لحظة قد أتراكم أشلاء بشرية إلى جوار حائط يعبرنى مارة مسرعين . صارت الشوارع مهدرة الطابع والمعنى .

فدخلت إلى مقهى « الاستقلال » القديم الواسع . كل يوم يزداد قذارة وإهمالا . الزجاج الواسع العريض قذر وتحت الكراسى والمناضد تراكمت الأوراق والطين وقذارة الزبائن العابرين .

رائحة الدخان العطن والخمر الرخيصة التى تقدم فى الركن الداخلى مختلطة مع رائحة دورة المياة التى لا تصلح ولا تنظف أبدا هبت على وألقت بى على مقعد مجاور للباب .

جئت إلى هذا المقهى مرة وأنا صغير مع أبى وشربت مشروبا أحمر باردا فى كوب كبير ، كان مكانا كبيرا جميلا مفتوحا والشمس تسقط على البلاط النظيف .. ابتسم الجرسون العجوز يومها فى ود وحرارة .

إلى نفس هذا المقهى ، رجعت طوال عمرى ، عندما صرت وحيدا فى هذه المدينة المرعبة ، رجعت إليه دائما كما تهرش فى جرح قديم .

الآن .. فراغ موجع يعشش بين اللحظات .. قطع من « الدمينو » الأبيض

المعدول والمقلوب . تخطف عيونى وقلبى ، وتعود تتناثر أمامى من جديد .

جلست فى المقهى منهكا وحيدا أنتظر فى - لا مبالاة - كيف سيمضى بى النهار .

(٢)

أشترى كل بضعة أيام قلما جديدا ، أخيرا أهدانى « حسين » قلما جديدا وقال : لا أظنك ستكتب به شيئا له قيمة ، أتأمل هذا القلم الأسود كثيرا . تنتابنى - أحيانا - رغبة فى أن أسحقه مثل عقب سيجارة . فى القلم خاصية سحرية غريبة : هو يستدعى حسين دائما للحضور .

عندما يحضر صديقى تنتابنى تجاهه مشاعر مختلطة أكون فعلا مشتاقا إليه ، ولكن شيئا فى وجوده يضايقنى ، كأنه يعطلنى عن عمل مهم ، أو لعلنى أدعى ذلك . دقائق ويصبح اللقاء حميما جديدا ومفاجئا ، خاصة إذا استطاع أن يلف لنا سيجارتين .

فجأة دخل المقهى . وانحط أمامى صامتا ، فرد ساقيه الرفيعتين الطويلتين أمامه ، وشد جسده على الكرسى فعرفت أنه كتب قصيدة جديدة .

كنت أشعر به متوترا إلى جوارى وأنا أقرأ نفس الأبيات التى كتبت بنفس القلم على نفس الورق بذلك الخط الواضح والمعتنى به ، لم أستطع أن أرفع إليه نظرى بسرعة بعد أن فرغت من القصيدة .

كان يقرأ وجهى جيدا ، أحسست بأنه يعيد ترتيب نفس الكلمات القديمة وأن لا شىء حقيقى يتكون من ذلك « التفنيط » المستمر لأوراق الكوتشينة .

أنا متأكد أنه يعرف رأيى الحقيقى فى قصائده ، كما أظنه يعرف أيضا أنه

صديقى وأننى أحبه .

أسترد أوراق القصيدة فى هدوء وأنا أقول الكلمات التى تقال عادة فى هذه المواقف ووقع علينا صمت مريب زاد من كآبة المقهى ومن ثقل تلك الساعات الثقيلة التى تسبق العصر وتعقبه .

اقترح أن نقوم أو أن نبحث عن طعام واقترحت ألا نفعل شيئا . وبقينا جالسين نقلب فى بعض المجلات ونتفرج على العابرين . رأيى الحقيقى الذى أخفيه عن حسين كاظم وحتى عن نفسى أن الشعر أقدار مقدرة وأنه طرق ومسالك كتب علينا أن نسيرها ونقولها ونعيشها ، الشعر حياة أخرى أُلهمنا بها ووهبت لنا ، أما كل الرطان والكلام الكبير عن المدارس والحداثة وما قبلها وما بعدها فهى مجموعة من حيل السحرة التى تبتلعها كلمة شعر حقيقية أو بيت وإيقاع صادق نصل إليه .

أخفى اعتقادى هذا حتى عن نفسى وأجد نفسى وسط مشاحنات حمقاء وحوارات مجهدة للروح حتى مع حسين إلا أنه الوحيد الذى أستطيع معه أن أضحك حتى تدمع عيناى من كل تلك النصوص والأشعار الفجة التى يكتبها غيرنا والتى تشبه نقوشا كاركاتورية عاجزة عن التعبير .

بعد أن دهمنا المساء ونحن مازلنا على المقهى ، انتهت « القعدة » نهاية حمقاء فقد مزق حسين قصيدته الجديدة إلى قطع صغيرة ووضعها فى « الطقطوقة » ودون أن أشعر مد يده إليها بعود كبريت مشتعل .

عندما تصاعد اللهب من القصيدة جاء الجرسون مفزوعا ، ولولا أنه يعرفنا لطردنا واتهمنا بتدبير عملية إرهابية فى المقهى .

(٣)

عندما عدت مع أمي من الخليج وبدأت أذهب إلى « مدرسة المستقبل الخاصة » كنت طفلا عليلا متوحدا فى الثامنة . لم أكن أعرف أحدا ولا أريد أن أعرف . أعيش داخل شرنقة جافة مؤلمة تسبب لروحى ألما شديدا ونوبات متكررة من العدوانية والرغبة فى الانتقام . كل وجوه الأولاد والبنات تبدو قبيحة مخيفة .

لم أكن أرغب فى أن أقترب من أحد أو أحدق فى وجه أحد ، أسرع إلى شقة أمى فى مصر الجديدة أشرب وجهها وجسدها صامتا ، وأدبر مقالب مزعجة لأختى « لمياء » أحسن شىء أن أخلو إلى نفسى أراقب ظل أوراق نباتات الظل التى زحمت بها أمى الشقة .

كانوا يسخرون من لهجتى ومن نطقى لكلمات « الدجاج » و « والسيارة » ومن عدم معرفتى بألعابهم ومصطلحاتهم التى كنت أكتشفها بفرح حقيقى واهتمام . لم يسمحوا لى بمكان بينهم وأنا لم أكن أريد . سادت أيامى الأولى هنا معهم عدوانية وإعجابا بشرورى الصغيرة .

الدروس سخيفة جدا والحصص فارغة . أراقب ، نادرا ما أشعر أن ما يحدث حولى حقيقى . يعطينى مرضى المتكرر فرصة لأن أتغيب كثيرا ، وأن أكون مختلفا وغامضا حتى بالنسبة للمدرسين والمدرسات .

انتابت المدرسة كلها حمى غريبة ، أعلم أن شخصية كبيرة سوف تزورنا بعد أيام ، المديرة والمدرسون والمدرسات والأولاد وحتى المبانى . الترتيبات تلغى الحصص وتوقف الدروس .. لا أفهم سر تلك الغرابة التى انتابت تصرفات الجميع وأخلاقهم . كان هناك شىء قبيح يجب إخفاؤه جيدا ، شبكة من خيوط العنكبوت والعلاقات المتعلقة بدروس أو صفقات جانبية كان يتم استبدالها بأوانى زرع ، ونخل كالأقزام يرص على جوانب الممرات الرملية الملونة .

الأستاذ فوزى ناشد مدرس الرسم كان هو الكائن الوحيد الذى يثير اهتمامى وأحاول الاقتراب منه . كان رجلا جميلا قصيرا يمتلك هدوءا غريبا وابتسامة ساحرة .

فى وسط هذه الحمى الجديدة التى انتابت المدرسة اختار هو مكانا بعيدا فى آخر حديقة المدرسة ، وأخرج منضدة كبيرة ليضعها فى الشمس وملأها بعلب كبيرة من الألوان والأوراق والأقلام . جلس هناك مع بنتين كبيرتين يرسمون صورا ملونة لكى تعلق فى المعرض الذى سيقام من أجل الزيارة .

وقفت بعيدا قريبا حتى لاحظنى ونادانى بيده وابتسامته أن أقترب . أحببت الرجل ساعتها بلا حدود . لم يتكلم كثيرا لكنه وضع أمامى أوراقا وألوانا كثيرة ، وابتعدت المدرسة وكأن المكان كله غرق فى صمت .

لم أكن أعرف كيف أرسم حتى أمى كانت تقول لى دائما : « شوف لمياء ترسم حلو إزاى » كنت أسرق رسومها وأمزقها ، وأرسم أنا وأمزق أوراقى أيضا ، أما يومها فقد كان كل شىء جميلا . الورقة والألوان والخطوط والأشكال تضحك لى تكاد تتحرك ، وقف إلى جوارى وقال : ضع ما تشاء من الألوان ، النقط الملونة على الورقة تكلم بعضها . هل تسمعها ؟ وضحك وضحكت و ضحكت البنتان . أمضيت اليوم كله معهم .. أرسم وأرسم إلى الأبد . فى آخر النهار علقنا لوحتين من رسمى قرب مدخل المدرسة . سألت المديرة عن من رسم ، ووضعت المدرسة الفظيعة اسمى على واحدة . صحبنى الأستاذ فوزى أنا وواحدة من البنات إلى البيت بعد أن أخبر أمى بالتليفون أننا سنتأخر لأننى أرسم لوحات للمعرض .

فى الشارع تحدث إلى كثيرا ، ووضع يده على كتفى لم يكن أطول منى كثيرا . أخبرنى أنه يجهز أوراقه لأنه سيسافر إلى الخارج بعد أسابيع ، على باب الشقة لم أكن أريده أن يذهب . تمنيت أن يدخل وأن يبقى معى إلى الأبد .

(٤)

شقة « شوقى عامر » كأنها ميدان التحرير أو غرفة الانتظار فى عيادة طبيب مشهور . « شوقى عامر » كاتب ورسام وتاجر لوحات وآثار ، هو صديق أبى وزميله الذى لم يعد يراه . الرجل والشقة كأنهما قلب القاهرة ، بدونهما لا تكون . عندما لا يكون هناك فى الحياة أمل ولا خرم إبرة . هنا أجد كل ما أريد . تعلمت هنا أشياء كثيرة وعشت أشياء كثيرة لم أكن أعرف أن لها وجودا . رسم شوقى قليلا ولكنه يعيش أكثر من أربع وعشرين ساعة فى اليوم . حتى وإن أغلقت كل النوافذ ، فنافذة غرفة نومه مضاءة أبدا ، وبعد كوب من الشاى تجده قادرا على أن يسمع أى خرافات تحملها على قلبك ، بعد ساعة يأتى واحد غيرك ويستغرقك الحديث فى أشياء أخرى ، ثم تلتفت فلا تجده ، عاد إلى فراشه ونام والنور مضاء . هنا منذ الأبد ، فى هذه الشقة القريبة من ميدان الأوبرا ، فى آخر قصر النيل . هو والشقة يتحديان كل المتغيرات . الانفتاح والسمسرة ، الحداثة والديكورات الجديدة ، التيك أواى . كلها أشياء لا تدخل من باب الشقة وإن دخلت فلابد ستخرج بعد ساعة ، هو يقاوم حتى الرمق الأخير دخول التليفزيون إلى شقته . أغلب الوقت تجد الشقة مزدحمة بالناس ، ولكنها المكان الوحيد الذى تستطيع أن تكون فيه وحيدا وحرا ، كيف استطاع أن يحتفظ بشئ أصيل وكريم فى وسط كل ما يحدث حوله ؟ لا أدرى . ربما لأن قلبه على أطراف أصابعه . تشعر به وأنت تسلم عليه ، حيث يبقى يدك بين يديه ، لفترة لا تطول ولا تقصر . وتتلقاك عيناه الطيبتان المندهشتان .

عنده هنا قابلت « كارين » وأحببتها . شئ كهذا لم يحدث لى من قبل . كل شىء فى حياتى كان يسير بى إلى هذا الحب . بعد أيام قلت لها « رومنتيكى أنا أعلم .. ولكن أليس ما يحدث لنا غريبا » لم تكن تتكلم كثيرا . تصيغ جملها فى إنجليزية بسيطة .. تصل إلى روحى من أقرب الطرق ، أمر بعيونى على جسدها كأننى ألمسها كأننى أطير .

فى الأيام الأولى والحب مازال مترددا كطائر يتقدم ويفر هاربا .. كان كل شىء يبدو مستحيلا جاءت من بولندا تزور ثلاثة أو أربعة بلاد فى المنطقة ، تعد رسالة فى الجامعة بعنوان « الفنان يعمل » تكتب وتصور الكتاب والفنانين وهم يعملون ، تكبرنى بست سنوات ، تعرف أشياء كثيرة ، حضورها سحرى آسر ، وجودها معى بلا ثقل كأنها موجودة من القدم . أغرب شىء كان ذلك الشعاع البنفسجى فى عينيها ، لون لم أره من قبل ، أظنه غير موجود اخترعت لها بينى وبين نفسى اسم « عيون البنفسج » أحببت الاسم وصرت أردده عليها ، وأردده بينى وبين نفسى حتى أمتلئ به وأفيض . يغمرنى صوت وضوء مستحيل يتكور جسدى دون ألم ، ويغسلنى حضورها برائحة العشب الأزرق .

يومها عاصف ملئ بالنشاط . لم تكن تحب السهر كثيرا . الساعة معها طيبة والوقت صادق ، رتب لها شوقى زيارة إلى الفيوم لتزور فنانا هناك ، وزيارة أخرى إلى « أخميم » لتعيش أياما مع نساج قديم ، لم أسافر معها . قالت إنها لن تفعل شيئا لو كنت معها ، أكتب لها كل ليلة وأكرر اسمها حتى تعود .

عندما قرأت لها قصيدة لى قالت : الحركة كل شىء ، حتى الشعراء يجب أن يعبروا بالحركة فى قصائدهم . لم أفهم بالضبط ماذا تعنى . لكن عندما خلت حياتى منها ورجعت وحيدا عاريا كنت أبحث عن تلك الحركة التى تختبئ فى قصائد الشعراء فلا أجدها . هى لم تأخذها معها ، أكدت لى أنها موجودة . سأبقى العمر أبحث .

القبلة الأولى بيننا لحظة غريبة سجلتها فى التاريخ والشعر والحلم والعمر ، عند مدخل الشقة التى تسكن فيها مع زميلتها . نور بسيط ولا صوت . شعرت بلسانها يلامس قلبى . هل أغمضت عينى ، أم أبقيتهما مفتوحتين . أكيد أننى رأيت الدنيا كلها ، جبال عالية بعيدة وشمس حانية تغرب فى آفاق لا أعرفها ، قالت تدفعنى بعيدا عن جسدها الذى يذوب :

– غدا .. غدا .. يا حصانى الجميل .

(٥)

الفضيلة الوحيدة التى أظن أننى أمتلكها الآن هى فضيلة الصبر . ليس ذلك الصبر الطيب الذى يتحدثون عنه ، ويوصى به المؤمنون . صبرى محسوب ومخطط وبارد . صبرت وخططت لحياتى فى برود قاتل محترف . لكى أصبح فى النهاية وحيدا . لا يقدر أحد أن يعتدى على . أو يقتحم تلك الشرنقة المؤلمة التى نسجتها لنفسى .

لا أقصد بأحد شرا . لكننى لا أبالى بأحد . هذا شرى الصغير الذى لا يكبر أبدا . تضيع خطوطى الخارجية . أعود أستحضرها من جديد حتى لا يبتلعنى الزحام الجهنمى الذى لا أفهمه . يعود ويستغرقنى صراع حياتى الأبدى . أبقى عاريا بلا تحقق ولا إنجاز . أحيانا يضمنى ركن ، أشعر بإنسانيتى كبرق خاطف ، وعندما ينطفئ أعود لا أبالى بشئ هذا يوم آخر . دار وانقلب . أجهدنى البقاء خارج « البيت » . منذ سنوات ، وشقتى فى ميدان « لاظوغلى » صرت أطلق عليها « بيتى » . أمى أعطتنى هذه الشقة بلا شروط ولا توابع ولا تعقيدات . قالت : هذه شقة خالك القديمة .. وأنت حر . أول شىء حقيقى قديم له تاريخ دخل حياتى . أسرع إليها أحيانا كثيرة وأغلق الباب والنوافذ ولا أصدق أننى تامر منير فكار .

الليلة وقد انفض مبكرًا سامر المقهى السخيف . أعود عبر شوارع جانبية معلومة ، أكرر السير فيها كما يفعل الحمار . أمر على شعبى وجماهيرى . ثلاثة .. أعرفهم ، يعيشون دوما لصق الجدران . حولهم قطع قماش خلقة ، وأوراق ، وزجاجات بلاستيك فارغة . زهور سوداء . أسحلهم ورائى بالحبال أم أفر منهم رعبا .. لا أدرى .

أعبر قلاع وزارة الداخلية والمباحث والأمن حتى أجدنى تحت تمثال لاظوغلى نفسه . هو لا يفشل أبدا فى أن يجعلنى أبتسم وأنا أسمعه يصرخ بلهجته التركية فى المارة والعابرين والعسكر الساهرين .

فى مدخل العمارة وجدت الفرح منصوبا .. « تهانى » ابنة الأستاذ عباس العازف السابق فى فرقة أم كلثوم تتزوج اليوم . ولا نقود كافية لفرح فى فندق . انتهت المناقشات والمسامرات إلى فرح فى البيت وزفة بالسيارات على كوبرى أكتوبر . سمعت بعض المناقشات وحكى لى هو البعض الآخر . كان الرجل القديم ، ذو التاريخ والأساطير ، يذوب كل يوم فى ظل زوجة تزداد كل يوم شراسة يرعيان ابنتهما « تهانى » العاطلة من كل المواهب .

المدخل الرخامى « الضيق » مفروش بنشارة خشب خضراء ، وبقايا المدعوين حول الأستاذ عباس الذى يبدو أنه أسرف فى الشراب يرقص مذبوحا من الألم . ويدفع ابنته فى النهاية إلى داخل سيارة ملونة .

أحكمت إغلاق بيتى . مكتفيا بما يتسرب لى من ضوضاء وضوء . ليس فى الشقة منذ مدة حياة . صالة وغرفة واسعة كئيبة يغطيها التراب .

أتركه يتراكم كأنه يغطى وجهى ولا أريد أن أمسحه .: مع الإرهاق والضيق المتصاعد والدموع المتحجرة المستحيلة أفتقد « كارين » جدا . أفتقد

ضوء عيونها . عيون البنفسج . يمتلئ جسدى بغيرة حمقاء . يصرخ لى وجهها الحبيب بنداءات غير مفهومة ، ثم يغيب عنى فى أحراش بعيدة . عام وبعده عام . أحسبها يوما يوما .

غيابها حاضر وقاس ، ونفسى شتات .

ألقى بنفسى وحدى على السرير . أخاف أن يكشف أحد عورتى .. فراغى الذى أشعر به . أن يضطلع أحد على لا جداوى . أن أعلم ويعلم الناس أننى غير ضرورى .

هناك دائما من يترصدنى . يظهر لى فجأة أراه أمامى دون ضوء ولا مرآة .

يختفى فجأة ، ويظهر فجأة .. ويتركنى وحيدا ، أعانى استمرار الحياة .

(٦)

طالب فى الجامعة ولست طالبا . أشرفهم بزيارتى يوما وأنسى أمرهم لشهور . حتى الامتحانات هناك أعذار وشهادات مرضية . ليس ورائى أحد . من يعرفون أبى من الأساتذة القدامى اقتصرت علاقتنا على ابتسامات باهتة نتبادلها عن بعد وسط الزحام .

الجامعة التى أسمع عنها أو أقرأ عنها فى الكتب مكان غير موجود الآن .

الآن هى عربة أتوبيس مزدحمة . أو حى عشوائى من الذى يتكلمون عنه فى الجرائد . كنت فى البداية أحضر محاضرات . وأبقى فى المكتبة حتى الليل أقرأ وأراقب الدخول والخروج . وسط هذا الزحام تأكد لى أننى بلا جذور . معلق فى الهواء بلا أب أو أم أتحدث عنهما . ليس لى طبقة ولا طموح هنا . دخلت مع

الأخوة الإسلاميين وخرجت من نفس الباب الدوار الطارد الذى ينتهى حيث يبدأ . لى دينى الخاص وفهمى الذى لا يهتم به أحد . ربما أنا لا أعرف كيف أقوله . العدوان على حرية الآخر يزعجنى ويدمرنى بلا حدود . عدوان الضعفاء على بعض يثير الفزع .

تقريبا لم أخرج من سنوات الجامعة الثلاثة - الأربع الآن - سوى بصديقى الشاعر حسين كاظم . يومها كان هناك تجمع أمام مبنى الإدارة لسبب سياسى لا أذكره . وجدت نفسى خارج دائرة الإسلاميين التى تحتل قلب التجمع .

استندت إلى سيارة وأخذت أراقب الوجوه الغاضبة المهتاجة .

وجدته إلى جوارى مستندا إلى نفس السيارة يدخن سيجارته بنهم .

بدأ بيننا حديث مازال ممتدا . كنت أحسدهم على الحماس والاهتمام وكان هو يسخر من الشعارات القادمة من المتاحف كما يقول . هو طالب فى كلية الحقوق ، ناصرى ، اشتراكى . كنت أغيظه وأقول :

أليست شعاراتك وأفكارك هى الأخرى صارت إلى متاحف التاريخ ؟ .

ربما لأنه فقير جدا ، أو لأنه يعيش وسط أسرة مزدحمة بالإخوة والأخوات . فى شقة ضيقة فى إمبابة . ربما لأن أباه طاغية ، مازال يضربه حتى الآن . ربما لأنه لا يجد مكانا يتنفس فيه أو يمارس عادته السرية . ربما لكل هذه الأسباب مجتمعة كنت أشعر عندما أراه غاضبا على كل شىء ، يتهم الحكومة والبلد ، ويسب الدين : أشعر أن كلامه دخان يتصاعد من قدر يغلى . كان مأزوما حادا . لا يرى لحياته مخرجا أو طريقا .

لأنه صار بعد فترة صديقا ، فإننى لم أعد أشفق عليه أو أرثى لحاله . كنت أعيش معه دون أن أشعر بضيق حياته المرعب ، حاولت دون ادعاء أو أوهام أن أحمل عنه شيئا .

يعود دائما للسياسة ، ويتحدث بغضب عن الواقع والفقر . أرى من خلاله أشياء لم أكن أتصور أنها موجودة . واقعه غريب وقاس يخوض فيه ليل نهار . أحاديثه تدفعنى إلى أن أشعر أننى فى مكان غريب محاط فيه بناس لا أعرفهم يتدافعون فى الجامعة والأتوبيس ، والشوارع والأسواق .. ما الذى يجمع هذا الحشد حقيقة .

هل نحن – جميعا – مصريون .

أمارس معه رزالة أخرى فأقول مستفزا : أنا لم أعد أعرف ماذا يعنى أن أكون مصريا ؟ وأندفع أكثر قائلا : هل تستطيع أن تقدم لى تعريفا للوطن ؟

أشعر به يتكسر تحت وقع كلامى المستفز ، ويندفع يحدثنى عن أشياء مكررة كثيرة ومختلطة : عن النيل والناس وقرى الصعيد ، وعن فؤاد حداد الذى يعشقه ، وسيد درويش الذى يردد أغانيه .

وحدى بعد أن ينصرف حسين أجدنى مشتاقا إلى شارع يمتد وسط قرية مصرية قديمة . أو مقهى رطب فى حارة هادئة ظليلة .

(٧)

« الموزّة » فى المصطلح هى الفتاة التى تخلع ملابسها فى أول لقاء . المهندس باهر زميل المقهى كان زعيما فى قنص هذا النوع من البنات . يترك كل ما فى يده ويتفرغ تماما للعملية حالما يبدى أحد الأصدقاء رغبة أو حتى يفكر فى الموضوع .

هو وعربته الفولكس الصغيرة جاهزان دائما لتنفيذ العملية وتجهيز ما تقتضيه من مستلزمات بحماس مذهل .

مشكلة حسين أنه دائما مفلس . أما أنا فأكتفى غالبا بصفة مراقب . أشارك فقط عند الضرورة . باهر لم يتأخر عن بث الحماس فى المشروع ، وانطلقت الفولكس بنا نحن الثلاثة صاعدة إلى المقطم القديم .

تمت العملية . انضمت إلينا « غادة » بعد لحظات . شرطها الوحيد كان أن نصحبها إلى تاجر البرشام والمزاج فى بطن « قيتباى » قبل أن نذهب إلى أى مكان .

لم أكن أرحب بهذه اللقاءات كثيرا فى شقتى لأسبابى الخاصة وللجيران القدامى . أشعر الليلة بلا مبالاة ، ورغبة بليدة فى أن أشعر حولى ببعض الإثارة والعنف .

وكما توقعت تماما ، ما أن سخن الشراب وارتفع الإيقاع ، حتى وقع باهر مع حسين ، كادت المسألة تقلب غم . أخذت حسين جانبا وجلسنا فى الصالة أخذ يهذى فى غضب . وعلى صدره جبال من الحزن . يكتم بصعوبة بكاء دفينا . ويتلظى بنار الإحباط والكبت والكرامة المهدرة .

تحامل حسين على نفسه وانصرف متعثرا فى ساقيه الطويلتين . أخذ يؤكد لى أننا سنناقش « المسألة » ضرورى غدا فى المقهى .

صرت وحدى فى الشقة مع زوج من الحيوانات الغائبة عن الوعى . لها عشرات الأيدى والسيقان . تصاعدت غصة فى حلقى .

أخذت شرابى وخرجت إلى « البلكونة » الرفيعة التى تطل على الميدان . قلاع الحكومة ومبانيها مضاءة ضخمة ، والميدان خال من الحركة . حسبت « لاظوغلى » غادر قاعدته وذهب يقضى حاجته .

أغلقت الشيش عليهما ، ومازال الفحيح والعواء يصلنى حتى بعد أن استدرت ناحية بيوت وعمارات القاهرة القديمة . تحول الغبار فوقها إلى ستائر من دخان يتكسر عليها ضوء الليل الذاهب .

كبذرة مرة وسط ثمرة فاكهة . تعذبنى فكرة الطهارة . أن أغتسل وأغتسل من الخارج ومن الداخل حتى أذوب . أن أهجر . أن أسافر أن أتوحد وأعتزل إلى الأبد .

أريد أن أهرب من مصير الأرواح الملعونة الساقطة إلى الأبد إلى قاع الجحيم . كان « أبى » وسط هذه الأرواح يستصرخنى . ولم أكن أستطيع له شيئا .

فى الداخل : جمع « باهر » الغنائم وانصرف ، تاركا فى الشقة فراغا كثيفا وقذرا .

بين الصالة والبلكونة أنسج من آخر خيوط الليل فجرا من البنفسج بلله الندى .

يتبرعم له قلب أحمر وقان . صبح كأنه قمر ، سيطر على سماء وجودى الصامت .

لماذا تقهرنى دائما جيوش الليل سريعا هكذا .

(٨)

محافظ الإسكندرية ، هكذا يطلق علىّ أصدقائى عندما أبهرهم بمعارفى بحوارى الإسكندرية وشوارعها الجميلة ، والمطاعم والحانات التى مازالت تعمل

فى قلب أحيائها القديمة ، وئام نفسى تضعنى فيه هذه المدينة العبقرية . لذلك أخذت قطار الثامنة صباحا وغادرت القاهرة . أحشاؤها تكاد تنفجر . فى القطار يهدأ الإرهاق والخوف والقلق قليلا . أسلم نفسى لسرعة منتظمة ومكان بعيد عابر .

المدن المزدحمة التى أعبرها فى لحظة ، لا أكاد أتبين أسماءها تصيح بى أنّ الانتماء لأمر أو مكان أصبح - بالنسبة لى - شيئا مستحيلا .

الإسكندرية فى حياتى كأنها « كارين » حبيبتى ، عيون البنفسج ، لها نفس اللون والضوء المستحيل . تنعش كيانى ولا أشعر بثقل لها .

أمى هجرت الجميع ، وسكنت هناك مع زوجها « هانى قبطان مليونير » آخر الزمن . أزور الإسكندرية ولا أراها ، حتى بعد أن مات الرجل من جرعة هيروين زائدة .

لى فى الإسكندرية البحر ، شواطئه الخالية البعيدة فى الشتاء . ودائرة الماء الأسطورية فى قلب المدينة ، كأنها هبطت من القمر ، أمتلكها وأهبها من أشاء .

لى فى الإسكندرية - أيضا - « نجية » مربيتى السوداء . حضنها وصدرها الباذخ المكان الوحيد الذى أدفن فيه وجهى وأغلق عينى فكأننى لم أتعذب أبدا ولم أولد بعد .

عندما تم تدمير أسرتنا من الداخل وتفرقت شظايا اختفت نجية فى الأدغال . بعد سنوات وجدتها ولم أفقدها أبدا .

وجدتها فى بيت داخل حوارى « بحرى » . بيت رفيع أبيض محشور بين عمارات صغيرة بذيئة . كأن البيت بنى عليها باليد وهى بداخله . تسكن فى غرفة

مسروقة بين الطوابق . لها نافذة واحدة طويلة ، يدخل منها ضوء بنفسجى رقيق تستقبل دوما نسيم البحر .

هى لا تكاد تخرج ، لكنها ليست وحيدة ، بقايا الأهل والجيران يرعونها عن بعد . أصابعها جميلة ووجهها يزداد مع العمر بهاء ورضا . مازالت مليئة باسمة ، تتحرك فى ليونة قط جميل من السرير إلى الكنبة تحت النافذة الواحدة الطويلة .

شيخة بلا زحمة مريدين . أنا مريدها الوحيد ، أزورها كثيرا حاملا بعض « الهريسة » وزيوتا عطرية للمفاصل .

رغم أن أمى تعيش فى الإسكندرية إلا أننى لا أفكر فيها هنا . لا أزورها إلا للضرورة . قطع من حياتى معها تحرق جلدى أحيانا . وجه أعرفه يضيع منى فى الزحام . قصيدة قديمة حاولت أن أكتبها - ومازلت أحاول - عن جيوش من النمل الصغير تفترس فراشة وهى بين الحياة والموت . أفكر فى القصيدة عندما أفكر فى أمى .

وقصيدة أخرى لا أعرف كيف أكتبها عن « عروسة ملونة » مختنقة داخل علبة من البلاستيك ، شفافة ضيقة ، لا هى تستطيع أن تتحرك ولا يستطيع لمسها أحد . ما أبشع حياة النساء . وأنا أغادر نجية تسألنى دوما وهى تسوى شعرى بأصابعها الجميلة : هل تسأل عن أمك ؟

خيول الليل المتأخر والفجر تفرحنى .

وأصحاب عربات « الحنطور » . أعرفهم رغم ندرتهم الآن . أعرف الأصحاء منهم والمرضى . وأعرف أصحابهم الطيبين والخبيثين والذين لم يعودوا يبالون بشىء . صادقتهم أنا و « كارين » ونحن ننزل فى اللوكاندة الرخيصة القديمة التى تطل على البحيرة الأسطورية فى ميدان الرمل .

كان القمر شتويا رائعا يصارع سحبا قوية ملونة . قفزت من شرفة حجرتى إلى شرفتها . كانت سعيدة كطفل ، وراقبنا الخيول والقمر . سألت هل يمكن أن تأخذ هذه البحيرة معها ؟ كم يصبح الإنسان خفيفا عندما يلقى فى الهواء بكل ما يحمل من حزن ورثاء لنفسه .

فى الصباح ، كنا نسير على شاطئ البحر . نقبض بأيدينا على حوار قديم :

– أتحبنى .. ؟

– أحبك ..

(٩)

أختى « لمياء » ضاعت منى هى الأخرى . سقطت فى البالوعة : تزوجت « ابن الباجورى » التاجر الأشهر . كأن أحدا لا يتعلم . يكررون فى حمق نفس الأخطاء . ولا يتعلمون من رأس الذئب الطائر . يخطف أبصارهم بريق الذهب فلا يرون شيئا . ويرتبطون بأوغاد يمتلكهم المال ولا يملكونه .

لمياء رفيقة الصبا . تدربت فيها على التعامل مع الآخر . قريبة جدا منى . مختلفة تماما عنى . ليس فى الجسد فقط ولكن فى الروح وفى التعبير عن النفس وفى الصلة بالعالم . حركتى فى الدنيا إلى الخارج ، أما هى فقد كانت تتحرك صوب عالم سرى غامض فى داخلها .

أنا دائما الطفل العليل صحيا . أمرض مرة أو مرتين فى الشهر . أما هى فقد كانت طول عمرها : هشة ، قابلة للكسر . مدمنة محترفة للبكاء . جميلة وضعيفة كريشة سقطت من طائر غريب .

حفل زفافها الأسطورى كان المرة الأخيرة التى اجتمعت فيها عائلتنا غير المقدسة فى مكان واحد : أبى وأمى والعروسة لمياء وأنا . الشرط الوحيد الذى أرسل إلى أبى مع دعوة الفرح ، التى أرسلت باليد مع مخصوص إلى « بركة السبع » حيث يقيم كان : هو أن لا يصحب معه زوجته الجاموسة الفلاحة كما تسميها أمى .

واحدة من الخدمات القاتلة التى قدمها « المجحوم » هانى قبطان زوج أمى البائد كانت إصراره وتدبيره لهذا الزواج المشئوم . لم تكن لمياء قد جاوزت الثانية والعشرين ، ولم تكن قد أنهت دراستها فى كلية التجارة بعد .

وافقت الغبية الحمقاء . طمعت وسالت إفرازاتها الأنثوية . سحبها ابن الباجورى إلى الجحيم الجديد المكيف الهواء . عندما وجدت وقتا لكى تسألنى رأيى قلت : أنت حرة .. اسألى « بريد الأهرام » : ! .

هل كنت أستطيع أن أقف فى وجه حماس أمى المندفع الذى انتقل إليها هى وقادها إلى هذا المصير . قادتهما النقود الضخمة ، مغمضتين ، فاقدتى القدرة حتى على القلق أو التفكير أو التردد . كانت القوة أكبر منى ومن أى شئ . لم تكن تسحبهما وحدهما .. كانت تسحب البلد كله .

قلت لها أكثر من مرة وهى فى غمرة الاستعدادات أن الرجل غبى وحيوان ، وأنه رغم النقود التى تسيل منه : بخيل ، وأنانى ، وأنه لا يرى فى الدنيا كلها شيئا سوى نفسه . لكنها تدور فى فلك أمى وفلك هانى قبطان . بينما أدخل أنا أكثر وأكثر إلى شرنقتى الجميلة المؤلمة ، التى أصبحت مادة لحملة سخرية يقودها ضدى زوج أمى الوقح ، مؤكدا لهما وللجميع أننى فاقد للهمة وللطموح فاسد الرأى وأن حكاية الشعر ستحولنى إلى صعلوك لا قيمة له . حفل زفاف أختى لمياء كان مؤلما جدا بالنسبة لى .

بكيت وأنا أراها فريدة رقيقة وجميلة ، يسحبها زوجها وحرسه ورجاله المتشابهون لكى تذبح وتقطع وتعرض فى « الفتارين » . لا أحد يعترف بمسئوليته عما يحدث . نضحك ، ونحتفل ، ونزف العروس .

لا أحد يرى الجريمة أو يوقف السكين . أكبر جرائمى ارتكبتها فى هذه الليلة ، لأنى لم أتقدم فوق رءوس الجميع وأنقذ أختى . ها أنا الآن غير قادر على إنقاذها .. أو حتى مواساتها . ضاعت لمياء ولاعزاء .

هى تسكن الآن شقة غبية واسعة مزدحمة بالأثاث والصالونات وترى النيل ، تحيط بها غابة من العمارات العالية ، فيها كل الشقق خالية ، فارغة من الحياة ومن الناس . لو صرخت أختى حتى الصباح لما أنقذها أحد . وحيدة مع الفأر الذى أنجبته وأحاطته هى وأبوه بمئات اللعب الباردة المستوردة .

لم يمض على زواجها شهور حتى تحولت لمياء إلى جهاز لإرسال الاستغاثات فى كل الاتجاهات : أمى ، هانى قبطان قبل أن يموت فى فضيحته المفاجئة المكتومة . وأنا والمعارف الكبار ، وحتى المسئولين فى الدولة .

كان يفعل بها كل شىء من الضرب إلى الطرد فى منتصف الليل حتى اصطحاب النساء الى سريرها . يقدر دائما أن يكتم صراخها وأنفاسها ، ليعيدها محظية شرعية منتهكة . يواصل تعذيبها فى فنادق فاخرة وقرى سياحية . لم يعد أحد يسمع استغاثاتها فسكتت . صارت أخبارها معتادة كجرائد الصباح .

الآن تأكل نفسها ووقتها وتدفن نفسها فى النوادى والمحلات والسيارات المكيفة التى تنقلها إلى لا مكان . عندما أمضى معها ساعتين وحدنا ، ألاحظ كم أصبحت تكره جسدها الرقيق الذابل مذعورة تقذف بأشيائها القريبة ولا تكف عن التدخين .

يستفزها سكونى واستظرافى ، والقصص التى استخرجها من طفولتنا ، أو من الأماكن الغريبة التى أرتادها . تضيق بى وتحسدنى . روحها خامدة . تزداد يوما بعد يوم تشتتا وغباء . أفشل فى أن أثير حماسها لشئ ولا حتى لمشاكساتنا القديمة .. منذ سنوات لم أر لمياء تضحك .

قرب الظهر ، وجدتها وحدها فى الشقة الكبيرة تشرب قهوة وتبكى . زوجها سافر فى داهية ، ونجحت هى هذه المرة فى أن تبقى هى وابنها خارج الركب الذى يتحرك فيه دوما . أخذت تحكى وتتكلم وتبكى كما تشاء . ثم خمدت مرهقة ، عجوز ، وبعيدة لم أستطع أن أفعل لها شيئا . تريد أن تسحبنى كما يفعل الغريق الى بحار من الفراغ والكآبة والصمت . تسحبنى إلى بؤس قاتل . انتفضت منصرفا وأنا أقول لها : لمياء .. الانتحار هو الحل . الانتحار أو الطلاق المستحيل .

(١٠)

كهف الدكتور منير فكار الذى يخرج منه الناس بالمجوهرات والذهب والفضة أغلق علينا جميعا . لم يعد يخرج أو يدخل منه أحد . انتهت من حياتنا القصص والأساطير .

يعيش أبى قرب « بركة السبع » فى بيت كبير مبنى بالطوب الأحمر يطل على طريق نصف مرصوف ، له حديقة خلفية ، يزرع فيها خضارا وموالح ، وإلى جوار البيت جراجات للمقطورات الثلاث وحظيرة كبيرة للدواجن والماشية . البيت دائما تحت الإنشاء .

هو وزوجته « سكينة » مشغولان دوما حتى ما بعد صلاة العشاء بالحسابات وإدارة شئون السيارات والحظيرة والأنفار .

مات أبى تقريبا ثلاث مرات إثر أزمات قلبية حادة ، أجرى بعدها عملية كبيرة فى القلب . تداخلت أزمات القلب مع أزمات شركات الاستثمار ، وضاعت فلوس الخليج ، كان هو يزداد قوة . بعد الجراحة الأخيرة ، وزواجه وانتقاله النهائى إلى بركة السبع عاد بالنسبة لى شابا نضرا فى مقتبل العمر . إنه بعث رجلا آخر غير الذى أعرفه .

فى الحقيقة أنا لم أعرفه قط ، كنت أسمع عنه فقط . من أمى ومن لمياء ، ومن شوقى عامر وباقى الناس . أذكر طفولتى المبكرة معه ، ولكنها صور عنيفة مختلطة . كبرت وسيرته فى البيت موضوع خطر غامض ، يثير دائما ردود فعل عنيفة ومختلطة . عندما دخل هانى قبطان حياتنا وتزوج أمى وغاب بها فى بحاره القذرة ، لم يعد أحد يذكر أبى ، صار الموضوع محرما . أخذت أبى إلى داخلى كى أنفرد به . لم أكن أريد أن أحكم عليه أو أحاكمه . كنت أريد أن أجده . أن أتعرف عليه . أفتقده أحيانا كثيرة . وأغضب منه وعليه ثم أعود فأراه وحيدا مطرودا يسير فى شارع موحش بلا نهاية .

كيف يمكن أن يرى الإنسان كل ما يحدث .

استطعت أن أحصل على كتبه القديمة التى جمع فيها محاضراته عن الأدب العربى . جمعت من مجلات الخليج ومصر مقالاته . احتفظ بها وأعيد ترتيبها وقراءتها . عثرت أيضا على قصائد قديمة له نشرها فى شبابه . فى قلب هذه الأوراق كانت « رقصة الديك» قصته ومشروع المسرحية التى لم تكتمل ، تحتل المركز . مشروع حياته . أعيد قراءته وأفك رموزه ، وأعتقد أنه عمل عبقرى لم يلتفت إليه أحد .

عندما أراه الآن وأحاول أن أذكر شيئا عن كتاباته أو كتبه ، أراه يبتسم ابتسامة شاحبة خجولة، ويشرد بعيدًا عنى ويسرع كى يغير الموضوع .

استقرت علاقتنا ، ولم أعد أراه إلا عندما يستدعينى . يحرص فى كل مرة نلتقى فيها على أن يعطينى كميات مختلفة ومحترمة من النقود يضعها فى يدى أو جيبى صامتا وكأنه يعتذر أويسدد دينا قديما .

عرفت أنه يحصل على نسخ من قصائدى القليلة التى نشرت ولكنه أبدًا لم يعلق عليها أو يذكرها . زوجته سكينة هى التى كانت تقول لى . تقول أنه يقرأها لها أحيانًا .. وهى لا تفهم منها أى شىء .

وهو بعيد عنى ، أبنى معه حوارات طويلة . وأتخيل حديثا حميمًا طويلاً لا يحدث أبدًا . عندما نلتقى سرعان ما يتوتر الجو ، غالبا ما ينتهى بخلاف فأغادر غاضبا أو يختفى هو فى مكان من البيت بعيدا متشاغلاً بشىء عارض .

وجدته يتشاجر مع واحد من سائقى المقطورات ، وصوتهما يملأ الدنيا . كان يشتمه ويتهمه بإهمال جسيم ، وبأنه لا يقدر النعمة التى يعيش فيها ، وأنه يعض اليد التى تساعده وتفتح بيته . كان غاضبًا مهتاجًا كما لم أره من قبل . عندما حاولت التدخل أسكتنى وكأنه يهش كلبا غريبا . غادرت البيت مسرعًا رغم محاولات سكينة استبقائى للصباح . تركت البيت ورائى يتصاعد حوله غبار كثيف تثيره الجرارات والمقطورات التى تقتحم الطرق الضيقة بين الحقول .

فى بركة السبع كان الوقت متأخرًا والنداءات تتصاعد فى ميدان المحطة : مصر .. مصر .. واحد مصر .

(١١)

ضوء عينيها البنفسجيتين تحت النجفة الخشبية القديمة فى شقة شوقى عامر ، يظل هو المدخل الملكى لعالمى الذى أعيشه مع كارين . الكلمات التى كان يجب أن تقال لا تزال حارقة ، وما قلته يبدو دومًا ناقصًا وليس كما ينبغى .

فى الصالة الواسعة ، حول المنضدة المربعة الكبيرة ، راقبتها تتحدث مع شوقى عامر . كانت تقول له : إن تحول المشاعر الغائمة فى مسائل الفن إلى كلمات محددة واضحة صعب ، ولكنه ممتع مثل التعبير عن الحب .

ابتسم الرجل العجوز الجميل موافقا ، وقام ليتركنا وحدنا إلى المنضدة . سحر كارين يكمن فى أن عندها دائمًا شيئًا حقيقيًا تقوله أو تفعله يجعلها دوما مختلفة عمن حولها . فى الشقة ثلاثة شبان يحومون حول كارين ويحاولون شد انتباهها ، خاصة ذلك المخرج المسرحى الذى اسمه عبد اللطيف ، والذى تقول هى عنه إنه يذكرها بفرشاة الأسنان . أخذ يشرح لنا فى وسط الصالة صعوبة تدريبات الممثل التى كان يدرسها فى برلين : يسير على أربع ، ثم يرقد على البلاط ، ثم ينتفض فجأة قافزا فى الهواء حتى تحولت الصالة إلى سيرك سيريالى ، حول شوقى عامر الذى ظل مشغولاً بتخطيطات مبدئية للوحة يعمل فيها منذ سنوات لا شئ يفاجئه أو يزعجه . يرفع عينيه المندهشتين ثم يعود إلى ما كان فيه .

يذكر لى تفاصيل قديمة عن علاقته بأبى ، فكأننى أراهما صديقين معا . وأرى قاهرة الخمسينيات والستينيات . هو اعتقل لسنوات مع الشيوعيين . وخرج بلا تشوهات فى فكره أو روحه . أظن أن علاقته الطبيعية بالفن والرسم هى التى مازالت تحميه من كل شىء . لا أشعر أبدًا أنه عجوز ، فقط عاش أكثر وعرف أكثر .

هو من القلائل الذين لا يكرهون أبى . يحمل له مودة تسعه مع مئات غيره من الذين تحولوا إلى حالات نفسية أو رمم متنطعة ، يقول إنه ذهب مرة وأمضى معه ليلة طيبة فى بركة السبع .

ليست كلماته الطيبة النادرة عن أبى ، ولا نعمة البنفسج التى هبطت على فى شقته هما ما يربطانى به . أهم شىء هو سخريته الصامتة التى تكشف المتناقضات حولك فترى الدنيا وقد سادها نوع من العرى المثير الآخاذ .

وجودها معى تشهد ما ينكشف ويتبدى فى هذه الشقة – قلب القاهرة – كان يجعل الأمر مثيرا مهما ، ويستحق المتابعة .

هى ليست معى . كانت معى ، ولم يعد للقاهرة قلب .

نزلنا متأخرين ، بعد أن انتهى عرض عبد اللطيف العبثى . باركنا عم شوقى بلطف حتى الباب . ساحرا كان الطريق معها إلى الكورنيش والكوبرى . فى طريقنا إلى غرفتها فى أول الزمالك . قالت لى إنها قد تركت نافذتها مضاءة .

(١٢)

الجحيم الجديد بدأ منذ رحلة مرسى مطروح المشئومة : أول دخول هانى قبطان الحقيقى إلى حياتنا . لف حول أمى حباله ، ودمر عائلتنا غير المقدسة من الداخل . قامته الطويلة المشدودة بلا جلال ولا مهابة ، ألقت بظلها الكريه على كل لحظات حياتى .

كراهية الكون والوجود والذوق واللون والقمصان والحركات والإشارات والمعانى ، والكلمات – خاصة الكلمات – احتفظت بها كلها له . وجوده كان يجعل جراحى تنزف ورأسى ينفجر .

خطواته الحادة ، صوت مفتاحه فى باب الشقة كانا كافيين لكى يجعلا منى حيوانًا جريحًا مستفزًا تحت التهديد .

كرهت أمي لأنها أصبحت من أشيائه . أرى وأشم ريحه في جميع ما تفعل أو تقول . ولا حيلة لي ولا مهرب . هي لبست له ملابس جديدة وخلعتني وخلعت كل شيء .

وأنا أعاني من حمى طويلة ، وكانا لم يتزوجا بعد ، أفتح عيني فأراه واقفا على رأسي طويلاً حتى السقف مصنوعًا من رخام بارد يقع ظله على صدري ويكتم أنفاسي . لم يفارقني هذا الشعور أبدًا .

استولى على كل المواقع وأنا محاصر أتراجع دائما إلى شرنقتي وأترك له أمي وأختي والمكان الذي أعيش فيه . انتقلنا من شقتنا القديمة في مدينة نصر . تم ترحيلنا إلى بيته في الإسكندرية . تخلصت أمي من كل نباتات الظل التي كانت تعتني بها ، وأشياء أخرى كثيرة كانت تحمل بصمات عيني داستها أقدام حادة . مزقتها سكاكين . في البيت المريب الذي لم أجد أبدًا فيه مكانا لروحي ، كانت الليالي تبدأ متأخرة . ومع تقدم الليل كان هاني قبطان يتحول فعلاً إلى رئيس عصابة . مخيف وجبان وقذر ، يجمع كل خصائص مسلسلات التليفزيون المتخلفة في ليلة واحدة . يبعثر حوله أشلاء قذرة تستيقظ في وسطها أمي وتعيش لكي تعد له يومًا جديدًا وليلة جديدة . كان البيت يبقى مفتوحا طوال النهار ، يدخل ويخرج خدم وصبيان ، ومهربون وصناديق مغلقة ، وهاني نائم أو غير موجود ولكنه يدير كل شيء .

تعددت حالات أمي ، وأرتدت عشرات الوجوه . لكنها كانت قد تخلصت إلى الأبد من الوجه الوحيد الذي أحبه وأعرفه . ومحاولاتها للتقرب مني كانت تجعلني أكرهها أكثر .

انشغلت دوما بتدبير مؤمرات فاشلة لفضحه وضبطه متلبسا عاريًا مفضوحًا ، من دون ذلك القناع الذي يداري به كل حياته .

كل الوعود لم تكن تنفذ إلا برضا وموافقة منه . تأخذ هى أمامى موقف الزوجة التى لا تكسر لزوجها كلمة . الثانوية العامة ، مرضى المتكرر ، التحاليل وزيارات الأطباء ، عشرات الحيل والأكاذيب كانت الخيوط التى أخذت أنسج منها مؤامراتى للحصول على شقة لاظوغلى التى أخذتها أمى من خالى الذى مات فى كندا .

لم يوافق هو أبدًا وكان إعلانًا للقطيعة وإخلاء المسئولية وتحميلها هى للمرة الأولى وحدها كل العواقب .

موافقة مع اللعنات خرجت بعدها من جنته وجحيمه ، لم أنظر أبدًا خلفى . اعتبرته ميلادًا جديدًا وحاولت حفره وتسجيله على كل المقاعد والمناضد والجدران .

لم أترك كراهيته تذوب فى حياتى . هى كافية لكى تفسد بحار العالم . أبقيتها فى صناديق مغلقة . لم أسحبها ورائى . المهم أن أعرف كيف أوقف كل شعور بالرثاء على نفسى . ألا أقابل الحياة بشعور امرأة مغتصبة .

ولكن فى القاهرة كان جحيم آخر جديد .

(١٣)

مغامرة وخيمة العواقب كانت زيارتى للقرية التى ولد بها أبى كفر شوق فى المنيا . « رقصة الديك » ومخطوط المسرحية التى لم يكملها أبى ، حركت كل هذه الكوارث التى تساقطت على رأسى .

ملكتنى صور ذلك الكهف الذى يفتحه دم ديك بلدى يذبح أمامه ، والهياكل العظمية للطامعين الذين دخلوا لكى يحصلوا على الذهب والمجوهرات فماتوا

ومات غيرهم مئات : والمغربى البدوى الرحال يدور فى القرى مطلقا بخورًا ومغنيا أغاني لا يفهمها أحد . ومحطة كفر شوق القديمة ورجب بائع « الدوم » الذى أشعل الحريق وأطلق الجنون وطاردته القرية .

حاولت أن أدخل برأسى إلى عالم هذه القصة وليتنى ما فعلت . اتفقت أنا وصديقى حسين كاظم أن نسافر وراء هذا الحلم الملعون . كان سوء اختيار منى للرفيق وللطريق معًا . كأننى حدقت فى بئر فارغة بلا قرار .

كانت مواجهتى الحقيقة الأولى لفكرة أن أبحث لى عن وطن . مسقط رأسى فى الخليج . ولكن هنا الوطن . أليس كذلك ؟ استحوذت علىَّ محاولة فهم هذه البديهية ، كما استحوذت علىَّ صور مبعثرة من قصة أبى وحياته . أنكرنى هناك المكان والناس . لم أتعرف على أحد ولم يعرفنى أحد . كنت أخوض فى زحام من الفقر والتخلف . يصيبنى مرة بالقرف ومرة بالفزع ، يتركنى مشدوها أقرب إلى الأبله ، أغلق خلفى تمامًا طريق الفرار . بعضهم يقول « آه .. ابن الدكتور منير .. الله يسامحه بقه » وبعضهم لا يقف حتى ليدلنى على الطريق . لا أحمل معى سوى نظرات الاستنكار والريبة.

طابور الناس والميكروباصات الممتد من المركز إلى القرية ، خليط غريب من الصعايدة ولابسى الجينز والملتحين ولابسى الملابس الباكستانية ، وجحافل من التلاميذ الصغار والفتيات المحجبات . الجميع منهمكون وسط الغبار لكى يلحقوا بشئ لا أعرفه .

لم يكن حسين من الناحية المادية أحسن حالا من هؤلاء . بل لقد بدا وكأن كثيرًا منهم يخافون أن يظهر عليهم ما يملكون من نقود . مع ذلك كان حسين يعاملهم بتعال قاهرى بغيض . كأنه سائح خايب رذيل كرر الإشارة الى صور ومناظر موجعة أليمة ، وكأنه عثر على ضالته وما يبتغيه . يستعرض عليهم ليس تفوقه العقلى فقط بل والطبقى أيضا . يريد أن يقول دوما : أنا أحسن منكم .

كان هذا أكثر مما أحتمل ، فوق ارتباكى وضياعى الذى أحسست به وأنا أتلمس فى ظلام تام أطلال أحلام أبى ، ومهابط الوحى والإلهام الذى كان ينزل عليه .

لم أجد رسمًا واحدًا من الرسوم التى اشتعلت فى خيالى المحموم . حتى الشجرة القديمة التى حكى عنها على رصيف المحطة . لم أجد لا شجرة .. ولا رصيفا أطبقت على المحطة من الجانبين ظهور بيوت بنيت على عجل بالطوب الأحمر .

ليس فى القرية كلها ولا إنسان يؤوينا لليلة واحدة . نوافذ وأبواب مغلقة . وعواقب وخيمة لو واصلت الطرق والسؤال . لا وقت ولا رغبة عند أحد فى أن يتكلم أو يتذكر .

يضيع منى الشىء مرتين .. الحياة – وحتى الشعر – قبض الريح . خارج أنا وحسين من القرية ليلاً عبر مستنقع يقود إلى الطريق السريع .

فى غرفة عالية السقف ، عارية تقريبًا من الأثاث ، أمضينا ليلة ثقيلة على النفس .

نام حسين لكن – أنا – لم أنم .

(١٤)

عطشان دومًا – لحبها الصافى – لا أريد أن أفارقها أو أتركها تنشغل عنى بشىء آخر . أجد معها حلاً لوجودى . أشرب ضوء عيونها البنفسجى الذى يبدل كل ما حولى ويطلق روحى . أتعلم منها وأسمع عن شعراء ورسامين وموسيقيين لم أسمع بهم . وإن سمعت فلم أكن أعرف ما يفعلون وهى تحبنى

أدخلت هؤلاء إلى حياتى . كأننى أعرفهم أو كأننى واحد منهم . البيت الخشبى القديم المحشور وسط العمارات الجديدة على الكورنيش . « تقول إنه يذكرها بديكور مسرحية بيت الأشباح » ، أوافق على كلامها فتقول :

هل تعرف كل شىء .. يا حصانى الجميل ؟

مسافات طويلة بيننا .. واقع ولغة ودين. كاثوليكية وأنا مسلم . أحبت المصحف المرتل . سمعته ساعات طويلة معى . سمعت أم كلثوم ، وسمعت موسيقى « باخ » معها حتى أدمنتها . غالبا ما كانت تكتب كل ليلة خطابا لوالدتها بالبولندية . أسمع منها موسيقى غريبة تحرك الروح .

لم يكن هناك حلم ولا واقع .. لا شىء على الإطلاق مستحيل . كنت لا أرى ما يمنع من أن يتم زواجنا فورا ، نتزوج فى الشهر العقارى وننتقل معًا إلى شقة لاظوغلى . النقود التى أحتاجها لن تزيد . هذان النذلان . أبى وأمى يملكان أطنانا منها . ثم إن لكارين طريقة غريبة فى التعامل مع النقود . تصرف ، ونقودها لا تنقص .

يمتعها اندفاعى هذا للزواج ، تتأمله وتثيره وتبقى القرار معلقا كأنها تملك كل شىء فى يديها .

فى الصيف طلبت فى نهار حار أن تزور المقابر التى تمر بها كثيرًا وهى فى السيارة . لم تفلح الزهور والخوص المتناثر فى أن تقاوم فى روحى ذلك الفناء الترابى المخيف الذى أخذنا نخوض فيه . السيدات البدينات اللاتى يحملن ألوانا من الطعام ويتحركن به فوق الموت الأصفر ، يدفعن الغثيان إلى مداه ، كانت تحتمل الحرارة والتراب والموت الأجرد فى صلابة مثيرة للدهشة . محدقة فى صمت ، تكاد تكتم أنفاسها .حدقت أنا الآخر فى الأشباح التى تراقصت على

ضوء الشمعة التى أشعلتها هى ليلاً ، وأخذت تحكى عن قصص « المسلمانى » الذى كانوا يحكون لها عنه وهى طفلة : « المسلمانى » الذى يقفز من نوافذ البيوت ليخطف الأطفال ، أو يذبحهم . سكنت المربعات والمستطيلات التى نمت من الصمت فى الليل أشباح غريبة بيننا .

عندما نامت وسكنت إلى صدرى كنت أحس أن أمامى طرقًا وأسفارًا تحملنى إلى آفاق غريبة وحدى .

(١٥)

الخدم الذين عرفتهم فى الخليج كانوا أغرابًا من سيريلانكا أو الفليبين ، ألوان مختلفة ، كأنهم بشر ركبُّوا من مواد أخرى ، أما « حلمى » فقد كان ابن الخادم الذى اخترعته أمى لكى ينظف الشقة مرتين فى الأسبوع ، فى عهود ما قبل دادة نجية وقبل جحيم هانى قبطان .

« حلمى » مرجعى وملاذى فى هذا العالم الجديد الذى قذفونى إليه . أعرف أن سن الثامنة والتاسعة سن الاكتشاف والدهشة ، لكننى كنت أكتشف الأشياء مرتين ، وأفقدها مرتين ، عمليات تحويل عملات غريبة تدور دائما فى ذهنى . حضور وغياب . لا أعرف ما هو المكان الحقيقى . ولا ما هو الشىء الذى لن أراه بعد ذلك أبدًا . علاقتى مع « حلمى » كانت أول شىء حقيقى أصنعه بنفسى وبشروطى . الاثنين .. والخميس عندما يأتى مع أبيه لتنظيف الشقة كانا اليومين اللذين أعيش من أجلهما طوال الأسبوع . أعد البرامج وأرتب المفاجآت ، وغالبا ما أتمارض حتى لا أذهب الى المدرسة وأمضى النهار كله معه .

خليط فريد من الحب والامتلاك والخوف والرغبة فى المجاهل والمعارف الواسعة والآفاق الجديدة التى تفتحها علاقتى به .

هو فى نفس سنى أو أصغر قليلا . وجوده فى الدنيا ومجيئه مع أبيه كان الشىء الوحيد الذى يجعلنى أرى الأشياء تترابط وتصبح حقيقية . كنت أجعله يفعل أى شىء ويتحمل أى شىء . أبقيه دائما مندهشا من أشيائى وألاعيبى وقصصى الحقيقية والمخترعة التى أنسجها له على هواى .

شئ وحيد كان يملكه ولا أملكه أنا . كان موجودًا طبيعيا ضروريًا ، له مبرر ، بينما أنا زجاجى . أنا بكل ما أملكه فى غرفتى المزدحمة باللعب والأثاث المختبئ فى عمق شقة مدينة نصر المزدحمة بنباتات الظل ، كنت زائدًا على الحاجة ، لست ضروريا ولا مبرر لى ، الشىء الوحيد الذى يشغل ذهنى غير « حلمى » كان التصوير بالكاميرات الغالية الجديدة التى أطلبها من أمى بلا حدود .

إدمان مبكر ، سلوك استحوذ على روحى ومتعة سرية خاصة : أن ألتقط صورًا ثابتة من وراء عدسة ، أمسك باللحظة الوهمية الخاطفة المدهشة . المسألة أننى لم أكن أحب أن يرى أحد صورى ، لا أمى ولا لمياء ، ولا أحد من الزوار القلائل ، لماذا - وأنا لا أحبهم - أجعلهم يقتحمون على لحظاتى الخاصة التى رأيتها وحدى ؟

« حلمى » - فقط - كنت أتركه يقلب فى كل الصور ويفعل بها ما يشاء ويسألنى عنها .. أغلب الصور خالية من الوجوه أو الأشخاص ، كلها لأوراق النباتات أو حديد الشباك ، أو أرجل المقاعد ، أو أدوات المائدة . دهشته بالصور ، وتأمله لها سعادة هائلة لى . أحيانا يخترع لها أسماء ويرى فيها كائنات أو يرتبها ليصنع منها حكاية .

لم يكن يذهب إلى المدرسة لأنه مصاب بالصرع ، تصيبه نوبات متباعدة ويقتضى مصاريف كثيرة يتحملها أبوه من أجل أمل غامض فى الشفاء . للرجل

من أجل ذلك عدد هائل من الأعمال وعالم مشغول واسع من العلاقات والبيوت التى يذهب إليها ، ومعه دائما « حلمى » هو عند بعض الناس أعجوبة أو طفل معجزة . له وجه هادئ جميل ، عينان تشعان ذكاء صامتا وحزنا بعيدًا ، أهله رغم الفقر يعتنون به جدًا ، ويبقونه دائمًا نظيفا ، النوبات ليست شيئا خطيرًا . يضغط بقوة على الحائط خلفه ، ويفرك يديه فى بعضهما البعض بشدة ، ويتصاعد ألم يغير ملامح الوجه الجميل ثم يفقد وعيه ويسقط على الأرض .

عودته من النوبة كانت شيئا جميلاً ، كأنه الصباح يعود من جديد . حياة حلمى حية واسعة مليئة . كأنه يعيش فى قلب خلية نحل أو فى مدينة بناها النمل تحت الأرض . بادلنا أنا وهو حياته بحياتى ، أحب حياته جدًا ، ويومه المزدحم ، أحب – أيضًا – أن يبقى معى طول الوقت يحكى ويتفرج على الصور . عندما أكون أنا مريضًا ويبقى هو معى فى الغرفة كنت أشعر بدفء وضوء غريبين يملآن المكان ، و عندما يذهب كانت الغرفة تعود باردة كأنها قبر من رخام .

لم أعرف أبدًا من دبر المؤامرة الكبرى ضدى ، ولا من بدأها ، الذى أعرفه أنى قاومت وأضربت واعتصمت وامتنعت عن الطعام ، لكى لا تفصل أمى بيننا وتمنع حلمى ووالده من المجئ .

ذبحت أمى ، فى قسوة باردة وبلا مبرر ، أيامى . لم أمسك بعدها كاميرا ، ووضعت الصور فى صندوق أسحبه . دائما ورائى . حرمتنى أمى من العالم الواحد الوحيد الذى أحببته .

(١٦)

نظهر متلازمين أنا وحسين كاظم فى أغلب الندوات الأدبية ، أشعر أن وجودنا معًا يثير أسئلة بلا إجابات ، فلا أحد يعرفنا ، ولا أحد يعرف إلى من ننتمى ولا مع أى الشيوخ نعمل . نشرنا قصائد قليلة جدًا ولسنا بأى مقياس كائنات يلتفت لها . نتخذ لأنفسنا موقعًا استراتيجيا نراقب منه المقدمة والمؤخرة ونختلط بالجمهور العادى الذى جاء بالمصادفة أو لتمضية الوقت . مع هؤلاء يكون الجو أفضل من الاختلاط بالمجموعة المألوفة دائمة الحضور التى تتحرك حول المنصة والمقاعد الأمامية لقضاء مصالح صغيرة أو تصفية حسابات وهمية .

نادرًا ما يقال شىء حقيقى ، عرض للمعارف المكررة ، واستعراض ماهر أو سخيف للنفس . نادرًا ما يقنعنى أحدهم أو يفاجئنى بتفكير خاص أو اهتمام صادق أو اقتناع بما يقوله أو يتحدث عنه . نتبادل أحاديث جانبية متقطعة أو نقول نكتًا قديمة لنسأل أنفسنا بعد فترة : « هى إيه الحكاية! » .

الليالى تدبر نفسها .. فى كل مساء يولد شيطان جديد يتحكم فى الليل ويقوده ، شياطين صغيرة تنتجها حالة الضياع الذى ألقاه فى كل طرقات حياتى . تمر أيام طويلة وليال دون أن أشعر بوميض الوجود الحقيقى أو تعترى جسدى رجفة الحياة .

بعد أن تنتهى الندوة يخرج الجمهور العادى متثاقلاً يحمل خيبة الأمل ، بينما تنشط جماعات الصفوف الأولى لمواصلة مبارزات السيوف الخشبية فى أى مكان .

يدفعنى لكى أظل أتردد على هذه الأماكن جوع حقيقى لأن أعثر على شىء . قصيدة ربما ، أو مفتاح الحياة .. وغالبا ما تنتهى بى الليالى وحيدًا غريبا

على طاولة ممدودة مزدحمة بكلمات كاذبة ، وأحلام داستها أقدام . اندفعت فى البداية أحضر كل الندوات التى أسمع عنها هنا وهناك كأننى أبحث عن أبى أو بعض منه . عرفنى واحد أو اثنان من كبار السن ليسألا عنه . بسؤال عابر وانتهى الأمر . قابلت بعض تلاميذه الذين لا يذكرون له شيئا . الرأى السائد أن الذين سافروا إلى الخليج خونة لا يحق لهم أن يعودوا إلى الساحة . فرصة للتصنيف والحكم والإدانة وممارسة كراهية مكتومة ورغبة دائمة فى ممارسة الجرح والتشريح . الأستاذ الكبير اكتفى بنا نحن الاثنين ، حسين وأنا ، بعد أن فشل فى أن يحصل فى ليلته على مستمعين أكثر أهمية منا . ذهبنا معه ونحن نحسب حساب الكوارث التى يجلبها إسرافه فى الشراب . والصداع الأبدى الذى يصيبنا إذا بدأ الحديث عن نضاله السياسى وعن الثمن الذى دفعه من أجل « القضية » .

على مائدة منعزلة فى محل تسكنه رائحة قديمة استعاد الرجل شبابه وأخذ يصب فى جوفه متسارعا شرابه القوى . اختار مدخلاً جديدًا وأخذ يقول إنه لا يفهم سر انفصال المثقفين ، وعزلتهم عما يتحقق ، عن الإنجاز الذى يتم . أخذ يكرر أن كل شىء نسبى .. الديمقراطية نسبية والعدل نسبى ، وأن المشاركة فى الفعل هى التى تعطى حق النقد أو الاعتراض .

كنا قد سمعنا أنه مرشح لرئاسة تحرير مجلة جديدة . رجع بكرسيه إلى الخلف وقال : أنت مثلا موهوب .. لماذا تكتفى بالفرجة .. لماذا لا تضع نفسك فى قلب عمل ثقافى ؟ لماذا لا تشارك ؟ أم أنك تريد الهرب مثل أبيك !

يبدو أن الشراب القوى الرخيص قد ضخم كلمة الهرب فى رأسى . رأيتها معنى بشعا كريها . لم أرغب فى أن أراها تلتصق بأبى . حاول أبى قدر ما استطاع . هو الهارب ذلك الفأر اللامع ، هارب إلى دهاليز السلطة ومكاتب المسئولين هارب إلى محفظته التافهة وملابسه السابقة التجهيز .

قلت له فى كلام أثقله الغضب والشراب إنه هو الهارب فى كل ما يفعل أو يكتب أو يقول . وإنه لا يرى شيئا ولا يدافع عن شىء ، وإن كان يتصور أن ما يفعله أو يكتبه هو مشاركة فى خدمة ثقافية تقدم للناس فهو واهم ؛ لأن ما يفعله حقيقة هو استرزاق بذئ من مال ناس فى حاجة إلى رغيف ومدرسة نظيفة وأن الديمقراطية النسبية التى يتحدث عنها ليست سوى ستار يختفى وراءه النهابون أمثاله .

فى لحظة اكتشفت أن الأستاذ الكبير جبان ، وأن غضبى الذى انفجر أرعبه ، وأنه مستعد للموافقة معى إلى حد البكاء . لم يبق على المائدة سوى الفتات ككل ليلة ، واستطرد الأستاذ فى تراجعه يستعمل كل المصطلحات القتالية من الساحة حتى المواجهة والصمود .

كوميديا هذه الألفاظ كانت تثير ضحكى أنا وحسين . أراهم جميعا جيوشا من النمل اجتمعوا حول جلد ثعبان فارغ ، الثعبان فى الحقيقة خلع جلده وتركه ، وراح هو إلى مكان آخر . هم مشغولون بالجلد الفارغ الملون . المصيبة الماثلة فوق رأسى دوما أن كلا منهم يعيش حياته وحده . متصورًا أنه كوْن وحده أو جزيرة . عندما يقتنص « لقمة صغيرة » يرفع رايات النصر ويتوقع أن يشارك كل الناس فى الاحتفال .

كان على حسين أن يسرع لكى يندس فى الميكروباص الذاهب إلى إمبابة ، حاسبا حساب رائحة الخمر فى فمه . حاسبا حساب الدخول إلى عرين أبيه الضيق . بعد أن ضمن فى جيبه ثمن السجائر وساعات الصباح .

بقيت وحدى فى الشوارع مع جلد الثعبان الفارغ . مررت على الشحاذين الثلاثة المتكومين مع نفاياتهم فى شوارع باب اللوق الجانبية . أطبق عليهم الليل . أما بقية الناس فقد دخلوا إلى البيوت وأغلقوا أبواب الشقق والنوافذ . يبقى الحال – دوما – على ما هو عليه .

(١٧)

اليوم الذى عقدنا فيه الزواج فى الشهر العقارى حار جدًا . كارين ترتدى « تاييرا » إنجليزيًا فاتحا وبسيطا . رغم الزحام وضيق الغرفة وسخافة الإجراءات ، فقد ساعدنا المحامى الماهر الذى دلنا عليه شوقى عامر . كانت كارين قد سافرت إلى أمها لتأخذ موافقتها وعادت . احتفلت بينى وبين نفسى كأننى ملكت نجوم السماء أنجزت هى فى سرعة وبساطة ، وبتكاليف قليلة ، ترتيب شقة لاظوغلى وإعدادها للحياة . لم تمض أيام حتى صارت مكانًا مختلفًا نظيفًا خارج فوضى العمارة والمكان . لم تكن سهرة الليلة ظريفة ، فقد اجتمع ثلاثة أو أربعة من الأصدقاء حول زجاجات خمرة كثيرة وطعام غريب جلبوه معهم .

أغلب أحاديثهم تدور باللغة العربية ، وأكثر الإشارات والنكت جنسية ولا تترجم . بعد ساعة اشتكت لى كارين من أن الدخان كثير ، وأن أصواتهم العالية تشبه السعال ، وآثرت أن تأخذ صداعها الخفيف إلى غرفتها وتحاول أن تنام .

غيرت هى تفاصيل العمل فى رسالتها « الفنان يعمل » واكتفت بالفنانين والكتاب المصريين حتى تبقى معى فى مصر كل الوقت المتاح . ترتيب الحياة وتخطيطها الذى ناقشناه مئات المرات ، كان يقتضى أن أنهى الدراسة فى الجامعة ، وانتظم فى العمل والكتابة يوميا فى استمرارية مقدسة ، تلم الوقت المشتت والأيام الضائعة ، محاولة لزرع نظام فى أرض وروح تلوثت بداء الفوضى والضياع .

كارين قادرة على خلق إيقاعها الخاص ونظام يومها المشحون دون تزمت ولا جهامة ، ولكن فى صرامة متحضره . حبها لى نهر تحت الصَخْر لا هو مبتذل ولا مصنوع ، حاضر يحيط بى من أول ساعات الإفطار فى الصباح حتى هبوط الليل .

مرت شهور وأنا أصارع بقعا سوداء تولد بين اللحظات ، فتجعل الوقت حائلاً لا طعم له ، يضيع فى التحديق والاجترار .

لم تكن تتحمس لفعل الحب لتمضية الوقت . لا يكون مصدرًا للسعادة إلا إذا تم فى لقاء جسدى ومزاجى متكامل ، تتصاعد فى اتزان وتصل قمتها فى انتشاء كامل مريح . أما أنا فقد كان الجنس معها يبقينى غالبا أسير مشاعر حائرة مرتبكة . نهر حبها يتجدد بفعل الحب .. أرى ذلك واضحا فى وجهها فى الصباح أما أنا فقد كانت شرنقتى القديمة تطبق دوما على أراض جديدة فى روحى وحياتى . لم أعرف كيف أعيشه حرًا منعشا .

الأصدقاء والأشياء الطارئة كانت تخترق اليوم وتتركنى أدور حول خيالات متعلقة بالكتابة أو الشعر دون إنجاز يذكر أو تقدم . بينما أراها إلى جوارى يتنظم عملها يومًا بعد يوم ، وتتوالد الأفكار فى صحة ونماء تراقبنى دون حكم أو إدانة ، يولد عنها بالنسبة لى نوع من الإشفاق والاستغراب الحقيقى . أبحر دون أن أدرى فى بحار وحدتى وضياعى المطلق .

لم أكن رأيت أمى منذ فترة طويلة ، من أيام أزمة وفاة هانى قبطان ، وما صاحبها من فضيحة ، حاولت أمى مع الجميع كتمانها ومنع السبب الحقيقى للوفاة من أن يتسرب إلى الصحف التى تتشمم أخبار الهيروين ومتعاطيه من البسطاء والمشاهير .

بعد الزواج طلبت أن ترانى وتتعرف على كارين أكثر من مرة . لكننى كنت أدفع المواجهة بعيدًا عنى كما أفعل فى أشياء كثيرة . أسمع أن حالتها تزداد سوءا مع الحبوب المهدئة والشراب .

قمنا بالزيارة بعد أن ألحت كارين وقالت إنها ضرورية . يوم تعس مر المذاق . البيت الذى تقيم فيه تحول بسرعة إلى فيللا مهجورة وسط فيللات أخرى مزدهرة منتعشة فى منطقة رشدى .

هذا هو المكان الذى تمنيت دائما أن أراه كوم تراب أو رمادا . فى الصباح المتأخر كانت السيدة العجوز تبذل مجهودًا كبيرًا لكى تبدو متماسكة مفيقة ، دخلنا إليها متوجسين . ارتدت بعض ثيابها الكلاسيكية ، وشدت نفسها على مقعد وحيد يحيطه فراغ بعد أن صففت شعرها ووضعت ماكياجًا ثقيلاً ، جمعت كفيها فى توتر ، وكانت يداها عجوزتين .

بذلت مجهودًا كبيرًا لكى أتم عملية التعرف فى سلاسة ، أخذت هى تتكلم فى إنجليزية متكلفة وتحكى لكارين عنى .. وعن حياتى . يستطيع الإنسان أن يبرر لنفسه كل شىء .

هو قادر على أن يرى فقط ما يحب أن يراه .

أعطت كارين فى إصرار قطعتين من مجوهراتها القديمة ، وراقبتها كما أراقب ممثلاً متوسطًا يؤدى دورًا لا يصلح له .

فى الليل ذهبت أنا وكارين إلى مطعم « سانت باربرا » الضوء أصفر شاحب وعلى صدرى كآبة لا حل لها .

طلبت كارين النبيذ المصرى الذى تحبه . لم أعرف له طعما . أبعدنى النبيذ عنها وجعلنى أسقط وراء الحقيقة فى وحدة مرة .

(١٨)

تركت كارين وحدها فى الشقة لأكثر من أسبوع ، أجمع فى « بركة السبع » شتات نفسى بعد الوفاة المفاجئة للدكتور منير فكار ، انتزعتنى كلمة « تعيش أنت » من فوضى القاهرة وارتباكها وسحبتنى لكى تلقى بى فى مستنقع « بركة السبع »

فى الفراغ الذى خلفه رحيل الرجل الكبير . لم أدرك لحظاته الأخيرة . كشفت الملاءة البيضاء ، حدقت للحظة فى الوجه الصارم البعيد . انطبعت خطوطه الخارجية الحادة على القماش بعد أن أعدت الغطاء . لن يقول لى أبدًا شيئا بعد الآن .

للحزن طعم جديد طازج كأنه مذاق الدم . ولم يكن حولى على الإطلاق من يشاركنى . ضوضاء العزاء وكل الترتيبات تولتها زوجته سكينة وأهلها الذين ملأوا المكان بملابسهم البيضاء النظيفة ، كتيبة تستولى على قلعة سقطت . لم يكن لى فى كل ما يفعلون رأى ولا شأن .

لمياء حضرت مع بعض زبانية زوجها وانصرفت بعد ساعات . من أمى لم أسمع أى خبر . فى ليالى العزاء كان الحضور من أهل الناحية قليلاً . ولم يحضر من أهله الصعايدة أو القاهريين إلا أربعة أو خمسة وظل السرادق منصوبًا شبه خال . يدوى فيه صوت قرآن لا يستمع إليه أحد .

ليالى شتاء ريفى بارد ينفذ إلى العظم . البيت الداوى سكن تماما . حط فى غرفته وفى الأماكن التى كان يجلس فيها فراغ الموت الجديد . أحسنت زوجته سكينة استقبالى فى بيتها ورعايتى دون إزعاج . المرحوم رتب كل شئ منذ فترة قبل موته . كل شئ هنا باسمها . لى أنا ولمياء ودائع نقدية فى بنوك . أوراقه الخاصة لى أن أنظر فيها وأفعل بها ما أريد . هكذا قالت وهى تعطينى مفتاح الغرفة الفارغة التى أعيد ترتيبها وتنظيفها بعد الدفن . جوار السرير حقيبة جلدية قديمة ، مغلقة ومفتاحها صغير ، فيها أوراق وكراريس قديمة كتب عليها « وزارة المعارف العمومية » . ما أحلى خطك يا أبى وما أجمل رائحة الأوراق القديمة .

الليالى والأيام التى أمضيتها هنا صنعت من مادة مختلفة . تحديقى عن قرب فى حقيقة موته وغيابه ، غير طبيعة الوقت والزمن . شىء ما جذبنى وغاص بى إلى قاع سحيق صامت . الضجة كلها انتهت إلى سكون .

تركتنى سكينة أقضى أيامى فى غرفته . وحيدًا صامتًا لا أكاد أفعل شيئا سوى التحديق فى السقف أو من نافذته المفضلة التى تطل على الحقول وأشجار بعيدة .

عرفت من سكينة أنه فى الأيام الأخيرة لم يكن يغادر هذه النافذة إلا لكى يستحم مرات متعددة فى النهار والليل . يغسل جسده مرات ومرات بأنواع مختلفة من الصابون المعطر .

ذهبت إلى المقبرة الجماعية فى التل الترابى الكبير الكائن جنب الحقول . أمضيت وقتا طويلاً معه هناك . عرفت وحدى أن دموعى قد تحجرت وأننى لم أعد قادرًا على البكاء . المقابر هنا أكثر رحمة من مقابر المدينة . لكن رائحة الغياب والفناء واحدة .

النقود ، والنجاح وكل أنواع الطموح تسكن هنا مع هؤلاء الرفاق الذين أدوس على ترابهم الآن وأشم رائحتهم تختلط مع الهواء الجديد . نافذته جميلة حتى فى الليل . تطل على كتلة من الظلام تتراقص فيها قمم الأشجار كأنها رءوس بشر يحاولون العودة إلى الحياة .

ودعت سكينة . عرفت أننى لن أراها أبدا بعد الآن . حملت حقيبته الجلدية القديمة ورجعت إلى القاهرة يتيما .

(١٩)

حضوره صار كاملاً فى حياتى بعد موته . كأننا عشنا العمر معًا ، لم نفترق يوما . لم أكن فى حاجة لأن أقلب فى أوراقه كثيرًا . كنت أعرف أغلبها سوى بضع خطابات مفاجئة قد كتبها لى وللمياء . خطابات حزينة وحيدة فيها رغبة حارقة فى أن نبدأ معًا حياة جديدة . نجتمع كلنا حول أمى نحبها ونغفر لها . « نبدأ من جديد » كلمة مكتوبة ومشطوبة عشرات المرات فى خطابات لم ترسل أبدًا . لم يرد ذكر سنوات الخليج فى أوراقه كأنه محاها أو أسقطها عمدًا. بدايات ومشروعات يوميات يتحدث فى أغلبها عن الندم على هجر الكتابة ، والتصميم على العودة إليها فى انتظام .

صدى كلماته صار يطاردنى فى إيقاع ثابت كأنه دقات القلب . لم أدع أحدًا يطلع على الأوراق ، ولا حتى كارين ، أخفيتها تحت مكتبى أنظر إليها من بعيد وكأننى أقلبها وأقرأ فيها .

حوارى الدائم يتسرب إلى داخلى ، أسئلة عامة لا أجد من أحملها إليه . أسئلة عن وجودى ، عن نقودى الموجودة ، والتى ضاعت ، عن جدوى الطموح ، والهمة ومعنى النجاح .

صارت هذه الحوارات والأسئلة تملأ ساعات تحديقى واجترارى للصور والعبارات التى لا تكتمل .

وجدت فى الحقيبة أيضا بعض الصور القديمة له فى شبابه هالنى الشبه بينى وبينه . خاصة فى الجبهة والشفتين . صرت أرى صورته دون ضوء ولا مرآة ، بقيت صامتًا ثقيلاً طوال المساء والليل . وحاولت كارين أن تخرجنى مما أنا فيه . لكننى أعود إلى حالى القديم . استأنفت طقوسها الليلية ودخلت إلى

الفراش . حملت همى وخرجت إلى الشوارع متأخرًا على غير العادة عندما تكون معى . تركت المكان الوحيد الذى سكنت إليه وكاد يحتوينى ، لم أكن قادرًا على أن أنطق كلمة إنجليزية واحدة أخرى . بدا لى المكان غريبا .

فى الشارع كان سواد فارغ ممدد ينتظرنى . مجردًا من الرغبة غير قادر على المقاومة ، مررت فى الشوارع الجانبية أتفقد الشحاذين الثلاثة وجدتهم فى أماكنهم المعتادة ، حولهم نفس الأقمشة الخلقة وزجاجات البلاستيك الفارغة .

طرق الحياة بدت متساوية كلها تؤدى إلى لا شىء .

فى سوق الخضار المجاورة يرتبون فى الفجر العربات عليها أكوام الفواكه والخضروات الطازجة الجميلة . صافية مكتملة تحت الأضواء . بعد قليل يمزقها البيع والشراء وتفترسها ضروس الماكينة التى لا ترحم . عبرت أكوام الزبالة المحيطة بالسوق واندفعت هاربًا حتى لا أشهد بداية المعمعة .

وصلت إلى ضوء نافذه شوقى عامر لم أصدق أننى رأيت النور اندفعت أقفز درج السلم .

تأخر كثيرًا فى فتح الباب جاء يجر أقدامه فى الشبشب . الشقة خالية إلا منه ، أمسك يدى وراح يزحف صوب غرفته البعيدة قال : تامر ، أخيرًا جئت ، ابق معى أنا متعب جدًا هذا الصباح

(٢٠)

المحبة الصافية التى أحملها لشوقى عامر أندر ما فى حياتى . عاطفة تجعلنى أنتمى إليه دون قرابة أو حسابات أو مخاوف وبلا شروط . لم يكن قدوة أو مثالا . فقط جناحان مفتوحان فى نهاية العالم .

كأننى نشأت هنا معه . كل ما سببته لى نشأتى فى الخليج وطفولتى المرتبكة فى أسرة مدمرة ، أجد عنده هنا قدرة على النظر إليها من مسافة ملائمة . أرى الامتيازات التى أعطيت لى دون عناء . وأرى ما حرمت منه دون سبب . أحس الارتباك القومى والفوضى فى الكلام والأفعال حولى . الكل يتدافع ويكذب ولا يمكن توقع حركتهم التالية . معه وجدت حقائق بسيطة وبدهيات تستحق أن تعاش . أشعر معه بندية واستقلال ، لم يسمح لى أبدًا أن أتكئ عليه أو أذوب فيه . كان يجعلنى أشعر بأننى مستقل ، بأننى واقف على قدمى . كانت هذه أهم عطاياه .

عرفت معه أن الإشفاق على النفس والرثاء لها أسخف النقائص . وأن القدرة على رؤية الآخرين والاهتمام بهم مصدر قوة للنفس ، وتجديد حقيقى للدم الفاسد . ضاعت أيامه كلها بين الاعتقال الطويل الذى لا مبرر له ، وعمل سياسى انتهى إلى لا شىء ، وأصدقاء تسربوا كالماء . ومع ذلك فقد ظلت قامته منتصبة ، وما يؤمن به فى داخله اخضرًا متجددًا ، ترى ذلك فى وجهه ، وفى سخريته التى لا مرارة فيها من تناقضات اليوم وارتباك الواقع . لم يكن يشكو أبدًا .

اليوم طرحته أرضًا نوبة برد شديد ، جلست إلى جوار فراشه بعد أن أعددت له شرابًا ساخنًا وأعطيته قرص أسبرين . لم يكن الصمت معه أبدًا مزعجًا ، بقينا صامتين نراقب ضوء النهار يقتحم الحجرة مع أصوات المدينة التى تستيقظ ، عندما عرف أن أبى قد مات ضمنى إلى صدره فى قوة ونادرًا ما يفعل ، ولم يقل شيئا . أعطانى وأنا أغادره يومها كراسة قديمة جميلة .

أراه جالسا فى شقته – قلعته الأخيرة – يشرب قهوته فى بطء كأنه واحد من الآثار الطيبة التى تجلب الخير والتى تركها القدماء على أرض هذا البلد

المتعب . يدور حوله الحديث ، وتحدث التغيرات والوقائع وهو ثابت واثق من شيء لا أعرفه ، لا تصدمه التغيرات السياسية ولا يندفع إلى تحليلات أو نظريات عرجاء . لكن يضع يده في أغلب الأمور على نقطة ضوء منطقية لم يكن يراها الجميع . هل هي الحتمية التاريخية التي قام عليها فكره وحياته ؟ أم هو العمل السياسي القديم الطويل الذي قام به وسط بسطاء الناس هو الذي جعله يتعامل مع الجوهري ويسقط الحشو والزوائد . وسط كل نماذج اليساريين الكذَبة والمسترزقين ، يبقى شوقي عامر اليسار نظيفا حقيقيا . يبقيه أملاً حتميًا في ضرورة التغيير ، عندما تطبق عليه الخناق جماعات المتسيسين ومحترفي الكلام كان يقطع الحديث ويقوم واقفا يمد يديه أمامه كأنه يستنجد بالناس أو برب العالمين .

للمثقف والفنان عنده دور واحد هو الذي يبرر وجوده . الاعتراض وعدم قبول ما هو قائم ، والبحث الدائم عن إمكانية تغييره . الذين يدورون حوله وحولنا من فنانين وسياسيين كانوا حلقة وطابورًا طويلا من خدم السلطة والباحثين عن مكاسب أو حلول شخصية لحياتهم . لم يكن يهتم كثيرًا بالصور الفردية أو التطورات الشخصية فقد كان يراها حالة عامة وإصابة وبائية أصابت الكل فحولتهم إلى جلد ثعبان فارغ لامع وبراق ولكن بلا وظيفة ولا فاعلية أو تأثير .

رحت أقلّب في اسكتشات وتخطيطات قديمة له بالرصاص والفحم ، لفلاحين عاش بينهم في طفولته ، ووجوه من المعارف والأصدقاء حولنا ، وشخصيات عامة تصنع وجها غريبا للتحول الذي يجري ويدور . في الرسوم عناية فائقة بالتفاصيل وبالتنفيذ وغنى تعبيري مذهل ، تلفها موسيقى وإيقاع بعيد واحد . نداء لحلم قديم ببلد رائع . وواقع متناسق لم يعد موجودا ، لكنه مهم وضروري ، ويجب استحضاره .

النهار يتقدم وأنا أسمع تنفسه المتعب العالى . حسبته راح فى النوم . لما تحركت قال لا تذهب . أحضرت له شرابًا ساخنًا جديدًا . تحامل على نفسه وجلس فى الفراش وطلب أوراقه والإناء الملئ بالأقلام وقال : قد تجعلنى الحمى قادرا على تبين خط يجمع كل هذه الأجزاء المبعثرة . قد أستطيع أن أرى لها معنى أو سياقا .

عندما انخرط فى العمل عادت إلى وجهه بعض الحيوية ، تحت أشعة الشمس الواهنة التى تسللت إلى سريره العالى الوحيد .

(٢١)

وجه أمى الأسطورى الذى أحمله معى ، انطبع فى عينى وروحى وأنا أراها عندما كنت طفلا صغيرا فى الخليج . واقفة هناك تبكى جنب المستنقع ، قمر شاحب ينعكس جنب وجهها فى الماء الساكن . هواء ثقيل ورائحة سمك ونفط وسفن بعيدة لا تتحرك .

أقدم ذكرياتى على الإطلاق . مركبة من مادة كأنها الأحلام ومن حوارات متعددة مع أمى وقت أن كان بيننا حديث . أراه يومًا ماثلاً بعيدًا أحاول جمع تفاصيله ، كأنه قافلة تاهت وتشتت فى صحراء . العائلات المصرية الثلاث التى كنا نعرفها وبعض المعارف وزملاء العمل خرجوا فى يوم عطلة إلى رحلة خلوية فى صحراء تطل على بحر ساكن مخنوق . الرائحة أقوى ما أذكره . سمك ، ونفط ، ورائحة العرق كأنه رائحة نقود جديدة .

قالت لى أمى : هى تذكر جيدًا تلك الرائحة . معهم تلال من الأطعمة والمشروبات وحشد من أولاد لا أعرفهم فى سن متقاربة .

تلك كانت أيام الحريق الذى ظل مشتعلاً بين أمى أبى . هى محبوسة قلقة عصبية مصممة على الرجوع إلى مصر . هو الآخر بعيد عنها مصمم على البقاء . متمسك بمشروع غامض لا يشرك فيه أحدًا . أنا ولمياء تائهان نتعثر وسط غابة سيقانهم . نساء بدينات افترشن الرمل كأنهن غرف مربعة مغلقة . ارتدين ملابس غريبة ، وقطعا من ذهب وأحجار حمراء . يتكلمن بصوت عال ولهن ضحكات بذيئة لا أطيق أن أسمعها حتى الآن . أبى وسط الرجال فى حلقة مستديرة ، عندما ألمحه لا أعرفه ، يتكلم ويضحك بطريقة غريبة . أنا وسط حشد الأولاد والبنات أختنق بغربتى التى لم تفارقنى أبدًا .

الوقت أبدًا لا يتحرك . عشرات الشموس فى كبد السماء . لا يقطع صفرة الكون حولى سوى ذباب يلسع ودموع تنهمر لتخنقنى ثم تجف . عندما يلتفت إلى أحدهم أو إحداهن يصر على أن يحشونى بالطعام أو أن يداعبنى فى غلظة لا أفهم لها مبررًا .

نمت تحت ظل خيمة نصبوها واستيقظت فى نفس الكابوس بحثت عن أمى بينهن . لكنى وجدتها منفردة وحيدة . جلسنا صامتين . هدأ رعبى قليلاً فى ظل صمتها . عندما عدت وفقدتها مرة أخرى ، وضاعت وسط الغرف المربعة المغلقة . انتابنى رعب وكأننى أصارع وحشًا له ألف ذراع . كل ما أعرف ومن أعرف بعيد مستحيل لا يمكننى الوصول إليه .

عندما بدأت الشموس المائة تغرب ويهبط الليل مع نسيم لزج . دبت فى الجميع حركة نشطة يجمعون متاعهم وأولادهم ويتصايحون فى سعادة كاذبة . لمحت أمى بعيدا تقف وحيدة وقد دخلت إلى الماء الذى امتد حولها كأنه مستنقع لا نهائى .

جريت ناحيتها . وجهها مسطح بارد من الضوء الشاحب . وعيناها تائهتان ضائعتان لا محالة ، ألقيت نفسى عليها وبللنا ماء . ما زلت أشم على جسدى رائحته .

حكت لى أمى – وما زلت أذكر – غضب أبى علينا ، وصوته الصارخ بعد أن رجعنا إلى البيت . نمت ليلتها فى حضنها على الأرض ، كان ملمس الموكيت المفروش خشنا ولونه أخضر . كلما تحركت يداى لامست بلولة أحسبها دموعها أو دموعى .

ذكرى مرة أليمة كأنها بئر مفتوحة .

(٢٢)

تسعة أشهر كأنها فترة الحمل ، أنجبت بعدها هواء . اختفت كارين . رحلت وخلفت لى ميراثا ضخما من القصائد المجهضة والأمانى الهشة التى ارتطمت بالجدران . حدث كل شىء فى دورة صغيرة من دورات الزمن التى أحاول أن أفهم كيف يتسرب كرمال من كف عجوز ، تحدث الأحداث صغيرة متتالية ، عميقة أو على السطح ، ثم فجأة يتغير وجه الدنيا ، فإذا بى وحدى معها عجوز شمطاء لا مهرب منها ولا فكاك .

هل بدأت الأمور تتداعى فى الفراش ، أم على مائدة الإفطار ، أم بدأت المأساة وأنا عاطل أحدق فى فراغى الداخلى حيث لا تواصل بل غربة وانحسار . اندفعت كارين تعمل . تملأ اليوم باللقاءات والقراءة وتدوين الملاحظات ، ثم تجلس لكى تكتب حتى وقت متأخر فى الليل ، وأنا أدور فى دوائرى الجهنمية نفسها : المقهى والشوارع ، والأصدقاء . أقف على أعتاب العمل ، ولا أقدم !

أخلف المواعيد والأنظمة التى نضعها . أجد لنفسى دوما عذرًا داخليًا أو خارجيًا لزجًا . أكسو وجهى عندما أضبط متلبسا ، بابتسامة بريئة أو غضب طفولى نفور . مرات تحدثت عن قيمة الوقت . ليلاً تحدثت عن مسافة تولد ومكان لا يمكن منه الرجوع . أمسكت وجهى بين يديها ، وحدقت فىّ برجاء وابتهال . هل كانت تريد أن توقظ شيئًا مستحيلاً . ما أثقل اللحظات الماضية والكلمات عندما نعرف أنها ستظل معلقة فوق رءوسنا إلى الأبد ! كيف لم أسمع ساعتها ما تقول ؟

ليته كان عراكًا أو شجارًا . كان خمودًا باردًا قاسيًا للشىء الحقيقى الذى ولد بيننا بلا ميعاد ، عيناها تعبرانى كشىء ، لا ضوء فيهما يبرق لى . لا تنتظر ، مشغولة . عيناها على ولا ترانى . صارت مثل أى شىء آخر . لا توقظنى عيون البنفسج . أسحب ورائى اللحظات التى كانت . صرنا نهم بالشىء ولا نفعله .

هناك شروخ أو كسور لا تجبر ولا تلتئم أبدا . تظل دائما تجرح الأصابع والروح . حاولت أن أتدارك الأمر . أن أتراجع . أن أعد بأن أكون مفيدًا ، كل هذا كان يزيد الأمر سوءا . تساقط الضوء الرومانتيكى الذى كان يكسو المكان والزمان معها . كما كان سيف الحب باترا ، كذلك نزلت مقصلة الغربة قاطعة لا ترحم . اكتفت هى بمكان صغير فى حجرة النوم تعمل فيه فى صمت وبلا توقف ، تأكل قليلا وهى واقفة فى المطبخ . واكتفيت أنا بسماع شرائط المصحف المرتل أو الموسيقى والتدخين . تركبنى غربة وضيق وأنا أسمع حديثا طويلاً بالإنجليزية على شريط أو فى تليفون . أجد أى سبب يدفعنى للخروج ، عندما أعود أجدها مشغولة بعيدة لا تنتظرنى . خرجت من بين شقوق الساعات عشرات التفاصيل البشعة الصغيرة التى لم تكن موجودة من قبل : فى الخروج

والدخول والطعام والشراب فى طريقة النوم وارتداء الثياب ، تفاصيل من الرأس حتى أطراف الأصابع . أحسبها غالبا على حق ، وعلىّ أنا أن أعتذر فى ضيق وبلا اقتناع .

تحصنت وراء التصرف الصحيح ، لم ترتكب حيالى خطأ ما ، وبذلك تحملت وحدى الذنب والتقصير . لم يعد هناك لى عذر ولا عزاء . عندما قمت من الفراش لكى أدخن سيجارة رجعت فوجدتها قد استدارت ، كانت تبكى . لم يكن الأمر مفاجأة فقد كانت ذابلة مهمومة منذ أسابيع . قالت ووجهها مدفون فى المخدات إنها حاولت وإنها لم تعد تستطيع . قالت فى حياد بعد أن هدأت إن ما سيحدث بيننا معا بعد الآن بغيض ، إن لم نعرف أن نصنع بحياتنا معًا ما نريد ، فلنعرف على الأقل متى ننسحب . حدقت فى سقف الغرفة ، ينعكس عليه ضوء فجر كاذب وتصلنى أجراس خيول السوق البعيدة ، لم أجد فى روحى أى كلام منطقى أرد به .

بعد نوبة غضب عبثية قمت بها ذات صباح كى أمتحن ما بقى من حياتنا ، قالت وهى تضع رأسها بين يديها على مائدة الإفطار : أنت قادر على أن تضيع حياتك ، وأنا لا أملك ذلك ولا أستطيعه . لم أكن أعرف أنك تقف على أرض بعيدة ، لا تطولها يداى ولا حبى . سأفتقد دوما الأمل الذى عرفته معك .

كان فراقا متحضرًا أليما راقبتها وهى تقوم بإجراءاته تتوقف عند أشياء عزيزة للحظة ثم تزيحها دون تردد . أراها عادلة قوية ، واستعذب إحساس الغريق . بدا التداعى قويًا لا أحد يقدر أن يوقفه . من أى مادة صنعت أيامنا الطيبة معًا حتى تحولت هكذا إلى صمت طينى . أحلام الشعر مستحيلة . الحرية والفن آفاق ليست لى . ظهرها نهاية العالم . بذورى فى الأرض ميتة ، تبقى الحياة بعدها خرابة أو أرضًا جرداء . أركب سمكة وأنزلق من على ظهرها وسط المحيط . راحت من حياتى عيون البنفسج .

قالت معزية : معك رأيت العالم فى ضوء لم أكن أعرف أنه موجود . معك سمعت المعنى والصدى الحقيقى للكلمات . اللحظة وحدها مفردة لا تكون سوى حلم ، الحقيقة فى الاستمرار . قالت لى كثيرًا هذه المعانى ، وبصيغ مختلفة . كتبت أوراقًا كثيرة متناثرة تقول فيها إن كل هذا لا يعنى أنها قد توقفت عن حبى . لكننى كنت أكتشف فى ألم وذهول ، وللمرة الأولى ، أن لها مشروعها الخاص .. وأنا لم يعد لى مكان فيه .

تخلصت من أوراق كثيرة ، مزقتها فى ضيق وغضب إلا الورقة الأخيرة التى تركتها لى على المنضدة فى الصالة يوم أن سافرت . لم أمزقها لكننى لا أدرى أين ذهبت . مكتوبة بحروف كبيرة بقلم أخضر . أحفظ ما كتب فيها لكننى لا أجدها فى أى مكان : « وداعًا حصانى . لا داعى لأن تذهب معى إلى المطار . الحصان لا يذهب إلى المطارات » .

(٢٣)

رقصة الديك المذبوح أمام الكهف الذى يبتلع الناس فى « كفر شوق » ظلت هى الصورة التى تسكننى . تشد روحى وعيونى . ويشرد فيها دوما خيالى . قصة أبى ، ومشروع حياته الأدبية الذى لم يتحقق . انتقل الحلم إلى ، مسيطرًا من الأوراق الكثيرة التى وصلتنى ، مشاريع القصائد التى حاول كتابتها ، ولم يكملها أبدًا . كل مرة تتركب لها معان جديدة ، فى محاولة مستديمة – منى ومنه – للقبض على معنى لواقع حياتنا . الجحيم الذى عاشه وأعيشه .

جاء الطوفان فعلاً ، ولم يبق إلا أنا وحدى أسرع الخطو فى الشوارع الجانبية ، وأتعثر فى الشحاذين الثلاثة الرابضين لى دوما جنب الجدران .

ماذا فعل بأبى ذلك الفقر الموجع الذى عاشه فى صباه وشبابه ؟ رحلة البحث عن النقود فى كل الكهوف التى قابلها . النقود التى حرقت روحه وأيامه ثم ضاعت منه . هل كان يهمه حقا أن يترك لى شيئا . وأى شىء ! دائرة جهنمية ندور فيها كقدر محتوم . مع ذلك العناء الروحى الذى ورثته ، لا أعرف أن أعيش كبقية خلق الله . مع الشقة والنقود المودعة فى البنك أدور فى شعور حارق دائم بعدم الانتماء لشىء . وبأن جسدى يفتقد الخطوط الخارجية . أضيع دوما فى الموقف والمكان . كيف يمكن أن أظل أواجه هذا الفراغ الداخلى الذى يشبه الجوع الذى لم أجربه أبدًا .

عندما أرى المؤامرات ومشاريع الحياة الصغيرة التى تحيط بى فى كل مكان . أراها تدور بشكل أو آخر حول النقود أقف ساكنا لا أفهم . كان جنب يدى دائما ما أحتاج من نقود من أمى أو أبى .

كان علىّ فقط أن أطلب . أضيق بها وأكره الطلب . أكتفى بأن أظل يوما أو يومين صامتًا ساكتًا ، ثم تأتى النقود التى لا تشترى لى شيئا مما أريد . وحدى حقا بلا طموح ولا رغبة فى نجاح أو مقاومة .

سادت شقة لاظوغلى حالة بشعة كئيبة بعد سفر كارين ، أصبحت مكانًا مهجورًا – لكننى أعيش فيه . فى ركن منه . الشىء الوحيد الذى ينبض فيه هو تلك الحقيبة الجلدية التى تحوى أوراق أبى . أتنفس هواء متربًا ودخان سجائر راكد أو أخرج . أحيانًا أخط على الورق كلمات لا تحمل سوى الفراغ الذى يسكننى . وأرى الحياة كلها لحظات فاتت .

أرتدى ثيابًا واحدة لا أغيرها . أخلعها لأرتديها هى مرة أخرى . أدافع بها عن نفسى . وأمسك بما تبقى منى . صبرى على الوجود يثير استغرابى ، ولأننى كرهت الغوص فى رخاوة الإشفاق على نفسى والرثاء لها ، صرت كقاتل

محترف ، أتعمد إيذاءها وقطع كل وسائل الاتصال . أدخل أكثر فأكثر إلى شرنقتى التى لا يثيرنى فى داخلها شىء . واستغرق فى نوع من الوعى المؤلم بتفاصيل لا تهم أحدًا . مر بى زمن سائب لا أعرف كيف أحسبه . تتغير الحوادث حولى والفصول . والوعى الحارق المؤلم يتزايد مؤكدًا لى انفصالى وعدم قدرتى على المشاركة ، كأن حياتى انتهت قبل أن تبدأ . كل الضوضاء والعنف حولى والزحام .. أضواء تنير وتنطفئ وأنا جامد كصنم .

الألم الكبير يصنع الشعراء . هل يمكن أن أصبح الآن شاعرًا . الشعراء ينتحرون . العباقرة منهم يموتون مبكرًا . أنا أدب على الأرض وآكل الطعام . لا شعر ولا غياب . حضور – فقط – بلا مذاق . فى الركن الذى يضيق حولى يوما بعد يوم بحثت عن أشياء بديلة غير النقود والطموح والرغبة فى النجاح فلم أجد . الشعر ضوء فى نهاية النفق . لكنه ضوء مستحيل كما صار البنفسج مستحيلاً .

(٢٤)

سفر حسين إلى الخليج الذى يتم بعد أيام كان هو ما أخرجنى من الشرنقة . اختلط على الأمر والزمن كأننى أغيب فى لحظة من لحظات حلم ، أنزل من رصيف الشارع فتقع قدماى فى بئر سحيقة .

عندما سمعت الخبر فكرت فى نفسى أولا وقلت لقد تم الحصار الآن أصبحوا كلهم أعدائى .

دق الباب بعنف . لم أكن فى الأيام الأخيرة أفتح أو أرد على أحد . سحبته إلى ركنى المترب وأشعلت سيجارة . لم أكن ارتاح للاقتحام حتى من حسين

كاظم . أجد صعوبة فى الهبوط المفاجئ من وحدتى التى تتصنع الاكتفاء . فتح النافذة المطلة على القاهرة القديمة ففاجأنى الضوء العفى وطنين الحياة الشرسة . خبط بكوب الشاى على الزجاج المترب إلى جوارى وأعلن الخبر . يسافر بعد أسبوع . التذكرة فى جيبه . العمل فى سوبر ماركت كبير . الأجر تقريبا ما يقبضه أبوه فى سنة .

فارق كبير بين ما نفكر فيه وما يمكن أن نقوله . وقع قلبى فى هوة سحيقة وانتصبت جالسًا فى السرير . فى الفترة الأخيرة كان حسين قد مل من اكتئابى ومزاجى المتقلب . ولم نعد نلتقى إلا نادرًا . كنت أسمع أنه دخل مؤخرًا فى علاقات ودوائر مدمرة تأكل كرامته ولحمه الحى . لكنه ظل دوما عندما نلتقى متمردا على كل شىء و أى شىء . حكاء بارع ، قريب الدموع والضحكات ، وبقيت أعطيه أمانا لا أعطيه لأحد غيره .

فى البداية عندما كان موضوع سفره مطروحًا من الناحية النظرية قلت له كل شىء . تحدثت كثيرًا ، عندما كان الشرح ممكنا عن المصائب التى شكلت حياتى . وعن الهم المقيم الذى أثقل قلبى من جراء الخليج ونقود الخليج . حدثته عن سرطان النفط وما فعله فى عائلتى وفى قدرتى على الرؤية وإحساسى بالناس . قلت له فى ليالى السير الطويل على كورنيش النيل إن هذا طريق مرعب ، وإن من يستطيع أن يهرب من السير فيه فقد فاز بنفسه وبحظ عظيم . من الواضح أن الكلام كله يسقط قبل أن يصل إليه . لأن ضيقه بالفقر وبالحياة مع أبيه كان عظيمًا .

الآن وقد خاض لشهور أهوالا إدارية وعملية ناهيك عن الأهوال المادية فلم يعد من الممكن الحديث عن شىء أو مناقشة أى قضية . الشروط التى سافر بها ونوع العمل وظروفه كانت كما عرفت مجحفة ومهينة ، لكنه لم يعد يستطيع

الصبر يومًا واحدًا واحتمال بخار الغضب والضيق الذى يعيش فيه . فلم يبق سوى الاحتفال بتوديعه . بسهرة مفتوحة فى مقهى « الاستقلال » .

ذهبت يومها إلى المقهى فى الموعد ثقيلاً مهمومًا حزينا عليه وعلى نفسى . كالعادة كانت السهرة حمقاء وزادتها المناسبة التهابًا ودموية . اجتمع خمسة من الشباب غيرنا . ولم يكن أحد يسمع لأحد . كلهم « أسياخ » متشددون لا تستطيع أن تفهم فى النهاية على ماذا يعترضون . ولا إلى أى حد يعتقدون فعلاً فيما يقولون .

بعد عدد من زجاجات البيرة كادوا أن يلتهموا أطراف حسين كاظم . بدا لى هو غريبا هذه الليلة . متماسكا يخفى سعادة داخلية ، وثقة جديدة عليه . كان يدلى بتصريحات عن مشاريع وخطط ، ويستشهد بى لدعمه وتأييده . أكثر الزملاء تشددًا كان هو فى الحقيقة أكثرهم حسدًا لحسين على فرصة السفر . فقد كان فقره أشد وظروفه أصعب .

عندما سكر وأفلتت منه نفسه ، سحبه الجرسون بعنف خارج المقهى ، كان يصيح فينا مهتاجا « ألأنه ليست هناك قبور فى مصر تأخذوننا لنموت فى الصحراء » .

آخر الليل تركنى حسين وقفز فى الميكروباص ولم أشاهده بعد ذلك .

حاشية

حقيبة جلدية جديدة ، صغيرة مغطاة بالتراب ، بها قصاصات ورق كثيرة ، بعضها رسائل قصيرة من كارين . بعضها عليه رسوم بالرصاص غير مفهومة ، أغلبها لأوراق شجر أو صبار . وصور ممزقة لتامر وكارين ، وقطع شمع ، وحبة رمان صغيرة جافة وأشياء أخرى . هذه بعض الأوراق التى كانت فى الحقيبة :

رجفة الجسد

ليته يرتجف

مرة واحدة أخيرة ،

كى أعرف أننى حى .

هزة واحدة من الرأس للقدم .

لا دبيب .

لم يعد جسدى - أبدًا - يرتجف .

حزن صامت ، معقم ، عازل .

حط على أطراف الأعصاب .

قطع عنى كل اتصال .

واقفًا فوق قبر أبى .

جسدى لم يرتجف .

لا دموع ولا ألم .

كنت – فقط – أريد أن أدخل .

أجلس إلى جواره .

هكذا الآن

نبحت مئات من كلاب ميكانيكية .

داخل عربات فاخرة ثابتة .

ليس بداخلها أحد .

رعب الشحاذين الجوعى .

فى قلب قرية سياحية فاخرة

يا أولاد الشوارع اتحدوا .

لم يبق وقت لكى تغطوا عوراتكم .

عيون البنفسج

تحت ضوء نجفة خشبية

رأيت حبى فى وجهها والأصابع .

قالت لى العروق تعال .

سكنت عندك فى بيت .

أشم فيه نفحة الجبل .

يا نفحة الجبل .

صدرك وسادتى الحرير .

فى داخلك مقعدى المريح .

عيونك مقدسة .

ألف جرو حديث الولادة .

يبتسمون فى حضورك

القرآن .. والشعر

يسقط الشاعر منا صريعًا بين إيقاع الشعر العربى القديم الذى يدوى فى روحه ، بين معارفه ومشاعره الحديثة ، وفى ضميره أيضًا الإبداع الذى حققه شعراء العالم . بين فخامة أسطورية ، وحميمية الصورة والتفاصيل . بين المعرفة العلمية الحديثة التى أحالت الكون إلى صراع وحشى داخل نواة الذرة . صريعا يسقط الشاعر ، يصرخ فى أرض غريبة . لا هو يفصح ولا يسمعه أحد .

من يسمع الشعر الآن ؟ لماذا يتوقف أحد للحظة واحدة أمام أجمل أبيات الشعر .

يا سحر القرآن .

كيف تماسكت آياتك !

كيف قادت « قل هو الله أحد » إلى « الله الصمد » أى راحة وسعادة منحتها آياتك لملايين البشر .

أبيات للشاعر على منصور

« من دل أحزانى عليكم

يا فرادى

فى الزحام » .

أبيات للشاعر عماد أبو صالح

يدفعون الأبواب خلفنا

يرفضون – حتى – أن يرموا لنا رائحتنا

من الشرفات .

يصر قمرهم أن يتبعنا

رغم أننا نتخفى منه فى حارات جانبية .

ظهر القرية

بلدى لا تعرفنى
داست حوافر البلدوزر
أشجار أبى القديمة .
تفرس الناس فى وجهى .
قالوا : من ، وابن من ، وبكم ؟
شاهدت فى التليفزيون
مذبحة ومقبرة جماعية
وأطفالا لا يتنفسون .
أحسن ما فى التليفزيون
أنه عابر .
صوره تحدث فى مكان بعيد .

شرنقة

شرنقتى
هشة جدًا . وضعيفة جدًا
لكنها أعجوبة فى إحكام النسيج
شرنقتى ، ولدت بها

لا يسكنها غيرى

لا يدخل إليها أحد .

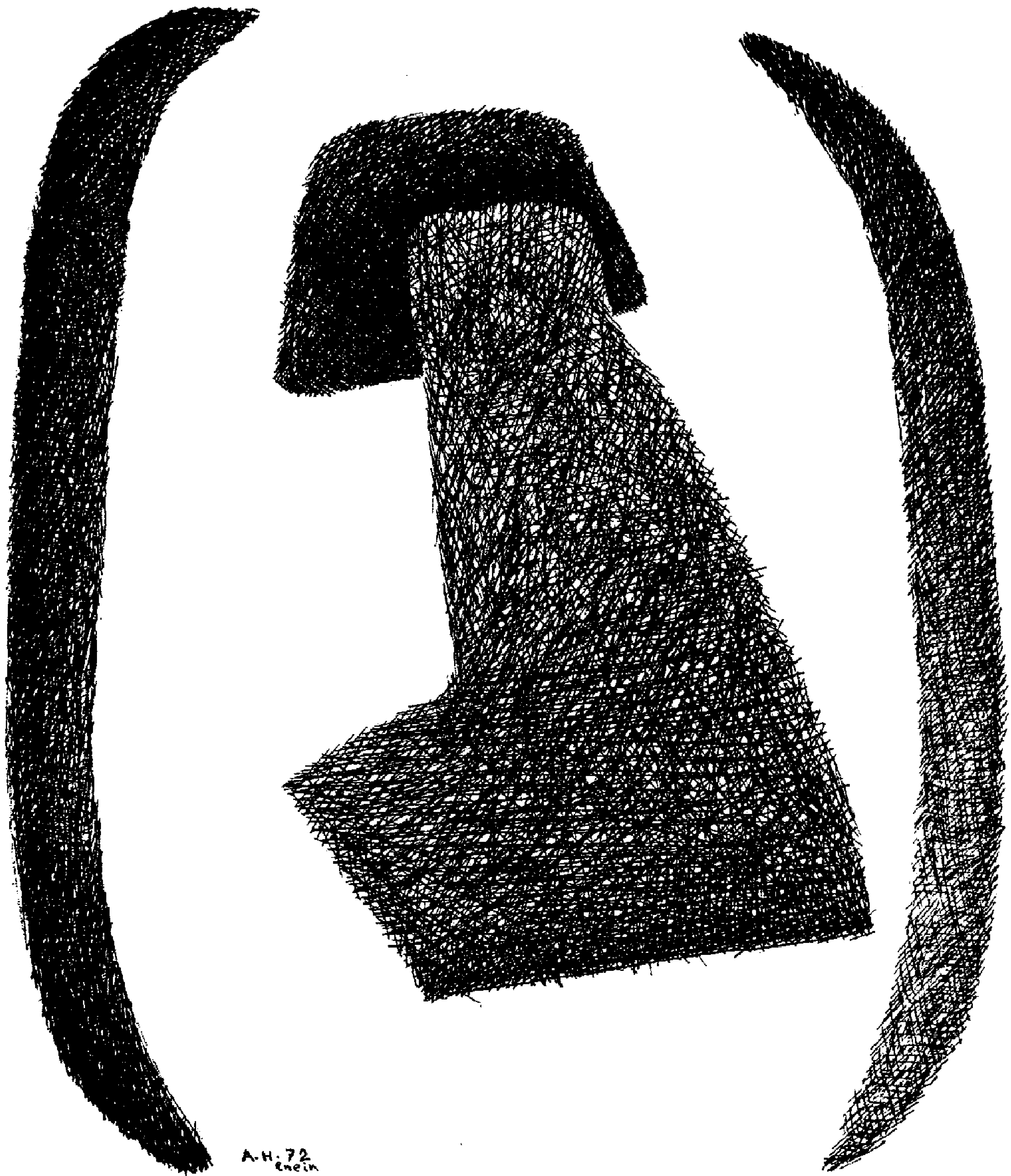
وحيد فيها ومشغول جدًا

حتى أننى لا أعرف

ميعاد الخروج .

تمت

« سبتمبر ١٩٩٩ »


A.H. 72

تكوين (*)

ولد الفقير إلى الله ، علاء الديب ، عام ١٩٣٩ مع الحرب العالمية الثانية . وشاء السميع العليم أن يمتد به العمر ليشهد بعينى رأسه على تليفزيون ال C.N.N طائرات ١١ سبتمبر تخترق نيويورك وواشنطن لكى تعلن بدء طور جديد من المأساة التى نعيشها . كنت أحسب أننى عشت أياما صعبة . الآن أعرف أن القادم أصعب وأفدح . أيامى كانت قدرًا يغلى فوق نار غير مقدسة ، لا تنضج ولا تنطفئ يبقى الغليان مستمرًا ، حارمًا الروح من السكينة أو الاتساق أو التناغم .

عذاب « سيزيف » صاحب الصخرة ، أم سير على صراط ، أم هو مخدر يفضى إلى فوهة بركان . لم يكن الأمر دائما بهذه الفداحة أو الرعب ، لكنها لحظات الوعى الشامل المتكررة ،التى يرى الإنسان نفسه فيها ، يرى الواقع المحيط به ، حادًا جارحًا ويحاول الهرب إلى الأحلام والخيال والأفكار المجنحة لكى تداوى الجروح وتجعل الحياة ممكنة ، يعزى الإنسان نفسه فيقول : هذه حال الدنيا ، وهذا عصر تحولات .. و « خلق الإنسان فى كبدٍ » لكن الفقير لله يفكر أن الإنسان رغم كل شيء يستحق أفضل من هذا ، وعليه أن يبقى مستمرًا فى البحث عما يستحق . أعتقد أن هذا هو جوهر الرحلة أو محيط الدائرة . محاولة لفض اشتباك طال به الأمد بين الذات وصورة الذات .

أحاول باستمرار أن أكتب منذ أكثر من ٤٠ سنة . لم أكتب إلا عن نفسى فى محاولة للفهم أو التفسير ، أو للقبول . لهذا الموضوع الوحيد - الذى هو ذاتى - دائرة أكبر يتحرك فيها هى : « الطبقة المتوسطة » . الطبقة اللغز فى تاريخنا .

(*) مجلة الهلال ٢٠٠٢ .

أعيش اللغز وأدعى معرفته . هذه الطبقة : صاحبة أكبر إنجازات ، وأفظع جرائم . صاحبة الحل والربط ، وقليلة الحيلة ، صاحبة المثل العليا ، والقيم المزيفة ، الخائنة النبيلة ... صانعة العدسات الوحيدة التى أرى بها الواقع والمصير .

* * *

لكل حكاية بداية ، وحكايتى تبدأ من البيت فى المعادى « مازلت أقيم فى البيت الذى ولدت فيه » . المعادى وهى إن كنت لا تعرف « كانت » ضاحية الأرستقراطية ، والإنجليز ، والباشوات ، وآخر المليونيرات اليهود . فيلات شجية ، وشوارع أوروبية . لها جمال استعمارى عريق . حوالى اثنى عشر كيلو متر تفصلها عن القاهرة ، كلها كانت مزارع ومشاتل ورد ونخيل حتى دار السلام « دار الطين سابقا .. وحاليا الصين الشعبية » فى نهاية الأفق يقع مصنع للحرير.. وآخر للعطور.. ! يسكن دار السلام الآن فى أحياء أغلبها عشوائية أكثر من ٣ ملايين نسمة .

تنقسم المعادى فى ذلك الوقت الذى بنى أبى فيه بيته إلى قسمين .. « معادى السرايات » و « معادى البلد » ، السرايات حيث الأشجار والفيلات والعطر الأوروبى الاستعمارى العريق .. أما فى معادى البلد ، فيسكن خدم هؤلاء ، والسوقة « أصحاب السوق حيث لم يكن مسموحا بفتح دكاكين فى السرايات » ، هناك بائعو الخضار ، والمقاهى البلدية ، وصالونات الحلاقة المتواضعة والمكوجية وماسحو الأحذية .

شركة أراضى الدلتا للمعادى شركة إنجليزية ، يديرها ويتولى كل شئونها فى ذلك الوقت كونستابل إنجليزى « يهودى فى الأغلب » مستر ليفى . يشرف على الإدارة المالية ويحصل الفواتير والأقساط . كما يشرف على النظافة ، وعلى سريان ماء النيل فى كل القنوات . هو دولة وحده ، وسلطة وإدارة (لى صديق ظريف يفكر فى كتابة كتاب بعنوان مزايا الاستعمار !) .

تبيع الشركة أراضى للبناء ، بتقسيط مريح ، وبتقديم فرص للبناء وتسهيلات حقيقية . الأمر الذى دفع بالطبقة المتوسطة إلى غزو المعادى . وجئنا نحن لا ننتمى « للسرايات » ولا « للبلد » فى بحرى الضاحية أقامت الطبقة المتوسطة لها عالما ، منفصلاً ومتصلاً ، له قيم وتقاليد ومظاهر مختلفة عن أهل السرايات ، وأبناء البلد ، باع والدى ما له من أرض قليلة وجاء مبكرا . واحدًا من غزاة الطبقة المتوسطة لقلعة السرايات حيث الباشوات والإنجليز .

غرس هذا الواقع مبكرا الوعى بالطبقة ، وأهميتها ، وصراع وتحالف الطبقات . ظل معى هذا المعنى محيرا مثيرا دائما للتفكير .

* * *

تأثير أبى على حياتى تأثير مبالغ فيه . كعقدة أوديب بالنسبة للأمهات . ربما لأننى طفله الأخير بعد ثلاثة من الصبية وبنتين ، مما أتاح لى علاقة قريبة معه وربما لأنه كان شخصية إنسانية مميزة . له حضور هادئ مشع لا ينسى . يحضرنى كثيرًا ومازلت أشتاق إليه . اسمه « حب الله » ، وله من اسمه عندما يكتب وينطق صحيحًا الشىء الكثير ، شاعر وفنان متصوف فى روحه وفى طريقة تناوله للأشياء . مهندس زراعى ، « خريج معهد دمنهور الزراعى العريق » تخصص فى الحدائق والبساتين . وآخر وظيفة شغلها ، « مدير حدائق القاهرة – وزارة الأشغال » يحب عمله ، ويقدسه . « من الأمجاد التى ظل يفخر بها طوال حياته أنه اشترك فى تصميم وتنفيذ ممرات حديقة الحيوان المشغولة « بالزلط الملون » إلى جانب هذا كان شاعرًا هجر الشعر ، له بعض أوراق فيها شعر الصبا ، ضاعت فى كراكيب البيت أو أظنه أخفاها أو أحرقها . قرأت معه على سجادة صلاته القرآن بصوته الخاشع الذى لا ينسى . وحاولنا قراءة التوراة خاصة الأسفار الأولى . كان يحب « الأدب الصغير » و « الأدب الكبير ، للإمام

على كرم الله وجهه والمتنبى وديوان الحماسة . عريض الجبهة ، كريم القسمات - يكسوه حزن نبيل شفاف كأنه ينزل عليه فى سهول - ينقل إلى جليسه محبة وسكينة . يردد عندما ينزل عليه المساء فى بيته الجديد الذى ظل طويلاً تحت الإنشاء أشعارًا يحفظها لعلنى أذكر منها :

كعصفورة فى يد طفل يهينها

فلا الطفل ذو عقل يرق لحالها

ولا الطير مطلوق الجناح فيذهب

وكان - رحمه الله - إذا ضحكك يشرق وجهه وتدمع عيناه .

* * *

الصفة الأساسية التى لا تكتمل صورته بدونها هى صفة « الديمقراطية » كانت تجعله مختلفًا تمامًا عن رجال عصره وآباء جيله . كانوا من حولنا يمارسون جميعًا أنواعًا من الديكتاتورية والبطش بالأولاد والزوجات والبنات إلا هو فقد أدار البيت « ٨ أفراد » بديمقراطية وتحضر حقيقى ، رغم أنه فلاح من قرية أبتوك - بحيرة .

* * *

شقيقى الأكبر هو الأستاذ بدر الديب . وما أدراك من هو بدر الديب ! هو بالنسبة لى شقيق وحبيب ومعلم وقدوة وما شئت من صفات عاطفية وعقلية وأخلاقية كانت ومازالت كما بدأت حية ، وحقيقية ومركبة إن شئت كأنها علاقة مع النفس ، كما كان أبى ديمقراطيا فقد كان بدر هو نموذج « المفكر الحر » حلمه الأوحد وإسهامه الأكبر فى حياتنا « الثقافية » .

كنت أسير معه . وحدنا ، وأنا فى مطلع الصبى ، وخطر لى أن أساله عن معنى كلمة « أيديولوجية » التى كنت أقرأها كثيرًا فى الكتب اليسارية ، ولا أستطيع أن أمسك بمعنى محدد لها . كنت أريد أن أحصل منه على معنى محدد . أو شرح قاموسى ، فقد كنت ومازلت أعتقد أنه يعرف كل شىء ، وأنه قرأ كل شىء . أحالنى بدر ونحن نسير معًا ، نحو محطة القطار ، إلى كتابين أو ثلاثة فى مكتبته . أظن أننى لم أقراها حتى الآن ، ولكننى استوعبت الدرس : أن أبحث أنا عن « تعريفى الخاص » أن أفكر مستقلاً لكى أفهم . من بدر الديب تعلمت الكثير . تعلمت الشعر ، وحفظت معه « نشيد الإنشاد الذى لسليمان » . « الموعظة على الجبل » وقرأت معه بعض أشعار « إليوت » وجلست الى جواره وهو يكتب مقدمته المهمة لديوان « الناس فى بلادى » لصلاح عبد الصبور . كان عضوا فى جماعة للكتاب والفنانين يجتمعون فى بيتنا ، وهناك رأيتهم جميعا وأنا طفل : توفيق حنا ، محمود العالم ، يوسف الشارونى ، مصطفى سويف ، منير عبد الحميد ، يوسف الحطاب ، وبهيج نصار . وأقربهم إلى قلبى كان عباس أحمد رحمه الله ، صاحب أجمل روايات الأدب المصرى الحديث .. « رواية البلد » .

وضعنى بدر على الطريق ، وعلمنى متعة الكتابة ، ومحبة الفلسفة .

* * *

ليس جديدًا أن أصف لك المدارس وكيف كانت ، ولكن مدارس المعادى بالذات كانت تحظى لأسباب طبقية برعاية فائقة فى الدرس والهوايات . وقد جعلتنى البلاغة التى تعلمتها فى البيت « الخطيب الأول » فى المناسبات المدرسية ، ألقى الشعر ، بل وتطور الأمر إلى التمثيل فكنت أقوم بالدور الرئيسى بالفصحى والعامية .. وتخصصت فى أدوار الريحانى « أمشير أفندى

فى الفصل الأول من ٣٠ يوم فى السجن » كما تميزت المدرسة بتلك الإمكانيات كانت تعيش فى جو عات من الصراع الطبقى بين أولاد البلد وأولاد السرايات مع ما يستتبعه هذا من اتهامات « بالمياعة » والشذوذ من ناحية ، وبالفحولة والرجولة من ناحية أخرى ومفاهيم مختلطة متباينة عن الجنس والنساء .

انتهت مواهبى فى فن التمثيل عندما انتقلت إلى مدرسة الإبراهيمية الثانوية . وانتهت فترة الزعامة والتميز عندما دخلت إلى الزحام .

* * *

فى أولى سنواتى فى كلية الحقوق جامعة القاهرة . ارتبطت بتنظيم سرى لم أستمر فيه طويلا فقد اعتبرت مثقفا يحب الجدل والكلام كما أن أملى أنا كان قد خاب فلم يتح لى التنظيم العمل مع عمال أو فلاحين بل كان الأمر يقتصر على لقاءات . ومنشورات مكررة . أهم ما فى هذه التجربة كان لقائى بالسيدة « سعاد » التى كانت مسئولة عن نشاط الحزب فى الكلية ، كانت أول نموذج ألتقى به للمرأة الجديدة ، المناضلة صاحبة الرأى ، والموقف . صنعت السيدة سعاد أو الرفيقة سعاد معنى خاصا للمرأة الحقيقية الجدعة فى حياتى حتى الآن . لا أدرى كثيرًا عن حياتها الخاصة ولا الخلفية التى جاءت منها ، ولكنها لم تكن تحمل زيف المثقفات ولا إدعاء الزعيمات كانت مؤمنة بقضية ، تعيشها فى سلوكها و ملبسها وطريقة تعاملها مع الناس . أين ذهبت الرفيقة سعاد وماذا فعلت بها التقلبات والأيام .. انتهت التجربة بسرعة ، ولم يتم اعتقالى والحمد لله . بقى فى حياتى عطر سعاد الحقيقى ، وكثير من معانى المعارضة ، والصلابة والشرف .

* * *

بعد ذلك بدأت الأسئلة ، تلد أسئلة ، بدلاً من حصولى على إجابات بدأت الأشياء التى أملك فيها يقينى تقل . وبدأت أشعر بمشاكل أخرى لإنتمائى للطبقة المتوسطة . صارت قيم الطبقة تشكل عائقا فى التعبير وعائقا فى الاتصال . يحصل الواحد منا - أبناء الطبقة المتوسطة - على أكثر من حقه . انظر إلى العارقين الكادحين حولك . هل تعرف كم يقبضون فى آخر النهار ؟ وكيف ينامون ، وكيف تنام أنت ! فكر فى المزايا المجانية الجسيمة التى تحصل عليها بجهد قليل أو بلا جهد على الإطلاق . شعور ساذج بالذنب مستمر ولكنه يكفى لكى يثير دائمًا نقاشا نظريا لم يحسم عن دور الطبقة المتوسطة فى بلادنا وماذا أخذت وماذا أعطت ، وعن مصيرها الذى انتهت إليه ، وعن اختلافها عن الطبقة المتوسطة ، ودورها مع الثورة الفرنسية .. فى ضوء هذا الشعور بالذنب الساذج والمستمر : تفكر فى ذلك التقسيم القديم الذى شق البلد نصفين : التعليم المدنى ، والتعليم الدينى تفكر فى العلاقة القديمة مع أوروبا ، والعلاقة الجديدة مع أمريكا ، تفكر فى مشكلة « الذوق المصرى العام » مم تكون وإلى ماذا يصير فى ظل الغزو المضطرب للقيم والأشكال والمعانى الجديدة . رغم كل ما حل بالطبقة المتوسطة من مآس فهى الوحيدة التى تملك القدرة على التواصل وعلى التعبير . لكنها هى نفسها مضطربة متناقضة تعطى إشارات متباينة لا تزيد حياة الناس إلا ارتباكا .

على من يبحث عن هوية لمصر ، أو عن فن لمصر أن يبحث عنه خارج نطاق الطبقة المتوسطة بكل الأشكال التى أخذتها سابقا وحتى الآن .

* * *

يستدعى هذا الحديث فى ذهنى أماكن . أولها البيت .. البيت معنى نفتقده كثيرًا فى حياتنا الآن ، كما التبس معنى الوطن . المكان الثانى هو مكتبة جامعة

القاهرة ، لا أدرى ما جرى للمكان الآن . ولكنه كان مهيبًا ، هادئًا ، خشبى الجدران نظيفا وهناك قرأت أغلب ما أعرف ، من الصباح حتى الغروب الذى ينزل على حدائق الجامعة « والأورمان » حيث الأشجار العريقة والنخيل السلطانى إلى جوارها يقع بوفيه كلية الأداب « ٥٧- ٦٠ » حيث كان يلتقى كل ما فى البلد من أفكار وتيارات سياسية وثقافية وفنية .

المكان الآخر الفريد فى ذلك الوقت كان « شقة الدقى » شقة غالب هلسا ، الصديق والمعلم الأردنى . شقة غالب هى الأخرى مكان فريد دائم الحضور فى ذهنى . شقة صغيرة بسيطة ، تقع فى دور مسحور فى عمارة تطل على ميدان الدقى ، وغالب صديق وأستاذ ، وهو فى نظرى حتى الآن واحد من أهم أصحاب التجارب فى الكتابة الروائية قيمة بعد نجيب محفوظ . تدارست معه كتابة القصة القصيرة ، وأقول تدارست لأن واحدة من أهم خصائصه أنه كان يسمع ويسأل ويعلّم عن نفس الطريق . هو كان يكتب باستمرار وهو يعيش ويأكل وهو يتكلم ، كاتب لا يشغله شىء آخر .

كنا نلتقى كل يوم ، أما كل أسبوع فكان يحدث اجتماع لمجوعة من الأصدقاء الكتاب . تكوّن لى فى هذا الاجتماع ما يمكن أن أسميه « الضمير الأدبى واجتماعى » كانوا مع حفظ المكانة والألقاب : إبراهيم منصور ، محيى الدين محمد ، سليمان فياض ، بهاء طاهر ، عبد المحسن بدر ، أبو المعاطى أبو النجا ، رجاء النقاش ، محمد البساطى ، فاروق شوشة . من كل منهم تعلمت ، ومعهم جميعا تكون الذوق والضمير الأدبى مع إبراهيم منصور خاصة تعلمت الترجمة واشتغلنا لشهور فى ترجمة نص بديع لهيمنجواى هو قصة « التلال كفيلة بيضاء » تعلمت من يومها أن الترجمة رغم الدقة والأمانة .. إبداع جديد .

* * *

محظوظ أنا جدا ، لم تؤهلنى درجات ليسانس الحقوق لأن ألتحق بسلك النيابة : الفارق كما يقال دائما نصف درجة ، لكننى دخلت إلى بلاط صاحبة الجلالة دخلت إلى مجلة صباح الخير ، عندما كان يرأس تحريرها ساحر الشطرنج والرواية فتحى غانم « صديق شقيقى بدر الديب » كنت قد كتبت قصة أو قصتين لم يقرأهما أحد سوى صديقى فاروق الشريف . ولكن الكاتب الكبير عاملنى كأننى شخص مهم . كتبت بابا صغيرا متناثرًا فى صفحات المجلة تحت عنوان « جديد » أقدم فيه كتبا وتجارب فنية آخذها من المجلات الأجنبية وكتبت جرائم من الصعيد فى صورة شعر وقصص قصيرة ، ورسم لى الفنان جمال كامل موضوعًا عن قطار الصعيد ، وموضوعًا عن الألغام فى الصحراء الغربية « رسمه الفنان آدم حنين » دخلت إلى عالم مخصوص من الصحافة يقدر الفن ، ويفهم تقاليد المهنة وسط تيارات الانتهازية والسطحية .. وما هو أنكى .. ولأننى محظوظ ، ومختلف الطموح فقد وجدت مكانًا منعزلاً أكتب فيه تحت عنوان « عصير الكتب » أقترح كتبا للقراءة وأعلق عليها بكلمة أو كلمتين . ومع ذلك فقد طردتنى الحكومة من العمل فى بلاط صاحبة الجلالة مرتين بلا اتهام ولا إدانة ولا حقوق أو تعويض . كانت هزيمة يونيو قد علمتنى بشكل واضح الفرق بين الأنظمة والأوطان وجاءت تجارب الطرد والإعادة ، بلا سبب وبلا اعتذار لكى تعلمنى أن المؤسسات عندنا تفقد معناها وتقاليدها ولا يبقى منها إلا الاسم والشكل الخارجى .

حاولت فى هذه الأثناء أن أبحث عن عمل فى بلاد الخليج . وحصلت على عقد متواضع جدًا ، وعلى تأشيرة دخول مكتوب عليها .. صالح للعمل فى كل الأجواء وبعد شهرين بالتمام والكمال وجدت على مكتبى خطاب استغناء عن خدماتى لمصلحة العمل والمصلحة العامة ، وعدت من مغامرتى الخليجية مدينا

« عرفت فيما بعد أن زميلاً صحفيًا قال لصاحب المال إنني من الشيوعين الخطرين على الأمن » .

وبذلك فشلت أول وآخر محاولاتى لتحقيق بعض الاستقلال المادى أو تكوين « خميرة » مالية فى أى بنك تعفينى من الرحلة الأزلية الأبدية بين أول الشهر وآخره . شيئًا فشيئًا تسرب إلى داخلى يقين بأننا نعمل عند الحكومة ، ولا داعى لادعاءات المثقفين وحرية الأفكار .

حاولت أن أعبر عن هذه التجربة وما أحاط بها فى كتاب مر أسميته « وقفة قبل المنحدر » . ولكن بقيت تجربة الأيام الستين رحلتى فى الغربة كابوسا إنسانيا وفنيا ، ليس لأنها شىء فى ذاته ولكن لأنها فتحت لى مغاليق الظاهرة الرهيبة التى يعيشها ملايين المصريين الباحثين عن الرزق والمال ، متنقلين فى أنحاء العالم العربى بين المدن و البوادى ، متحملين أنواعا غريبة من المعاملة والتعامل مما يصنع ملاحم فى العذاب والتصادم والكذب . وجميعنا يبقى كلمة العرب والعروبة كيانا آخر يفقد معناه ، ويزداد مستقبله غموضًا وارتباكًا . نكذب ولا نرى ماذا صارت تعنى . نكذب ولا نتحدث بصراحة ، نكذب ونقول إن كل شئ على ما يرام . لا أدرى لماذا تظل الكتابة رغم كل هذا الوقت ، صعبة ، وحالة نادرة ؟ كنت أقول لنفسى إنها تحتاج الى طهارة ووضوء ، وأحيانا أقول إنها فى حاجة إلى وقاحة وقسوة . اليقين الوحيد الذى يتأكد يومًا بعد يوما : إن الكتابة .. الكتابة أمر بطبيعته نادر الحدوث . الحبر المسكوب والكلام المرسل ليس كتابة . الكتابة إضافة وخلق شىء جديد . الشىء الذى أقوله فيما يشبه اليقين أنك تستطيع عن طريق « الكتابة – الفن » أن تمسك بأشياء وأفكار أجمل وأكثر خيرًا وقيمة من الأشياء التى يمكن أن تصل إليها عن طريق العلم أو الفلسفة . فى الفن الذى يتحقق عن طريق الكتابة .. حقيقة أكبر وفيه اتصال .

اخترت شكل الرواية القصيرة لكى أحاول الكتابة فيه .

أحب أن أقف عند كلمة « شكل » فهى من الكلمات التى فقدت بالنسبة لى معناها . كان من قبل مهما جدا . وكان يمكن التفكير فيه بشكل مستقل . أو البحث عنه ، وتعمد القصد إليه .

فقد الآن معناه ، وتجردت الكتابة . فعل ، وحالة ، ولون ونغم .لذلك أقول « الكتابة .. الكتابة » . فى كتاب صغير للكاتب « التشيكى الفرنسى العالمى » كونديرا : اسمه « فن الرواية » دراسة قريبة إلى قلبى وعقلى عن تاريخ الشكل الروائى ، ومعنى الجنس الروائى ، وفى قدرة الكاتب الأمريكى هنرى ميلر ، الذى يوغل فى وصف الجنس ويستعمل الألفاظ الصريحة لأعضاء الجنس بلاغة عالية وقدرة على تخليص الكتابة من ملايين المخاوف والمحاذير . وفى كتابة عبقرى السينما السويدى أنجمار برجمان للروايات وسيناريوهات أفلامه التى تعتبر أعمالا أدبية قدرة الاقتصاد والدقة تبلغ حد الإعجاز . نعم الكتابة .. الكتابة صعبة ونادرة . لو سألتنى ماذا تريد من الكتابة الآن لقلت لك : أريد أن أمسك بلون السماء الزرقاء . أن أنقل تقلب السحاب الأبيض فيها . سابحا فى الزرقة والامتداد أن أكتب ظل أوراق الشجر على الجدران يرسمها ضوء قمر . أقول :أما قرأت سورة الرحمن !

*　　*　　*

إذا كنت تعرف أن الفلسفة ثلاثة علوم : علم الوجود ، وعلم المعرفة ، وعلم الأخلاق ، فلابد أنك تعرف أن فلسفة الوجود أدخل إلى الدين ، وأن فلسفة المعرفة صارت إلى العلم ، ويبقى لنا علم الأخلاق : مميزًا محيرًا ومتغيرًا . وملغزًا مثل الإنسان . كأنه الهواء موجود فى أدق تصرف وأصغر إشارة . ومن أصيب

مثلى بداء المراقبة ومحاسبة النفس فإنه يجد نفسه غارقًا صباح مساء فيه وفى مشاكله . إذا كانت الأيديولوجيات قد سقطت جميعا . وسيطرت « البرجماتية » الفلسفة الوحيدة المعتمدة فى أمريكا " على العالم كله ، وصنعت لها من الإرهاب والتطرف عدوًا تحاربه . فهل سقطت أيضا كل المعانى المطلقة . هل سقط العدل والخير والحق والجمال ؟

فى رحاب فلسفة الأخلاق ، تاريخها وتطورها ، أجد السلوى والملاذ .

وأخيرًا .. اسمح لى أن أقول إن كل ما أريده فى النهاية أن أكون رجلاً صالحًا بجد ، وأن أشن حربى الخاصة التى لا هوادة فيها ضد :

الكذب والنفاق أبشع خصائص الطبقة المتوسطة .

فهرس

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

رقم الإيداع ١٦٧٧٦ / ٢٠٠٢



فى الثلاث روايات الأول تسيطر على الأفق كله فاجعتان لم تفلح مباهج الدنيا كلها فى أن تجعلنى أفارقهما أو تفارقانى للحظة واحدة ؛ الهزيمة العربية الكبرى فى ١٩٦٧، واندحار الاشتراكية فى الداخل والخارج، وما مثله هذا من دمار فى قيم العمل والعدل و الكرامة الإنسانية .و الثلاث روايات التالية تسيطر عليها تجربة الذهب الأسود - النفط - الذى دخلت أمواله إلى حياتنا المصرية فى وقت حرج ففعلت بها الأفاعيل.

فأنت أمام ست محاولات لكتابة ست لحظات روائية تحاول إلقاء بعض الضوء على تجربة إنسانية. ولو كان الضوء قليلا أو شاحبا، فذلك يرجع إلى أن تجربة الكاتب نفسها محاصرة... محاصرة ككل الوطن .

علاء الديب





